

رَحْلَةُ فَخْرِ اللَّهِ الصَّائِغِ الْحَلِيِّ

إلى بادية الشام وصحارى العراق
والعجم والجزيرة العربية



تحقيق
الدكتور يوسف شمس الدين





دمشق — أوتوستراد المزة

هاتف

٢١٣٨٢١ — ٢٤٣٩٥١ — ٢٤٤١٢٦

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص. ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

رَحِمَهُ اللهُ الصَّالِحِ الْخَلِيِّ
إِلَى بَادِيَةِ الشَّامِ وَصَحَارَى الْعِرَاقِ
وَالْعَجَمِ وَالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى ١٩٩١

رَحْلَةُ فَخْرِ اللَّهِ الصَّائِغِ الْجَلِيِّ

إلى بادية الشام وصحارى العراق
والعجم والجزيرة العربية

تحقيق

الدكتور يوسف شمس محمد

مدير أبحاث فخري

في المركز القومي للدراسات والبحوث - باريس

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

مقدمة المحقق

رحلة فتح الله الصايغ إلى البادية

إن المؤلفات عن البادية وقبائلها وأحوالها وتقاليدها وعاداتها تكاد لا تحصى. وقد اهتم بهذا الموضوع الشيق الكثير من الباحثين العرب قديماً وحديثاً^(١)، وقام عدد من المستشرقين بدراسات ميدانية من أشهرهم بُورْكْهَارْت وموسيل وجوسان. ولكننا إذا رجعنا إلى فهارس الكتب التي جاء فيها وصف لحياة البادية نكاد لا نجد ذكراً لرحلة قام بها شاب سوري يدعى فتح الله الصايغ^(٢)، ولد بحلب، على ما يظهر سنة ١٧٩٠، وطالت سياحته عدة سنوات، من الثامن عشر من شهر شباط سنة ١٨١٠ إلى صيف سنة ١٨١٤، تجول خلالها في بادية الشام وصحارى العراق والعجم وتجاوزها، على ما يذكر، إلى حدود إيران الشرقية حيث قابل الأمير سعد البخاري رئيس قبائل عرب الهند، ثم قطع الحماة وزار الدّرعيّة، عاصمة الوهابيين يومئذ.

(١) من الكتب المعاصرين نذكر: روكس بن زائد العُزَيْرِي، قاموس العادات واللهجات والأوباد الأردنية، ٣ أجزاء، عمان سنة ١٩٧٣ وما بعدها؛ معلمة التراث الأردني ٥ أجزاء، عمان، سنة ١٩٨١ وما بعدها؛ حمد الجاسر، معجم القبائل المملكة العربية السعودية، جزءان، الرياض، ١٩٨١؛ أحمد وصفي زكريّا، عشائر الشام، جزءان، دمشق، ١٩٤٧. عمر كحّالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، خمسة أجزاء. الغزالي، عشائر العراق.

(٢) نكتب الصايغ، كما جاء في مذكرات المؤلف.

وتحدث الصايغ في مذكراته عن العادات والأعراف البدوية ، وعن القبائل التي اتصل بها ، وذكر أسماء شيوخها وعدد مقاتليها ، وتكلم عن الوهابيين وحروبهم وغزواتهم على عرب الشام وقائعهم مع الدُرَيْمِيِّ بن شُعْلان ، شيخ عرب الرُّوْلَةِ ، ووصف الدُرَيْمِيَّةَ ، كما وصف عدداً من البلدان والقرى السورية ، مثل مَعْرَةَ الثُّعْمان وحماة وحمص والقَرْيَتَيْنِ وصَدَد ، وأتى على ذكر بعض الأماكن الأثرية ، مثل رَسْتَن وتَدْمُر وقصر الحير الغربي .

كان فتح الله الصايغ شاباً لم يتجاوز العقد الثاني من عمره حينما اتصل به رجل من الافرنج ، في متوسط العمر ، يُدعى تيودور لاسكاريس ، وطلب منه أن يعلمه اللغة العربية . وكان ذلك بمدينة حلب سنة ١٨٠٩ ، وهي وقتئذٍ مركز تجاري هام ، ومحط قوافل الهند والأناضول . ومع أن فتح الله المذكور كان يميل إلى التجارة ، ويجهل مهنة التعليم ، فإنه قَبِلَ هذه المهمة ، لأنه كان صفر اليدين ، على أثر صفقة تجارية خاسرة في جزيرة قبرص ، فرضي بالشروط السخية التي عرضها عليه لاسكاريس ، لاسيما بعد أن عرف أن المذكور من كبار الافرنج وأشرفهم ، من أسرة بيزنطية عريقة أشتهر منها عدد من الملوك والعلماء . ولكنه على الرغم من كرم أرومته ، كان يلبس الألبسة الشرقية الشعبية الزرية ، ويأكل في الأسواق .

وبعد مضي ستة أشهر تعلم خلالها لاسكاريس قليلاً من العربية قراءة وكتابة ، عرض على فتح الله أن يقوموا برحلة في أنحاء البلاد السورية ، سعيّاً وراء أرباح التجارة ، وأعطاه الأموال لشراء البضائع التي تصلح لأهل البادية ، وشرط عليه أن يطيعه طاعة عمياء ، ولا يخالفه في شيء . فقبل الصايغ هذه الشروط وأخذ يعد أهبطه للسفر .

غادر لاسكاريس وترجمانه حَلب إلى سَرْمين ، يوم الخميس الواقع في ١٨ شباط سنة ١٨١٠ ، على طريق القوافل ، ثم قصداً مَعْرَةَ الثُّعْمان ، ومنها إلى خان شيخون ، ثم إلى حماة حيث أمر الحاكم ، سليم العظم ، بسجنهما بتهمة التجسس . ولكن البطيل انقذهما سريعاً من الزنزانة ، فتابعا سفرهما إلى رَسْتَن فحمص . وطابت لهما الإقامة في هذه المدينة فبقيا فيها إلى نهاية الشتاء .

وكان الصايغ على جَهْل بغايات معلمه السياسية ، ويتساءل ما هو مصير

البضائع التي معها ، لأن لاسكاريس كان يمنعه من عرضها في الأسواق . ثم اتضح له شيئاً فشيئاً أن معلمه يرمي إلى هدف سياسي لا علاقة له بالتجارة ، وهو التعرف بالبدو والاطلاع على أحوالهم . ولذا طلب لاسكاريس من رفيقه أن يُسجّل يومياً ، على ورقة ، جميع ما وقع ويقع لهما من حوادث ، منذ مغادرتهما حلب ، وهو بدوره يدوّن ملاحظاته في دفتر باللغة الفرنسية ، مستعيناً بمذكرات الصائغ . ويعلمنا فتح الله أنه ظل يكتب يومياته مدة ست سنوات ، إلى ما بعد وفاة لاسكاريس في القاهرة .

وتابعا رحلتها فذهبا إلى صدّد ، قرية جميع سكانها من السُريان النصارى ، وعرضاً بضاعتها على الناس ليظنوا أن غايتها من هذه الزيارة البيع والشراء ، ثم توجهتا إلى القريتين ، ومنها إلى تدمر ، بصحبة رفيق من البدو ، تعهد بإيصالهما بالسلامة . ثم ساعدتهما الظروف فتعرفا بالأمير ناصر ، ابن الأمير مهنا الفاضل المعروف بالملجّم ، شيخ الحِسنة ، فحلّا ضيوفاً على هذه القبيلة .

وبعد أن أقاما مدة عند عرب الملجّم تبين لاسكاريس ، أو الشيخ إبراهيم كما تسمى عند البدو ، أن الأمير مهنا وبالأولى ابنه ناصر يتبع سياسة خرقاء ترمي إلى فرض سيطرته على القبائل بواسطة العثمانيين ، مما تأباه الفردية البدوية ولا يتماشى مع الأهداف التي يتوخاها عامل نابوليون . واتضح له ، بعد أن درس أحوال البادية ، أن الشيخ الذي يتمكن بواسطته من تحقيق مآربه هو الدُرَيْعي بن شُعْلان ، أمير عرب الرولة . فطلب عندئذ من رفيقه — الذي تسمى عبد الله الخطيب — أن يبذل جهده للوصول إليه ، على الرغم من المشقات وبعد المسافة ، لأنه كان ضارباً خيامه في الجزيرة ، قرب مدينة دير الزور .

وكان لا بُدّ للشيخ إبراهيم من اطلاع ترجمانه على الغرض الحقيقي من هذه الرحلة : فأعلمه عندئذ أن الغاية منها الكشف عن أحوال البدو ، والتعرف بكبار أمرائهم ، وكسب صداقتهم ، والسعي في جمع كلمتهم وأبعادهم عن العثمانيين ، والعمل على معرفة الصحارى ومسالكها ومياهها ، وأن الهدف السياسي هو توحيد صفوف البدو ليكونوا عوناً لجيش كبير سيمر بالشرق ويقطع الصحراء قاصداً

المهند ، وأن الدريعي بن شعلان هو الشيخ الكبير الذي يمكن الاعتماد عليه لتحقيق هذه المآرب .

وتمكنت الصحبة بين لاسكاريس والدريعي بن شعلان ، الواحد يدبر الأمور ، والآخر يعمل على اتحاد القبائل . وأما الصايغ أو عبد الله الخطيب فكان يكتب الرسائل ويكسب القلوب بطيب لسانه . وتمكن بدائه من ربط بعض كبار الشيوخ برباط عظيم ، على أن يكونوا يداً واحدة مع ابن شعلان في كل الأمور ، وعوناً له في خلافه مع العثمانيين والوهابيين . وتم التوقيع على وثيقة الاتحاد في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨١١ م / ١٢٢٦ هـ .

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتحدث عن جميع تحركات الصايغ مع عرب الرولة ، وسعيه الحثيث للحصول على موافقة أكبر عدد من القبائل على هذا الحلف ، فنراه يقطع الفرات بصحبة الدريعي ويجتمع رئيس الجلف مع شيخ عرب البصرة ، ثم ينزل على عين الوساد ، قرب نهر الخابور ، ثم يرحل إلى جبل سنجر ، وبعد إقامة قصيرة في تلك الربوع يعود إلى الجزيرة ، ومنها إلى غوطة الشام ويصطدم بغزو وهابي ما بين القريتين وتدمر .

ويتحدث الصايغ أيضاً عن لقاء لاسكاريس بسائح بريطاني يدعى أيضاً الشيخ إبراهيم — وهو الرحالة السويسري الإنجليزي بوركهارت الذي اكتشف خرائب بتراس — وعن اجتماعه مع اللادي آستانوب ، بنت أخت رئيس وزراء إنكلترا ، ويظن أنها موفدة لتعطيل أعمال جاسوس نابليون . ويتابع وصفه لتحركات الدريعي فنجد قرب حماة يحارب مع الأروام ، أي العثمانيين ، جيشاً وهابياً كبيراً ، يقوده عبد الله الهذال ، كخيخا ابن سعود ، أي المشير الأول ، وأبو نقطة . ويستمر القتال أكثر من عشرين يوماً ، وينتهي بانتصار الدريعي واندحار القوات الوهابية .

ويصف الصايغ هذه المعارك وصفاً شيقاً ، ويتكلم عن عادات البدو عندما يطلبون النجدة من القبائل ، وعن النخوة والعطفة والقتال على ظهور الجمال ، وغير ذلك من أمور الحياة القبلية التي لا يجدها القارئ إلا عند الخبراء بأحوال البادية ، وما أقل العارفين منهم ! ولا نعلم متى كانت معركة حماة ، لأن

صاحبنا يكتفي بسرد الحوادث دون أن يذكر تاريخها. ولكن يظهر من سياق الحديث أن الغزو الوهابي كان خلال صيف سنة ١٨١٣ م.

وبعد أن ربح الدرعي معركة حماة قطع الفرات، واجتاز الجزيرة، ودخل حدود العجم، ثم تابع رحيله مع لاسكاريس والصايغ وبعض أمراء البادية إلى بلاد كَرْمان، ووصل إلى نهر خُراسان وأرض الهندوان، وذلك بعد مسير اثنتين وأربعين مرحلة كبيرة، وحل أخيراً على الأمير سعد البخاري، وتم الاتفاق معه. ودخل أيضاً بالحلف الأمير الرَّدْني، شيخ عرب العجم، وهو رجل من الرافضة لا يأكل مع أهل السنة.

وهكذا توصل الدرعي إلى تحقيق مآرب لاسكاريس، فتم على يده اتحاد معظم القبائل العربية من بر الشام إلى حدود الهند، وتحالفت معه ضد الأروام أي الأتراك، واتفقت على مساعدة الجيش الذي سيمر بالشرق عبْر الصحارى، وينوي السيطرة على طريق الهند.

ويذكر الصايغ أسماء القبائل التي دخلت في هذا الحلف، وأسماء شيوخها وعدد المقاتلين، ونجد جدولاً لها في آخر المذكرات، فكان المجموع خمساً وأربعين قبيلة تعد نحو ألف ألف نفس.

وعاد الدرعي إلى الجزيرة بعد أن تحالف مع عرب العجم، ثم سار مع أصحابه قاصداً برّ الشام، إذ أثّنته رسالة من عبد الله بن سعود يطلب حضوره إلى الدرعية. فتشاور القوم فيما بينهم وتم قرارهم على تلبية دعوة الإمام الوهابي، وعلى إرسال وفد يضم الدرعي وبعض ذوي قرابته والصايغ وعدداً من العبيد. أما لاسكاريس فإنه رأى من الأنسب أن يبقى مع سائر أفراد القبيلة.

ويتابع الصايغ وصف رحلته فيتحدث عن وصول الوفد إلى الدرعية ونزوله في ضيافة ابن سعود الذي كان حاقداً على الدرعي، فاستقبله استقبالاً سيئاً، ثم أمر بالحوطة عليه وعلى أعضاء الوفد. وبعد أخذ ورد تم الصلح بين الطرفين، على أن يكون الدرعي «سلطان الشمال» وابن سعود «سلطان القبلة»، وعلى أن «يكونا روحين في جسد واحد»، كما جاء في مذكرات الصايغ. فتمكن عندئذ

صاحب الرحلة من التنزه في الدرعية ، فوصفها و وصف أسواقها ونساءها ، وأتى أيضاً على وصف العاهل الوهابي ومجلسه وأحواله ، ويعد كلامه من أقدم ما قيل عن عاصمة الوهابيين . وقد ذكرت مجلة العرب^(٣) تفاصيل رحلة الصايغ إلى الدرعية ، بناء على الترجمة التي قام بها المستشرق فريزل ، من الفرنسية إلى العربية ، وهي مشبعة بالأخطاء ، كما بيناه في مقال نشرته أيضاً مجلة العرب^(٤) ، وأوضحناه أيضاً في الملحق المثبت في نهاية هذا الكتاب .

وقبل أن يغادر الوفد الدرعية وصل العلم إلى ابن سعود أن قوات محمد علي خرجت من ينبع وتوجهت إلى المدينة المنورة لاحتلالها ، فلم يأبه لهذا الخبر .

أما لاسكاريس ، فقد سرَّ جداً بنتائج رحلة الصايغ إلى الدرعية ، إذ أصبح طريق الهند ممهداً أمام جيوش نابوليون ، ورأى أن التوفيق كان حليفه ، وأن بوسعه أن يعود إلى فرنسا لاطلاع الإمبراطور على نجاح مهمته . فذهب مع فتح الله من حلب إلى اسلامبول (أي استنبول) ، وهناك علم بانكسار القوات الفرنسية في روسيا . ثم تابعت الأخبار المشؤومة وهوى عرش نابوليون ، فسافر لاسكاريس إلى أزمير لمقابلة الجنرالين سافاري ولألمان ، وبناء على شورهما طلب الحماية البريطانية ليأمن على حياته من شر العثمانيين ، وذهب بمفرده إلى القاهرة حيث وافاه أجله . فوضع القنصل البريطاني سألط يده على مخططات العامل الفرنسي ، بما فيها مذكراته وأوراقه .

وعلم الصايغ بوفاة أبيه الروحي أثناء إقامته مع والدته باللاذقية . ثم أتته رسالة من دُروفيتي ، قنصل فرنسا في الاسكندرية ، يطلب حضوره ، فلبى الطلب . وحاول عبثاً أن يحصل على أوراق معلمه ، فلم ينل من القنصل البريطاني إلا الإهانة والطرده .

مذكرات الصايغ

وهكذا انتهت رحلة الصايغ التي طال ، على زعمه ، سبع سنوات . وقد

(٣) مجلة العرب ، ج ٣ ، ٤ ، ١٩ ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ ، ص ١٥٢ — ١٦٨ .

(٤) مجلة العرب ، ج ٩ ، ١٠ ، ١٩ ، ١٤٠٥ / ١٩٨٤ — ١٩٨٥ ، ص ٦٩٧ — ٧٠٦ .

عرضناها عرضاً سريعاً لا يعطي إلا فكرة خاطفة وغير كاملة عن محتوياتها ، ولو أردنا أن نذكر جميع ما جاء فيها من حوادث وأخبار ، وخاصة عن الوهابيين وعادات العرب لطال بنا المقام . وهي في الوقت نفسه وثيقة هامة عن أحوال بادية الشام وعن بعض القرى والبلدان السورية في أوائل القرن التاسع عشر .

ومن الجدير بالذكر أن مذكرات الصايغ التي تنشر اليوم لأول مرة باللغة العربية ، عرفها الغرب منذ أكثر من مئة وخمسين سنة ، وأشاد بها عدد من كبار أصحاب الرحلات (منهم اللادي بلانت) والمستشرقين ، إذ تُرجمت إلى الفرنسية على يد الشاعر الرومانتيكي لامرتين ، وصَدَرَتْ في الجزء الرابع من كتابه « رحلة إلى الشرق » (الطبعة الأولى ، سنة ١٨٣٥) . أما القارئ العربي فما زال يجهلها ، بل يجهلها أيضاً أصحاب كتب التراجم ، منهم الزركلي في أعلامه إذ يقول عن فتح الله الصايغ : كان ترجماناً للقنصلية الفرنسية ، ورحل من حلب في أواخر سنة ١٢٢٥ (١٨١٠) إلى بادية الشام مع المسمى تيودور لاسكاريس ، فصنف بعد الرحلة « كتاب المقترب في حوادث الحضر والعرب » (انتهى) . والحقيقة أن الصايغ كتب أولاً مذكراته التي اشتراها لامرتين سنة ١٨٣٢ ، وصنف بعد عشر سنوات الكتاب الذي ذكره الزركلي ، وهو ضعيف المادة ، قليل الفائدة ، بخلاف المذكرات التي نالت إعجاب لامرتين ، حتى أنه حرص على أن تكافئ الحكومة الفرنسية مؤلفها « لأجل الخدمات التي قدمها لعلم الجغرافيا وأخلاق الأمم » ، فعينته وكيلاً في قنصليتها بحلب سنة ١٨٤٧ . ونجهل أيضاً تاريخ وفاته ، ويعلمنا عمر كحالة ، في معجم المؤلفين ، أن الصايغ كان حياً سنة ١٢٢٥ أي سنة ١٨١٠ م . وكان عمره يومئذ عشرين سنة ! .

ولا يغفل لامرتين عن ذكر الأسباب التي جعلته يهتم بمذكرات السائح السوري ، ويخبرنا أيضاً كيف تم له الحصول عليها فيقول : كنت نازلاً في وسط الصحراء التي تمتد من طبريا إلى الناصرة ، وكنا نتحدث عن القبائل التي التقينا بها خلال ذلك اليوم . فأعربت لدليلي عن رغبتني في التعرف ببعض منها والعيش معها رداً من الزمن ، وتتبع خطواتها من دمشق إلى شواطئ الفرات لكشف اللثام عن حضارة الصحراء ، ولكن لم يبق لدينا الوقت الكافي لمثل هذه المغامرة

التي لم يَجْزُؤْ أحد من المسافرين على القيام بها، إلا رجل واحد يدعى لاسكاريس، ولكنه مات وضاعت معه المعلومات التي جمعها عن أهل البادية خلال عشر سنوات.

ثم تحدث لامرتين عن لاسكاريس، وكيف التقى بالجنرال بونابارت في جزيرة مالطة، عند حملته على مصر سنة ١٧٩٨، وكيف تبعه إلى القاهرة إلى أن عاد إلى فرنسا مع بقايا الجيش الفرنسي. وبعد أن خرقت إنجلترا معاهدة أميان، سنة ١٨٠٣، رأى نابليون أنه لا يستطيع أن يضرب عدوه في قعر جزيرته، بسبب تفوق الأسطول البريطاني، فحاول أن يقضي على اقتصادياته، واعتقد أنه يصيبه في الصميم إذا تمكن من أن يقطع عليه طريق الهند، كما بيناه مفصلاً في المقدمة الفرنسية^(٤). ولأجل الوصول إلى هذا الهدف، لا بُدَّ له أولاً من توطيد العلاقات مع أمراء البادية ومشايخها، فأرسل لاسكاريس لهذه المهمة. ونجحت مساعي جاسوس نابليون، ولكن حين أراد العودة إلى فرنسا، علم بسقوط الامبراطور الفرنسي، فذهب إلى القاهرة مغموماً يائساً، حيث وافاه أجله. فوضع القنصل البريطاني يده على مخططاته، وخاصة على مذكراته وأوراقه، ولا يعلم أحد ما كان مصيرها. وختم لامرتين حديثه معرباً عن أسفه على ضياع هذه الوثائق الهامة. فقال له دليله: لعلها لم تفقد تماماً، لأنه على معرفة جيدة بالشاب الذي كان يرافق لاسكاريس، ولطالما سمعه يتحدث عن هذه الرحلة إلى البادية، وعن اليوميات التي كان يكتبها، بناء على طلب معلمه. وهكذا مكّنت الظروف لامرتين من شراء مذكرات الصايغ، وتمت ترجمتها إلى الفرنسية على يده أيضاً.

ولم ينل كتاب لامرتين «رحلة إلى الشرق» نجاحاً كبيراً لضعف مادته، فسرعان ما نسيه الناس، ودخلت معه مذكرات الصايغ في خبايا الزوايا.

وكان من المنتظر أن يقبل المستشرقون على رحلة الصايغ، لما فيها من أخبار طريفة عن أحوال البادية وقبائلها، ووصف لبعض القرى والبلدان السورية. إلا أن رئيس الجمعية الآسيوية شك في صحتها، فسكت عنها مجلة هذه

(٤) مكرر) قام المحقق بترجمة هذه الرحلة إلى الفرنسية مع مقدمة إضافية، وقد تولت نشرها دار غاليمار الباريسية

تحت عنوان: Le désert et la gloire.

الجمعية، وكانت يومئذ لسان حال المستشرقين، ولم تتناولها بالنقد، بل أنها لم تذكرها بخير أو شر إلا بعد وفاة الشاعر لامرتين. ويتضح من رسالة طويلة وجهها المستشرق فولجنس فَرَيْتِل إلى رئيس الجمعية سنة ١٨٣٨، ولكن المجلة الأسبوعية لم تنشرها إلا سنة ١٨٧١، إنه كان من المُسَلِّمين بصحة هذه الرحلة، ثم بدّل رأيه بعد أن عرض على ذوي الخبرة من العرب الصفحات التي جاء فيها وصف الدرعية وذكر الإمام الوهابي عبد الله بن سعود. وأصدرت المجلة الأسبوعية حكمها الصارم في تقريرها السنوي لعام ١٨٧٢ (ج ٢٠، ص ٣٦) جاء فيه: إن هذه الرحلة وليدة الخيال، كتبها رجل عارف بأحوال البادية.

ولم يتساءل صاحب هذا الكلام كيف تم لبائع من صغار التجار، يكاد يجهل اللغة العربية الفصحى، مثل فتح الله الصايغ، يخشى البادية كما يخشاه كل حضري من سكان المدن، لا سيما أنه كان نصرانياً، أن يكون مطلعاً أتم الاطلاع على أحوال البدو، حتى أنه تكلم عن عادة دفن الحصى أو دفن الذنوب، يكاد يجهلها حتى المختصون بدراسة البادية، ولكن ذكرها قبله شهاب الدين العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، في كتابه: «التعريف بالمصطلح الشريف»^(٥)، فأتى له هذه المعرفة الدقيقة بقبائلها وتقاليدها، إن لم يكن عاش معها رداً من الزمن. أما الأخطاء التي نددت بها المجلة الأسبوعية، مما حملها على الشك في رحلة الصايغ إلى الدرعية، فإن صاحبنا بريء منها كبراءة الذئب من دم يوسف، لأن المسؤول الأول عنها هو سوء الترجمة، كما سنبينه بعد حين.

رحلة الصايغ: ما بين الحقيقة والخيال

لقد شك بعض المستشرقين في صحة رحلة الصايغ ونسبها إلى الخيال، لأنهم اطلعوا عليها من خلال ترجمة خاطئة. ونحن نميل إلى تصديق الصايغ، وننظر إلى مذكراته نظرنا إلى جزء من التراث السوري العربي، على الرغم من أخطائه التاريخية ومبالغاته الكثيرة، لأن في وصفه دقة شاهد العيان ولأن ما كتبه يتماشى مع الواقع التاريخي.

(٥) انظر الهامش رقم ١٨.

كانت فرنسا تطمع بالاستيلاء على مصر من قبل قيام ثورة ١٧٨٩، فزارها عدد من سياحها و وصفوها، من أشهرهم فولته الذي تجول في الشرق من سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٧٨٥ وكتب كتاباً قيماً عن وضعه الجغرافي والسياسي والعمرائي، وقال عن مدينة الاسكندرية أن تحصناتها الحربية عديمة الوجود^(٦). وعندما أبحرت القوات العسكرية الفرنسية متوجهة إلى مصر، فقد هذا الكتاب من الأسواق. وبعد أن استولى بونابارت على الحكم، أراد من جديد أن يقطع على انكلترا طريق الهند، كما أثبتناه مفصلاً في المقدمة الفرنسية، فأرسلت السلطات الكولونيل سبستيان^(٧)، سنة ١٨٠٢، وفائسان بوتان^(٨)، سنة ١٨١٠، للكشف عن الوضع العسكري في الشرق. ولعل القرار على مهمة لاسكاريس صدر عن نفس الدوائر الفرنسية العالية.

وهنا يقف المؤرخ وقفة الحائر المتردد، إذ لا يجد أي وثيقة تؤكد صحة ما ادعاه لاسكاريس، بناء على ما ذكره الصايغ، من أنه موفد إلى الشرق ليكسب صداقة أمراء البادية. ولم أجد في المخابرات القنصلية الفرنسية الخاصة بمدينة حلب ذكراً لاسكاريس، مع أنه أقام في هذه البلد أكثر من سنة، وكانت تأتية الأموال منها، على ما يقول الصايغ. ولكن ليس من عادة الدوائر الجاسوسية أن تعطي تعليماتها بالطرق الرسمية. ولا يمكن أن تكون هذه القصة من ابتداع السائح السوري. فأتني لشاب لا يحسن غير البيع والشراء أن يكون عارفاً بالسياسة العالمية وعلى علم بأسماء عدد من كبار الشخصيات الفرنسية المقيمة في الشرق، من قناصل وسفراء، حتى أنه تحدث عن وصول الجنرالين سافاري ولألمان إلى أزمير بعد سقوط نابوليون؟ ولا شك عندي في أن رحلة الصايغ ليست وليدة الخيال، وإن كان الخيال لعب بها، ولا يمكن لأي ناقد قرأ هذه المذكرات، واطلع على دقة الوصف فيها لبعض القرى السورية والأماكن الأثرية والحياة البدوية إلا أن يُسلم بحكمنا هذا. ولعل لاسكاريس أوهمه أنه كان موفداً من قبل نابوليون، أو لعل

(٦) فولته، رحلة إلى مصر وسورية، ص ٢٨ (بالفرنسية)، تحقيق جان غوليه، باريس ١٩٥٩.

(٧) الأب لانس، تاريخ سورية، ج ٢، ص ١٢٨ (بالفرنسية)، بيروت، ١٩٢١.

(٨) ج.م. كزيه، الرحالون والكتبة الفرنسيون في مصر (بالفرنسية)، ج ٤، باريس، ١٩٦١ وقد اغتال العلويون بوتان سنة ١٨١٥.

بعض الشخصيات السياسية الفرنسية طلبت من لاسكاريس أن يقوم بالتهديدات الأولية لكسب صداقة أمراء البادية، إذ بقي في مصر عدد من الفرنسيين بعد اخفاق الحملة، اعتنقوا الإسلام وخدموا أصحاب البلاد، منهم الكولونيل ساف المشهور بسليمان باشا، وهو الذي أعاد تنظيم جيش محمد علي^(٩). والحقيقة أن قصة لاسكاريس من الألفاظ التاريخية التي لم تجد حلاً إلى يومنا هذا. وتفيدنا رسالة وجهها قنصل فرنسا بالاسكندرية إلى وزارة الخارجية بباريس، بتاريخ ٢٣ نيسان ١٨١٧، أن السائح بوركهارت، الذي اكتشف خرائب بتر، كتب ترجمة لاسكاريس بعد وفاته بالقاهرة^(١٠). ومن المؤسف أني لم أجد أثراً لها، ولعلها لم تطبع، إلا أنها تدل على أن الرحالة السويسري البريطاني كان على اتصال بجاسوس نابوليون وينظر إليه نظرة الئد للند. ونعلم من مذكرات الصايغ أن لاسكاريس التقى فعلاً بالشيخ إبراهيم صاحب «الرحلة إلى الجزيرة العربية».

ومتى سلمنا هذه الأمور الأساسية وهي أن قصة لاسكاريس ليست وليدة الخيال وأنه رحل فعلاً مع ترجمانه فتح الله الصايغ إلى البادية واتصلاً بعدد من شيوخ القبائل، اتسع علينا مجال النقد لتبين الصحيح من الخطأ في المذكرات التي نقوم اليوم بنشرها، لأن صاحب الرحلة شوّه الحقيقة أحياناً، وتحدث بأمر هي من نسج خياله، إلا أنه صدق أيضاً في أمور كثيرة، فأفاد إفادة جملة.

وأول ما يجب الإشارة إليه هي الأخطاء التاريخية العديدة في هذه المذكرات. فالصايغ يقول أنه بعد رحلته الأولى إلى تدمر ووبر الشام ذهب إلى دمشق، وكان ذلك بتاريخ ٢٣ كانون الأول سنة ١٨١٠. ثم اتصل بالدرعي بن شعلان، وتمكن من احضار معلمه الشيخ إبراهيم إلى مخيم الدرعي في صيف أو خريف سنة ١٨١١. وأثناء ذلك قامت بعض القوات الوهابية بغزوة على عرب الشام، فتبعها الدرعي وريح المعركة ضد القائد الوهابي الشهير بأبي نقطة. إلا أن أبا نقطة، حاكم عسير تهامة، توفي قبل هذا الغزو بسنتين، قتله الشريف علي حمود،

(٩) فيليب حقي، ادوار جرجي، جبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول) ج ٢، ص ٨٥٢. دار الكشف، بيروت، ١٩٦١.

(١٠) المخابرات القنصلية رقم ١٩، سنة ١٨١٧، ورقة ٢٠٠، باريس، وزارة الخارجية (بالفرنسية).

قائد عرب اليمن، عندما اندلعت نيران الحرب بين الوهابيين واليمنيين^(١١). ويذكر الصايغ من جديد أنها نقطة ويزعم أنه قاد حملة على بر الشام، وكان معه يومئذ عبد الله الهدال، كيخيا ابن سعود، وذلك خلال ربيع أو صيف سنة ١٨١٣. وكان النصر أيضاً حليف الدرعي. ويتحدث من جديد عن أبي نقطة عند زيارته الدرعية، ويزعم أنه تناول معه طعام العشاء، ولكنه لا يذكر تاريخ هذه الزيارة. وإذا تتبعنا سياق الحديث يتضح لنا أن ذهابه إلى عاصمة الوهابيين كان خلال ربيع أو صيف سنة ١٨١٤، بعد سقره إلى أطراف الهند واتحاد الشيخ الرذيني مع الدرعي. وفي الوقت نفسه يعلمنا أن خبر زحف القوات المصرية على المدينة بلغ ابن سعود عند نهاية هذه الزيارة. ومن المعلوم أن الجيش المصري احتل المدينة المنورة في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٢.

وبعد أن نجحت مساعي لاسكارس ذهب إلى استنبول قاصداً فرنسا. ويستدل من سياق القصة أنه سافر في نهاية سنة ١٨١٤. ولكن الصايغ يخبرنا أنه علم هناك باندحار القوات الفرنسية في روسيا، ثم تابعت الأخبار المشؤومة وبلغه تراجع نابليون وعودته مكسوراً إلى باريس. ومن المعروف المشهور أن هذه الحوادث جرت في شتاء سنة ١٨١٣.

فيتضح من هذا النقد السريع أن الصايغ خبط بالتاريخ خبطَ عشواء، وإذا أضفنا إلى ما تقدم مغامراته العديدة المزعومة، والأخطار التي مرَّ بها وكاد يذهب ضحيتها، وحديثه عن أثواب الحيات، وهو أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، أصبح من اليقين لدينا أنه تساهل تساهلاً شديداً بالأمور التاريخية، وأن الناقد على حق إذا شك في صحة أقواله، ونسب عدداً منها إلى الخيال.

ولكن «لعل له عذراً وأنت تلوم». والواقع أن الصايغ كان يكتب يومياته على «ورقة طيارة»، على حسب تعبيره، وأن هي إلا مذكرة للشيخ إبراهيم تسهل عليه تسجيل الوقائع. وما أظن أن صاحبنا كان يفكر يوماً بوضع كتاب عن رحلته، لأنه كان لا يحسن اللغة العربية، ولكنه احتفظ بمذكراته، وعندما عرض

(١١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص ١٦٨، القاهرة، ١٩٦٩، عبد الله فيليب، تاريخ نجد، ص ١٢٤، المكتبة الأهلية، بيروت (دون تاريخ).

عليه لامرتين شراءها قام عندئذ بتحريرها باللهجة الحلبية وأسبغ عليها طابع المغامرات، متتبعا سير الحوادث. والدليل على ذلك أنه كثيراً ما يضيع علامة على بعض صفحات المخطوطة تشير إلى أن الحادث الذي ذكره يجب أن يُقدم أو يؤخر. ولا عجب إذا أخطأ بالتواريخ لأنه أراد بادئ بدء سرد قصة أبيه الروحي لاسكاريس، فكتب ما علق بذاكرته، دون اهتمام كبير بالأمانة التاريخية، لاسيما وأنه وضع كتابه بعد مضي نحو خمس عشرة سنة على رحلته، فذكر القائد أبا نقطة لأن حاكم عسير تهامة كان مشهوراً بقوته وجسارته، وأخطأ بأسماء الأعلام والأنساب، بل أنه سرد حوادث من الصعب تصديقها لولا ورودها أيضاً في مصادر موثوق بها.

وهناك نقطتان أساسيتان أثارتا بنوع خاص شكوك المؤرخين، فلا بُد لنا من الكلام عنهما: الأولى معركة حماة، والثانية زيارة الدرعية.

وصف الصايغ معركة حماة وصفاً رائعاً، وذكر عدد المقاتلين، فزعم أن الجيش الوهابي كان يضم نحو مئة وخمسين ألف مقاتل، أما عرب الشام، فإن جميع القبائل التي أنجذت الدريعي لا تزيد على ثمانين ألف محارب، يضاف إليها جنود الجيش العثماني الذي تصدى أيضاً للغزو الوهابي.

ولكن هل وقعت هذه المعركة حقاً؟ يعتقد الدكتور منير العجلاني أن الإمام سعود قام فعلاً بغارة على أطراف الشام سنة ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ م^(١٢). إلا أنه يظن «أن أعداد المقاتلين أعداد مبالغ فيها كثيراً، وأما المعركة، فيترجح [عنده]، بغلبة الظن، أنها وقعت. يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢٢٥ أن الإمام سعود سار في شهر ربيع الثاني إلى الشام»^(١٣). أن هذه الغارة التي تحدث عنها ابن بشر قام بها الإمام الوهابي نفسه سنة ١٨١٠، أما معركة حماة فلم تكن

(١٢) منير العجلاني، تاريخ بلاد العربية السعودية، ج ٣، ص ٦٥، دار الكاتب العربي، بغداد (دون تاريخ).
(١٣) منير العجلاني، المصدر نفسه، ص ٢٣، فيلبي، تاريخ نجد، ص ١٣٧. وأخطأ ميخائيل مشاقه في تاريخ هذه الغارة، فزعم أنها كانت سنة ١٨١٧، وأن الجند الحجازي الذي أمّ الشام أرسله محمد بن عبد الوهاب، (انظر: بلاد الشام في القرن التاسع عشر، دراسة وتحقيق سهيل زكار، ص ١٠٠، دار حسان، دمشق ١٩٨٢/١٤٠٢).

بقيادته، وحدثت، على ما يقول الصايغ، بعد هذه الغارة بثلاث سنين. وعندما علق الشيخ أحمد بن حسن بن رُشيد الحنبلي على هذه الغزوة كتب بقلمه: «هذا غير معقول، ما كسرت جيوش الوهايي عند حماة، إذ كان العرب بعضها مع بعض، اللهم...»^(١٤). وهذا الكلام يشير إلى إمكانية وقوع مثل هذا الغزو، ولكنه لم يكن بقيادة الإمام سعود.

ولدينا شاهد على وقوع هذه المعركة الكبيرة في كتيب لمؤلف فرنسي كان من عملاء نابوليون في الشرق، يدعى أوغُست دي تَرْسِيَا، طُبِع سنة ١٨١٨، يقول فيه: «لما وقعت الحرب بين قبائل عنزة والفُدعان غطت خيام الفُتتين المتقاتلتين جميع المساحة بين سلمية وتدمر... وإنا نؤكد أن عدد المتحاربين في معركة السلمية [قرب حماة] التي وقعت سنة ١٨١٢، زاد على أربعين ألف فارس يحملون الرماح. غير أن العدد الذي ذكرناه أقل بكثير مما ذهب إليه بعض الأناس المعروفين بصدقهم وبعد نظرهم، وذلك لأننا نخشى أن تنسب إلينا المغالاة في الأمور». ومن البديهي أن ما يقوله الكاتب الفرنسي لا يعني إن القتال كان بين الوهايين وعرب الشام لأن الفُدعان فرع من قبائل عنزة. ولكن عنوان الكتاب يدل على أن حديث المؤلف له علاقة بالغزو الوهايي، وهو: «نبذة عن البدو وعن الملة الوهاية» (ص ١٨).

أما رحلة الصايغ إلى الدرعية، فهي التي أثارت شكوك المستشرقين بنوع خاص، وسار على خطاهم بعض المؤرخين العرب^(١٥)، دون الرجوع إلى المصدر الأول أي مذكرات فتح الله الصايغ. وقد سبق وإثبتنا، في مقال نشرته مجلة العرب^(١٦) أن المسؤول عن الريبة التي تحوط بهذه الرحلة هو سوء الترجمة بل الترجمات العديدة أولاً من العربية إلى الافرنجية، لهجة هي خليط من الفرنسي والأسبنيولية والإيطالية والعربية والتركية، وكان يتكلم بها سابقاً بعض أهل المشرق، ومنها إلى الفرنسية، ثم قام لامرتين بتنقيح هذه الترجمة، وعنها أخذ المستشرق فرينل ليُرَدِّد النص إلى العربية، ثم عرض هذا النص العربي الجديد على أرباب الخبرة من

(١٤) مجلة العرب، ج ٣، ٤، س ١٩، ١٤٠٤/١٩٨٤، ص ١٦٢.

(١٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

(١٦) انظر الهامش رقم ٤.

العرب ليُثبِتوا رأيهم فيه ، فكتب الشيخ أحمد بن زُشَيْد الحنبلي معلقاً عليه : كذب هذا النصراني ولم يصدق في شيء^(١٧) . فقبلت المجلة الأسيوية هذا الحكم الصارم ، دون فحص أو تدقيق . وبعد البحث ومقابلة النصوص اتضح لي أن المنتقد ، أي فتح الله الصايغ ، والمنتقد ، أي الشيخ الحنبلي ، كلاهما على صواب ، لم يكذب الأول ولم يخطئ الثاني ، إلا أن الترجمات حرّفت عبارات الصايغ ، وابدلت بعض معانيها ، وأدخلت فيها ما لا وجود في النص العربي الأول ، فأصدر الشيخ الحنبلي حكمه ، وهو صادق ، على كلام لم يقله الصايغ ، وعلاوة على ذلك إن الشيخ الحنبلي وكان في العقد التاسع من عمره ، وقع هو أيضاً في بعض الأخطاء ، كما بيناه في الملحق المدرج في نهاية هذا الكتاب .

وما لا شك فيه أن الصائغ ارتكب أغلاطاً فادحة عديدة ، فكتب مكا بدلاً من مَخا ، وزعم أن قبر النبي في مكة وأن سعوداً نهب هذا البلد ، فخلط بين مكة والمدينة . وهنالك أيضاً مجال للشك في صحة الكتاب الذي أرسل به عبد الله بن سعود إلى الدرعي بن شعلان . ولكن علينا ألا ننسى أن الرسالة موجهة إلى شيخ بدوي يجهل القراءة والكتابة ، ولعلها صيغت عمداً بأسلوب يفهمه أهل البادية . ولكنني أميل إلى الظن أن الصايغ سجّل في مذكراته وصول كتاب من الإمام الوهابي إلى ابن شعلان ، ولما صنّف كتابه ، صاغ الرسالة بإنشائه العامي البدوي . ولا عجب إذا أخطأ في نسب عبد الله بن سعود ، فإن خلطه بين مكة والمدينة يكفي لإظهار قلة معرفته بالأمور العربية .

أجل إن الصايغ لم يكن حريصاً على الأمانة التاريخية ، لأنه أراد فقط أن يكتب قصة رحلة ، فنمّق وزاد ، واتخذ أسلوباً روائياً ، فشوّه الحقائق أحياناً . وعلى الرغم من هذه الأخطاء ، فإن في كتابه من الفوائد الجمّة ، والأوصاف الدقيقة ، والمعلومات الشيقة الهامة ما يجعله مرجعاً لكل من يدرس أحوال البادية أو يبحث عن الدعوة الوهابية ، لأنه تكلم عنها مراراً ، كما تكلم عن عبد الله بن سعود وأحواله . وإنني أميل إلى تصديقه عندما يتحدث عن الدرعية ، لأن الشكوك التي أثارها هذه الرحلة تضحّل متى عرضناها على محك النقد السليم .

(١٧) مجلة العرب ، ج ٣ ، ٤ ، س ١٩ ، ص ١٥٤ .

أهمية مذكرات الصايغ

ولكي يكون عرضنا نزيهاً وشاملاً، علينا الآن أن نظهر محاسن هذا الكتاب . بعد أن نوهنا بمطاعنه . وأول ما يسترعي النظر هو وصفه الدقيق السريع لكثير من الأمكنة، مما يدل على أنه رآها حقاً . ومن ذلك كلامه عن حَمَام طبيعي قرب قرية صدد، قال : « كان مسيرنا أربع ساعات لطرف الشرق منحرف لجهة الشمال، فوصلنا ووجدنا عمارات قديمة وكثيراً من الخراب . ثم وجدنا مخدعاً بقدر غرفة كبيرة لم تنزل قائمة، عمارته على الطريقة القديمة بحجار كبيرة جداً، تهدم منها فقط قسم من الحائط من جهة الباب، فسدّ نصفه . فدخلنا الغرفة، ووجدنا طاقة من جهة الشرق طولها نحو ذراع وعرضها كذلك، بناؤها قديم جداً، ويخرج من تلك الطاقة بخار عظيم بكثرة » .

بوسعنا أن نعطي أمثلة كثيرة من هذا النوع كوصفه صدد، والقريتين، وآثار تدمر، ومغارة كبيرة قرب هذه البلدة الأثرية، وكلامه عن الدرعية وريح السموم . ومن أهم ما جاء في هذا الكتاب هو حديثه عن البادية وتقاليدها وقبائلها، فهو حديث الشاهد الأمين الذي يتكلم عما رآه وسمعه وعرفه بالخبرة والمشاهدة . وقد تعرض الصايغ لنواحٍ عديدة من حياة البادية، مثل الرحيل في وقت السلم، والنساء في الهودج، وأمامهن الفرسان الخيرون بالضرب والطعن، والرحيل السريع في حالة الطوارئ، فتجد القبيلة بالسير المتداوم، من غير نزول ولا راحة، بل الأكل على ظهور الجمال والنوم كذلك، والنساء تعجن وتخبز على ظهور الجمال أيضاً . ويتكلم عن مكانة المرأة في المجتمع البدوي وتكريم أهل البادية لها، وعن الطب البدوي، والخوة والنخوة والعطفة، بل إنه يفرد فصلاً بتمامه لعادات أهل الوبر، ويحدثنا مطولاً عن مراسيم الزواج . ونعتقد أن الصفحات التي جاء فيها وصف حفلة زواج ابن الأمير برجس من أحسن ما كتبه الصايغ في مذكراته، ويمثلها بالدقة كلامه عن العادات المتبعة عند البدو حين طلب النجدة . ويصف أيضاً الحرب على ظهور الجمال، ويتحدث عن المعارك مع الوهابيين وعن سلاح البدو يومئذ، ونعلم أن السيف والرمح كانا من الأسلحة التي

يكثّر استعمالها في البادية، وإن منهم من كان يلبس الخوذة وقميص الزرد، أما الأسلحة النارية فإن الدارج عندهم البارودة ذات الفتيل.

ومن أغرب ما جاء في مذكرات الصايغ عن أعراف البادية عادة «دفن الحصى»، ولا يكون ذلك إلا بعد الصلح التام وصفاء القلوب بين خصمين عنيدين وعدوين لدودين طال الخلاف بينهما، وجرى عليهما من جراء ذلك الأمور العظام. وعندئذ ينسى كل منهما ماضى، ولا يطالب بثأر أو مال. ويعلمنا الصايغ كيف تتم عملية دفن الحصى وما هو مغزاها، إذ شاهد ذلك عياناً بعد أن رضي الدريعي بالصلح مع مهنا الفاضل، فوصفها ثم قال: فتعجبنا أنا والشيخ إبراهيم (لاسكاريس) من ذلك، لأننا ما كنا رأينا هذه النكته ولا سمعنا بها. ويظهر أن هذه العادة طاعنة بالقدم، إذ تكلم عنها، كما قلت أعلاه، شهاب الدين العمري في كتابه: «التعريف بالمصطلح الشريف»^(١٨)، ووصفها أيضاً ابن ناظر الجيش في تثقيف التعريف^(١٩)، والقلقشندي في «صبح الأعشى»^(٢٠). ولا نعلم أن أحداً من المختصين بالبادية وأحوالها أتى على ذكرها، مما يثبت صدق رواية الصايغ. واعتقادنا أنها زالت اليوم، غير أن ذكرها بقي محفوظاً عند بدو الأردن، فهم يقولون حَفَرُ ودفن، و«حفار ودفان عليهما أدامة إلى يوم القيامة».

ولا يسعنا هنا أن نعدد جميع محاسن كتاب فتح الله الصايغ^(٢١)، وفي قراءته أكبر برهان، لأنه على الرغم من أخطائه التاريخية وميل مؤلفه إلى الغلو، وثيقة حية عن بلاد الشام وباديته. وهذا الاطراء لا يعني أن صاحبه صدق في كل شيء. فقد يكون زاد في قصة لاسكاريس ونمقها، ولكنها ليست من مبتدعاته،

(١٨) شهاب الدين العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٦٥ وما بعدها، القاهرة، ١٣١٢.

(١٩) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، مخطوطة الاسكوريال، ورقة ٩٧ و ٩٨. انظر أيضاً مقالنا بالفرنسية: «دفن الذنوب عند العرب» مجلة تاريخ الديانات، نيسان — حزيران ١٩٥٩، ص ٢١٥ وما بعدها، وأيضاً الموسوعة الإسلامية، مادة «دفن».

(٢٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ١٣، ص ٣٥٢ وما بعدها، دار الكتب السلطانية، القاهرة، ١٩١٨.

(٢١) أتينا على ذكر بعض هذه المحاسن في مجلة العرب، ج ١١، ١٢، ص ٢٠، ١٤٠٦/١٩٨٦، ص ٧٧٥ — ٧٩٨.

ونراه يتحدث عن البدو وأحوالهم بدقة ومعرفة وسعة اطلاع لا تتأقن إلا لرجل عاش معهم ربحاً من الزمن .

المخطوطة

قد خلط الذين ترجموا للصائغ بين مذكراته التي نقوم بنشرها اليوم ومؤلفه الآخر الموسوم « بكتاب المقرب في حوادث الحضر والعرب » . ويوجد من هذا الكتاب عدة نسخ ، الواحدة منها في باريس ، تحت رقم ١٦٨٥ عربي ، ولعلها بخط المؤلف . أما قصة رحلته فلا يوجد منها إلا نسخة واحدة في العالم ، وهي التي اشتراها لامتريين ومحفوطة أيضاً في المكتبة الوطنية بباريس ، قسم المخطوطات العربية ، تحت رقم ٢٢٩٨ .

وتحوي هذه المخطوطة على مئة وتسع وعشرين ورقة أي على مئتين وست وخمسين صفحة ، بقياس ٢١٥ × ٢١٥ ، في كل منها نحو ثلاثة وعشرين سطراً . إلا أن الورقة ١١٤/٢ ونصف الورقة ١١٦/٢ والورقة ١١٧ و ١١٨ و ١١٩/٢ بَقِيَتْ بيضاء . والخط غير جميل ولكنه سهل القراءة نسبياً . غير أنه شديد الرص ، إلا في الأوراق الأخيرة من الكتاب ، واعتباراً من الورقة رقم ١١٩ . وسبب هذا الرص الشديد لم يبق في الصفحة إلا هامش ضيق جداً . ولذا عند تجليد المخطوطة ، دخل عدد من الكلمات في جلد الكتاب وكذلك بعض العبارات المضافة في الهوامش ، فصعبت بسبب ذلك قراءة المذكرات .

لغة المؤلف

إلا أن الصعوبة الكبرى متأقنة من لغة المؤلف لأنه يكتب بلغة هي أقرب إلى اللهجة الحلبية منها إلى العربية الفصحى ، ومع ذلك إننا نجد في مذكراته عدداً من التعابير الإسلامية والآيات القرآنية لحن فيها الصائغ ، ونراه يحاول أن يفصح ولكنه لا يراعي مبادئ الإعراب فيقع في أغلاط نحوية ولغوية لا حصر لها . وعلاوة على ذلك أنه كثيراً ما يبدل حروفاً بحروف ويخلط بين المضخمة واللين فتصبح

الصاد سيناً (عُسر بدلاً من عُسر) والقاف كافاً والزين ذالاً والضاد دالاً والظاء ذالاً والعكس بالعكس فيكتب أستغيظ بدلاً من استغيث وحضر بدلاً من حذر، وركاد بدلاً من رقاد... وكذلك يخلط بين التاء المفتوحة والتاء المربوطة ويكثر من استعمال التعابير والألفاظ التي يصعب فهمها على غير الحليين العريقين، وهناك أيضاً عدد من الكلمات البدوية والتركية والعجمية والفرنسية التي تحتاج أيضاً إلى شرح وتعليق، خاصة أن طبع هذا الكتاب، مع الأمانة التامة لنص المؤلف، وفقاً لأصول النشر المرعية عادة، يؤدي إلى نتائج غير مرضية بسبب كثرة الهوامش لايضاح المعنى والمبنى، فيرمي القارئ الكتاب من يده من الملل، مع أن الموضوع شيق جذاب.

ولذا رأينا أن من العبث الحرص على الأمانة الحرفية في عمل لا يمتاز بصبغة أدبية أو فلسفية وأن من الأولى تنقيح نص المؤلف وإعادة صياغته أحياناً، مع مراعاة الأصل والاحتفاظ بما يمكن حفظه من التعابير وأسلوب الإنشاء، ولكن إتماماً للفائدة، ذكرنا في الهوامش، بين هلالين مزدوجين، الكلمات الخاصة باللهجة الحلبية. ونحن بعملنا هذا لم نأت ببدعة جديدة، إنما اتبعنا العادة المرعية في نشر اليوميات أو الحوليات المكتوبة باللهجات القديمة، ونجد أمثالاً على ذلك أيضاً في أشهر كتب الأدب، مثل كتاب الأغاني، بل في كتب الحديث نفسها فكم من مرة نقرأ بعد الحديث المنقول العبارة التالية: «أو كما قال»، ومعنى ذلك أن المحدث حفظ المعنى ولم يذكر النص بحذافيره. وما لاشك فيه أن أهمية كتب الرحلات في موادها وليس في إنشائها. فابن بطوطة لم يكتب رحلته، ولكن أملاها على ابن جُزَيّ ولا نعلم إذا كان أملاها باللغة العامية أو الفصحى، فهل ينقص ذلك من فضل مؤلفها. وكذلك الأمر برحلة ماركو بولو فهو أملاها أيضاً، والأقرب إلى الظن أن الحديث جرى بلهجة سكان البندقية، إلا أن كاتب الرحلة سبكه بإحدى اللهجات الفرنسية القديمة ولو طبعت اليوم بهذه اللهجة لما تمكن من قراءتها إلا عدد قليل من الناس. ومن البديهي أن مذكرات الصايغ ليست ذخراً أدبياً أو نصاً فلسفياً لنحرص عليها حرصنا على الملاحظات وإن هي إلا وثيقة تاريخية وجغرافية وعمرانية هامة، أما اللغة التي كتبت بها فتأنيو بالنسبة إلى المعلومات الأساسية التي ذكرها صاحب الرحلة.

ونحن نعلم أننا من جراء هذا التصرف بنص الكتاب قد نتعرض لنقد الذين يحرصون على الأمانة اللفظية، مع أن تصرفنا بقي محصوراً في نطاق اللغة والنحو وبذلنا ما في وسعنا لنحافظ على ألفاظ المؤلف وتعابيرها بعد ردها إلى الفصحى . وجوابنا أن لولا هذا التصرف لصعب جداً نشر هذه المخطوطة . ونحن لم نقم بهذا العمل الشاق الدقيق إلا ليصبح كتاب الصايغ سهل القراءة، على متناول يد كل ناطق بالضاد، ولو بقي على علاقته لاستفاد منه خاصة الحلبيون وعلماء اللهجات وقد راعينا حقوق هذه الفئة من الناس، إذ ذكرنا في الهوامش كل ماله صلة باللهجة العامية، كما افردنا فهرساً للكلمات الفنية والأجنبية مع شرحها، وفهارس للأعلام والأماكن والقبائل .

وعلى ذكر أسماء الأعلام لا يسعنا إلا أن نردد ما كتبناه في مقدمة « بغية المستفيد » من صعوبة ضبطها، إذ ليس لها من قاعدة، وقد أهمل المؤلفون المعاصرون هذه الناحية، فنكاد لا نجد اسماً مضبوطاً في « معجم القبائل القديمة والحديثة » لعمرك حالة، أو في « عشائر الشام » لوصفي زكريا . ولكن دقة اللغات الأوروبية لا تسمح للمؤلف أو المحقق أن يختار من الأمرين ما هو أسهل عليه، ولا بُدَّ من ضبط صحيح، إذ عليه أن يكتب جميع الحروف الصوتية والصامتة (٢٢) .

★ ★ ★

يقول المثل الحلبي: « أخرج حلب وصل إلى الهند » . وقد حقق فتح الله الصايغ هذا القول السائر أو يكاد لأنه كان صحيح القدمين . ولكنه زاد عليه إذ ابتداء برحلته وهو في العشرين من عمره، ووصل إلى الهند عبر الصحراء، بعد أن قطع بادية الشام واجتاز مفاوز العراق وإيران، ثم ذهب إلى الدرعية عاصمة الوهابيين، ووصف بدقة كل ما شاهده، وأبقى لنا مذكراته التي تعد بحق من التراث القومي السوري العربي .

(٢٢) أما معجم القبائل الملكية العربية السعودية للشيخ حمد الجاسر، فإنه مضبوط ومشكل طبق المرام، انظر هامش رقم ١ .

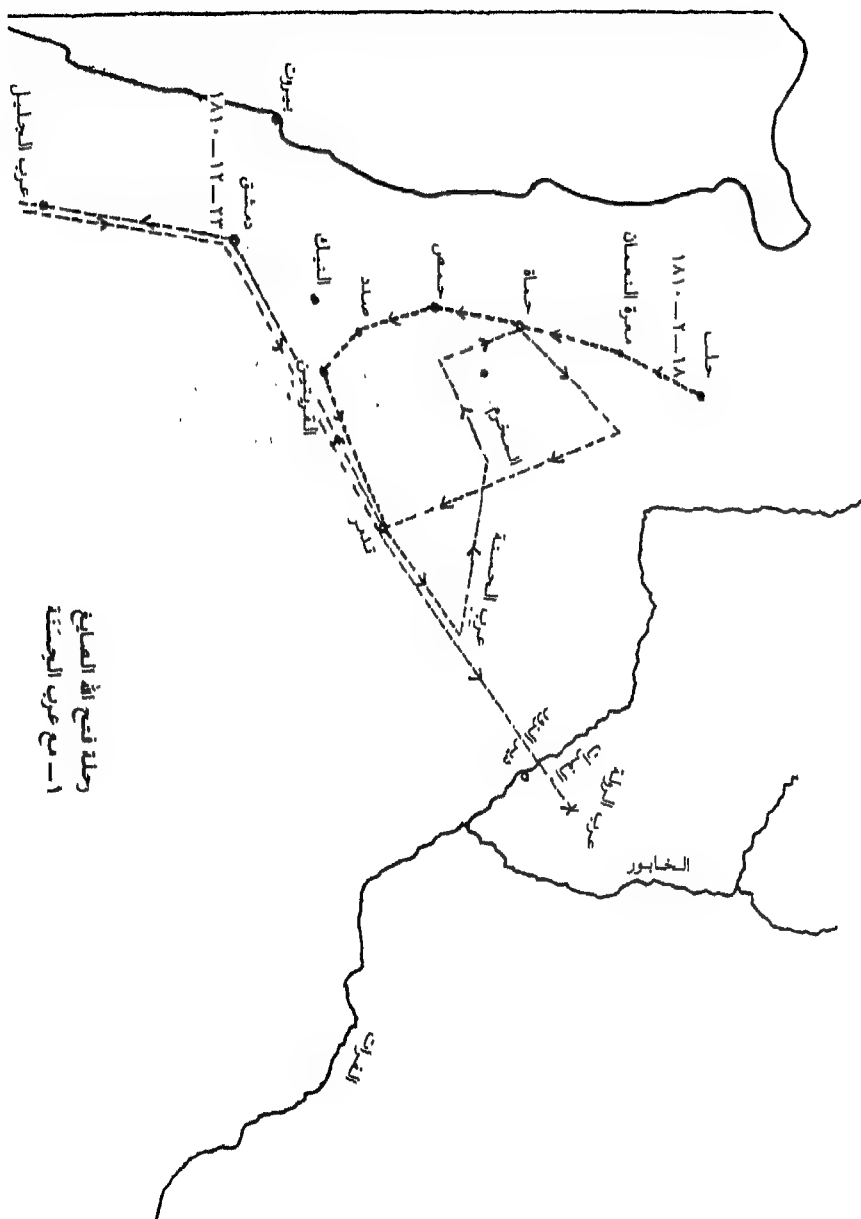
وإني سعيد بتقديم هذا العمل إلى أبناء وطني الأول وإلى كل ناطق بالضاد ، وفخور بفتح الله الصايغ ابن مسقط رأسي حلب ، وشاكر للشاعر الخالد لامرتين ، الذي اشترى هذه المذكرات وحفظها وعمل على ترجمتها ، ولفرنسا التي كرمت مؤلف هذه الرحلة ، فعينته عاملاً قنصلياً في حلب .

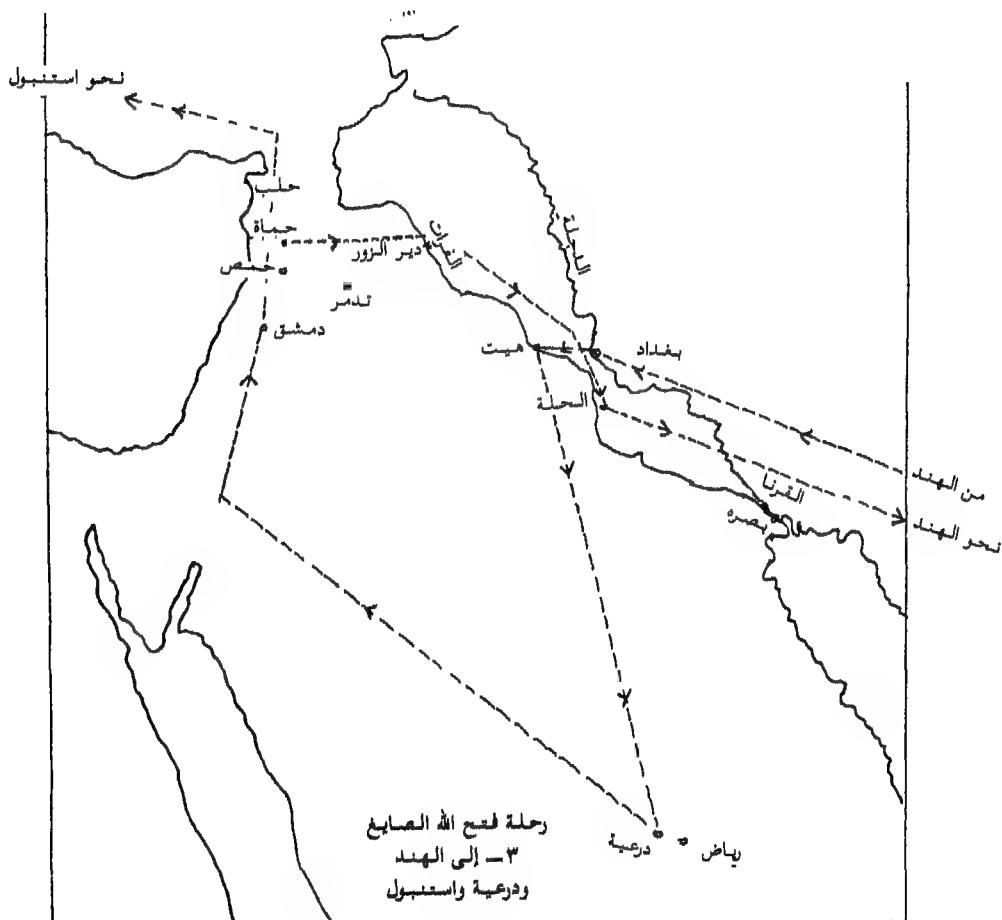
وأشكر أيضاً كل من أعانني على إخراج هذا الكتاب إلى حيّز الوجود ، وأخص بالذكر الشيخ حمد الجاسر صاحب مجلة العرب الغراء ، لأنه كان أول من استرعى انتباهي إلى هذه الرحلة ونشر ملاحظاتي على تعليق الشيخ الحنبلي ، ولا تفوتني الإشارة إلى المساعدة القيمة التي قدمها لي شيخ أدباء الأردن الأستاذ روكس بن زائد العزيمي إذ أفادني في ضبط عدد من أسماء الأعلام والقبائل . وأراني عاجزاً عن شكر ابن أختي الأب الياس ناقوز إذ كان صلة وصل بيني وبين دور النشر السورية إلى أن تكللت مساعيه بالنجاح إذ وافقت دار طلاس الغنية عن التعريف ، المشهورة بمجودة الطبع ودقة الإخراج ، على تولي هذا العمل فله ، ولها ، ولمديرها العام سيادة اللواء إكليل الأناسي^(٢٣) كل أمتناني والسلام .

د . يوسف شلُحْد

مدير أبحاث فخري في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي
مدرس الأنثروبولوجيا الثقافية في جامعة
السوريون الجديدة سابقاً

(٢٣) تم كتابة هذه السطور من قبل الدكتور يوسف شلُحْد قبل وفاة مدير دار طلاس اللواء إكليل الأناسي .
تغمده الله برحمته .





نمره ١

[صفقة تجارية خاسرة]^(١)

ورقة ٢/٢

أقول، أنا الفقير إلى الله، فتح الله ولد أنطوان الصايغ اللاتيني، من سكان^(٢) حلب الشهباء المحروسة. فحين بلغت من العمر ثماني عشرة سنة، أردت أن أتعطى البيع والشراء سعيًا وراء أرباح التجارة. فأخذت جانب رزقي من حلب، وتوجهت إلى جزيرة قبرص، وابتدأت أبيع وأشتري مع تجارها، وذلك من ابتداء سنة ١٨٠٨ إلى ابتداء سنة ١٨٠٩. فرأيت أنه من المستحسن أن أبعث إرسالية إلى تريبسته من بضائع قبرص. فهممت بذلك واستأجرت مركب القبطان تومازو جفاليثيونه. والشحنة من نبيذ كُمنداري وقطن وحرير واسفننج وحنظل. وسافر المركب المذكور في ٢٨ آذار سنة ١٨٠٩ قاصداً مدينة تريبسته. فبعد سفره بقليل من الأيام، التقى بمركب إنكليز. وبما أن الحرب كانت عندئذ على أشدها، فإنه أخذ غنيمة وقاده إلى مالطه.

(١) جميع العناوين من المحقق، وكذلك تقسيم الكتاب وتبويه، وعلى العموم كل كلمة أو عبارة وردت بين معكوفين [] هي من المحقق.

(٢) «قطان».

إن لغة فتح الله الصايغ أقرب إلى اللهجة الحلبية العامية منها إلى العربية الفصحى، فلكي يسهل فهم هذا الكتاب على كل قارئ عربي، لم تحتفظ بجميع الكلمات والتعابير العامية التي استعملها المؤلف، إذ قد يصعب إدراكها على غير الحلبيين العريقين. ولكن إتماماً للفائدة ذكرنا أهمها في الهوامش. فكل كلمة أو تعبير جاء بين هلالين مزدوجين « » هو من لغة الصايغ الحلبية، وكل ما جاء بين قوسين ()، في نص الكتاب، هو أيضاً من المؤلف.

فحين بلغني ذلك اشتد علي القهر. ثم قوّمتُ حساباتي فوجدت أحوالي متأخرة جداً. فاضطرت أن أغادر جزيرة قبرص، فتوجهت إلى بلدي حلب.

وبعد دخولي إلى بلدي بقليل من الأيام، دعيت عند بعض الأحاباب الإفرنج إلى العشاء، وكان هناك عدد من المدعوين غيري، ومن جملتهم واحد يعتبرونه جداً مع أنه زري الهيئة. فبعد العشاء صار بسط وانشرح، وحديث لأجل تمضية السهرة. وكان هذا الرجل الغريب الزي دائماً جالساً إلى جانبي، ويحب أن يسمع حديثي. فسألت بعض الحاضرين مَنْ هو هذا الرجل فأجابوني أنه من أكابر بلاد الإفرنج، يقال له الخواجة تيوودور لاسكاريس دي فنتيميل، من عظماء أشراف مالطة سابقاً^(٣). فبعد أن سمعت ذلك ازداد إعتباري له جداً، وأثناء الحديث، أعلمته أنني أحب الموسيقى وأضرب على آلات الطرب. فثاني يوم للقائنا حضر إلى بيتي ومعه كمنجة قدمها لي هدية وقال لي: يا حبيبي، إنك عزيز علي، وأود أن أعاملك مثل ولدي. وبما أنك تحب الموسيقى جئت بهذه الكمنجة، وأرجو أن تقبلها مني./ فقبلتها منه وصار عندي عزيزاً جداً لأنه وهبني شيئاً يسرنِي.

وثاني يوم أتى إلى عندي، واستمر على هذه الحالة عدة أيام، وكان دائماً حديثه معي بحكايات وأمور غريبة، حتى فهم عقلي وأطباعي جيداً. ثم بعد ذلك قال لي يا ولدي أريد منك أن تعلمني اللسان العربي^(٤)، قراءة وكتابة وحديثاً، وأنا أعطيك كل شهر مئة غرش، تعلمني ساعة فقط، فأخذني العجب من ذلك، وقلت في نفسي أنا لا أستحق هذه الإجرة، ولا جرت العادة، في بلادنا أن تعطى مثل هذه الإجرة للمعلم. فابتدأت أعلمه ساعة كل يوم، على حسب الشرط الذي صار بيننا، وأقمنا على هذه الحالة ستة أشهر.

ثم بعد هذه المدة كان تعلم نوعاً ما، وصار يتكلم ويقرأ ويكتب قليلاً، فقال لي: يا ولدي الحبيب أنت دائماً عينك بالمتجر، وتحب البيع والشراء وأرباح التجارة، فقم بنا تنسوق بعض البضائع التي تنفق في نواحي بلاد حماة وحمص وضيعهما. ولكن يا حبيبي، أريد منك أن تعاهدني بالله أنك تمشي معي بموجب ما أقول لك، ولا تخالفني. فكان جوابي: الذي تريده أنا أعمل به. فقال: أريد منك عدم البحث والتفتيش عن جميع

(٣) في السطور الأخيرة من هذه الصفحة من المخطوطة بياض، سقطت بسببه عدة كلمات. إنما المعنى واضح.

(٤) «لسان العراني».

ما أقول وأفعل، أريد منك أيضاً طاعة عمياء، مهما قلت لك تفعله من غير مراجعة ولا سؤال عن سبب فعل ذلك، ولو ظهر لك أن ذلك خلاف لما يجب أو يقتضي عمله، عليك أن تفعله وتبقى ساكناً وسوف ترى ثمرة قولي. فكنت تارة أضحك في قلبي، وتارة أراجع حالي وأقول في نفسي لا بد من أمر كبير للغاية.

ثم ابتدأنا نتسوق. فقلت له ياسيدي ماذا تريد أن تشتري من البضائع. فقال: كُنْدَكِي^(٥) أحمر، أعني خام مصبوغ أحمر يؤتى به للحلب من ثفلّيس^(٦)، أحد بلاد الكُرّج، وكذلك مسابح كهربيا، ماسات مربوطات، ومرجان، وخرز ملون الأشكال، وأساور زجاج^(٧)، ومناديل خمریات يسمونها في حلب كساجور، وإبر، ودبابيس، ومرايا صغيرة، وبخور البان، ومَيْعَة^(٨) ورق، وشملات سود قزّ وحريز، وقمصان قزّ حر مطبوعات بأسود، وأمشاط خشب، ولُجْم خيل، وفلفل وقَرْنُفَل،/وسكر نبات، ومسابح عرق لؤلؤ، وكمّون. فبلغ ثمن جميع ذلك أحد عشر ألف غرش. فوضعنا في الصناديق ما يمكن وضعه، وما يمكن ربطه حزمناه حُزْماً^(٩) ودبرنا كل أمورنا وأنهيينا جميع أشغالنا من حلب. وكان كل من يرى ذلك يضحك منا ويقول: عمرنا لم نر مثل هؤلاء التجار، وا أسفاه^(١٠) على هذه الغروش التي صرفتها. وخصوصاً أن الخواجه لاسكاريس، لأجل تدبير مآربه وتمشية أشغاله ووصوله إلى مرامه، كان يظهر حاله نوعاً ما خفيف العقل، وكان دائماً بهيعة^(١١) زرية، يرخي لحيته، ويلبس مشلحاً أسود، وبرجله صرماية^(١٢) حمراء، وبرأسه لفة وسخة، إذا تكلم معه أحد يعمل كأنه لم يسمع، يأكل بالسوق ويقوم بحركات تحوج الناس أن تقول عنه أنه مجنون ويضحكون منه. وأما أنا فما كنت قط أضحك منه، لأنه كان حين يدخل الغرفة ويغلق بابها وأنا معه، ينتقل إلى درجة فيلسوف عظيم، ويبدأ يضحك من الناس الذين ضحكوا منه واستهزؤا به، ويقول لي: ماذا يقولون عني يا ولدي؟ فأقول: يقولون عنك أنك

(٥) كلمة من الفارسية.

(٦) ثفلّيس، بفتح التاء وتكسر (ياقوت، معجم البلدان).

(٧) قِذاذ.

(٨) بخور.

(٩) عملنا فردات.

(١٠) يا حيف.

(١١) كسم.

(١٢) حذاء يلبسه نخاسة البدو والفلاحون.

مجنون عديم العقل كلياً . فيقول : وأنت ماذا تقول عني يا حبيبي ؟ فأقول له : إنك معلم جليل وأعظم الفلاسفة الموجودين بعصرنا هذا . فيضحك ويقول إنك لم ترَ بعد شيئاً مني ، ولكن سوف ترى أفعال أهلك الروحي لاسكاريس . ولكن لا تسألني عن شيء أبداً إنما انظر بعينيك ماسيقع مني شيئاً فشيئاً .

ثم بعد ذلك جميعه شددنا الأحمال وديرنا كل أمورنا لأجل السفر . وقبل سفرنا بيومين جاء بزئبق ووضع معه أجزاءوات هو يعرفها ، وجعل الزئبق مثل الدهن ، وملأ منه علبه . فقلت له يا سيدي والدي : لماذا يصلح هذا ؟ قال : ألم أقل لك مهما رأيت لا تسأل عنه . فقلت : نعم ، ولكني أظن أن هذا السؤال لا يضرك الجواب عليه . قال : إنه لأجل القمل كي لا يقرب منا ، تدهن خيطاً منه وتضعه في رقبته فلا يبيح القمل بحوك . فقلت له : يا سيدي ٤/١ هل تظن أن قمل أهالي حماة وحمص يسعى على الأرض ؟ فضحك وقال : إن الشرط الأول/ الذي شرطه عليك ألا تبحث عما أفعل بل تنظر بعينيك فقط .

ثم ثاني يوم من بعد هذا الحديث قال لي : يا ولدي كنتُ مزمماً على السفر عاجلاً ، ولكنني رأيتُ من المستحسن أن أبقى في حلب ثلاثين يوماً ، من غير عمل شيء كلياً ، بل إن هذه الأيام الثلاثين جعلتها لك ، تمضيها بالبسط^(١٣) والغناء واللعب والسهرة ، والانشراح مع النساء ، وجميع أنواع اللهو^(١٤) ، واصرف مهما أردت ، فإن هذا الصندوق المملوء دراهم كله لك ، لا تتوقف عن شيء كلياً . فأخذت أقول في نفسي : يا صبي ، الله والعالم ، هذا كلام من يريد أن تودع الدنيا ، وكأن منتهى حياتي سيكون على يده ، وعند ذلك رميت كل هم وغم وكرب عن بالي ، وابتدأت بالبسط والسهرة والبساتين والمآكل اللذيذة والفرح ، وعملتُ كل ما يلدني ويسر خاطري . وأقمت ثلاثين يوماً على هذا الحال ، وهو كل يوم يحضر إلى عندي ويقول لي : كن مسروراً ولا تتوقف من شيء . فما زلت على هذا الحال حتى مضت الأيام الموعودة . فقال لي : يا عزيزي قد انتهت الثلاثون يوماً ، فهل هم بنا نساfer ونربح المكاسب . فقلت في بالي : ليس عليك علامات الذين مرادهم أن يكسبوا ، ولكنني سأكون طويل البال وإن شاء الله سوف أعرف مرادك .

(١٣) «بالكيفيات» .

(١٤) «المكيفيات» .

ثم بعد ذلك وجدنا قافلة متجهة إلى حماة ، فأكثرينا منها وأعطيناها الأحمال وودعنا
الأهل والمحبين والإخوان وسافرنا على بركة الرحمن .

[الابتداء بالرحيل]

وكان خروجنا من حلب في ١٨ شباط سنة ١٨١٠، نهار الخميس صباحاً. وكان مسيرنا اثنتي عشرة ساعة إلى قصبة^(١) يقال لها سَرمين، فدخلنا إلى القصبة المذكورة وقضينا الليل فيها. وثاني يوم سافرنا باكراً إلى بلد يقال لها مَعْرَة النُّعْمان، في الطريق ما بين حلب وحماة. وهذه البلدة تبعت على الإنشراح، جيدة الماء، طيبة الهواء. فقال لي الخواجه لاسكاريس: أجد لنا مكاناً ننزل به، لأن القافلة ستبقى يومين في المعرة. فرحْتُ إلى خان وأخذتُ غرفة^(٢) ليومين. ففي هذه البلدة يقوم سوق^(٣) كل يوم أحد/ويأتي أناس من كل القرى والضيع للبيع والشراء ويكون ذلك النهار فرجة [للحاضرين]. فقمنا يوم الأحد الذي هو ثاني يوم وصولنا، وذهبنا إلى السوق لتتفرج. وبينما نحن دائرون التفتُّ فما وجدت الخواجه لاسكاريس، فصرت أدور عليه بين الناس، وبعد حصة وجدته جالساً عند حائط وإلى جانبه بدوي قذر، زري المنظر، وهو يتحدث معه. فقلت له: ماذا تتكلم مع هذا البدوي الوسخ، وأنت تكاد أن تعرف لسانه، وكيف تفهم منه، وماذا يلذك من حديث رجل مثله. فقال: إن هذا النهار سعيد عندي إذ صار لي أن أتكلم مع واحد من البدو. فقلت في بالي صدق من قال عنك أنك سخييف العقل.

(١) القصبة: البلدة الكبيرة.

(٢) «أوضه».

(٣) «بازار».

ثم قام الخواجه لاسكاريس ، واشترى خبزاً وجبناً وأعطاهما للبدوي ، وسأله عن اسمه ، فقال البدوي اسمي هلال ، ثم انصرف . ومضى ذلك النهار ، وثاني يوم . سافرنا من المعرة إلى خان شيوخون ، وكان مسيرنا مدة ست ساعات فقط ثم في اليوم التالي سافرنا من شيوخون إلى حماة ، ولكن كان برد وهواء عاصف ورعد وأحوال كئيبة جداً ، فوصلنا إلى حماة وقت المغرب ، وكان مسيرنا تسع ساعات . فدخلنا البلد ونحن لا نعرف أحداً ولا أحد يعرفنا ، فقمنا تلك الليلة في حي^(٤) يقال له الحاضر . ثم ثاني يوم قال لي : قم وابحث لنا عن غرفة^(٥) ننزل بها ونضع فيها رزقنا . فذهبت وأخذت غرفة في قيصرية يقال قيصرية أسعد باشا ، ونقلت الرزق من عند المكاري وأعطيته الكراء ، وجهزت الغرفة بكل اللوازم ، وظننت أنني ثاني يوم سأفتح الرزق وأخذ بالبيع والشراء ، على حسب عوايد الناس . وفي تلك الليلة قلت له : يا سيدي ، غداً إن شاء الله سنفتح هذا الرزق ونبتدئ بالبيع . فضحك وقال : يا ابني ، كل ما في رأسك هو التجارة ، ولو كنت تعرف غيرها من المهن لعلمت أن منها التي تفوقها بالأرباح . ولكن لا عتب عليك لأنك لم تر في حياتك إلا المتجر . وأنا عندي أرذل كل الصناعات التجارة . فقلت في عقلي : ولكن ماذا سنصنع بهذا الرزق/الذي معنا ؟ هل سنرميه^(٦) ؟

ثم أقمنا في حماة نحو عشرين يوماً . ولا حاجة للشرح عنها ، لأنها بلد مشهورة ومعروفة من كل الناس . وإنما نتكلم عما حصل لنا فيها . فبعد دخولنا بأربعة أيام توجه الخواجه لاسكاريس وحده ، من غير أن يعطيني خبراً أو يقول لي أنني ذاهب أتتزه بالبلد . فوصل إلى القلعة ، لأن لها قلعة قديمة متهدمة ، ما بها شيء عمار كلياً غير جبلها فقط ، فصعد إلى القلعة ليرأها . وبينما هو يدور بها وجد بعض الأوباش^(٧) الذين يصعدون إلى القلعة ليلعبوا بالقمار ، في مخادعها المتخربة ، كي لا يراهم أحد ويخبر الحاكم ، لأن هذا شيء ممنوع من الحاكم . فالخواجه المذكور حين طلع ، ابتدأ يقيس بخطواته القلعة عرضاً وطولاً . وكان فيها بعض الأوباش يلعبون بالقمار ، فأروا أنه غريب الزي ، وأنه يقيس القلعة . فهجموا عليه وأمسكوا به وقالوا له : أنت رجل غريب تقيس القلعة ، وتريد أن تخرج منها كنزاً ، فإن أرضيتنا تركنا

(٤) «صايح» .

(٥) «أوضة» .

(٦) «هدنا نكبّ هل الرزق» .

(٧) «أناس معتين» .

سبيلك ، وإلا أعلمنا بك الحاكم . فبعد جدال طويل هرب منهم ، وعاد إلى غرفتنا ، وأخبرني بما جرى .

وبعد قليل من الوقت إذ حضر أربعة تفنكجية^(٨) من طرف المتسلم ، فدخلوا القيصرية ، ووقف اثنان منهم على بابها ، وأخذ الاثنان الآخران بتفتيش غرفها الواحدة بعد الأخرى ، ومعهما الذي راح واشتكى ، إلى أن دخلا غرفتنا . فقال المشتكى : هذا هو الرجل فأمسكوه . فقبضا عليه وعليّ أيضاً ، وقفلا باب الغرفة ، وأخذوا مفتاحها وذهبوا بنا عند الحاكم . وكان حاكم حماة في تلك الأيام رديئاً ظالماً يقال له سليم بك من بيت العظم . فحين دخولنا واجهنا سعادته ووقفنا أمامه . فقال : من أين أنتم يا جماعة ؟ فقلت يا سيدي أنا من حلب ، وهذا الرجل من جزيرة قبرص . فقال ما هو سبب مجيئكم إلى هذه البلدي ؟ فقلت يا سيدي نحن جماعة تجار ، ومعنا رزق ونقصد باب الله . فقال كذبت يا ولد ، أنتم جواسيس^(٩) ، واليوم كان رفيقك بالقلعة يقيسها ويريد إما إخراج كنز وإما أن يأتي بالكفار/يلمكوا البلد ، ٥/٢ خذوهم وأودعوهم في السجن^(١٠) . فحالاً أخذونا ووضعونا بالسجن المظلم ، ووضعوا الزنجير^(١١) بأرجلنا ، وأغلقوا علينا الباب وذهبوا . فابتدأ الخواجه لاسكاريس يضحك ويقول هل أنت مغتاظ^(١٢) يا ولدي مما حصل لنا ؟ فقلت لا ، ما في أحسن من ذلك ، ولكن يا حبيبي لو كنت قلت لي أنك تريد أن تزور القلعة ، كنت ذهبت معك ودبرت المادة وما تركتها تصل إلى هذا الحد . فقال : وكذلك سيصير لها تدبير إن شاء الله .

فبتنا تلك الليلة بالحبس . وعند المساء ، صحت^(١٣) على السجنان وأعطيته خمسة غروش ، وطلبت منه أن يحضر لنا شيئاً نأكله ، ويشعل لنا ضوءاً . فجاء العشاء وعلق لنا قنديلاً . فقضينا تلك الليلة من غير نوم وأكل جسدنا البراغيث^(١٤) والقمل ، إلى أن أصبح الصباح وأتى الحاكم وكل أهل السرايا . فدعوت السجنان وقلت له : يا محبنا ألا يوجد بين

(٨) تفنكجي (من التركية) : رجل سلاحه التفككة أي البندقية .

(٩) «دواسيس» .

(١٠) «حبس» .

(١١) «الجنزير» .

(١٢) «محصور» .

(١٣) «عطش» .

(١٤) «البراغيد» .

الكتاب النصارى من يقدر أن يسعى في خلاصنا؟ قال نعم، هنا شخص يدعى سليم اليازجي، غيور، خدوم، يحب عمل الخير، وكنت سمعت به سابقاً. فذهب ودعاه فأقنى إلى باب الحبس. فسلمنا عليه وحكيما له القضية. فقال كونوا مطمئنين، لا يحدث إلا الخير. وحالاً دخل عند البك وحكى معه. فمن بعد تعب شديد أنهى القضية وصفا خاطر الحاكم. فرجع عندنا وأفهمنا أن المسألة تحتاج إلى برطيل^(١٥) إلى جناب البك. فأعطاه الخواجه لاسكاريس ساعة تقدر بنحو مئتي غرش، وخاتماً من الياقوت الأحمر قيمته نحو مئة غرش، وخمسين غرشاً إلى التفنكجي والسجان^(١٦). وفي الحال أمر البك بإطلاقنا من السجن. فخرجنا وذهبنا عنده، وأخذنا الإذن منه وتوجهنا إلى غرفتنا.

وأقمنا بعد ذلك في حماة نحو عشرين يوماً، كل يوم كنا ننزه وندور في أرجائها، وحقاً إنها بلدة النزه، تشرح النفس، كثيرة المياه، فيها بساتين ونواوير، والعاصي يمر في وسطها، أهلها فصحاء، مهرة^(١٧)، شعراء^(١٨)، وأرباب فن وأصحاب ذوق، بلد من بلاد برّ الشام المشهورة بالجمال.

٦/١ ثم بعد ذلك كنا تعرفنا ببعض الناس/ولاسيما بالخواجه سليم اليازجي الذي كان خلصنا من يد الحاكم. فطلبنا من بعض الأعيان كتاب توصية لأحد سكان حمص يكون فقير الحال ولا يخطر على بال أحد، فأعطونا مكتوباً إلى رجل مسكين يصنع المشايخ السود. وكان المكتوب بهذه اللفظيات: حضرة أئمتنا، إن حاملين هذه الأحرف المعلم إبراهيم القبرصي^(١٩) والمعلم فتوح الله الحلبي من الحضّارين (يعني الذي معه بضاعة تصلح للفلاحين وأهل الدير)، ومرادهما أن يطلعا ببضاعتها [إلى البادية]^(٢٠) لبيعها. فخرجوا أن يكون نظركم عليهما في جميع ما تستطيعون عليه من المساعدة، وإنهما لا يضيعان اتعابكم والسلام.

والغاية من هذا الكتاب أن نكون على صلة بشخص نستطيع أن نستشير ونرجع إليه في أمورنا.

-
- (١٥) «بخشيش».
 - (١٦) «الحبّاس».
 - (١٧) «بُهار».
 - (١٨) «شُعّار».
 - (١٩) «القبرصي».
 - (٢٠) زيادة من المحقق.

ثم سافرنا من حماة مع قافلة حمص، والطريق من حماة إلى حمص اثنتا عشرة ساعة. فبعد خروجنا من حماة ست ساعات وصلنا إلى نصف الدرب، إلى بلد قديمة يقال لها الرُستَن (٢١)، وهي الآن خراب ولم يبقَ منها إلا شيء قليل، ولكن بها عمارات قديمة ظاهرة إلى الآن، وهي مثل قلعة على عاصي حماة، وأمامها جسر. وفي السابق على ما جاء في التاريخ، كانت بلداً عظيمة منيعة حتى في زمن الفتح الإسلامي. ويخبر سلفنا الأب (٢٢) مارينس الذي أرخ في مجلدين ما جرى أيام الفتح، في خلافة عمر الخليفة الثاني بعد محمد، مع الروم على زمن الملك أورليانوس الذي كان يومئذ بالقسطنطينية، إن جيش الإسلام (٢٣) عجز عن أخذ الرُستَن، فعمل خالد بن الوليد، قائد الجيش الإسلامي يومئذ وصاحب القبر المشهور بحمص، حيلة ليضع يده على البلد. وذلك أنه أتى بأربعين صندوقاً كبيراً وأدخل في كل واحد منها رجلاً مسلحاً وأغلق (٢٤) الصناديق، ولكن بنوع أنه يمكن لمن بداخلها أن يفتحها. ثم تقدم بكل جيشه إلى الرستن، وبعث رسولاً إلى حاكم البلد يقول له: يا محبنا، لا حاجة لي بالرستن ولا أريد أخذها، وأنت صاحبي وصديقي، ومهما تطلب مني فعلى الرأس ثم العين. والآن أنا متوجه إلى حلب لحصارها وإني سافتحها بعون الله، إنما معي أحمال وعفش وصناديق كثيرة ٦/٢ تتعبني جداً فأرجو منك، يا محب، أن تضع لي عندك بعض الصناديق التي لا أحتاج إليها الآن، ومتى رجعت من حلب أستردها وأشكر فضلك. ففرح الحاكم من ذلك وقال في نفسه [إنه من المستحسن تلبية هذا الطلب] أولاً لأنني أكسب صداقة هذا القائد، وثانياً أصرفه عني. أما الأمير خالد فإنه أمر رجاله الذين داخل الصناديق أن يفتحوها حالاً متى سمعوا دق النواقيس، إذ تكون جموع النصارى وقتل في الكنيسة، ويهجموا على باب البلد ويفتحوه، ويكون هو مع عساكره وأقفاً أمام الباب، فيدخل ويملك البلد، إن شاء الله. فأدخل الحاكم الصناديق، وفي اليوم الثاني، بينما كانت الناس بالصلاة، خرج الأربعون رجلاً وركضوا وفتحوا الباب، ودخل عسكر الإسلام، وملك خالد البلد، وقتل الحاكم وجملة من الناس، ورتب

(٢١) الرُستَن: «بلدة قديمة كانت على نهر الميماس، وهذا النهر هو اليوم المعروف بالعاصي... والرستن بين حماة وحمص في نصف الطريق، بها آثار باقية إلى الآن تدل على جلالها وهي خراب... وهي في علو يشرف على العاصي». (ياقوت، معجم البلدان).

(٢٢) «لاي» أي l'abbé.

(٢٣) «أرضي»، ويكرر الصائغ هذه الكلمة في أماكن عديدة من مذكراته، ويريد بها الجيش.

(٢٤) «سكّر».

حاكماً من طرفه وتوجه بعدئذ إلى حلب . فمن ذلك اليوم ابتدأ خراب هذه المدينة ولم يبق منها اليوم إلا الرسم .

ثم سافرنا من الرستن إلى حمص ، فدخلناها بعد العصر ، فسألنا حالاً عن الرجل الذي نحمل إليه الرسالة ، فدلونا على بيته . فذهبنا عنده وأعطيناه المکتوب ، فقرأه وحالاً رحب بنا وأدخلنا بيته بكل إكرام . وبعد العشاء حضر عنده عدد من الناس من أمثاله ليسهروا ، ومن جملتهم رجل فقير الحال ، بثياب رثة ولحية^(٢٥) ، ولكنه كان فصيح اللسان حلو الحديث . فأخذ يتكلم عن العرب وأحوالهم وعما يحصل عندهم من الأمور . فانشرح الخواجه لاسكاريس من هذا الحديث ، وقرب هذا الرجل منه ، وأخذ يتكلم معه بكل إنسانية ومحبة ، ويستفهم منه عن أحوال العرب . ثم سأله عن اسمه فقال له نُوْفَل السُّكْرِي أي الذي يصنع قُرب السيوف ويصلح البنادق^(٢٦) . ثم أضاف قائلاً : إنني في كل سنة ، حين تقرب العربان من ديرة حمص ، أذهب وأشتغل عندهم ، وفي الشتاء حين يشرقون^(٢٧) أعود إلى بيتي . ولي معارف وأصدقاء كثيرون من العرب . فسُرَّ الخواجه لاسكاريس من هذا الخبر وفرح ، والتفت إلي وقال : إني رأيت هذه الليلة أخي وكل أهل بيتي . فقلت له : يا سيدي لا يوجد في هذا المكان أحد من بيت دي فنتيميل ؟ فقال : إن معرفتي بنوفل أحسن عندي

٧/١ من رؤية أخي . /

ثم انصرف الناس ، وأعد لنا صاحب البيت فراشاً^(٢٨) واحداً لنومنا . وكان من عادة الخواجه لاسكاريس أن لا ينام مع أحد ، وكان طبعي مثله . فقلت في نفسي : المسألة تحتاج إلى مسaire وتدبير إلى أن ينام الخواجه لاسكاريس وعندئذ سأنسل بكل لطف وأنام على الأرض . وكذلك فكر هو أيضاً بهذا الرأي . ثم أطفأنا النور لأنه ما كان يحب النوم في الضوء . وانتظرت قليلاً حتى ظننت أنه نام ، ثم أنسلت من الفراش والتحفت بمشاحي ونمت على الأرض ، وفعل هو كذلك . وحين أصبح الصباح وجد كل واحد منا صاحبه على الأرض والفراش خالياً . فضحكنا جداً ، ونهض حالاً الخواجه لاسكاريس وعانقني وقبلني وقال لي :

(٢٥) « ذقن » .

(٢٦) « التفنك » .

(٢٧) يرحلون إلى الجهات الشرقية .

(٢٨) « فرشة » .

هذه بشارة خير ، إذ تدل على أن نوايانا وقلوبنا متفقة . وأنت عندي مثل ولدي ، وسوف ترى مني أشياء لم يرها قط أحد من أمثالك ، بل لم يسمع بها من هم أكبر منك سناً .

ثم خرجنا ننتزه بالبلد ، وأول شيء عملناه هو السؤال عن دكان نوفل السنكري . فذهبنا عنده وقلنا له : قم وذر بنا اليوم في بلدك ونحن نعطيك ما ستكسبه من مهنتك^(٢٩) . فأغلق^(٣٠) دكانه وبدأ يدور بنا في حمص . ولا حاجة لإطالة الكلام عن هذه المدينة فهي معروفة مشهورة في الآفاق . ولكن بالمختصر^(٣١) ، إنها بلد طيبة الهواء جداً ، يبعد العاصي عنها نحو ساعة ، ولكن أهلها حفروا خليجاً من العاصي إلى البلد ليستقي من مائه نحو ثمانية آلاف نسمة ، وهي حصينة ، يدور بها سور من الحجر الأسود ، ولها أربعة أبواب تغلق عند المغرب وتفتح وقت طلوع الشمس ، وفي وسطها قلعة على شكل^(٣٢) قلعة حماة وحلب ، ولكنها خراب .

وبينما نحن نتجول مررنا بدكاكين تُصنَّع فيها الفرواات العُثُيَّيات^(٣٣) ، وجهها جلدها^(٣٤) ، وتصبغ عادة باللون الأحمر . فاشترى فروتين ، كل واحدة بعشرين غرشاً ، لأنها صالحة جداً للسفر ، على الطريق ، وللنوم ولو تحت الثلج ، وتدْفئ كثيراً .

٧/٢ ثم استأجرنا غرفة بالخان ، ونقلنا حوائجنا ورزقنا وبتنا تلك الليلة فيها ، وقلنا/لنوفل أن يحضر عندنا غداً ، لأننا كنا مسرورين جداً منه . فهو رجل حلو الطباع ، حسن السلوك ، متواضع ، طلق اللسان ، خبير بالأمور التي نريد معرفتها . فحضر في اليوم الثاني فقلنا له : يا عزيز ، نرجو منك أن تبقى معنا وفي خدمتنا طول مدة إقامتنا في حمص ، فلا تشتغل وليكن عملك معنا . ثم سألناه عن كسبه اليومي فقال ثلاثة غروش . فقلنا له نحن نعطيك أربعة . فاستكثر الرجل بخيرنا وقال مهما أردتم فأمروني به .

وكان الخواجه لاسكاريس يرغب في هذا الرجل ، لأنه بحكم عمله ، له معرفة جيدة بعشائر العرب . فهو يذهب عندهم كل سنة ، ويشغل ستة أشهر الصيف ، إذ يكون العربان

(٢٩) « كارك » .

(٣٠) « سَكَّر » .

(٣١) « بالمختصر » .

(٣٢) « كسم » .

(٣٣) من جلد الأغنام .

(٣٤) الجلد يكون إلى الخارج والصوف إلى الداخل .

قد قربوا من الديرة^(٣٥) ، وفي الشتاء ، حين يتوغلون في البادية على حسب عوائدهم ، يعود إلى داره ويعمل في دكانه بالبلد .

ثم ابتدأ الخواجه لاسكاريس يسأله ، بكل رقة ، ورويداً رويداً ، عن العرب وأحوالهم ومزايهم وطباعهم ومعيشتهم وسلوكهم وشؤونهم وضيافتهم ، وعن أمور كثيرة ، وهو يرد عليه بالصدق والصواب دون تردد . فسررنا منه جداً لأنه أفادنا جداً في أمور يقتضي علينا معرفتها .

وكنا نتجول كل يوم في البلد ، ونتنزه في بساطينها وذلك لتضية الوقت ، إلى أن يمضي الشتاء ويقرب عربان هذه الديار من المعمورة ، حتى تتمكن من الوصول إليهم . لأن من عادة العربان أن يبتدؤا بالتوغل في البادية من شهر تشرين الأول ، فيذهبون إلى الجهات الشرقية^(٣٦) بجملهم وخيلهم ومواشيهم ، حيث يجدون الدفء والماء والمراعي . وهم دائماً في حل وترحال لا يستقيمون في منزلة أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ، ويظلون على تشريقهم إلى أن يصل البعض منهم إلى بغداد ، والبعض إلى البصرة وشط العرب حيث يلتقي الدجلة والفرات وتصب مياههما في خليج^(٣٧) العجم . ثم من شهر شباط يبتدؤن بالاقتراب من نواحي بلاد سورية ، وفي شهر نيسان يظهرون في الديار الشامية ، وهذه حالهم دائماً . / ٨ / ١

وبعد ذلك قال لي الخواجه لاسكاريس : يا فتاح الله ، أريد منك أن تشتري لنا عشر فروات مثل التي اشتريتها ، وعشرة مشالح سود وخمسين كوفية^(٣٨) . والكوفية تصير مدورة بحجم^(٣٩) المنديل^(٤٠) ، وهي مصنوعة من غزل وحرير مصبوغ أحمر وأصفر وأخضر . وهذه الكوفية لا بدّ منها على رأس كل بدوي ، مهما كان عمره ومقامه ، من الراعي الصغير الفقير الحال إلى الأمير الكبير ، ولا يمكن أن يستغني عنها أحد . حمص تشتغل هذه السلع ، وكذلك حماة ودمشق وحلب وبغداد والموصل وماردين والبصرة ، وكل البلاد التي تحت حكم بغداد وكركوت ، ومع ذلك فإن جميع ما يصنع في هذه الديار من الكوفيات لا يسد بحاجة العربان .

(٣٥) الديار .

(٣٦) « يشرقوا » .

(٣٧) « بوغاز » .

(٣٨) « كيفية » .

(٣٩) « قد » .

(٤٠) « محرمة » .

لأن الكوفية، مهما كانت متانتها، لا تثبت^(٤١) على رأس البدوي أكثر من سنة. فهو يستعملها: اتقيه من الحر والبرد. وهي في الوقت نفسه منديل للمخاط، ومنشفة للوجه والأيدي ومسح العرق. والخلاصة أنها كثيرة المنافع، بل إن نصف كسوة البدوي كوفيته. وأهل البادية هم بذلك على صواب، إذ لا بدّ من كوفية في البادية^(٤٢). كما تبين لنا بعد الخبرة والمشاهدة، لأنها ترد عن الوجه والأذنين والرقبة حر الشمس ووهجها صيفاً، وتقي من البرد والهواء والمطر شتاءً. وهي نافعة جداً، وثمنها يختلف على حسب صنفها. فالصنف العالي منها يبلغ ثمنه سبعة أو ثمانية غروش. أما الصنف الواطي فيكون ثمنه ثلاثة أو أربعة غروش. وبلغ ثمن جميع ما اشتريناه وذكرناه آنفاً نحو ست مائة غرش، فحزمناه ووضعناه مع جملة الرزق في الغرفة.

وفال لنا نوفل في بعض الأيام هل ترغبون في زيارة القلعة ورؤيتها^(٤٣). قلنا نعم ولكننا نخاف أن يحصل لنا ما حصل بحماة. فقال أنا المسؤول عن كل ما يحدث. فتوجهنا إلى القلعة، وصعدنا إلى أعلاها، وزرنا كامل المخادع، لأنها بها من العمار القديم القائم أكثر من حماة. وبينما نحن ندور فيها، وصلنا إلى مكان مثل المغارة، فنزلنا ووجدنا في صدر المغارة ماء جارية آتية من الغرب ورائحة نحو الشرق، وهي تخرج من طاقة طولها ذراعان وعرضها ذراع، وتجري الماء نحو أربعة أذرع، ثم تدخل في شبك من حديد متجه نحو المشرق، إلا أن هذه المياه غزيرة قوية، يمكن أن تدير حجر طاحون، وهي تنحدر من المغرب/وتجري نحو الشرق، ولا يعرف أحد من أين تأتي ولا إلى أين مجراها. فشرينا منها وهي ماء طيبة عظيمة، ولكنها في مكان مخفي نوعاً ما، ولا يتجرأ^(٤٤) إلا القليل من الناس على النزول إلى المغارة لرؤية هذه الماء. وأخبرنا نوفل أنه سمع من بعض الرجال الطاعنين في السن^(٤٥) أن هذا الشباك كان سدّ في الزمن القديم فجرى الماء في خندق القلعة. ولكن بعد ستة أشهر حضر درويش من العجم وصعد إلى القلعة وفتح الشباك. وسمع به الحاكم فأمر بإحضاره وأراد قتله، لأنه عمل شيئاً، ولم يأخذ إذن الحاكم. ففدى الدرويش نفسه بمبلغ من المال، قدمه للحاكم، حتى صفح عنه.

(٤١) «تضامين».

(٤٢) «الجلول».

(٤٣) «تفترجوا».

(٤٤) «له جراحا».

(٤٥) «اختيارية» = اختيارية.

وكتب الحاكم لعنة على كل من يسد هذا الشباك مرة أخرى . ويكاد أن يكون هذا المكان مجهولاً الآن ، ولا يعرفه إلا القليل من الناس ، لأنه في موضع مخفي جداً ، وقد سَدَّ ثلثا باب المغارة بالحجارة كي لا يدخلها^(٤٦) أحد .

ثم نزلنا من القلعة ، وقد أخذنا العجب مما شاهدناه ، وذهبنا إلى غرفتنا حيث استرحنا وأكلنا ما لدينا من الزاد . ثم قال لي الخواجه لاسكاريس : يا حبيبي هل تقيد نالورق كل ما رأينا ؟ فقلت : لا ، لأنك لم تسألني ذلك . فقال : فكر بجميع ما وقع لنا من يوم خروجنا من حلب وقيده ، وأريد منك أن تسجل ، كل يوم ، جميع ما نراه وما يجري علينا ، من مليح ومن قبيح . وعند المساء تقرأ لي ما كتبت حتى أقيده عندي باللغة الفرنسية . فقلت : سمعاً وطاعة . ومن ذلك اليوم ابتدأت أحرر كل ما يحدث لنا يوماً بعد يوم . وعند المساء ، قبل النوم ، أقرأ له ما كتبت ، وهو بدوره يقيد عنده ، في كتاب خاص ، جميع ما حدث في ذلك النهار ، واحفظ عندي في صندوق الورقة الطيارة . واستمرت على هذا الحال ، كل يوم أكتب ما يقع لنا وما نشاهد ونسمع ، مدة ست سنوات سياحتنا ، بل إني تابعت التدوين مدة عدة أيام بعد نياحة المرحوم لاسكاريس أبي الروحي ، الذي قضى نحبه [في نهاية رحلتنا] ، كما ٩/١ سنشرحه لمسامعكم الكريمة/ في آخر هذه السيرة .

ثم أقمنا في حمص ثلاثين يوماً . ومن جملة ما شاهدناه وعرفناه أن أهلها كرام^(٤٧) ، أصحاب الأجسام ، أنقياء الدم . حمر الوجوه ، نساؤها جميلات وكذلك رجالها ، إلا أنهم غشماء ، خلافاً لأهل حماة ، مع أن المسافة بين البلدين لا تزيد على اثنتي عشرة ساعة ، كما ذكرناه سابقاً . وهذا الفرق العظيم في الطباع ناتج عن الماء مع أن البلدين يشربان من العاصي . إلا أن الماء تتغير بمرورها في الأراضي ، ولذا فإن الماء الداخلة إلى حماة زرقاء صافية . بينما مياه حمص بيضاء مثل الحليب ، فعرفنا أن الفرق بين سكان البلدين ناتج عن هذه الحركة .

وبعد ذلك قلنا لنوفل : نريد أن نتوجه إلى قرية صَدَد ، ونرغب من همتك أن تجد لنا أناساً يحملون بضائعنا ويذهبون بنا إلى صَدَد . فقال على الرأس والعين . وغاب ساعة من

(٤٦) « يفوت » .

(٤٧) « محسنين » .

الزمن ثم عاد وقال لنا : اصبروا إلى يوم الأربعاء إذ يحضر أناس من صدّد لبيعوا أعبية^(٤٨) في حمص ، وذلك لأن كل يوم الأربعاء يقوم سوق^(٤٩) ، ويحضر الناس من كامل إيالة^(٥٠) ، حمص للبيع والشراء ، من أعبية ومشالح وفوط حمام للنساء وزنانير حرير ، وهذه هي البضائع التي تصنع بـحمص . فحين صار يوم الوعد ، حضر أناس من أهالي صدّد وباعوا أرزاقهم ، واتصل نوفل بهم ، وكلمهم ، وجاء بهم إلى غرفتنا ، وتم الكراء معهم .

وفي اليوم التالي خرجنا من حمص باكراً مع ثمانية أشخاص من أهالي صدّد ، وكان نوفل بصحبتنا ، وأخذنا معنا كل رزقنا وتوجهنا نحو باب الله الكريم . وكان مسيرنا دائماً إلى المشرق ، لأن صدّد تقع شرقي حمص^(٥١) ، وهي تبعد عنها اثنتي عشرة ساعة تماماً . وبعد مسيرنا بخمس ساعات ، وصلنا إلى ماء جارية عظيمة آتية من ناحية المشرق ومتجهة إلى قلعة حسّا^(٥٢) ، والقلعة المذكورة تقع قبلي حمص ، على عشر ساعات منها ، وهي مخصصة لنزول الحجاج بها في مسيرهم للشام^(٥٣) ، وعليها آغا من قبل والي الشام يقال له أسعد آغا ابن مسقل^(٥٤) . فشرينا من هذه الماء وملأنا الجُود^(٥٥) منها ، والجُود هي قرية صغيرة من الجبل . فحملناها وتابعتها طريقنا ، إذ ليس أمامنا غير هذه الماء حتى صدّد . أما الطريق فسهلة ، غير وعرة ، لا تقطعها جبال ووديان أو غير ذلك من العقبات . وبعد نزولنا على الماء سرنا مدة سبع ساعات ، حتى وصلنا إلى صدّد ، مع غياب الشمس . فمشى نوفل أمامنا إلى بيت الشيخ ، لأن الشيخ والضيعة جميعها من النصاري السُريّان القدماء ، فرحبوا بنا واستقبلونا أحسن استقبال . والشيخ رجل عظيم فهم طاعن بالسن ، يقال له عسّاف أبو إبراهيم ، وله خمسة أولاد شباب وأربع بنات ، وقد زوجهم كلهم ، وهم يعيشون معه في بيته ، ولهم أولاد . والخلاصة أن هذه العائلة مكونة من أولاد الشيخ وبناته ، ونساء أولاده ورجال بناته وأولادهم

(٤٨) « عبي » .

(٤٩) « بازار » .

(٥٠) ولاية ، إيالة ، والمعنى واحد .

(٥١) الصحيح ، أن قرية صدد تقع في الجنوب الشرقي من حمص .

(٥٢) ما بين الكرك ومعان .

(٥٣) الصايغ يكتب دائماً الشام ويعني بها تارة بلاد سورية وتارة مدينة دمشق .

(٥٤) كذا ، ولعله يريد مصقل .

(٥٥) الجود والجمع لإجودة ، جلد جدي يدبغ ويستعمل لجلب الماء (روكس العزيري) .

وخدمهم ورعيهم^(٥٦)، وهي تعد نحو ستين نفراً. فحين تدخل بيته تظن أنك في عرس أو احتفال، مع أن جميع الحاضرين يشكلون عائلة واحدة.

ثم سألنا الشيخ عن سبب حضورنا إلى هذه الديار، وإذا كنا نرغب في الإقامة عنده أو نود الذهاب إلى مكان آخر؟ فكان جوابنا: يا سيدي، نحن جماعة تجار، كنا سابقاً في قبرص، وأما الآن فبسبب الحروب المتواصلة بين الإفرنج، انقطع^(٥٧) البحر ولم يبق لنا باب للتجارة وأصبحنا نخشى الفقر. فرأينا من المستحسن أن نذهب إلى حلب للبيع والشراء، ولكننا وجدنا أيضاً في هذه المدينة عدداً من كبار التجار الأغنياء نحن لا نصلح لسمسرتهم. فقم رأينا عندئذ على جلب بضاعة خضارين^(٥٨) تصلح للبر والعرب، ونسترق من باب الله. فقال: هذا رأي صالح مناسب يا اخواني، ولكن ماهي بضاعتكم؟ فعرفناه بجميع ما معنا. فقال: بضاعتكم هذه أكثرها يروج عند العرب، ولكنكم لستم من الذين يستطيعون الوصول إليهم والإقامة عندهم، إلى أن يتم لكم بيع بضاعتكم، فهذا أمر صعب جداً ١٠/١ ويحصل لكم منه ضرر وأذية، ولا سمح الله قد يكون ذلك سبباً لنهاية حياتكم، ويتأق عنه تعب شديد لأن معايشة العرب صعبة جداً بسبب طمعهم المشهور، فإن لم تعطوهم طلبهم عن طيبة خاطر^(٥٩) أخذوه غصباً^(٦٠)، وإن أكثرتم عليهم الكلام قد يقتلونكم. فأنتم جماعة أرقاء القلوب، سمحاء كرام^(٦١)، وجهكم حيي، لستم أهلاً لهذه الأمور الصعبة. والرأي عندي، إن سمعتم كلامي، أن تعرضوا غداً بضاعتكم وتبيعوا منها ما يسهله الله، وتحملوا الباقي وترجعوا به إلى حمص حيث تعملون على تصفيته، ثم تعودون إلى بلدكم فتكسبون أرواحكم ومالكم. ودار الحديث بين الحضور وصار كل من بالمحضر^(٦٢) يعطي نصيحته. فاصفر وجه الخواجه لاسكاريس من هذا الكلام، والتفت نحوي، وقال باللغة الإيطالية: ماذا تقول بهذا الخبر الذي قطع قلبي يا ولدي؟ فقلت له: إن كل هذا الحديث لا يسوى عندي تينة يابسة، وأعلم يا سيدي أن من يذهب إلى الحرب عليه أن يقطع الأمل

(٥٦) كذا والمعنى غير واضح، ولعله يريد الرعيان.

(٥٧) «ارتبط».

(٥٨) الخضار: التاجر المتجول الذي معه بضائع تصلح للفلاحين وأهل البادية.

(٥٩) «بالطيب».

(٦٠) «بالزور».

(٦١) «شلاية».

(٦٢) المجلس.

من رجوعه إلى الوطن ، ونحن ذاهبون إلى أماكن وعند أناس أنجس من الحرب . وعندما أفهمتي أنك تنوي الذهاب عند العرب ، ما عدت أفكر أني سأعود إلى وطني بالسلامة ، بل أني سأقتل وتأكّل جسدي وحوش الفلاة^(٦٣) ، أو قد يقوم ابن حلال بطمر جسدي^(٦٤) في الرمل ، أمّا أن أرجع بالسلامة ، فإن الأمل ضعيف . ولذا يجب أن تكون قوي العزم . واعلم أن هذا الشيخ وإن كان طاعناً في السن وفهيماً ، ولكن معرفته لا تتعدى أمور قريته وفلاحيه وبيته وأولاده . أما الأمور مثل التي نسعى نحن في تحقيقها^(٦٥) ، فهي لا تدخل في عقله ولا سمع بها قط . وعليه كن مرتاح البال ولا تخشَ شيئاً ، فبعون حامينا ، سلطان الخير ، لا يحصل لنا شر أبداً . ولكن لا تعد إلى مثل هذا الحديث مع شيخ القرية ، ولا تذكر اسم العرب بفمك أمامه ، ولكن طأوه على عقله إلى أن تتسهل أمورنا وتكون طبق مرامنا .

فسرّ الخواجه لاسكاريس من هذا الكلام وقال : الآن أصبحت متأملاً بك كما أني ١٠/٢ متأمل بالله . ثم انصرف الناس ، وقمنا بدورنا ودخلنا إلى غرفة فرشت لنا ، وثمنا تلك الليلة . /

(٦٣) «الجول» .

(٦٤) «أو يصح ابن حلال بطمر جسدي» .

(٦٥) يستدل من هذا الكلام على أن لاسكاريس كان أطلع ترجمانه على حقيقة نواباه ، أو على البعض منها ، ولكن يظهر من سياق القصة ، أن الصايغ ظل جاهلاً غايات معلمه إلى حين ذهابه عند الدُرَيْمي بن شغلان (انظر ص ٩٥) .

نمره ٢

[أول لقاء مع البدو]

وثاني يوم قمنا دورنا بالضبعة، فوجدناها ضبعة عظيمة، تحوي على مائتي بيت. جميع سكانها نصارى سريان، من غير أحد مخالطهم مطلقاً. صنعتهم شغل العبي والمشاخ. فيها خمس كنائس وخمسة قسوس، كل واحد منها له كنيسة. ماؤها يجرى من عينين، وعندهم قليل من البساتين، لأن جميعهم مشغولون بصنعتهم، ويزرعون قليلاً من الحنطة والشعير ويحصلون على ما يكفيهم نصف السنة فقط، والسبب أن كل زرعهم سقي من العين لقلّة الأمطار وأكثر السنين لا تسقط الأمطار قطعاً، ولذا فإن زرعهم قليل، وهم يتقاسمون الماء بالساعة. وأما ما ينقصهم من مؤنة ولوازم، فإنهم يستوردونها جميعها من حمص. وفي وسط القرية برج قديم العمارة كبير الارتفاع.

ويتحدث أهل صدّد بتاريخ عمارة قريتهم ولماذا سميت صدداً. فلهذا الاسم تفسير، فمعنى صدّد أنهم صدّوهم ومنعوهم عن التقدم أكثر مما تقدموا. والسبب هو أن جدود سكان صدّد كانوا سابقاً مقيمين في طرابلس الشام. وكان هناك حاكم يقال له رومان، من قبل ملك الروم بالقسطنطينية. وهؤلاء الروم كانوا مشهورين بجورهم وردائهم في ذلك الزمن. أما الحاكم المذكور، فإنه استبد بهؤلاء السريان المساكين وظلمهم ظملاً لا يطاق فاضطروا إلى الجلاء بكامل أسرهم وأرزاقهم مما قدروا على حمله، وهربوا إلى حمص، ومنها إلى البراري، قاصدين بغداد. فأرسل رومان عساكر خلفهم، لنهبهم وقتلهم وإرجاع من بقي منهم. فما

لحقهم العسكر إلا بعد أن بعدوا عن حمص اثنتي عشرة ساعة، فصدهم الجند، ومنعهم عن التقدم زيادة، ووقع بينهم قتال، ونهب العسكر أموالهم. ثم أنهم كتبوا كتاباً إلى الحاكم رومان وطلبوا منه الإذن بالإقامة بتلك الأرض، وتعمير قرية لهم، فأذن بذلك، ورجع العسكر عنهم. وكل واحد منهم بنى له بيتاً وأقام به، وكان عددهم يومئذ ثلاث مئة عائلة. فلهذا السبب سميت قريتهم صدداً.

ثم فتحنا بضاعتنا، كي نري للناس أننا تجار، ونستر مقصودنا. فصرنا نبيعهم، وأكثر ما بعناه هو الخام الأحمر، لأن جميع نسائهم تلبس من هذا اللون. فبعنا شيئاً قليلاً بمقدار خمس مئة غرش. وبعد يومين أو ثلاثة وقف البيع لأن أهل صدد أخذوا كفايتهم، فصرنا نمضي الوقت، إلى أن يحل وقت تقرب العرب من الحاضرة^(١). وأخبرنا بعض سكان ١١/١ صدد أنه يوجد، بعيداً عن هذه القرية، عمارة قديمة متهدمة/بها حمام طبيعي، لأن الماء السخن طبيعي، بل إنه من البخار. كما سنشرحه. فتشوقنا إلى رؤية ذلك المكان وطلبنا من الشيخ أن يأمر بعض الناس أن يصحبونا لنذهب ونرى ذلك المكان. وفي اليوم الثاني قمنا باكراً وكان يرافقنا خمسة أنفار من القرية بواردية^(٢)، وكان نوفل بصحبتنا أيضاً. فكان مسيرنا أربع ساعات لطرف الشرق، منحرفين لجهة الشمال. فوصلنا ووجدنا عمارات قديمة وخراباً كثيراً، ثم وجدنا مخدعاً بحجم غرفة كبيرة، لم يزل واقفاً، بناؤه على الطريقة القديمة بالأحجار الكبيرة جداً، إنما سقطت منه فقط قطعة من الحائط، من جهة الباب، فسدت نحو نصفه. فدخلنا ووجدنا طاقة من جهة الشرق، طولها نحو ذراع وعرضها كذلك، قديمة البناء جداً، ويخرج من تلك الطاقة بخار^(٣) كثيف بكثرة. وأخبرنا الذين معنا أننا إذا رمينا شيئاً في هذه الطاقة فإن البخار يصعده مرة ثانية^(٤) إلى فوق. فرمينا محرمة ومسكنا الساعة، فبعد دقيقة ونصف طلعت إلى فوق، ثم وقعت أماننا. فأخذنا قميصاً ورمينا به، فبعد عشر دقائق طلع مع البخار ووقع أماننا. وأخبرنا بعضهم أن أناساً رموا مشلحاً، الذي ثقله نحو رطلين من الوزن الحليبي، فرفعه البخار.

ثم بعد ذلك خلعنا ثيابنا، ولم يبق علينا إلا القميص، وجلسنا جانب الطاقة، فأبتدأنا

(١) «الديرة».

(٢) رجال يحملون البارودة أي البندقية.

(٣) «هَبَال».

(٤) «ثاني مرأ» أي من جديد.

نغرق عرقاً عظيماً، حتى ساح العرق من أجسادنا على الأرض، كأنه مجرى ماء. فقمنا وتبدلنا ولبسنا حوائجنا، إلا أننا وجدنا نشاطاً وخفة بالجسد أحسن من حمام الماء بكثير. وهذه الحمام كان يقصدها الناس للاستشفاء^(٥) سابقاً، وإلى يومنا هذا مازال الذين يعرفونها، وهم أهالي صدد وسكان تلك الديار، يصفها بعضهم إلى بعض لأجل عدد من الأمراض، ويتم شفاؤهم بها.

ثم رجعنا إلى صدد، وكان المساء فنمنا تلك الليلة بكل راحة وهدوء، وذلك كان من فعل الحمام. ومن ذلك الوقت، إلى حين انتهاء سياحتنا، لم نر المرض في جسدنا، لأن جميع الصدا والغش للذين كانا في جسدنا ذهباً مع العرق، والواقع أن رائحة العرق التي فاحت منا بفعل البخار كانت كريهة جداً، فبان لنا أن جميع ما خرج هو الغش الذي يحدث القروح والأوجاع في جسم الإنسان./ وهذا شيء معلوم، والذين بنوا هذه الحمام كانوا عارفين نفعها وجعلوها طياً.

وبعد ذلك اقمنا بعض الأيام، إلا أننا كنا متكررين إذ ليس هناك من جديد نراه. فعزمنا على التوجه إلى ضيعة يقال لها القريتين، وهي تبعد عن صدد عشر ساعات، وتقع نصب شرقها^(٦). فاستكرينا من أهالي صدد وحزمننا أحمالنا وبتنا تلك الليلة على أهبة السفر. فقال لنا نوفل: يا جماعة، أسماؤكم لا تناسب هذه الديرة وخصوصاً عند العرب، فيقتضي لكم أسماء دارجة تصلح عند العرب والحضر، (فالعرب هم سكان بيوت الشعر والبادية، والحضر هم سكان القرى والبلاد). فاعتمد رأينا على تسمية الخواجه لاسكاريس شيخ إبراهيم القبرصي^(٧)، وأتخذت لي اسم عبد الله الخطيب أعني الكاتب، باصطلاح لغة العرب.

وثاني يوم من الصباح ودعنا الشيخ وكامل المحبين وتوجهنا على اسم الله. فبعد مسيرنا بأربع ساعات وصلنا إلى ضيعتين، الواحدة أمام الأخرى والطريق بينهما، الواحدة على اليمين والأخرى على اليسار، يقال لهما مهين وحوارين، وبينهما ماء جارية تكفي لهما. وفي كل ضيعة فقط نحو عشرين بيتاً، لأن أكثرها خراب، والمسافة بين القريتين نحو عشر دقائق

(٥) «حمام حكمة».

(٦) «وهي بعيدة عن صدد عشرة ساعات شرقها نصب»، وهذا غير صحيح لأن القريتين تقع شرقي جنوبي صدد.

(٧) سبقت هذه التسمية في رسالة توصية (انظر اعلاه صفحة ٣٩).

فقط . وفي وسط كل قرية برج شاخ عال ، قديم العمارة جداً ، على صفة^(٨) عمارة ما قبل ظهور البارود . ولباس أهلها كلباس العرب وكذلك كلامهم . فجلسنا وأكلنا ما كان معنا من الزاد ، وأملأنا جُود الماء ، إذ لم يبق أمامنا من ماء قبل القريتين ، وهو المكان الذي نقصده ، على بعد ست ساعات من الطريق التي أمامنا . فمشينا إلى ما بعد غياب الشمس ووصلنا بالسلامة ودخلنا القريتين . وكان معنا كتاب توصية من شيخ عَسَّاف ، شيخ صدد ، إلى خوري سرياني . فذهبنا إلى بيت الخوري وسلمناه الكتاب ، فترحب بنا وأدخلنا بيته بكل إكرام ، وثمان تلك الليلة . وثاني يوم قمنا لنرى المحل الذي نحن به ، فوجدنا أنها ضيعة كبيرة جداً يحق لها أن تسمى القريتين أي الضيعتين . بها نصارى سريان قدم نحو عشرين عائلة فقط ، وبها إسلام نحو مائتين وخمسين عائلة . وشيخها رجل محترم^(٩) يقال له الحاج سليم الدَّعَّاس . وهذا الشيخ عليه وظيفة كل سنة ، فهو يحمل نصف حملة الحج إلى وزير الشام . نحو مفتي حمل : شعيراً وطحيناً وُبُقُكُشُمات^(١٠) وخيماً وحنطة وسمناً وجميع لوازم حملة الحج . أما النصف الثاني فملزوم به شيخ تدمر الذي سوف نتكلم عنه بالاختصار^(١١) . / ١٢/١

فهذه الضيعة حصينة ، من دائرها حيطان ملتحمة وبيوت متلاصقة بعضها ببعض . وليس لها غير باب واحد فقط . وسبب ذلك خوفهم من العربان أن يسطوا عليهم ، لأنهم يخافون كثيراً من العرب ، حيث أنهم في البادية . ثم لها ماء كافية لهم جارية ، ونبعها بعيد عن الضيعة نحو خمس ساعات ، من محل يقال له شُعْب اللوز ، ولها بساتين وكروم عنب ، وزرعهم سقي على الماء يقتسمونها بالساعة الرملية بينهم . وعليهم ميري^(١٢) إلى وزير الشام يخصصونه على ساعات الماء ويقطعونهم من أجرتهم حين يحملون لوازم الحج .

وقبل كل شيء قال الخوري : سيروا بنا نسلم على الشيخ سليم الدَّعَّاس ، لأن هذا شيء واجب جداً . فسألنا عن سبب حضورنا إلى نواحيهم ، فكان جوابنا نحن تجار قصداً البيع والشراء ، كما كنا ذكرنا السبب لشيخ صدد . فقبل منا ذلك وقال عن العرب كما قال الشيخ عساف بل أكثر . فقلت لها : يا سيدي كل ما تقوله صحيح ، والشيخ عساف نهانا أيضاً عن

(٨) «كسم» .

(٩) «معتبر» .

(١٠) بُقُكُشُمات : نوع من الكُفْكُ .

(١١) «بالاختصار» .

(١٢) ميري أي ضريبة ، من العربية أميري .

التوجه عند العرب ، ونحن قبلنا نصحه ولم يبق لنا رغبة في الذهاب عند العرب ، إنما نشتهي فقط الوصول إلى تدمر ، عسانا نستطيع أن نبيع شيئاً من أرزاقنا . فقال وهذا الأمر أيضاً صعب لأن تدمر هي أشكال العربان . فإذا رأوكم طمعوا بكم ويصير لنا بسببكم وجع رأس وتعب ، وابتدأ يحكي لنا حكايات عن العربان وفعلهم الردي ، والخورى يصادق على كلامه حتى قطعاً قلوبنا بمحبتهم . وبعد ذلك حضر الغداء فتغدينا عنده وشرينا القهوة وذهبنا إلى بيت الخورى . فقال لي الشيخ إبراهيم القبرصي : ما هو رأيك يا ولدي ؟ فقلت له : يا سيدي هذا رجل قلبه محروق جداً من العرب ، لأنه تحت حكمهم ، ودائماً ينقلون عليه ، ومن يثقل على الناس لا يكون محبوباً . وأما نحن فليس بيننا وبين العربان عداوة ، وإذا مشينا معهم بكل محبة وإكرام ما أظن أنه يحصل لنا منهم تنكيد . فقال : وأنا عند ظنك .

وكنّا كل يوم نذهب لزيارة الشيخ نحو ساعة من الزمن . وفي بعض الأيام قال لي : عندي نظارة معكوسة فهل تستطيع يا عبد الله أن تصلحها لي ، وأنتك إن استطعت اصلاحها سميتك شاطراً^(١٣) . ثم احضر النظارة فأخذتها وفتحها ، فوجدت أن بعض الزجاجات^(١٤) واقعة من محلها ، فأعدتها إلى مكانها ، ثم مسحت سائر الزجاجات وأعطيته النظارة ، فأخذها ونظر فيها ، فتبين له أنها صحت كما كانت . فسّر^(١٥) جداً وقال لي : الآن^(١٦) عرفت أنك معلم جليل ، وأنتك عندي صاحب عقل . وصار يحبني جداً ويسميني الشاطر صاحب العقل .

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام قال لنا الخوري موسى وهو الشخص الذي نحن بضيافته : يا جماعة افتحوا رزقكم وبيعوا الذي يقسمه الله لكم . فاضطررنا غصباً عنا ، كي نسترح حقيقة أمرنا ، أن نعرض بضائعنا ، وأخذنا نبيع في الساحة ، أمام بيت الشيخ الواقع في وسط القرية . فصار الناس يفدون علينا ويقعدونا عندنا ويقبضون لنا الدراهم من النساء . وكان من أكثر الناس ألفة لنا شاب يقال له حسيسون الكعب . فبعد أربعة أو خمسة أيام انتهى البيع ورفعنا البضاعة وأخذنا ننزه بالقرية ، فجاءني حسيسون وقال لي : يا سيدي هل عندك للسرّ مطرح ؟ قلت : نعم ، ماذا تريد ؟ قال : مادة سرية جداً ، على أن تعطيني كلاماً بأنك لا تحب

(١٣) أي ماهراً .

(١٤) البلورة .

(١٥) «فانحط» .

(١٦) «هلق» .

أحداً بها . قلت : معاذ الله لا يمكن أن تطلع من فمي إلى مخلوق . قال في مغارة بعيدة ساعة عن القرية خابية ملآنة ذهباً ، وهذه القطعة منها . وأعطاني قطعة ذهبية قديمة من سبكة تدمر ، وقد صودرت مع حوائج الخواجه لاسكاريس بعد نياحته في مصر القاهرة . فحين أعطاني الذهب حققت ذلك ^(١٧) ، وقال لي : « إنني لست قادراً على تصريف الذهب ، ولذا أرى أن تذهب معي سراً حتى أريكه ، ثم تنقله رويداً رويداً ، وتصرفه وتعطيني عملة دارجة المبلغ الذي يسمح به خاطرك » . ففرحت وقلت بنفسني أن لا أكلم الشيخ إبراهيم بهذا الأمر إلا بعد أن أرى جليلة الخبر .

وفي اليوم الثاني انسللت من الجماعة ، وطلع حسيسون خارج القرية واجتمعنا ومشينا سوية . وكان معه بندقية ^(١٨) وسيف وعصا رأسها مكمل به مسامير من حديد يسمونها كنانة . فسرنا نحو ساعة من الزمن ، وأنا ليس معي غير قصبة التوتون ^(١٩) ، إلى أن وصلنا إلى مغارة مظلمة . فدخلنا إلى صدر المغارة إلا أنني لم أجِد فيها شيئاً . فقلت له : أين الخابية ؟ فاصفر لونه ^(٢٠) وقال : ايش ^(٢١) رماك معي ؟ أعلم أن اليوم آخر حياتك في هذه الدنيا ، وكنت قتلتك قبل أن انزع عنك ثيابك ، إلا أنها تلوث بالدماء وتصبح غير صالحة . فإذا اشلح ثيابك واعطني الكيس الذي كنت تضع فيه الدراهم ثمن البضائع التي بعته للناس نحو ألف غرش ، وهذه طمعتي بك ، وتأكد أنك لن ترى النور/بعد اليوم . فابتدأت آخذه بالكلام اللين وأكدت له أنني سأعطيه أكثر مما هو متأمل أن يأخذ مني ، وأني لن أحكي لأحد ولن تطلع من فمي هذه الدعوى . فقال : هذا الكلام لا يفيدك ، فإذا أنا أطلقتك لا بد أن تحكي وتكون سبب موتي . فصرت أحلف له بالأيمان العظام والأقسام الكبار أنني لن أحكي ، وأني سأعطيه شيئاً كثيراً إذا سمح لي بدمي . فقال : لا يمكن ذلك وأني لم أحضرك إلى هذا المكان لتبقى حياً ، بل لأقتلك وأطفيء خبرك ، لأنني إذا أبقيتك على قيد الحياة أموت أنا . فمن بعد كلام كثير وجدال طويل اسند بارودته على الحائط والكنانة جنبها ، وهجم علي مثل الذئب على الخاروف ، ومراده أن يأخذ ثيابي وبعد ذلك يقتلني . ثم وصل إلي وأمسكني ، وكان أكبر

(١٧) كذا في الأصل ولعل الصائغ يريد أن يقول : تحققت من صحة كلامه .

(١٨) « تفنكه » .

(١٩) التبغ .

(٢٠) من العجب أن يرى الصائغ في الظلمة اصفرار وجه عدوه .

(٢١) أي شيء .

مني عمراً واقتداراً، قوياً جداً، يأكل ثلاثة مثلي، فتضرعتُ إلى الله تعالى واستغثتُ بسيدي سلطان الخيرات الذي هو حامي، وتصور أُمامي كامل إخواني وأهلي وأحبائي وقلت في بالي: ما اشنعها من موتات، وعزّت علي الدنيا وخرّت الدموع من عيوني وقلت: إيه يا جبار، يا قوي، يا باسط الأرض ورافع السماء، يا مخلص عبيدك من الشدائد، أن تعينني وتخلصني من يد هذا الظالم، ثم التفت إليه وقلت: يا صاحبي أي عداوة بيننا وأي سبب يحملك على سفك دمي في هذا المكان المنقطع، وأي أذية وأي ضرر صدر مني في حقل؟ أما تعلم أن يوم الله قريب ويطالبك خالقي بدمي؟ فعبس وجهه وحملني في بعينه وأمسكني وجذبني إليه، وأخذنا نتعارك، ووجدت في نفسي قوة عظيمة من حلاوة الروح والخوف من الموت. وظللتُ في صراع نحو ساعة من الزمن، حتى تحمّس وجهي وربّتي وتحذش يديّ وساحت دماي من كل أطرافي وتمزقت ثيابي وأصبحت في حالة لا توصف، وأنا دائماً غير قاطع أُملي من الدنيا ومفكر في حيلة يكون بها نجاتي من يد هذا الشرير. وأثناء ذلك تمكن من القبض على عنقي وحاول أن يخنقني وضغط^(٢٢) بكل قواه، أما أنا فما كنت كسلان، وقبضتُ بكلتا يدي على كيسه بين فخذي/واطبقت^(٢٣) عليه بكل عزمي، فزاغ بصره واصفر لونه ووقع على الأرض مغشياً عليه لا يدرك شيئاً. فحالاً أخذت سيفه من جانبه ثم التفت وأخذت البارودة والكنة وخرجت من باب المغارة وأنا من فرحي لا أصدق حالي، ومشيت على الدرب طالباً الضيعة. وبعد نحو ربع ساعة نظرت إلى الخلف فرأيت راکضاً. وهو يصيح ويستجير بي ويطلب مني أن أقف، فوقفت لأني لم أبق خائفاً منه فالسلاح بيدي. فحين أصبح قريباً مني أخذ يكي ويتوسل إلي ويقول: ما أصغر عقلك، أنا لعبت معك حتى أجرب صداقتك وأنت ظننت أني كنتُ على جد؟ فأخذت البارودة بيدي وقلت وحق من خلصني من يدك وهو جبار السموات والأرض. إن خطوط خطوة ثانية نحوي^(٢٤) ملائ^(٢٥) بطنك رصاصاً. واعلم أنه لم يبق لك خلاص، وإن شاء الله إني سأجعل قتلك شهرة حتى يتأدب كل ملعون مثلك. فحين رأى أن محاولته قد فشلت، وهو عارف أنه مذنب جداً وأنه إن عاد إلى القرية سيقتله الشيخ سليم، فحينئذ أرتدّ إلى الوراها ومام على وجهه في البرية.

(٢٢) «قَرَط».

(٢٣) «قَرَطْتُ».

(٢٤) «صوب».

(٢٥) «عَبَيْتُ».

وأما الشيخ إبراهيم ونوفل والخوري موسى فإنهم قاموا من النوم فما وجدوني . فصاروا في حيرة عظيمة ، وابتدأوا يبحثون عني في أماكن عديدة ، فما وجدوا لي أثراً . فصار الشيخ إبراهيم في قلق عظيم وحادثه قلبه أنني واقع في ضيق ، لأنه على معرفة بعاداتي ، فقال : إنه ما ذهب قط إلى مكان من غير علمي ، ولا بد لغيابه هذا من سبب كبير . ثم خرجوا إلى ضواحي القرية وأخذوا يطوفون بالبساتين للبحث عني . وبينما هم يفتشون عني ، إذ رأوني من بعيد مقبلاً عليهم ، فتساءلوا إذا كان القادم هو أنا حقيقة . فقال الشيخ إبراهيم : هذا الشخص ليس عبد الله لأن معه بارودة وسلاح وبيده سيف ، فمن أين جاء بهذه الأسلحة ؟ فحين قربت منهم عرفوني فركضوا نحوني من فرحهم . وحين وصلوا رأوني بتلك الحالة التي لا توصف : وجهي مخدش ودمي سائح ويدي مسلخة ورقبتي مجروحة وكل وجهي وعنقي ويدي مدمية ، وأنا من فرحي بنجائي ورؤيتي لهم ابتدأت أبكي وهم كذلك ، ولم يستطيعوا أن يفهموا مني حقيقة ما جرى علي إذ طفق علي البكاء . ثم دخلوا القرية واجتمعت الناس خلفي وصاروا يتساءلون عن الذي فعل بهذا الشاب هذا الفعل . وأدخلوني إلى بيت الشيخ سليم . ولما رأي في تلك الحالة الشنيعة انتصب قائماً مثل المجانين وأجلسني وأمر لي بماء فشربت حتى سكن روعي ثم قال أخبرني عن قصتك باختصر فقلت له : « حسيسون احتال علي وأراد قتلي والله نصرني عليه » . فغاب عن الوجود من هذا الخبر وقال : « له سؤالف سابقة مثل هذه ، ولكن لا بد من قتله في هذا اليوم » . ثم أمر أربعة خيالة أن يركبوا حالاً ويجدوا في طلبه ، ولا يدخلوه القرية ولكن يقومون بشنقه على باب القريتين من غير مراجعة . فركب الخيالة الأربعة بكل سرعة ، وكان من بينهم عبْدٌ للشيخ سليم ، وكان لا يحب حُسيسون فأخذ حبلاً تحت أبطه^(٢٦) لكي يشنقه حالاً ، على حسب أمر سيده .

أما أنا ، فأخذوني إلى بيت الخوري ، وسخّنا لي ماء ومسحوا دمائي ، ودهنوا جروحاتي ببلسم وأجلسوني على الفراش .

أما الخيالة فداروا بكل اجتهد إلى غروب الشمس ، فما وجدوا لحسيسون أثراً فرجعوا . وبعد مدة بلغنا أنه يخدم كمسكري بدمشق ، ومن ذلك اليوم ما عاد دخل القريتين .

وبعد هذه الأيام بقليل ابتدأ العربان يُغرّبون ويظهرون في نواحي تدمر والقريتين ، وصارت أخبارهم متواصلة في البلاد ، وابتدأ يحضر منهم أناس للقريتين ويخبرون عن بعضهم ،

(٢٦) في عبه .

وظهر الربيع، وأخضر وجه الأرض بالحشيش، وصارت الأخبار عنهم تصلنا، وكل يوم كانوا يقتربون أكثر إلى نواحي بلاد سورية.

ثم في أحد الأيام حضر واحد بدوي إلى القريتين يقال له سلامة النعسان، من قبيلة اسمها العُمور، قبيلة صغيرة تحتوي على نحو خمس مئة بيت، شيخها اسمه سلطان البراق، متحضرة بالنسبة إلى غيرها، ولها صلات متواصلة مع أهالي حماة وحمص ودمشق، فتبيعهم ١٤/٢ غنماً وسمناً وجمالاً، ولها أيضاً شركاء في البلاد. وحين/تشرق القبائل الكبيرة في الشتاء، فإن عرب العُمور لا يبعدون كثيراً وهم لا يتجاوزون حدود الزور وشاطئ الفرات ونواحي تدمر، ويحضرون قبل جميع العرب إلى نواحي البلاد.

فهذا البدوي سلامة الذي ذكرناه كان قتل واحداً من أهالي القريتين من قبل ثماني سنوات، وظن أن القضية قد نسيها الناس. فدخل القرية وذهب عند الشيخ ليسلم عليه، على حسب عوائدهم. فسمع به أهالي القتييل وحضروا عند الشيخ وأقاموا الدعوى، فأنكر المتهم إذ ليس هناك من شهود. وطال الجدل والنقاش بينهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يشبوا عليه شيئاً، وما كان بإمكانهم أن يكيدوه لخوفهم منه. أو من أذية تصيبهم من العرب. وأخيراً أخذ الشيخ بيده عودة مكنسة وقال: يا سلامة امسك بهذه العودة واحلف لي بحق من خلق هذه العودة أنك لم تقتل القتييل. فأخذ العودة بيده وأطرق ببصره إلى الأرض نحو ربع ساعة، وبعد ذلك رفع رأسه وقال: يا جماعة أنا قتلْتُ ابنكم، وأنا لأحط في رقبتي قتيلاً ومميناً، فانظروا ماهي دية ابنكم حتى أعطيكم حق دمه. وهذه العادة جارية بين العرب وسكان القرى. فتواسطت الناس وتم الاتفاق على ثلاث مئة غرش. فقال سلامة: اصبروا عليّ حتى أذهب وأحضر لكم الدراهم. فقالوا له: قد لا ترجع فمن هو كفيلك. فقال: يكفلني الذي لم أحلف باسمه باطلاً يعني الله فخلوا سبيله. فقام حالاً وركب وراح وعاد بعد أربعة أيام، ومعه خمسة عشر رأس غنم عظام، كل واحد منها يساوي أكثر من عشرين غرشاً. فسلمها إلى أهل القتييل فأبرأوا ذمته وتصلحوا.

فسرنا جداً مما رأينا، وتحقق لنا أن سلامة رجل طيب حسن السيرة، وصرنا معه في صحبة كبيرة وأكلنا خبزاً معه. وبعد ذلك قلنا له: يا أخ نحن نريد أن نتوجه إلى تدمر، والناس هنا خوفتنا من العرب فما هو رأيك؟ فقال: أنا أضمن وأكفل أي آخذكم إلى تدمر ١٥/١ سالمين غانمين، وأكتب سنداً/على نفسي، أمام الشيخ سليم وجميع سكان القريتين، أنه مهما

حصل لكم من ضرر فأنا المسؤول عنه . فاستوثقنا من كلامه وأقر بهذا الكلام أمام الشيخ وجمع كبير من الحاضرين ، فركن قلبنا من طرفه وكثر أملنا وحالاً عزمنا على الرحيل برفقته . فقال لنا الخوري موسى : يا أولادي ، الرأي عندي أن لا تأخذوا معكم كل رزقكم ، لكي لا يحصل عليكم طمع . فخذوا بعضه وأبقوا الباقي عندي ، فإن بعته واحتجتم إلى شيء من البضائع ، اكتبوا إلي واعلموني بالأشياء التي تريدونها ، وأنا أرسل بها إليكم . فرأينا أن هذا القول هو عين الصواب ، فأخذنا من كل صنف شيئاً قليلاً وحزمتنا الكل ووضعناه في صندوق . وأما نوفل فإنه استأذن بالرجوع إلى بلده حمص ، فأعطيناه أجرة وافرة ووهبناه شيئاً من المال^(٢٧) ، ثم استكرنا جمالاً من أهالي القريتين ، وصباح اليوم الثاني ودعنا الأبحاء ، وركبنا على الجمال ، وكان ذلك أول مرة نركب على جمل . وأخذنا مايكفيننا من الماء لأن الطريق من القريتين إلى تدمر لا يوجد فيها ماء . فسرنا إلى المساء مدة عشر ساعات ، وكان مسيرنا نحو الشرق . فنزلنا في أرض يقال لها الدوة ، وكان بالقرب منها ، في وسط السهل ، برج عمارة قديمة يسميه العرب وأهالي تلك القرى قصر ابن وردان^(٢٨) . فهذا اسم كبير القوم الذين كانوا يقيمون في هذا البرج ، من طرف حكام الشام الأروام ، لكي يتنسّموا أخبار العجم خوفاً من أن يدخلوا بلادهم ويفسدوها . فلهذا السبب بقي اسمه قصر ابن وردان ، وهو من العمارة المتينة جداً ، على هيئة ما كان يبنى قبل ظهور البارود . فبتنا تلك الليلة وكان البرد شديداً ، واليوم الثاني قمنا ركبنا على الجمال قاصدين المسير . إلا أن الشيخ إبراهيم كان غشياً ويجهل كيف يكون الركوب على الجمل . فحين علا على ظهره قام الجمل بسرعة ، ووقع المسكين على الأرض مغشياً عليه وانخلعت رجله . فنزلت ونزل كل من كان معنا ، ورفعناه عن الأرض وربطنا رجله وأركبناه من جديد ، وسرنا على اسم الله . فبعد مسيرنا بساعتين فقط ، ان الغبار يتصاعد من صدر البرية آتياً نحونا . وفي قليل من الوقت كلع البرق اقترب منا ستة رجال على الخيول مسديدين الرماح وقاصدين سلبنا . وما كان سلامة كسلان فرمى الفروء/من على ظهره ، وأخذ رمحه بيده وطار مثل ملح البصر نحو القادمين ، حتى اقترب منهم وصار أمامهم . فوقفوا عندئذ وأخذوا يتكلمون مع بعضهم بعضاً حصّة قليلة ، ثم شنوا الغارة علينا مرة ثانية ، فلحقهم سلامة وقطع عليهم الطريق ، ووقعت الحرب بينهم وبين

(٢٧) « بنحشيش » .

(٢٨) هذا من أوهام الصايغ لأن قصر ابن وردان يقع شمالي شرقي حماة ، على نحو خمسين كيلومتراً من هذا البلد . أما البرج الذي يصفه هنا فهو قصر الخير الغربي .

سلامة ، وكان مشهوراً بمواقفه ، من الفرسان المعدودين بين العربان ، فاستقامت الحرب بينهم نصف ساعة ، وكانوا من قبيلة يقال لها الحِجْسَنَّة^(٢٩) ، أميرهم اسمه مهنا الفاضل ، وهو أول من صار من أحبائنا بين العرب ، وسوف نتكلم عنه وعن قبيلته . وكان هؤلاء الخيالة الستة من الفرسان العظام المحجربين لهم خبرة بالحرب والقتال ، فلم يستطع سلامة أن يقف أمامهم أكثر من ذلك وأصابته طعنة رمح في فخذه فضعفت قواه . فحينئذ هجموا علينا وابتدأوا بسلبنا ، فصار سلامة يرمي بنفسه على الأرض ويقول لهم : يا جماعة ، ما هذه طريقة العربان ، هؤلاء إخواني وقد كفلتهم من كل أمر يصيبهم ، فكيف تفعلوا هذه الأفعال معهم . قالوا : كلامك صحيح يا سلامة ولكن أما تعلم أن كبير هذه الديار اليوم هو أميرنا مهنا الفاضل ؟ فكيف تحضر نصارى إلى تدمير من غير أذنه ؟ فقال الحق معكم ولكن على علمي أن مهنا بعيد عن الديرة ، وهؤلاء الناس مستعجلون يريدون بيع بضاعتهم ، فأخذتني المروءة والغيرة ووضعت أمني بعبادات العرب التي لا تتغير ، فهم بذمتي وقد ضمنت لهم أمام شيخ سليم الدعاس ورافقتهم . وأنا الآن مرتمي على الأرض وهم بين أياديكم فافعلوا بهم ما ترونه مناسباً . فرجعوا عنا وقالوا بما أنك تكلمت باللسان الطيب فإننا لا نأخذ منهم إلا ما يطيب خاطرهم به . فاضطررنا أن نفلك الحمل ونعطهم مَشْلَحَيْنَ وفروء ومئة غرش ، فرضوا بذلك وخلّو سبيلنا . أما سلامة فإنه من ألم جرحه لم يستطع أن يركب فرسه ، فأركبناه على جملي وركبت على فرسه ، وسرنا أربع ساعات إلى أن غابت الشمس ، لأننا أضعنا الوقت مع هؤلاء الناس الذين أعاقونا عن السفر مدة ثلاث ساعات بل أكثر . فنزلنا ونمنا تلك الليلة في أرض يقال لها وادي النهر . وبتنا تلك الليلة عطاشى ، إذ فرغ الماء من عندنا ، وكنا نظن أننا سنبيت في تدمير ، ولكن تأخرنا منعنا عن ذلك ، /ولكننا كنا راضين وشاكرين الله الذي خلصنا من أيادي القوم ، لأنهم لو سلبوا ثيابنا كنا بلا شك متنا من البرد .

(٢٩) الحِجْسَنَّة أو الأَحْسَنَّة ، قبيلة عَنَزِيَّة من ضَنَّا مُسْلِم .

[تدمر وضواحيها]

وفي اليوم التالي مشينا مع طلوع الشمس ، وقبل وصولنا إلى تدمر بساعة ، بلغنا ماء جارية عظيمة يقال لها ماء أبو الفوارس ، آتية من المغرب وذاهبة نحو المشرق صوب تدمر . ولا بيان من أين أصلها ولا إلى أين منتهاها ، إلا من ثلاث أو أربع قوافع^(١) في الأرض ، تظهر وتختفي ، والعمق من القافعة إلى الماء نحو ذراعين ، فشرينا من ذلك الماء حتى ارتوينا ، ومشينا ساعة من الزمن فأشرطنا على مدينة تدمر العظيمة . وأول ما قابلنا ، قبل الدخول بربع ساعة ، خانق^(٢) بين جبلين متقابلين ، فنتج عن ذلك ممر متواصل حتى مدخل تدمر . وعلى الجبل الذي على اليمين ، من ناحية القبلة ، سور قديم العمارة يمتد على مسافة ثلاث ساعات وينتهي بالخانق ، ومن طرف الشمال ، في آخر الجبل ، قلعة من عمارة الإسلام ، قبل ظهور البارود ، يقال لها قلعة ابن معن . والمذكور كان من حكام الشام في زمن الخلافة الأموية ، فعمر هذه القلعة كي يمنع الأعاجم^(٣) عن الدخول من ذلك الخانق إلى بر الشام .

وبعد ذلك وصلنا إلى فسحة عظيمة يقال لها وادي القبور ، فيه أكثر من عشرين

(١) قوافع مفردتها قافعة : لم أجده هذه الكلمة فيما بين يدي من كتب اللغة . وفي لسان العرب : القَفْعَةُ هو شيء كالقَفْعَةِ يتخذ واسع الأسفل ضيق الأعلى ، جمع قَفْع . ولعل الصائغ يريد أن يقول حفرة ينبع منها الماء .

(٢) «بوغاظ» .

(٣) «الأعجم» .

قبراً، على الطريقة القديمة مثل الأبراج، وداخلها مخادع، لكل ميت مخدع على قدّه وصورته من حجر فوق مخدعه، وكل قبر من ثلاث إلى أربع طبقات يصعد إليها بسلم حجري، أما السقوف فمن الحجر أيضاً. ثم دخلنا المكان الآهل بالسكان، الذي يطلق عليه اليوم اسم القلعة، مع أنه في الواقع هيكل الشمس، وكان في داخله نحو مئتي عائلة.

دخلنا تدمر وكان معنا كتاب توصية من شيخ القريتين إلى شيخ تدمر المدعو رَجَب العُرُوق. وكان رجلاً مسناً^(٤)، جليلاً، وقد فرضت عليه الدولة تقديم نصف تكاليف حملة الحجاج، مثل الشيخ سليم، إلى وزير الشام، كما تقدم الشرح سابقاً. فدخلنا وسلمنا عليه فترحب بنا وأكرمنا غاية الإكرام. وفي اليوم الثاني طلبنا من فضله أن يجد لنا مكاناً نقعد نبيع رزقنا فيه، فأعطانا بيتاً صغيراً بالقرب منه. وأما سلامة، فأبتدأ أهل تدمر تدأويه إلى أن صحَّ نوعاً ما، فوهبنا له مالا^(٥) وافرأ فركب وذهب عند أهله. وابتدأنا نحن نداوي قدم الشيخ إبراهيم خلال عدة أيام حتى استراح.

ثم فتحنا رزقنا وابتدأنا نبيع إلى أهل تدمر، حتى نتم القول بالفعل ونظهر للناس أننا تجار^(٦). وكنا كل يومين أو ثلاثة نذهب وندور بين الخرائب، فرأينا الأشياء التي تدهش الأبصار. ولا إفادة من وصف ما شاهدناه لأن هذا المكان مشهور، وكتب عنه كثير من أمثالنا من السواح، وسيكتب عنه بعدنا. وفي بعض الأيام خرجنا ننزه ونتمتع أبصارنا، لأننا كنا كل يوم نرى شيئاً جديداً من الأمور التي تحير الأفكار، فوجدنا عدداً كبيراً من أهالي تدمر مجتمعين حول عامود كبير، أمام باب الهيكل، وهم يريدون أن يشعلوا النيران حوله كي يسقط ويأخذوا ما في داخله من الرصاص لبيعه، وهذا ما كانوا فعلوه سابقاً في كثير من العواميد العظام. فحين نظرنا ذلك تألمنا وقلنا: أين عيون الذين نصبوا هذا العامود، وكم أنفقوا من الذهب حتى رفعوا هذا العامود العظيم في هذا المكان. والآن يريد هؤلاء الجهلاء الغشماء كسره وفناءه لأجل ربح دني. فقال لهم الشيخ إبراهيم: يا جماعة، أنا رجل أصلي من قبرص، وعادتنا لا نحب الخراب، فاحسبوا قيمة الرصاص الذي ستكسبونه من هذا العامود وأنا أسلمها لكم ولا تكسروا وتعطلوا هذه القطعة النادرة الوجود. فقالوا نستخرج منه كمية من الرصاص نبيعها بدمشق بنحو خمسين غرشاً. فقال لهم: هذه الخمسون غرشاً واتركوا

(٤) «ختيار».

(٥) «بخشيش».

(٦) «بياعين رزق».

العامود . فأخذوا الدراهم وتركوا العامود . وكان طوله اثنين وستين قدماً وثخنه عشرة أقدام ، من حجر الطبخ (٩) الملون : أزرق وأبيض وأحمر . وفي ذلك الوقت أخبرونا على مقطع العواميد وأنه بعيد نحو ساعة ونصف عن تدمير لطرف القبلة ، فاعتمد رأينا أن نذهب في اليوم الثاني ونرى هذا المكان . وبالغد ذهبنا مع ثلاث أنفس بالأجرة إلى ذلك المحل ، ورأينا بطريقنا أشياء كثيرة وأموراً غريبة ، لا نرى من حاجة لذكرها لأن الذين سبقونا عرفوا عن جميع ذلك . ثم وصلنا الموضع المقصود وهي مغاير منقورة بالإزميل ، ووجدنا شيئاً كثيراً من الرخام الأبيض وقطعاً كبيرة جداً مرمية على الأرض من زمن قديم . ووجدنا عاموداً من الرخام الأبيض الخالص ، الشغل لا يحتاج إلى شيء غير نقله إلى البلد . وكذلك وجدنا عاموداً آخر تم نصف عمله وبقي مهملًا ، فكأن الوقت ضاق على العمال فلم يكملوا صنعه ولم يتمكنوا من نقل العامود الخالص .

وكان رجوعنا من طريق غير الطريق الذي ذهبنا منه ، فوجدنا محل عين ماء مطمورة بحجار كبيرة يسميها التدامر^(٧) عين اورئس . فأخذ الشيخ إبراهيم يفكر ، وبعد رجوعنا إلى البيت قال : أتعرف يا ولدي بماذا أفكر ؟ قلت بأي شيء تفكر ؟ أفيدنا . قال : هذه العين رأيناها مطمورة ويسمونها أورنس بسبب عدم معرفتهم بتصحيح الأسماء القديمة ، فهذه عين أورليانوس ملك رومية الذي حضر من رومية طمعاً بغنى تدمر ، ونكاية بزنبوبيا ملكة تدمر يومئذ ، وحاصر البلد وأخذها اقتداراً ، ودخل البلد وأباد منها خلقاً كثيراً . ولا يعرف أحد ماذا جرى بالملكة زنوبيا إلى يومنا هذا^(٨) ، وأظن أن أورليانوس هو الذي أمر بحفر هذه العين ليستقي منها ويسقي عساكره ، فوجدت هذا الرأي عين الصواب وقرياً جداً من العقل ولكن غير موجود في التاريخ ولا مذكور في محل ، إنما هو ظن لا أكثر .

أما صنائع أهل تدمر فهو نقل الملح والقَلْو^(٩) ، لأن بالقرب منهم محل يستخرج منه الملح اسمه السَّبْحَة^(١٠) . أما القَلْو فهي حشيشة يحرقونها فتذوب وتصير حجراً ، فينقلونها

(٧) سكان تدمر .

(٨) يعلمنا التاريخ أن الملكة زنوبيا وقعت بين أيدي الرومان وقيدت إلى روما مغلولة بسلاسل من ذهب سنة

٢٧٢ م .

(٩) القَلْيُ أو القَلَى رمال الغض والرمث يغسل به الثياب (لسان العرب ، مادة قَلَوَ) .

(١٠) السَّبْحَة : الأرض المالحة .

إلى حمص والشام ويبيعونها لأجل طبخ الصابون . وأيام توجه الحجاج إلى مكة ، يذهبون لكي يحملوا ما ذكرت سابقاً لوزير دمشق ، وذلك بالإجرة .

ثم وفي بعض الأيام أخبرنا بعضهم عن مغارة تبعد عن تدمر ثلاث ساعات ، فيها أنواع من المعادن وهي نكتة لمن يراها . فتوجه اهتمامنا لزيارة تلك المغارة ، ورجونا من الشيخ رجب العروق أن يرسلنا إلى المغارة مع أناس طبيين معروفين . فقال لنا : يا جماعة ما أكثر غلبتكم ، أنتم جماعة يباعين على باب الله الكريم ، مالكم وهذه الأمور الصعبة ؟ فقلنا له : إذا كنا يباعين هل تحرم علينا الفرجة ؟ فقال : قوي مناسب ، غداً أرسلكم وأرسل معكم ستة رجال بواردية للمحافظة عليكم . لأن العربان كانت ملأت سهل تدمر من مختلف القبائل . فبكرنا في اليوم الثاني ، وأخذنا معنا فنود الشمع وكثيراً من خيوط القنب ومسماراً كبيراً ، وسوف نشرح لأي شيء تلزم هذه الأشياء في هذه الرحلة الصغيرة . ١٧/٢

فمشينا ومعنا الرجال المرسلين من قبل الشيخ رجب . وسرنا نحو ساعتين من الزمن لطرف الشمال للشرق . فوصلنا إلى جبل صغير ، وفي نصف سفح الجبل ثقب كبير مثل باب ، فأشعلنا الشموع ودققنا المسمار على باب المغارة ، وربطنا طرف خيط القنب بالمسمار ، ودخلنا جميعاً لأننا إذا ابقينا أناساً على الباب وأرادوا ضررنا حلوا الخيط فلا يعود يمكننا الرجوع إلى الباب . فلهذا السبب أدخلنا الجميع معنا . فحين صرنا داخل المغارة ، وجدناها واسعة وفيها مخادع ونزلات وطلعات وعوجات ولفترات ومغائر ، الشيء الذي يضع فيه جيش^(١١) . وكان دائماً طرف الخيط بيدي ، لأني ما كنت أثق بأحد غيري ، حفظاً على حياتي وحياة المسكين معلمي الشيخ إبراهيم . فوجدنا في تلك المغارة أموراً غريبة . فجميع سقفها نازل من الشبّ العطارى ، وقطعته كبيرة مثل القناديل ، وأرضها ملائنة من ملح البارود ، وأكثر حيطانها من الكبريت الأصفر ، ولم تزل ظاهرة الأماكن حيث كانوا يقطعون منها هذه المعادن ، ووجدنا في بعض المحلات نوعاً من التراب أحمر اللون مثل السَّمَّاق ، طعمه حامض ، ناعم جداً . وأخبرنا بعضهم أننا إذا وضعنا منه في محرمة يخرقها ويخرج ، فأخذنا منه شيئاً قليلاً لتجرب ذلك . وعلمنا أيضاً أن كثيراً من الناس دخلوا هذه المغارة وضاعوا ، منهم واحد دخل وضاع كل الضياع وظل في المغارة مدة ثلاثة أيام ، وأخيراً ، بأمر الصدفة ، دخل ذئب إلى المغارة لتكون له مأوى وولج في أعماقها لأنه على معرفة بها ، فرأى

(١١) الصائغ يكتب «أرضي» بدلاً من جيش في عدة مواضع من مذكراته ؛ والكلمة من التركية .

ذلك الرجل الذئب وصرخ فيه، فخاف الذئب وطلب باب المغارة ليهرب فلدغته الرجل وتمكن بهذه الوسيلة من الخروج من المغارة سالماً بعد أن يمس من حياته، إذ لا يُعرَف أولها من آخرها ولم نزل نمشي في داخلها إلى أن انتهت الخيطان التي معنا، فعزمنا عندئذ على الرجوع وخفنا من الضياع، مثل غيرنا، في تلك المغارة الشاسعة، وخرجنا من ذلك المكان ولكن بتعب عظيم لأن/الموضع رديء جداً ودخل المغارة وعمرٌ كثيراً فطلعنا إلى خارج الباب ١٨/١ وجمعنا الخيطان وجلسنا نأكل ما معنا من الزاد وتوجهنا بعد ذلك طالبين تدمير.

وصلنا إلى تدمير وسلمنا على الشيخ ودخلنا إلى غرفتنا، وكان قرب المساء. وحين أتت ساعة النوم خلع الشيخ إبراهيم ثيابه ونزع حزامه، فوجد أن المحرمة التي وضع فيها التراب مخزوقة والتراب منتثر في عبه. فجمعنا التراب ورأينا أن المكان من المحرمة، حيث كان التراب، قد تأكل، فأخذنا التراب ووضعناه في قنينة وهي فقدت مع حوائجه في مصر، مع غيرها من الأشياء التي كانت معه. وقبل النوم سجلنا جميع ما رأيناه بالدفتر، من الورقة اليومية، على حسب عادتنا كل ليلة، ثم نمنا.

وفي اليوم الثاني أخذنا نتحدث عن المغارة فقال الشيخ إبراهيم: إن أهالي تدمير كانوا يخرجون منها المعادن ولربما أيضاً كانوا يخرجون الذهب إذ يوجد فيها الكبريت الذي هو أبو الذهب، إذ حيث يوجد الكبريت الأصفر يوجد أيضاً الذهب، وهذا شيء طبيعي وكيميائي. وبالأكد يجب أن يكون فيها ذلك المعدن^(١٢)، لأن مخادع المغارة غير طبيعية، ولكنها من حفر اليد. وهناك أيضاً أشياء كثيرة تحتاج إلى شرح، ولكن بما أنه قد سبق الكلام عنها قبلنا فليس في الإعادة إفادة. وهذه الكلمات التي كتبناها عن تدمير فاعتقادنا أنه لم يعرفها غيرنا من السواح، فلهذا السبب حَرَرْنَاهَا.

وأثناء ذلك الوقت كانت امتلأت نواحي تدمير بالعربان من كل الجهات، والأمير مهنا الفاضل الذي نحن نرغب في الوصول إليه كان اقترب من أراضي تدمير، وتيسرت أمورنا بعون الله وأصبحنا في غاية الحظ. وبعد قليل من الأيام حضر الأمير ناصر المهنا، من أولاد الأمير مهنا الفاضل وكبير أبنائه، ودخل تدمير مع عشرة خيالة فقط ونزل عند الشيخ. فذهبنا

(١٢) عبارة الصائغ: «وبالأكد لازم يكون ذلك معدن».

وسلمنا عليه ، فآنسنا وترحب بنا . ثم قال له الشيخ رجب : يا ناصر ، هؤلاء الناس معهم
بضاعة تصلح للعربان ، وهم يرغبون في الذهاب عندكم ليكونوا تحت نظرکم وحمایتکم خوفاً من
أن يسطرو عليهم بعض أوباش العرب . فقال أهلاً وسهلاً ، يا مرحباً بهم ، ليشروا فما يصيبهم
١٨/٢ غير مطر السماء . /

نمره ٣

[مع قبيلة الحِصَّة]

بعد هذا الترحيب استكنزنا بخير الأمير ناصر وشكرناه على هذا الكلام وقلنا له : بما أننا تعرفنا بجناحك ومرادنا أن تكون لنا سنداً فيجب أن نأكل الخبز معك . وحالاً دعواناه إلى منزلنا وذبحنا له رأس غنم وصنعنا غداءً مناسباً ، وأخرجنا له مما معنا من حلو ، مثل الزبيب والتين اليابس والجوز ، فسره ذلك كثيراً ، لأنه كان آتياً من البادية^(١) ويشتهي أكل الحلو . وكان معه جميع خيالاته والشيخ رجب وعدد كبير من أهل تدمر وصار الناس في انشراح كبير . وفي مجرى الحديث ، بعد الغداء ، تكلمنا عما وقع لنا أثناء حضورنا من القريتين ، وكيف قام بتشليحنا بعض العرب من الحِصَّة وأخذوا منا بعض الحوائج والدراهم . فاغتاظ جداً من ذلك وحلف أنه سيقاصصهم ويسترجع منهم الحوائج والدراهم ، فترجينا عندئذ كل الرجاء أن يصفح عن هذا الأمر ولا يكلم المعتدين بهذه السيرة ، لأننا نحن سمحنا لهم . فقال : على حسب رغبتكم ، إذا كنتم سمحتم لهم فأني لا أكلمهم بهذا الأمر لإكراماً لكم .

وثاني يوم نوى أن يذهب عند أهله ، وكان مراده ومرادنا أن نتوجه معه ، إلا أن عريه وأباه كانوا بعيدين عن تدمر نحو ثمانية أيام فقال : من الأنسب أن تنتظروا حتى نقرب أكثر ، فأرسل إليكم أناساً وجمالاً لإحضاركم عندنا . فترجينا عندئذ أن يسأل أباه أن يرسل إلينا

(١) « الحول » .

بكتاب من يده، مع الأشخاص الذين سيحضرون لإيصالنا عنده، حتى نطمئن بالأكثر عن حالنا، فوعدنا وسافر مع خيالاته.

ثم ثاني يوم حضر إعرابي من قبيلتهم اسمه باني حَسِينِي. وبعد دخوله تدمر بقليل من الوقت حضر سبعة خيالة، من كبار الفرسان، من قبيلة يقال لها الضُّفِير، سوف نتكلم عنها. وكانت العداوة على أشدها بين هاتين القبيلتين. فحين بلغهم أن في تدمر بدياً من الجسنة، من أتباع مهنا الفاضل، عقدوا النية أن يلحقوا به حين يسافر من تدمر ويقتلوه. ووصل خبر ذلك الكمين إلى البدوي^(٢)، فحالاً أحضر فرسه أمام البيت الذي نحن فيه وأخذ من عندنا قطعة من اللباد وبللها بالماء ووضعها على ظهر الفرس مباشرة ووضع العدة عليها وشد الحزام، فما مضى ساعة من الزمن إلا وابتدأت الفرس تُسهلُ/وظلت إلى الصباح على هذا الحال حتى فرغ ما في جوفها وصارت مثل الشبابة، فرفع عندئذ اللباد عن ظهرها وشد حزامها شداً قوياً، وركب مع طلوع الشمس. وكان الخيالة السبعة ركبوا قبله وكمنوا له على الطريق، على بعد ساعتين من تدمر، وكانوا قادرين على قتله في تدمر، ولكن بهذه الطريقة يقع اللوم على شيخ تدمر من قبل الأمير مهنا. ثم وصل باني إلى موضع الكمين فنفذوا عليه كأنهم اللمع البارق، فجدد على فرسه وصاح بها: «اليوم يومك يا حمراء»، وطار مثل الطير الذي يشق الهواء بجناحيه، وظلوا يجرون خلفه مدة أربع ساعات إلى أن وصل إلى بعض منازل العرب، فرجعوا عنه حالاً ووصلوا إلى تدمر بعد غياب الشمس. وكنا مع كل أهالي تدمر ننتظر على الباب، لأننا كنا على معرفة بالقضية ونريد أن نعلم بما حصل، فإذا بهم قد عادوا وليس معهم فرس باني ولا حوائجه. فسألناهم عما وقع فقالوا لا شك أنه راكب على عصفور لأن خيلنا مشهورة بالركض، ونحن نعلم أن فرسه مثل خيلنا بل دونها، غير أننا شاهدنا منها فعلاً غريباً بعيداً عن العقل. فضحكنا وقلنا لهم: أتعرفون ماذا عمل؟ إنه بلل اللباد بالماء ووضعها على ظهر الفرس كل الليل حتى خفت وأصبحت مثل الشبابة وما بقي في جوفها شيء، فلهذا السبب ركضت بهذه السرعة، فقالوا: لم نسمع بحياتنا بمثل هذه الشيطنة من أحد.

وبعد خمسة أيام حضر عندنا ثلاثة أنفار، ومعهم ثلاثة جمال، من عند الأمير مهنا يطلب ذهابنا عنده، وسلمونا الكتاب الذي كنا رجونا من الأمير ناصر أن يرسل به، وكان

(٢) «فصاح النظر أجا خبره عن ذلك الرباط».

بهذه الألفاظ : « من مهنا الفاضل بن ملحَم إلى الشيخ إبراهيم وعبد الله الخطيب ، بعد السلام عليكم ورحمة الله لديكم ، حضر ولدنا ناصر من تدمر وأخبرنا عنكم وأنكم تريدون الحضور إلى عندنا ، حَلَّت البركة^(٣) بمجيئكم ، فاحضروا ولا تخافوا ، فلا يصيبكم غير مطر السماء ، أمان الله عليكم ورعايته ، وسلموا على أخينا الشيخ رَجَب العُرُوق » . ثم الدعاء والتوقيع : تحيات مهنا الفاضل ، مع الختم بالحبر إلى جانب الاسم . فحالاً بادرنا وحزمنا حوائجنا وما بقي معنا من الرزق . وصباح اليوم الثاني ودعنا الشيخ وسائر الأحباب وتوجهنا . وكان مسيرنا ما بين الشرق والشمال نحو أربع ساعات ، ثم وصلنا إلى قرية يقال لها أَرْك ولها ماء جارية عظيمة وتحتوي على نحو عشرين بيتاً ، سكانها مثل أهالي تدمر ، وهم متوافقون مع التدمير على حمل الحجاج ونقل الملح ، ويمارسون نفس الصناعات . فملأنا الجُود ماء من ذلك المكان وسرنا طالبين منازل مهنا الفاضل . وفي طريقنا التقينا بعدد من العربان ، ولكن لم يعكر أحد منهم لنا خاطراً ، إذ كان معنا رجال من أتباع مهنا ، إلا أنهم كانوا يلقون علينا الأسئلة ، فيرد عليهم رفقاً وأنا العرب : إنهم راثحون عند المَلْحَم ، وهذا لقب طائفة مهنا الفاضل ، فأبوه اسمه الفاضل ، وهو مهنا ومن بيت الملحَم ، والعادة عند العرب أن يسموا الإنسان بأسمه واسم أبيه حتى يُعرَف من هو ولا يبقى مجهولاً . وبعد مسير عشر ساعات من تدمر ، وصلنا إلى النزل السعيد ، فوجدنا نزلاً عظيماً للعرب ، يجمع نحو ألف وخمسة مئة بيت ، في مكان يقال له ضَبْع . فدخلنا بيت مهنا ، فترحب بنا وعمل لنا غاية الإكرام وأمر لنا بالقهوة فسقونا القهوة ثلاث مرات متوالية ، وهذا من جملة عوايدهم إذا كان الضيف عزيزاً عليهم يقدمون له القهوة كثيراً . ثم أحضروا لنا العشاء وكان مطبوخاً وحاراً جداً ، وعادتهم أن يأكلوا بأيديهم من غير معالق ، وكنا جائعين فاضطررنا أن نأكل مثلهم بأيدينا ، وكان ذلك لأول مرة ، فحصل لنا من جراء ذلك أضرار وحروق بأيدينا . فقال لنا المهنا : يا ضيوف ، أظن^(٤) أن أيديكم احترقت من الطعام ، بسبب عدم إعتيادكم ؟ فقلنا نعم ولكن لماذا لاتستعملون المعالق ، فقال واحد منهم نحن جماعة بدو ، نمشي على ما كان عليه آبائنا وأجدادنا ، وكل شيء عندنا طبيعي : اليد يدك والفم فمك ، كلاهما عضوان منك ، فلا شيء سبب نحتاج أن نجعل بينهما واسطة غريبة من خشب . فقلنا الحق معك . والتفت إلى الشيخ إبراهيم وقلت له : هذا أول فيلسوف من العرب .

(٣) « يا حلة البركة » .

(٤) « على تخميني » .

وفي اليوم الثاني أمر المهنا أن يذبحوا لنا جملًا وذلك لأجل إكرامنا، لأننا استخبرنا عن ذلك فأخبرونا أن هذه عادة العربان إذا أرادوا أن يكرموا ضيوفهم إذا كانت الضيوف غالية عليهم جداً، فهم يذبحون جملًا لأنه أكبر ما عندهم. فأكلنا ذلك اليوم لحم الجمل للمرة الأولى، فوجدنا أن طعمه كلحم الغزال نوعاً ما. والنتيجة أنه حصل لنا إكرام زائد لأنه بيت مشهور بالكبر والقدم والصيت والكرم. ومهنا رجل/طاعن بالسن، عمره نحو ثمانين سنة، ٢٠/١ حقير من الرجال^(٥)، ذقنه مثل الكوساة، شديد الطرشة، يجب على من يتكلم معه أن يصرخ بأعلى صوته حتى يسمع، ضعيف الجسم، غشيم على بركة الله، ملبوسه زري جداً. إنما محاسنة كثيرة: نظيف القلب لا يعرف الغش، كريم ومن بيت قديم من أكابر العرب. فهذه المحاسن تغطي على عيوبه، وتجعله مقبولاً عند العرب وعند الحكام في البلاد، لأن عليه وظيفة من طرف والي الشام قديمة العهد، وهو يرافق الحجاج إلى مكة من دمشق ذهاباً وإياباً. وله من وزير دمشق كل سنة خمسة وعشرون كيساً يقبضها قبل ذهاب الحجاج يسمونها الصر^(٦). له ثلاثة أولاد أكبرهم ناصر وهو الذي تقدم ذكره، وثانيهم فارس وثالثهم حمّد، جميعهم فرسان يركبون الخيل ومتزوجون وكلهم في بيت واحد. فالبيت طوله ثلاثون ذراعاً، من الشعر الأسود، مقسوم إلى ثلاثة أقسام بقواطع من جنسه أي من الشعر. القاطع الأقصى للطبخ والمؤنة والعبيد والخدام، والثاني للحريم والنوم، والثالث من الطرف الآخر ديوان مجلس الرجال يسمونه رُبعة. هذا الذي عرفناه ثاني يوم من وصولنا عنده.

وفي اليوم الثالث فتحنا بضائعنا وابتدأنا نبيع للعربان. فازدحمت علينا النساء للشراء لأنهن رأين أن بضاعتنا جيدة ورخيصة، فكنت أقول للشيخ إبراهيم: يا سيدي، هذا السعر لا يلائم، نحن نحصر عليهن، فقال: فكأنني بك نسيت الشرط الذي بيننا: لاتعارض ولا تسأل عما أفعل. فسكتُ وقلت بنفسي الحق عليه.

هذا وبعد يومين رأينا أن بعض عربان هذه القبيلة أخذوا يتواردون ويجمعون خارج البيوت بالسهل، إلى أن صاروا نحو خمسين نفرًا بخيولهم ورماحهم. وخرج ناصر المهنا من البيت هو وابن عم له يقال له الشيخ زامل، وذهبا حيث اجتمعت الناس، وبقياً هناك نحو ساعتين ثم رجعا. أما الخيالة فكل واحد منهم رَكِبَ وذهب إلى بيته. فصرنا نحن نتشوق

(٥) كذا، والصائغ يريد أن يقول: لا يؤخذ بعين الاعتبار.

(٦) الصر: راتب تقدمه الدولة لبعض كبار المشايخ للمحافظة على الحجاج، ولعل هذه الكلمة محرفة عن الصرة أي كيس الدراهم.

لنعرف شيئاً عن هذا الاجتماع وعن السبب الذي دعا إليه . فأخذتُ معي قليلاً من المرجان الأحمر ودخلت عند الحرم ، إذ كان سبق لنا أن دخلنا على الحرم وشاهدنا منهن كل إكرام . فأهديت ذلك المرجان إلى حرمة الشيخ ناصر يقال لها نورة ، فأخذته بكل قبول ووضعت لي تمرّاً لكي آكل وجلست إلى جانبي تتحدث معي ، فقلت لها : يا سيدتي ، الغريب يسأل دائماً عما لا يعنيه ^(٧) ، فلأني سبب صار هذا الجمع/اليوم مع العربان ؟ قالت : أخبرك ولكن لا تعلم بذلك أحداً ، فاعلم أن زوجي ناصرّاً له عداوات كبيرة مع العربان ، ودائماً عليه ديات تنمي وتكثر ، وذلك بغير رضى أبيه وبغير رضى شيوخ القبيلة ، لأن مراده أن يتقدم على أبناء جنسه بوساطة الحكام العثمانيين ، ولهذا السبب قد كثرت العداوة بينه وبين القبائل وابتدأت الغارات فيما بينهم ، واليوم اجتمع هذا الجمع وتم الاتفاق بينهم على أن يقوموا غداً بغارة على قبيلة يقال لها الضفير ويكسبوا جمالها ، وذلك للنكاية والأذى وتنغيص عيشهم ، لأن الغزو شيء يقهر العربان جداً ومثله الظفر بهم ، إنما يعطي الله النصر لمن يشاء . فقامت وأنا مسرور منها إذ بلغت مرادي ، وكلمتُ الشيخ إبراهيم بجالية الخبر ، فبان عليه القلق وقال : يا ولدي ، هذا الخبر سيئ لا يوافق مصالحني ، لأني أرغب في معرفة وصحة أناس ليس لهم معاشرة ولا مودة مع العثماني ، وما نحن قد وقعنا على إنسان ضد مطلوبنا ، لأن مهنا رجل طاعن بالسن ، والكلام إلى ولده ناصر ، والمذكور مراده السيطرة بوساطة العثماني ، وهذا ضد مصالحني . فلم أرد أن أسأله عن سبب ذلك ، إنما هذا الكلام شغل فكري كثيراً .

ومن غياب الشمس ابتدأت العربان تتوارد وتجتمع خارج البيوت ، إلى أن صاروا نحو ثلاث مئة خيال . وثاني يوم من قبل شروق الشمس ركب ناصر وابن عمه زامل وأخوه الصغير حمد وساروا جميعهم بكامل الخيل إلى ناحية الشرق ، وبعد ثلاثة أيام عادوا بكاملهم وخرجت العربان للقائهم بكل فرح ولعبوا على ظهور الخيل ، واحضروا معهم مئة وثمانية جمال من أموال الضفير . وبعد أن ارتاحوا أخبروا عن غارتهم وعمما جرى لهم مع القبيلة المذكورة ، وهو أنه بعد توجههم ، وصلوا ثاني يوم ، وقت الظهر ، إلى المكان الذي كانت ترعى فيه جمال الضفير ، بعيداً عن البيوت ساعتين ، وليس مع الجمال إلا الرعيان فقط ، فأغارت الخيل على الجمال لكي تأخذها وهرب الرعيان سريعاً نحو البيوت وأخبروا عربهم ، فركبوا حالاً وطلبوا ناصر المهنا ووربعه . وأما ناصر فإنه أرسل حالاً الكسب ، أعني الجمال التي أخذها ، مع قليل من

(٧) يقول الصائغ : « يا ستي ، الغريب يبصير كثير الغلبة » .

٢١/١ الخيل، على طريق غير الطريق المعروف، حتى يوصلها إلى قبيلته، وإذ/وصلت خيل الضفير إليهم ووقعت الحرب بينهم، فما قتل غير واحد من الضفير وجرح اثنان من الحسنة، أعني من قبيلة ناصر، فدخل الليل ورجع كل واحد إلى حال سبيله. وفي ضحى اليوم الثاني حضر ناصر وكامل الخيل، ومعه الكسب الذي أخذوه من الضفير.

وفي ذلك اليوم أتى ناصر عندنا وهو فرحان بانتصاره، ضحك الوجه، وجلس عندنا في المكان الذي نبيع فيه، وابتدأ يتكلم مع الشيخ إبراهيم بالتركي. فقال له الشيخ إبراهيم: يا شيخ ناصر، أنا لا أعرف التركي، ولكن أعرف فقط الرومي [اليوناني]، لأنني قبرصي، وقليلاً من العربي، علمني عبد الله الخطيب. فقال ناصر، يا إبراهيم، العز بالترك والجاه بالعثماني، وأنا أتكلم بالتركي، ولي مخالطة مع الحكام في جميع أنحاء البلاد، وإن شاء الله إني بوساطتهم أقهر العربان وأسود عليهم. فقال له الشيخ إبراهيم، يا ناصر، اعلم أن الشجر تقطع بفرع منها، والعثماني ليس عندك في كل وقت، والعربان أبناء جنسك أخير لك، لا سيما وأن العثماني صاحب ملاعيب ولا يحب إلا أهل جنسه، فيريك المحبة حتى يحصل بوساطتك على مآربه، ويجعل العرب ضعفاء تحت حكمه، وإن استطاع أبادهم جميعاً. ثم قال له: خذ حذرك واعمل على خلاصك، ولكن سوف تندم على رأيك.

هذا، وفي تلك الأثناء وصله مكتوب^(٨) من والي الشام سليمان باشا والي عكا مضمونه أن يحضر إلى دمشق لتنصيبه على الديرة ويطرد العربان الذين لا يدخلون تحت طاعته ويكون أمير ديرة الشام وكل القبائل تحت يده. ففرح بذلك فرحاً شديداً وحالاً توجه إلى دمشق مع عشرة خيالة.

وأما نحن فبقينا مع مهنا. وفي مساء اليوم الثاني أمر العربان بالرحيل صباحاً. ولما كان الغد، قبل طلوع الشمس، ارتقت كافة البيوت وحُمِلَتْ حالاً، وركبت الرجال على خيولها وأناس على الجمال، والنساء الوجيحات في الهودج المجوَّحة^(٩)، وسارت الجمال غير المحملة أماماً مع الرعيان وبعدها الظعون^(١٠) أعني [الجمال التي تحمل] البيوت والألبسة، وأمام

(٨) في المخطوطة: «بولردي»، كلمة تركية تعني رسالة رسمية من ممثل السلطات العثمانية يصدر فيها أوامره ويعلن عن إرادته.

(٩) أي المفروشة بالجوخ.

(١٠) في الأصل: الضعون.

٢١/٢ الجميع الخيل يتقدمها نحو عشرين خيلاً مجربين بالحرب والقتال يسمونهم السلف ، وعليهم أن يراقبوا السير ليروا من يأتي من بعيد ومن يكون في الطريق . وهذا أول رحيل رأيناه/وهذا شيء رائع حقيقة ولا سيما رؤية نساء أعيان القبيلة في الهودج . فالهودج مثل السرير يوضع على ظهر الجمل ، وله مثل السرج ، وهو مركز على قوائم من خشب علوها نحو ذراعين مشدود بعضها ببعض . وهو واسع ، تقعد فيه المرأة وتضع أولادها معها ، وداخله مغطى بالجوخ الردي والأصفر ، وعلى دائره شرابات ملونة من الصوف . والنتيجة شيء ظريف ولائق بهن . أما نساء الفقراء فإن كل واحدة منهن تعمل لها على ظهر الجمل مثل بركة مدورة من البسط والثياب ، وتقعد هي وأولادها في وسط هذا المحل الذي يسمونه حصاراً أي أنه يحصر الأولاد ويمنعهم عن الوقوع . ونسأؤهم على الإطلاق يلبس فقط الثوب الأزرق مثل القميص ، وفوقه عباءة سوداء حَسَاوِيَّة ، وعلى رؤوسهن شملات سوداء طولها ثلاثة أذرع ، طرفها على الرأس وباقها ملفوف على الرقبة ، وأما الطرف الثاني فمرمي وراء الظهر ، وفي أيديهن أساور من الزجاج ، ومرجان مضموم دورين أو ثلاثة ، وحجوب كهريا ، وهن حفايا لا شيء بأرجلهن كلياً .

• وكان الأمير مهنا راكباً على جمل ، لأنه أريح له نظراً إلى شيخوخته ، والناس يمشون حوله ، فشبهناه بأبينا إبراهيم الخليل أيام حياته ، لأنه كان على هذه الصفة كما هو معلوم .

ثم وصلنا قبل العصر إلى المحل الذي كنا نقصده ، وهو مكان يقال له الْمُحَرَّم ، بالقرب من حماة ، لأن سيرنا كان إلى جهة الغرب . ولما قربنا تسابقت الخيل وكل واحد نصب رمح في مكان ، وربط فرسه بالرمح ، والمعنى أنه يريد أن يكون بيته في ذلك المحل . فوصلت الظعون ، أعني النساء والبيوت ، وكل امرأة عرفت فرس زوجها ورمحه ، فنصبت البيت إلى جانب الرمح . وفي قليل من الوقت ، بعد أن كان ذلك المكان خالياً من كل شيء ، صار فيه بلد وأناس وجمال وخيل وبيوت بمقدار أهالي حماة . وماء ذلك المحل جَمْعٌ من المطر ، وكل تلك الأرض غدران مجموع بها الماء . وبالقرب منها أرض عالية أكثرها من الصخر وهي منقورة باليد ومملوءة من ماء الشتاء .

وبعد إقامتنا بثلاثة أيام وإذا الرعيان راكضة وهي تصبح : يا أهل الخيل الحقوا . ٢٢/١ فضجت العربان وقامت الصيحة من كل جهة ، وإذا وصلت الرعيان/وأخبرت أنه حضر غزو عظيم وجموع كثيرة بقوة هائلة من عرب الضفير وأخذوا كل النوق والجمال . فركبت الخيل

وكانوا نحو ألف خيال وطلبوا العدو ، وكان الوقت قريباً من العصر ، وهكذا كان تدبير العربان يجعلوا غاراتهم قرب المساء ، حتى إذا طلبهم العدو يدخل الليل ويرجع الطالب عنهم ، وهم يعودون سالمين بالكسب ، وما رجع عرب الحسنة إلا بعد يومين وأخبرونا أنهم ظلوا يركضون وراءهم وهم أمامهم إلى أن أتى الصباح ، ثم التقى الطرفان ووقع الحرب والقتال بينهما نحو أربع ساعات ، فقتل من الضفير ستة أنفار ومن الحسنة عشرة واسترجعوا من الكسب نحو النصف أي خمس مئة حيوان والنصف الثاني راح مع الضفير . فحزنت العربان على الذين قتلوا وعلى النوق والجمال التي خصروها ، وصاروا يدعون على ناصر حيث أنه ابتدأ بالشر مع الضفير وغزاهم أولاً . وحالاً كتب مهنا إلى ابنه ناصر بدمشق وعرفه بجميع ما جرى مع عرب الضفير وأرسل الكتاب مع هجان خاص .

وبعد بضعة أيام حضر ناصر من دمشق ، ومعه جوتخدار كبير من طرف الوزير وهو يحمل كتاباً^(١١) مشدداً مضمونه اشعار لكامل العشائر والقبائل يحيطهم علماً بما يلي : «إننا قد وجهنا ولدنا الأمير ناصر المهنا على كامل أياالتنا^(١٢) ومأواه^(١٣) ومنازل العربان . المراد من الآن وصاعداً أن تكونوا في قدم الإطاعة في كل ما يأمر به ، ومن لا يطيع ويتهدي لا أمان له ولا رأي . فيقتضي عندئذ أن نرسل حالاً عساكرنا المنصورة فتنهب أرزاقكم وتحرق بيوتكم ، ونسلم حريمكم إلى العساكر ونجعلكم عبرة لمن اعتبر . ها نحن قد أنذرناكم فاحذروا من الحركات المخالفة واعتبروا ذلك » .

وهذا كان بتدبير ناصر المهنا ، وكان أكثر خوفه من قبيلته ، بسبب الرجال العشرة الذين قتلوا . وبذلك الوقت كانت الأراضي امتلأت من العربان ، فصار ناصر يعلمهم بوصول هذا الكتاب ، وكل من حضر يقرأه له ، ويتكلم مع الجوتخدار بالتركي ، مع أن كل ذلك ما كان عند العربان بثقل حبة خردل .

٢٢/٢ وفي أثناء ذلك حضر/في بعض الأيام شيخ قبيلة الرفاشة ، المسمى ذراك بن مفعجل ، شاب نشيط ، فتلا عليه الكتاب وجعل يقول له : هؤلاء حكام ولهم ملك كبير في اسلامبول ، وسيف السلطان طويل ، ويجب الإطاعة لهم والخضوع ، ولا تكن أنت غير طائع

(١١) في الأصل : بولردي أي مرسوم .

(١٢) «إيلتنا» أي ولايتنا .

(١٣) كذا ولعله يريد المكان الذي يأوي إليه .

فتندم . فتغير لون ذَرَاك من هذا الكلام ونهض قائماً وقال : يا ناصر آغا ، اعلم أن العربان جميعهم ضدك بسبب موقفك هذا ، فإن كان مرادك أن تكون كبيراً عند العثماني فانزل للشام واليس قابوقاً في رأسك واجلس بالسرايا عند الوزير ، وَكُنْ كَيْخِيَا^(١٤) واحكم على أهالي الشام ، فيأخذون لك هبة . وأما نحن العربان ، فأنت ووزيرك وسلطان اسلامبول فلستم عندنا بثقل بعة الجمل ، وإن كنت تقول لا تقعد في ديري الشامية ، فهذا كلام قوي مناسب ، وأنا أصغر وأضعف كافة قبائل عنزة^(١٥) (وهذا الاسم عام يطلق على جميع عرب البادية)^(١٦) . ولكن الآن ، حال وصولي إلى قبيلتي ، سأرحل بكامل عربي إلى ديرة بغداد ، عند الدُرَّعِي بن شعلان ، كسار جموع العثماني . فتغيرت ألوان ناصر من هذا الكلام ، والتفت إلى الجوتخدار وأخذ يفهمه بالتركي ، فابتدأ الجوتخدار يتكلم بالتركي مظهراً نفساً كبيرة ، لِيُؤِمِّه على الناس ، على حسب طرائق العثماني المشهورة . فقال له ذَرَاك : لا تكن فضولياً^(١٧) ، فوالله العظيم ولو كنت في حماية الناصر مهنا وأنت جوتخدار الوزير ، فإن أردت لا أدعك تأكل خبزاً بقية عمرك . ودخل الحقق بينهما . ثم ركب ذَرَاك فرسه وأخذ رحمه بيده وقال لا عليكم سلام ، واعمل يا ناصر ما تصل إليه يدك ولا تتوان . وسار إلى عربيه الذين كانوا يبعدون ست ساعات عن منزلتنا . فاغتاظ ناصر من هذا الكلام وتمسك بغية الخايب . أما أبوه مهنا فإنه تكدر جداً لما سمع الدعوى وقال لابنه : يا ناصر إنك تريد أن تكسر عمدان بيت الملحم ؟ فالعمدان هي من الخشب ، فهُم يضعونها في وسط البيت لأجل ارتفاعه ، وأكبر بيت يكون على أربعة عمدان . وإن كان البيت على عامودين ينقسم مناصفة ، وإن كان على ثلاثة فينقسم مثالثة ، وإن كان على أربعة ينقسم مرابعة . ووقع الخلاف بين ناصر وأبيه مهنا ، /وحصل بينهما غليظ الكلام ، وكثير من العربان وضعوا الحق بيد مهنا ، وخافوا على أرواحهم وسحتهم أي رزقهم من غارات العربان عليهم ، بسبب أفعال ناصر الرديئة . ٢٣/١

ثم ثاني يوم حضر بدوي وأخبر أن ذَرَاك وصل بكامل عربيه وتوجه ناحية الشرق طالباً الجزيرة (أعني بين النهرين أي الفرات والدجلة) ، وأن جميع العربان قد رجعت قلوبها من ناصر

(١٤) «كاخيا» أو كُذُّخدا أي الموظف الكبير أو المشير الأول .

(١٥) «عنزة» ، بريد عنزة وهم من عرب الشمال ، أما شمر فهم من عرب الجنوب .

(١٦) «الجول» .

(١٧) «غلابه» .

ومرادهم تنكيس بيت ملحم نكاية بناصر. فبلغ الخبر العجوز^(١٨) مهنا فانحصر جداً وأمسك بذقنه وقال: يا ناصر، أتريد أن تُهان هذه الشيبة عند آخرتها؟ غداً يذهب العريان جميعهم ويلتحمون^(١٩) مع الدرعي بن شعلان، ويُخضرونه إلى هذه الديرة ويملكونه إياها، غصباً عنا وعن العثماني، فإذا حصل ذلك فأين يكون لنا مأوى، فنضطر أن نهجّ (أي نهزم) إلى عند ابن مسعود (أعني الوهّاني)، حتى يحميننا من شر الدرعي وفعله المشهور. أما تذكر الله يا شين (أعني ياردي).

فبعد ذلك جلست أنا والشيخ إبراهيم وأفهمته كامل ما حصل. فسكت حصة وقال: يا ولدي، اعلم أن هؤلاء الناس غير نافعين لصالحي لأن الوثام لا يوجد بينهم وبين العشائر، ومرادي أن أتقدم إلى ناحية بغداد، إلا أن هؤلاء الأقوام، بسبب العداوة وعدم المحبة بينهم وبين العريان، لا يستطيعون التقدم إلى المشرق، بل إن من صالحهم أن يبقوا دائماً في نواحي البلاد تحت نظر العثماني. ولذا علينا أن نقضي هذا الصيف معهم، ومتى حان الربيع ندبر أحوالنا. ثم قال لي: أريد منك أن تستخير، بكل لباقة، من أحد العريان، عن الدرعي ومن يكون من الناس وما هي أحواله وما هي أطباعه، وإذا كانت إقامته دائماً في نواحي ديرة بغداد أم أنه يتقدم أكثر فأكثر إلى نواحي المشرق^(٢٠)، حيث لي بذلك مصلحة كبيرة. فابتدأت أبحث عن من يخبرني بمطلوبي ولا يكون من عرب مهنا، فوجدت واحداً من البدو يسمى عبد الله الشاعر، من دير الشُّعَار/قرية على حافة نهر الفرات، واستخبرت منه عن الدرعي. وبما أنه شاعر فهو يعرف جميع العريان وأحوالهم، فأخبرني عن الدرعي وأحواله^{٢٣/٢} ومزاياه بالتفصيل، وصرنا نتسامر بخصوص الحال الواقع من ناصر^(٢١)،/فقدت له: يا عبد الله (هذا اسمه)، إن الناس تلهج بذكر الدرعي كثيراً، فمن هو هذا الرجل من الناس. قال: ياسيدي إن الدرعي رجل عظيم بين أبناء عصره، شجاع، عظيم بالحرب شديد بالقتال، جريته المعارك، فارس لا يوصف، له معارك شتى انتصر بها جميعاً مع العرب على الحضر، حتى أنه لا يحسب حساب الوهّاني نفسه. ومن جملة أفعاله أنه كسر أرضي^(٢٢) وزير

(١٨) في الأصل: «الاختيار»، ويريد الصائغ أن يقول: الاختيار أي الرجل المسن.

(١٩) أي يصبحون لحمة واحدة.

(٢٠) أي إلى جهات إيران وحدود الهند.

(٢١) تنمة الكلام صفحة ٤٥/١ و ٤٥/٢ و ٤٦/١ من المخطوطة.

(٢٢) جيش.

بغداد الذي هو بقدر سلطان اسلامبول . قلت وكيف [كان] ذلك ؟ قال : اعلم يا سيدي أن الدرعي نهب ذات يوم قفل بغداد ، وكان آتياً من دمشق . فاغتاز الوزير من ذلك ولكنه لم يُر على نفسه حتى يتم خيانة العثماني . فأرسل مكتوب أمان وراية مصحوبة بأقسام عظيمة إلى الدرعي أن يقوم وينزل إلى بغداد لأجل غرض ضروري وفيه خير له . فمن طبع العريان عدم الخيانة وقلوبهم سليم ، فصدق [كلام الوزير] ونزل إلى بغداد بعشرة خيال فقط . فحين دخل على الوزير أمر بحبسه وتقييده بالجنزير هو والرجال الذين معه . وثاني يوم طلب منه ألفي جمل وخمسة آلاف رأس غنم وخمسين فرساً كُحَيْلَةً وعشرين هجيناً أو يقتله . فقال له الدرعي : على الرأس والعين^(٢٣) أدفع جميع المطلوب ، ولكن إذا أمرت ، فإن ابني يكون رهناً مكاني ، وأنا أخرج لأدبر المطلوب . فقبل الوزير ذلك وحالاً أرسل الدرعي وأحضر ابنه سحن^(٢٤) ، وطلع هو من السجن . وفي مدة خمسة أيام ورد جميع ما ذكرناه زائداً غير ناقص . فأطلق الوزير سحناً . فعندما رأى الدرعي ابنه عنده نهب أول قفل اتى من حلب إلى بغداد ، وابتدأ يضرب وينهب ضيع وقرى بغداد ، وزاد على ذلك حتى قطع السابلة على بغداد فتضايق الوزير من ذلك وابتدأ يعد مهمات توجيه الأرضي^(٢٥) حتى يضرب الدرعي . فجمع العساكر والخيم والمدافع وكامل المهمات الواجبة ، وخرج من بغداد بأرضي [يضم] ثلاثين ألف مقاتل ، بكل نظام وتدبير ، وطقومه^(٢٦) مثل أرضي همايون^(٢٧) . فحين بلغ ذلك إلى الدرعي تأخر عن بغداد نحو يومين وجمع عربانه وغير عشائر يقود عليهم^(٢٨) فوصل الأرضي ونصب [خيامه] أمام أرضي الدرعي . وثاني يوم جرت حرب عظيمة وقتل جملة فرسان من الفريقين ، وثاني يوم كذلك وثالث يوم أيضاً ، فلم يكسب أحد بل كانا متساويين بالقوة . ورابع يوم انسحب الدرعي ليلاً مع كامل العريان والبيوت إلى قرب بغداد ليقطع الجلب عن الأرضي ، فظن الوزير أن الدرعي ولّى هارباً فسّر وقال لقد ذهب وكفانا خيره وشره ، لأن الوزير كان خائفاً من الكسرة . وأما الدرعي فإنه ركب تلك الليلة ذاتها ، واستصحب معه خمسة آلاف خيال من المجريين بالحرب والقتال ، ومشى بهم ليلاً وصبح أرضي الوزير ، قبل بزوغ الفجر ، فقسم خيله

(٢٣) « قوي مناسب » .

(٢٤) كذا ، ولعله يريد صحن لأن من عادة الصائغ أن يبدل الصاد بالسين .

(٢٥) الجيش .

(٢٦) ألبسته النظامية .

(٢٧) أي جيش السلطان .

(٢٨) كذا ولعل الصائغ يريد أن الدرعي كان يقودهم .

خمسة طوابير، ودار بهم على أطراف الأرضي، وعمل إشارة، وهجم وهجمت الطوابير الخمسة بلحظة واحدة كأنهم الأسد الخاطف ودخلوا أرضي بغداد وابتدأ ضرب السيف والقتل. وكان عساكر العثماني أكثرهم نائمين ومعلقين أسلحتهم، فقاموا من نومهم مثل المجانين، وصاروا يقتلون بعضهم بعضاً، فانكسر الأرضي وصاح فيه غراب البين، فنظر الوزير إلى ذلك واضطرب^(٢٩) وخاف جداً، فما وعى الناس إلا وقد ركب بطاق المسد، من غير بابوج، وانهمز ودخل بغداد، وكذلك العساكر، منهم من قتل ومنهم من رمى روحه بالدجلة. وغنمت العربان جميع ما حوي الأرضي، من خيل وسلاح وعدة خيل وقومانية^(٣٠) وذخائر ودراهم وملبوس وخيم ومدافع، وجميع ما كان بالأرضي من كلي وجزئي، شيء كبير القيمة. وقتل من العسكر عدد وافر. ودخل الوزير بغداد ولحقه من استطاع، وأغلق الأبواب، وظن أن العربان لاحقون به إلى داخل البلد، ودخل عليه الخوف والوهم^(٣١). ووقعت سطوة الدرعي في قلوب أهالي بغداد، حتى وصلت إلى الأطفال يخوفونهم بالدرعي لكي يناموا. وشاع خبر الدرعي بعد ذلك وكبر صيته عند العرب والحضر حتى وصل إلى الوهابي وإلى كامل البادية^(٣٢) والمسكون^(٣٣). والآن لا يوجد بين العربان من هو أكبر منه. ومن جملة أطباعه أنه يحب الكبر والمال، والمشى في الدروب الصعبة والوصول إلى المعالي. وهذه مزايا الدرعي ابن شعلان. فحكيت جميع ذلك إلى الشيخ إبراهيم فسر وقال: هذا هو الرجل الذي يتم مطلوبي^(٣٤). وفرح الشيخ إبراهيم وكان مسروراً مني جداً.

وثاني يوم، دعاني ناصر وأمل علي كتابين، الواحد إلى صدد والآخر إلى القريتين، مضمونهما طلب الخوة منهم. وذلك لأن له كل سنة من صدد راتب قدره خمس مئة غرش وست مشال، وكذلك له ألف غرش وست مشال من القريتين. ومن كل ضيعة له خوة، وذلك من جميع قرى طبراق حلب وحماة وحمص ودمشق، كل قرية على قدر أهميتها. وهذه الخوة لا بد منها مثل الميري، وأكثرها يعطيها أهالي القرى المساكين إلى مهنا، ليرد عنهم

(٢٩) «وابعط».

(٣٠) مؤونة.

(٣١) ذكر هذا الحادث عبد الله فيليب في كتابه: تاريخ نجد، ص ١٢٣.

(٣٢) «الشول» أو «الجول» كما جاء في أماكن أخرى من المخطوطة.

(٣٣) أي المعمورة.

(٣٤) بقية الصفحة بياض.

غارات العرب ، خوفاً على طرشهم^(٣٥) وحالهم . فوجدنا أن أهالي القرى مظلومون جداً ، لأن عليهم أن يرضوا خاطر العثماني والعرب ، وهم رعايا فقراء جداً ، وحسبنا بالتقريب ما يصل إلى مهنا من الأموال . فيصله من القرى ، باسم الخوة ، نحو مئة كيس ، وله على حماة وحمص كل سنة كميات من الحنطة ، وله أيضاً الصرة التي تُعطى له من أجل الحج ، وتصله الهدايا من كامل أكابر البلاد والحكام فيرسلون إلى بالألبيسة والأرز والذهب وغيرها من الأشياء التي لا يوجد عنده منها . ومع ذلك فهو دائماً مفلس وعليه دين ، على الرغم من أن لا مصروف عليه . فالحنطة تأتيه مجاناً والأرز كذلك ، كما ذكرنا . أما السمن فتعطيه العربان ، وعنده الغنم يذبح كل يوم منها ، وتأتيه الهدايا من العرب أيضاً وليس عليه علوفة^(٣٦) لعسكر أو لحخدم ، أما الألبسة فليس هناك غير القميص والعباية والكوفية والجزمة ، هذا بالنسبة إلى مهنا نفسه وأكابر قبيلته ، أما بقية الناس فلا شيء بأرجلهم على الإطلاق ، فالغني يزيد على الفقير بالجزمة فقط . ففكرنا بذلك وصرنا نسأل أنفسنا أين تذهب الأموال التي تصله ، واستخبرنا عن هذا الأمر ، فعلمنا أن أمواله تصرف على العربان فهو يكسوهم ويكسو خيولهم ويكرمهم . ومتى ما صار عنده قليل من المال يفرقه على الفداوية أعني الفرسان المشهورة بالحرب ، ومتى أتته حاجة جديدة لا يلبسها بل حالاً يعطيها للشخص الذي يكون أمامه . فهذا الذي جعله كبيراً بين العربان ، وهذه عادة العرب وعلى الأخص طائفة بيت الملحم . / ولا شك أن جميع العربان غير راضية عنهم ، إلا أن كرمهم خلق لهم حزباً كبيراً واسماً شهيراً بين العشائر . والواقع أنهم وإن كانوا من بيت قديم ، فإن أفعال ناصر من شأنها أن تبعد الناس عنهم . ولكن كرمهم واسم بيتهم القديم جعلهم يشبتون .

ثم رحلنا من تلك المنزل إلى أخرى بقرب حمص يقال لها الجُدَيْدَة ، ماؤها نبع يجري على الأرض ، وهي تبعد ثلاث ساعات عن نهر العاصي الذي يقع غربيها . فنزل مهنا إلى حمص مع عشرة خيالة ، وبقي فيها يومين وحضر معه هدايا من حاكم حمص وأكابرها ، لأنهم يخشون منه على قوافلهم وأرزاقهم الشاردة والواردة . لأن من عادة العرب ، إذا لم يكونوا راضيين عن بلدة ، أن ينهبوا قوافلها . وبعد حضور مهنا بيومين . ركب ناصر بنحو خمس مئة خيال

(٣٥) ماشيتهم .

(٣٦) علوفة : مرتب شهري أو سنوي .

على قبيلة يقال لها عَبْدُ اللَّهِ^(٣٧) أميرها يسمى سَطَامُ الدُّغَيْمِي^(٣٨). وكان المذكور في منزلة بقرب تدمر يقال لها أَسَدَيْنِ (أعني النهدين) لأن بها تلتين، الواحدة إلى جانب الأخرى، بالحجم نفسه. وبعد ثلاثة أيام حضر ومعه نحو مائتي ناقة وغم كسبها، وأخبر أن موقعة عظيمة حصلت بين الطرفين، وقتل من ربيع ناصر ثلاثة أفراد ومن العبد الله نحو عشرة، وأتوا بثلاثة أفراس عظام، وأخذ لهم فرس واحد، وهو فرس زامل ابن عم ناصر الذي ذكرناه سابقاً.

فضجّ العربان جميعهم من هذه الغارة، وتأكد لهم أن ناصرأ يقصد خراب العرب، ويريد الشر معهم، لأنه أغار على عرب سَطَام من غير سبب ولا عداوة سالفة بينهم، ولكن يرغب في كسر شيمتهم حتى يسود عليهم. فاشتغلت الطروش (أعني المراسلات) بين العربان يخبرون بعضهم بعضاً، واندروا الناس لكي يجتمعوا ويكونوا على حذر من الحسنة، ووصلت مكاتبتهم إلى الدريعي وإلى عرب نجد وشمير، ونمت العداوة بينهم، وعزموا على الغارات على عرب الحسنة، أتباع مهنا، وشاع هذا الخبر في كامل ديرة عربستان، ووصل إلى أمير يقال له دُوخِي بن سَمِير^(٣٩)، ويقال لقبيلته ولُد علي، يقيم في ديرة حوران فوق دمشق. فهذا الأمير يأخذ صرة^(٤٠) من وزير الشام لأجل الحج، مثل مهنا تماماً، وبينه وبين بيت الملحم قرابة من جهة النساء، وهم أحياء من زمن قديم، فلما بلغت هذه الأمور اغتاظ جداً وخاف على بيت الملحم، ولم يتحمل ذلك، فركب حالاً ومعه نحو ثلاثين خيالاً/وأتى عندنا خصوصاً، فلقية الناس بكل إحترام. ونزل من على ظهر جواده، وهو مسود الوجه عابس. فأمر مهنا بالقهوة فقال له: يا مهنا قهوتك مشروبة، فإني لم آت لأشرب القهوة بل لأقول لك أن بيتك وحمولة بيت ملحم سوف تتلاشى عن قريب، من أفعال ولدك هذا ناصر باشا، وذلك من نوع الاستهزاء. ثم قال: واعلموا أن كل العربان ضدكم ومرادها أن ترد النقا عليكم، (رد النقا معناه اشهار الحرب)، لأن في اصطلاح العرب متى قلت مردود عليك النقا^(٤١)، معناه خذ حذرَكَ مني لأنني أصبحت خصمك^(٤٢) وأعلنت الحرب

(٣٧) «عبد له»؛ من عنزة، «تلفظ لفظة الجلالة برقة زائدة» (وصفي زكريا، عشائر الشام، II، ٣٩).

(٣٨) الدُّغَيْمِي، من السلقا، من عنزة.

(٣٩) «دوخِي ابن سمير».

(٤٠) «صَر».

(٤١) هذا الاصطلاح لم يزل معمولاً به، (انظر: العزوي، قاموس، ج ١ - ص ٣٤٤).

(٤٢) الصائغ يكتب: «أنا ضشمانك».

عليك . أما الجوخدار ، فكان سافر إلى حماة قبل يوم واحد فقط ليذهب بعد ذلك عند باشا دمشق . فتغيرت ألوان مهنا وقال لابنه ناصر : هل أعجبك هذا الشغل ؟ أتريد أن تبدي اسمنا ويكون خلاص بيت ملحم على زمانك ؟ فزعل ناصر وقال : ليفعل العربان ما يريدون ولا يقصّروا ، إن شاء الله أني سأحضر لهم عشرين ألف عسكري من البلاد . وذلك لأنه ما كان يشد ظهره فقط بباشا الشام ولكن أيضاً بدالي^(٤٣) باش يقال له الملاً اسماعيل ، رجل كبير الشأن مقيم في حماة ، صوته يجمع دائماً ثلاثة إلى أربعة آلاف دالاتي^(٤٤) .

فمن بعد جدال طويل وكلام كثير مع الدوخي ، لم ينتج عنهما فائدة ، بات تلك الليلة وثاني يوم قال : يا ناصر ، أنا ذاهب عند أهلي ، ولكنني لا أكون ضدك ، بسبب حق الخبز والملح والقرابة والصحبة ، وكذلك لا أكون معك ، إذ لا يجوز ذلك ، لأن مشيقتك رديئة وقصدك تنكيس أبناء جنسك . ثم ركب وتوجه إلى ديرته حوران ، بكل حق وغيظ .

أما مهنا فإنه خاف من هذا الكلام ، وثاني يوم رحل ونزل بقرب حماة ، وكان بينه وبين حماة ساعة ، وذلك بمشورة ناصر ليكون قريباً من البلاد ، فإذا احتاج إلى عساكر يطلبها من حاكم حماة ومن الملاً اسماعيل الذي ذكرناه سابقاً . أما العربان فإنه تم رأيهم على تنكيس راية بيت الملحم ، وارتبطوا مع بعضهم بعضاً ، وصار كل من رأى أحداً من غير قبيلته يقتله . وكانت الصيفية رديئة قضيناها بالخوف والجزع ولم يعد لنا رغبة في الذهاب عند قبائل أخرى ،
٢٥/١ لأننا أصبحنا معروفين من أتباع بيت الملحم ، فيصيبنا ضرر من العرب بسبب ذلك،/والتزمنا أن نبقى دائماً مع قبيلة مهنا .

✻ وأما المذكور ، فغشيم جداً كما تقدم الشرح عن طباعه ، وبسبب غشمه ينقاد إلى ابنه ناصر في كل ما يريده . ومما يُحكى عن غشمه أن وزير الختم ، حين رجع من مصر بعد أن غادرها الفرنسيون ، مرّ على دمشق بجميع الجيش^(٤٥) الهميوني^(٤٦) ، فصار كبار البلدة وجهاؤها وأعيانها يأتون للسلام عليه . وبطريق الاتفاق كان مهنا حينئذ بدمشق ، فتحسن

(٤٣) دالي باش أي رئيس الدلالية .

(٤٤) الدلّاتي (من التركية) : جندي من المشاة أو الفرسان يضع على رأسه القاق أو أي قبعة مستطيلة أسطوانية الشكل .

(٤٥) في الأصل : أرضي .

(٤٦) الهمايوني أي السلطاني أو الملكي .

عنده أن يذهب ويسلم على الوزير ، فدخل عليه وهو بطاق القميص الوسخ والمشطح الأسود وكوفية على رأسه وجزمة قديمة في رجله . فدخل على الوزير وسلم عليه على عادة البادية وقال : السلام عليك يا يوسف ، يا وزير السلطان ، عساك بخير ولعلك عدل ، ثم جلس بجانب الوزير من غير إذن ولا دعوة . فاغتاظ الوزير منه واحمرت عيناه لأن هذا شيء يخالف المراسيم العثمانية ، وعلى الخصوص أنه الصدر الأعظم ، عائد من مصر منصوراً ، ويرى نفسه أكبر من سلطان اسلامبول ، فغضب وأمر القواصة^(٤٧) أن يأخذوا مهنا ويقتلوه . فقبضوا عليه وطلبوا به إلى خارج الديوان . أما مهنا ، فبسبب طرشته وعدم معرفته باللغة التركية ونظافة قلبه ، وبالنظر أيضاً إلى عادات العرب أن يطعموا الضيف حال وصوله عندهم خوفاً من أن يكون جائعاً ، فإنه ظن أن الوزير أمر له بالغداء . فحين أخذوه إلى وسط السرايا ليقتلوه ، ترامى جميع الحاضرين ، من الأعيان ومن الصيارفة اليهود الذين شاهدوا ما جرى ، على أقدام الوزير وقالوا : يا سيدنا احذر عاقبة عملك ، فهذا يقال له مهنا الفاضل أمير عنزة ، هذا الذي يغفر^(٤٨) الحج ويرد عنه غوايل العرب . ومن دون إذنه لا يمشي الحاجاج . وفضلاً عن ذلك إن قتلته لا تستطيع بعدئذ أن تخرج من دمشق بسبب شر العريان . فبردت همة الوزير وأمر حالاً برده ، فعادوا به أمام الوزير ، فأجلسه إلى جانبه وأمر له بالقهوة فقال مهنا ببالة : صحيح أن العثماني كلب بخيل ، كأنه ندم على الغداء فاستعاض عنه بفنجان قهوة ، لأن مهنا ، على الرغم من كل هذه الضجة^(٤٩) لم يفهم جليلة الأمر . وبعد القهوة أمر الوزير له ببذلة/وحوائج من ملبوسه ، فأحضروا له قنباراً^(٥٠) مقصباً عظيماً وشال كشمير وفروة سمور ، فألبسوه إياها . وأمر له الوزير بألف غرش فاحضروها حالاً . وشرب قهوة مرة ثانية . وبعد ذلك صاح مهنا على العبيد الذين كانوا معه ، وكانوا ثلاثة ، فحضروا أمام الوزير ، فسلح القنبار وأعطاه لواحد منهم ، والشال للثاني والفروة للثالث . فتعجب الوزير منه وقال للترجمان : قل لمهنا كأنه ما قبل هديتي ؟ قال مهنا : يا ترجمان قل لوزير السلطان أننا نحن العرب لا نغوينا الملابس الجميلة ولا نتكبر بالملبوس ، أنا ابن ملح وأبي الأمير فاضل ، ولإني معروف عند عشائر العريان سواء كنت لابساً هدوماً (يعني ثياباً) زينات أم شينات (أي جميلة أم زرية) ، مفهوم وكبير عليهم . فتعجب الوزير من كلامه وسر منه بالرغم عنه . وله حكايات كثيرة مثل هذه .

(٤٧) يريد القواصة ، والمفرد قواس وهو الحاجب أو البواب ، بالمصطلح الحالي .

(٤٨) يخفر أو يحفظ .

(٤٩) « الكركبة » .

(٥٠) في الأصل : غنبار .

ثم نرجع إلى ما كنا بصددده : لم تزل العداوة والغارات على الحسنة ، قبيلة بيت ملحم ، حتى صارت كل العشائر خصومهم^(٥١) . فقضينا كل الصيف معهم بكل عذاب وخوف ووجل ، من محل إلى محل ، حتى ابتدأت العربان تشرق ودخل فصل الخريف . وأخيراً بقينا معهم ، وكنا بقرب حلب ونحن مرادنا التوجه نحو دمشق والدخول إلى حلب ، هذه رغبة الشيخ إبراهيم . وظللنا نترقب الفرصة لنجد من يسير بنا إلى دمشق فصعب الأمر لأننا لا نستطيع الذهاب وحدنا ، أما عرب مهنا فلا يسعهم أن يتطرفوا خوفاً من سائر القبائل ، واقضى الأمر أن العرب أخذونا إلى ضيعة يقال لها السُّخنة ، شرقي حلب يومين ، تحوي على نحو مئة بيت من الجمالين ، يصنعون القللو للصابون يحملونه إلى حلب ويبيعونه أيضاً . بها حمام ماء ساخنة طبيعية ، ولهذا السبب سميت السخنة . وأما أهلها فخيرون كرماء ، يحبون الضيوف . فكانوا يتقاتلون علينا حتى يضيفونا عندهم ، كل واحد بدوره ، لأن ما بها شيء للبيع مما يخص الأكل والشرب ، نساؤها حسنات جداً ، وجميع لوازمها من حلب . فجلسنا بها نحو عشرين يوماً حتى توفر لنا أناس ، بكراء وافر ، أخذونا إلى تدمر ، فسلمنا على الشيخ رجب وحكيما له عما جرى لنا عند العربان ، واستقمنا عنده ستة عشر يوماً ، حتى توفق لنا من أخذنا إلى القريتين ، فدخلنا وسلمنا على الشيخ سليم وعلى الخوري موسى الذي كنا نازلين عنده وأبقينا رزقنا تحت يده . فسألنا الخوري/عن بضاعتنا وعن بيعنا ومكسبنا فقلنا له : بعنا والله الحمد وربحنا ما لا كنا نتأمل ، والحقيقة أننا فقدنا الرأسمال والمكسب ، وجميع ثمن الرزق الذي كان معنا راح بخاشيش وهدايا وكراء وبراطيل وديون للعرب ، وظللنا جالسين بالقرية ثلاثين يوماً حتى توفق لنا أناس يأخذونا إلى ضيعة بعيدة عن القريتين ست عشرة ساعة ، يقال لها دير عطية ، على طريق دمشق^(٥٢) . ولكنهم لم يعطونا دواب وخافوا من العرب أن يسلحونا ويأخذوها منا في الطريق . فاضطر الشيخ إبراهيم أن يشتري له كديشاً وركبت أنا على حمار ، وكان معنا أربعة أنفار ، بمئة غرش ، ليوصلنا إلى دَيْر عطية . وفي ذلك الوقت كان دخل فصل الشتاء العظيم . وبالقرب من دمشق^(٥٣) يقع برد شديد لا يوصف . فخرجنا من القريتين وأبقينا رزقنا عند الخوري . وكان النهار بارداً ، مع هواء وثلج ورياح شمالية قاسية جداً . فمررنا في طريق يقال له بين الجبلين . وإذا نفذ علينا خيول العرب نحو عشرين خيلاً . ومن شدة البرد والخوف رمى الذين معنا بنادقهم من أياديهم ، فوصلت إلينا الخيل

(٥١) «ضمانهم» .

(٥٢) في الأصل : الشام .

السوابق وشلحونا، وشفقة بنا أبقوا لنا القميص والقباز وأخذوا جميع ما معنا وذهبوا، ولكنهم لم يأخذوا الحمار والكديش. فاشتد علينا البرد، وعصف الريح القوي، فازرقت أجسادنا واحمرت عيوننا وغابت حواسنا وقصرت السنننا وجمدت دماؤنا وزاغ بصرنا، وخصوصاً أنا أشرفت على الهلاك قبل الجميع. فرأى الشيخ إبراهيم حالي وأناي عدمت كلياً، فابتدأ يكي ويشير بيده للذين معنا ليعملوا لي طريقة كي لا أموت. وصرنا جميعنا نتباكى، ولا يفهم أحد من الآخر، ويئسنا من الحياة وقطعنا أملنا منها بالكلية. ثم وقعت على الأرض مثل قطعة من الخشب وغبت تماماً عن الوجود. فصار الشيخ إبراهيم يلطم على رأسه ويكي ويعيط وكأنه مربوط اللسان فيقول فقط: أي، أي، أي. وكان معنا شاب من جملة الأربعة يقال له موسى بن وردة، نصراني، سرياني، صاحب نخوة ومروءة زائدة، فركض وسحب سكيناً من على جنبه وأمسك بالكديش وأرماه على الأرض وشق بطنه من فوق إلى عند ذنبه وحملني بسرعة من الأرض ووضعني في بطن الكديش وأبقى رأسي خارجاً، وأنا لا أعني على شيء ولا أعلم ماذا فعلوا بي. ^(٥٣) فبعد نصف ساعة وعيت على حالي ودبت الروح/في جسدي، فأخرجوني وحملوني على الحمار وصرنا، وبعد ساعتين وصلنا إلى الضيعة ونحن على آخر نفس. فدخلنا إلى بيت واحد بيطار نصراني يقال له حنا بيطار، من النصاري الروم، حيث كان معنا كتاب توصية له من الخوري موسى. فحين رأني في تلك الحال، طمرني في كومة زبل، وعمل النيران حولي، وابتدأ يسقيني نبيذاً، وكذلك عمل مع الشيخ إبراهيم حتى دفننا وسكن روعنا. فأخرجنا وأحضر لنا طعاماً وأكلنا ودخنا ^(٥٤) توتون، وزال عنا كل مكروه، ولكن ياله من يوم عظيم. ثم سافر رفقاؤنا في اليوم الثاني وتدينث من البيطار ممتي غرش وأعطيتهم أجرتهم مئة غرش، وخمسين غرش بخشيشاً إلى الثلاثة، وخمسين غرشاً بخشيشاً أيضاً إلى موسى ابن وردة لأنه هو الذي خلصني من الموت. فجلسنا في دير عطية أربعة أيام وتوجهنا إلى دمشق.

(٥٣) اعتباراً من هذه الصفحة يتبدى الكراس الرابع من الكتاب كما فصله الصائغ، إذ وصَّح رقم ٤ في أعلى الصفحة.

(٥٤) «وشربنا».

[من دمشق إلى حوران]

كان دخولنا إلى دمشق الشام في ٢٣ كانون الأول سنة ١٨١٠ نهار السبت . فنزلنا في بيت الخواجه شاباصون الطبيب^(١) الفرنسي . وبعد بضعة أيام ، تبين لنا أن إقامتنا في دمشق ستطول . فانتقلنا إلى دير اليسوعية ، وكان خالياً لا يسكنه أحد . وأخذنا خادماً ليطبخ لنا من أهالي الشام ، وصرنا ننتظر خلوص فصل الشتاء حتى نسافر عند العرب مرة ثانية . وأما بخصوص مدينة دمشق فعظيمة ، منتزهاتها ومياهها كثيرة وبساتينها عظيمة ليس فيها من الأفرنج سوى الطبيب ، ودير اسبنيلوية ، ودير كبوشيين . ودير اليسوعية خراب ما به أحد ، لإسلامها أرياء ونصاراها^(٢) أنجس ، وأحوالها معلومة فلا حاجة للشرح عنها .

وفي بعض الأيام إذ كنا ندور بالسوق ، إذ بواحد بدوي يأتي صوبنا ويسلم علينا بكل معرفة ومحبة ، فتعجبنا وقلنا له : مَنْ^(٣) أنت يا وجه الخير . فقال سبحانه الله كيف تنسوا أصحابكم بسرعة : أنا هلال الذي تخاوئ معكم ، وأكلت خبزكم وملحكم بالمعرة ، ولي زمن وأنا أفتش عنكم ، فأين كنتم خلال كل هذه الغيبة ؟ فلزم أن نأخذه سراً وذهبنا إلى الدير ، لأن الشيخ إبراهيم أمرني بذلك ، حيث قال : هذا نحتاج إليه حتى أستخبر منه عن بعض

(١) « الحكيم » .

(٢) « نصارتها » .

(٣) « مين » .

الأمور الضرورية لنا . وحين صار بالدير أطعمناه وسقيناها ، فانبسط وطابت نفسه . فسألناه أين أهلك ؟ فقال : في حوران ، لأنني من عرب قبيلة يقال لها ولْد علي . أميرنا يسمى دوحى ابن سمير (وهو الذي تقدم ذكره ، من أقرباء بيت ملحَم) . وفهمنا منه أن في ديرة حوران وبلاد الجليل أربع قبائل من العرب . / اسمائها : ولد علي ، السَّرْحان ، بني صخر ، السَّرْدِيَّة . ٢٧/١

فهذه القبائل الأربع لا تشرق بالشتاء ، مثل عرب غير قبائل ، لنحو المشرق ، بل وصوبها إلى نحو الزرقا والبلقا . ومنها من يصل إلى الأمونية ، بلاد اسماعيل ، قرب البحر الميت ، وترتد إلى حوران ، قبل تغريب العربان على بلاد سورية ، مع أول الربيع . [وقال] : إذا كنتم تشتبهون أن آخذكم بأول الربيع عندهم ، كي تبيعوا شيئاً من رزقكم فيحصل لكم ربح . وأنا المسؤول عن كل شيء رديء يحصل لكم . فاعتمدنا على ذلك ، وتواعدنا أن نطلع معه في آذار لنبيع شيئاً من رزقنا لهذه القبائل . وقال لي الشيخ إبراهيم : إن مرادي أن أرى هذه القبائل ، ولو حصل خسارة^(٤) وتعب . واعلم يا ولد أن مقصودي أن أدور على كامل قبائل العرب ، ولا تسألني لأي سبب ، فقلت : قوي مناسب ، الله يعطينا يد المعونة .

ثم استخبرنا من هلال عن أحوال العربان ، وأمور بيت ملحَم ، ماذا يقول العرب عنهم . فأخبرنا بكل ما طلبنا منه . لأنه كان شيطانياً خبيراً بالأمور ، عارفاً جيداً [بأحوال العرب]^(٥) . فأخبرنا أن كل العربان ضد بيت ملحَم ، وأن كبرتهم لن تطول من أفعال ناصر المهنا . فسأله الشيخ إبراهيم عن الدريعي فأخبره عن كل ما سأله ، وعن أحوال المذكور وأطباعه ومشيتته وعقله . فسُرَّ الشيخ إبراهيم وقال لي : يا ولدي أريد منك الوصول إليه ، واعمل كل ما تقدر عليه واستعمل كافة الوسائط لكي نصل إليه . فقلت له : يا سيدي أنت أخرجتني من حلب لأجل البيع والشراء ، والآن أراك^(٦) تطلب مني أموراً صعبة التي لا تتوَل إلى البيع والشراء . إن الوصول إلى الدريعي صعب على ما فهمت . فإن كان لأجل بيع بضاعتنا ، فإننا نبيعها لغير عربان ، ولا يلزم كل هذا التعب . فقال : ألم أشرط عليك أن تكون معي بطاعة عمياء ، من غير بحث ولا سؤال عما أريد . فأنقهرتُ جداً من نفسي وقلت : ما هذه الوقعة مع هذا الرجل ؟ الله يخلصنا منه على خير . ولكن قلت في بالي : « اصبر يا ولد

(٤) في الأصل : خسارة .

(٥) زيادة من المحقق ليستقيم المعنى .

(٦) « وهلق أشوفك » .

حتى ترى آخر الحكاية ، طول البال جميل والعجلة غير مقبولة ، لقد وَقَعْتَ^(٧) فاصبر على مصيبتك/حتى الله يفرجها عليك . ٢٧/٢

فبعد ثمانية أيام سافر هلال من عندنا وأعطيناه بخشيشاً . وصار الوعد أن يأتي بأول الربيع ليأخذنا عندهم . ثم كتب الشيخ إبراهيم مكتوباً وأرسله إلى حلب مع ساع خصوصي . وإذا بعد عشرين يوماً حضر قفل حلب وأحضر لنا صرة دراهم ، تحت يد شاباصون ، داخلها خمسة آلاف غرش جميعها ربيعات . فقال : خذ من الدراهم^(٨) بقدر ما تريد واشتر لنا بضاعة تصلح^(٩) للعرب ، حتى نطلع نبيعها لأن حضور هلال بقي قريباً ، حيث كانت مضت الشتوية . فاشترت بضاعة بنحو ثلاثة آلاف غرش تصلح للعرب من جميع الوجوه^(١٠) ، وبقينا بانتظار هلال . ثم قلت للشيخ إبراهيم : يا سيدي هل ياترى هل سنعود بشيء من أصل هذه الثلاثة آلاف ثمن هذا الرزق . فضحك وقال : إن معرفة كل أمير من أمراء العرب تسوى عندي ثلاثة آلاف غرش هذا مكسبي ورحي ورسمالي^(١١) . فقلت : أما أنا فلا أرى أين رحى . فإذا كان يحك أنت عشرة العرب ، على ما يظهر لي ، ومعرفتك بهم ، فما هو رحى أنا من ذلك ؟ قال : يكفيك تدبيرى الذي سوف ترى ثمرته العظيمة إن شاء الله ، وتربح جاهاً ومالاً^(١٢) واسماً تفوق على كافة أبناء عصرك^(١٣) . ولا أستطيع أن أصرح لك بأكثر من ذلك فيكفي [ماقلته] ، وإنك ستعرف رويداً رويداً جميع [الأمر] . ولكن أريد منك ، قبل كل شيء ، أن ترخي لحيتك^(١٤) حتى تصبح مثل العرب ، ولا تبقى بهيمة تختلف عنهم . والحقيقة أن جميعهم بلحى ، ولا يمرون الموسى^(١٥) على وجوههم بل لأنهم على العهد القديم الذي كان قبل ظهور سيدنا المسيح . ومن عدم امرار الموسى على ذقونهم ، ثلاثة أرباع العرب لحاهم كوساة ، مثل سحن اليهود .

(٧) « صار وَقَعْتَ » (وقت) .

(٨) « مصريات » .

(٩) « تخرج العرب » .

(١٠) « وجه كل شيء » .

(١١) « رسمالي » .

(١٢) « وعرش » .

(١٣) « عسك » .

(١٤) « ذقتك » .

(١٥) « موسى » .

فبعد قليل من الزمن إذ حضر هلال ومعه جمّالان وإثنان من البدو غيره، حتى يحملونا عندهم. فلزم أن أجد حالاً مكاناً للجمال وأدخلتُ العربَ الدَّيرَ. فترحبنا بهم وعملنا لهم إكراماً زائداً وأخبرونا أن أهلهم، من قبيلةٍ ولدُ علي، نازلون على ماء المزيريب^(١٦) وأنهم بعيدون عن دمشق^(١٧) نحو ثلاثة أيام. فبعد يومين دبرنا شغلنا وطلعنا من دمشق^(١٧) في ١٥ آذار ١٨١١، وكان صار لنا سنةً وثمانية وعشرون يوماً^(١٨) منذ مغادرتنا حلب. فذهبنا مع العرب وثمان ليلتين بالبرية من غير مأوى، وهو طريق معروف من دمشق إلى المزيريب^(١٩). وفي اليوم الثالث وصلنا عند العرب، فوجدنا نزلاً عظيماً نحو ألف بيت بمواشي وخیل عظيمة، فنزلنا في بيت/دوخي بن سمير. فعمل لنا إكراماً زائداً وذبح لنا ذبيحة، حيث كان صار بيننا معرفة، من يوم الذي جاء إلى بيت مهنا، لأجل مادة ناصر. وهو رجل عظيم عاقل مدبر يومی إليه، محبوب من عربان قبيلته التي تعد نحو خمسة آلاف بيت، وعليهم رؤساء من أقربائهم، وكذلك القبائل الثلاث الأخرى وهي بني صخر والسرحان والسرديّة، فهم أحبابه ومعه في كل أمر يریده، وطمعهم قليل ليس مثل قبيلة مهنا، رزقهم كثير وخیلهم عظام مشهورة بالصيت^(٢٠).

وفي الليلة التي وصلنا فيها كنا نتحدث بسيرة الخيل وحسنها، فحكى لنا الأمير دوخي نكتة حدثت في قبيلته، وكان هو وقتئذٍ ولداً، فقال: إن واحداً من البدو يقال له جبل كان عنده فرس عظيم جداً لها صيت زائع عند العرب والحضر: فسمع بها وزير الشام يقال له أسعد باشا من بيت العظم، فأرسل طلبها من صاحبها بثمان. فما رضي ببيعها لأن فرس البدوي أغلى عنده من امرأته وأولاده^(٢١). فأرسل هدده بالكلام فما صار فائدة. فعجز الوزير عن ذلك ومن بعد ما عمل كافة الوسائل ما حصل عليها، والدعوى صارت مسموعة عند كل الناس. واغتم الوزير جداً لأنه لا يستطيع أخذها قهراً، ولا يرضى البدوي أن يعطيها بثمانها بل أكثر. فجاء بدوي عند الوزير يقال له جَعْفَر وقال له: يا سيدي ماذا تعطيني إذا

(١٦) «المداهيب».

(١٧) «الشام».

(١٨) على الصحيح: سنة وخمسة وعشرون يوماً، لأن الصايغ غادر حلب بتاريخ ١٨ شباط ١٨١٠.

(١٩) «المداهيب».

(٢٠) «بالسيط».

(٢١) بالأصل: «فأرسل طلبها من صاحبها بحقها، فما عطاها لأن البدوي فراسه عنده أغلا من مرته وأولاده».

جئتكم بالفرس ؟ فقال أعطيك ملاً عليقتها دراهم . وكان البدوي من عرب بني صخر . فراح ودخل عند عرب ولد علي ، وصار يدور [بين المنازل] ويميزها إلى أن وصل إلى بيت جبل ، صاحب الفرس المعروفة . فنظر وميز جيداً محل الفرس ، وعرف أين يربطها صاحبها خلال كل ليلة . ثم ذهب واختبأ في مغارة قريبة إلى أن انتصف الليل ، فجاء إلى بيت جبل ، فوجد الفرس أمام البيت ، وأرجلها مقيدة بالحديد ورأس الجنزير الغليظ ، قد أدخله جبل إلى وسط بيته حيث دق سكة وفرش فوقها فراشه ونام هو وامرأته عليها . فخلع جُعَيْفَرُ ثيابه وبقي عارياً حسب عوائد العرب ، لأن رجالهم ينامون عرايا تماماً . ودخل بكل ظرافة بين جبل وامرأته .

٢٨/٢ فتارة يتمطى ويلزّ بالمرأة ، فتظن / أن زوجها في نومه [قد فعل ذلك] فتتزعزع له عن مكانها قليلاً ، وتارة يلز بالرجل فيظن أنها امرأته فيتزعزع لها قليلاً . ولم يزل على هذه الحال حتى عمل فاصلاً بين المرأة والرجل بمقدار ذراع . وكان معه سكين حادة^(٢٢) فقوّر الفراش وخلع السكة من الأرض ووضعها^(٢٣) على الأرض ، وقام بكل ظرافة من بينهما ، وطلع وسحب الجنزير والسكة إلى خارج البيت ، وخلّص قوائم الفرس ، ولبس ثيابه ، وأخذ رمح جبل ، وركب على الفرس ، ومدّ الرمح ولكز به جبلاً ، ونبهه من نومه وقال : يا جبل ، لا تقل ما أنذرتني ، فها أنا جُعَيْفَرُ أخذت الفرس للوزير . فقام جبل مصروعاً مثل المجنون ، ورمى الصوت في منازل ولد علي ، فركبت الخيل حالاً وطارت خلفه . وكان بينها خيول عظام مشهورة ، ولكن ليس لها شهرة هذه الفرس إنما تقربها . وركب جبل فرس أخيه وهي أيضاً عظيمة ، مشهورة . وصارت المطاردة فيما بينهم ، وظلوا على هذه الغارة ست ساعات . وكان أكثر الناس اقتراباً من جُعَيْفَرُ أربعة خيالة ، وعلى الأخص جبل المذكور ، فإنه اقترب كثيراً ولم يبق لأمساكه إلا القليل وفي ذلك الوقت صاح جبل : يا جُعَيْفَرُ : « انستر لجامها وإقرص أذنها اليمين واعطها بالركب ، تروح ولا تعود تلتحق » . وهذا عند العرب يسمونه السرّ . فلكل فرس سرّ لقنّها آياه صاحبها وهو لا يقوله إلى أحد ، وذلك فقط في حين الحاجة الماسة . ففعل جُعَيْفَرُ حسب ما قال له جبل ، فطارت الفرس كأنها اللمع في كبد الجو ، وفي قليل من الوقت غاب جُعَيْفَرُ عن الخيل . فقال الخيالة الأربعة رفقاء جبل : ما هذا العمل يا جبل ؟ فقال : أفضل أن تؤخذ فرسي ولا يقال أنه وجد بين خيول ولد علي من يلحقها ويعيدها ، فيكون ذلك عاراً عظيماً علي ، وإنه أحب إلي أن تذهب مني ولا يطلع عليها هذا الصيت ،

(٢٢) « حاذقة » .

(٢٣) « ونيمها » .

فرجعوا . وأما جُعَيْقَرُ فإنه أخذها للوزير وحكى له ما فعل ، فأُنعِمَ عليه وأعطاه على حسب ما وعده وأكثر .

وحكى لنا أيضاً أن بدوياً ، من عرب نجد ، كان عنده فرس عظيمة مشهورة أكثر من فرس جبل الذي ذكرناه آنفاً . فعشقها بدوي آخر من غير قبيلته وأرسل يشتريها ، فلم يرَضَ صاحبها ببيعها . وعمل الآخر كل جهده للحصول عليها فلم يصل إلى نتيجة . فاضطر أن يذهب بنفسه إلى نجد ودخل بين العرب وترقب الفرصة ، وعلم أن صاحب الفرس سيمر من الطريق الفلاني . فراح صبيغ حاله بالحشيش وريط رأسه وحزم رجليه وعصب رقبته وعمل نفسه/مريضاًعدمان ، مشرفاً على الموت وبخالة التلف . وراح ورمى نفسه على الطريق التي سيمر بها صاحب الفرس . وإذا حضر صاحب الفرس راكباً فرسه وماراً في الطريق ، فرأى هذا الرجل المسكين مرمياً ، وهو يعن ويتلوى على جانبه ويستجير ويصيح . فأتى نحوه صاحب الفرس وسأله عن حاله فقال له : يا صاحب الخيرات ، أنا رجل فقير وغريب ، ولي أوجاع كثيرة ومشرف على الموت . ولي يومان بهذه الأرض المنقطعة من غير أكل وشرب ، وقد عدت بالكلية ، ولم يبق لي قوة على القيام من هنا ، فافعل معي خيراً والله يكافئك عني . فتوجع قلبه له ، ونزل من على ظهر فرسه ، وحمله بين يديه ، ووضعته على ظهر الفرس ، ومشى أمامه حتى يأخذه إلى بيته . فذلك الحين ، وقت صار على ظهر الفرس ، نهزها بالركب وطار بها . فصاح عليه صاحب الفرس : يا فلان قد فهمت ملعوبك ، ولكنني أرجو منك أن لا تحكي هذه الحكاية لأحد لكي لا تصير سبباً لقطع الخير ، إذ لا يبقى في الدنيا من يشفق على عاجز يحمله ، خوفاً من حيلة مثل هذه ، فتكون سبباً لعدم فعل الخير في العالم . فأصغى البدوي إلى هذا الكلام وارتدّ على أعقابهِ ، ونزل من على الفرس وسلمها له . فتصافحا كثيراً وصارا أخوين وذهما سوياً إلى بيت صاحب الفرس ، حيث بقي البدوي في ضيافته ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى عند أهله .

فهتان الحكايتان اظهرتا لنا مروءة العرب ونخوتهم . وقد سرَّ الشيخ إبراهيم جداً تلك الليلة . وقال لي عند النوم : يا ولدي ، إنني لا أريد شيئاً من هذه القبائل ، سكان حوران وبلاد الجليل ، إنما أود فقط أن تتمرن على عشرة العرب وتتقوى بلغتهم لأن كلامهم يختلف كثيراً عن كلام أهل المدن ، والذي لم يعاشرهم لا يمكنه أن يفهم منهم شيئاً ما . فلا تعب نفسك

كثيراً، إنما مرادي فقط أن تعرفهم وتعرف عددهم وأسماء أمرائهم على وجه الاختصار^(٢٤)، لأن ليس لي حاجة معهم، وستنقضي بعض الأيام عندهم وبعدها نتوجه عند الأمير الدريعي، وهناك إن شاء الله سنبيع ونشتري ونجمع المكاسب التي أنا قاصدها، فقلت: الله يربحنا.

وثاني يوم فتحنا رزقنا وبعنا جانباً منه، وقدمنا الهدايا إلى دوخي وأكابر العربان، واستقمنا عنده خمسة عشر يوماً. وبعدها/توجهنا مع هلال واثنين آخرين من البدو إلى قبيلة سرحان، وكان مسيرنا عشر ساعات لجهة الغرب. ثم وصلنا إلى النزل وكان مقداره نحو مئتي بيت فقط. فنزلنا في بيت شيخهم الذي يقال له إدغيم بن علي وهو زوج بنت دوخي، وقبيلته تحوي على ألف ومئتي بيت، ولكنهم كانوا مقسومين بسبب الأرض النازلين بها فليس فيها من الماء ما يكفيهم جميعاً. واسم المحل الذي كانوا به المريحات، ماؤه نبع قليل ممتد من القبلة إلى الشمال.

والسبب أن اسمهم سرحان أنه كان لهم جد قديم، وكان له بنت جميلة جداً، فأرسل أمير من أمراء العرب الذين سبقوا بني فزارة — لأن الظن أن أصلهم من بني فزارة، على أيام عنتر — وأحضره عنده لأنه كان يريد أن يتزوج ابنته. ولكن الشيخ ما رضي أن يعطيها، وقام من المجلس من غير سلام وذهب. فسأل الأمير عنه فقالوا أنه سرح يعني راح. فانزعج خاطره منه وسماه السرحان. وبقي هذا الاسم منحصرأ به، وقسم العربان وتبعه قسم منهم، وعرفوا بعرب السرحان إلى يومنا هذا.

وأما الشيخ إدغيم فهو رجل حسن المنظر والسلوك، إلا أنه طماع، لأنه طمع بنا وأخذ منا بمقدار مئتي غرش رزقاً من غير حق وأكلها علينا^(٢٥). وعلى ما فهمنا أنهم ليسوا رجال حرب مثل غيرهم من العربان، وهم وجلون نوعاً ما. فاستقمنا عندهم ثمانية أيام ثم قمنا توجهنا إلى عند عرب السردية مع هلال وواحد من البدو من عرب السرحان. وكان مسيرنا بجد خلال ثماني عشرة ساعة، مرحلة^(٢٦) واحدة، لجهة القبلة. فوصلنا نصف الليل عندهم إلى بيت شيخهم الذي يقال له فدغيم ابن أسراج. وكانوا نازلين في أرض يقال لها الصالحة. وهي قبيلة تحوي على ألف وثمان مئة بيت. إلا أنهم كانوا نحو خمس مئة بيت فقط.

(٢٤) «الاقتصار».

(٢٥) ابتلع ثمنها.

(٢٦) بالأصل: «فناق».

وأما باقي البيوت فكانت في غير أمكنة . وهذه هي عاداتهم حتى لا يزاحم بعضهم بعضاً على الماء والمرعى ، لأن البرية^(٢٧) واسعة ، فتنقسم القبيلة إلى قسمين أو ثلاثة فيكون الماء والمرعى عندهم بكثرة . فأهدينا لشيخهم وكبرائهم بنحو خمس مئة غرش من ألبسة ودراهم ، لأن الشيخ إبراهيم كان مسروراً كثيراً منهم إذ كانوا عشورين جداً/ويحبون الضيف . وفي ذات يوم إذ كنا ندور بين العربان ، مررنا على بيت أرملة عجوز ، فركضت وسحبتنا إلى بيتها وذبحت لنا رأس غنم ، ولم يكن عندها غيره ، واستجذت^(٢٨) خبزاً من عند قصرانها^(٢٩) (يعني جيرانها) ووضعتهم أمامنا . فقلنا لها يا أمنا العجوز لأي سبب هذه الحسارة ؟ قالت من زار إنساناً ولم يصفه فكأنه زار ميتاً . فسّر الشيخ إبراهيم من كلامها وقال لها : يا أمي العجوز : مالك أحد ؟ قالت : مالي غير الله ، لأني غريبة ولست من هذه القبيلة ، أصلي من عرب بغداد من قبيلة يقال لها ()^(٣٠) وأميرها اليوم ()^(٣١) . وكان خطفني زوجي منها وأحضرني إلى هذه الديرة . وكان لي أولاد ورجال ، منهم من مات موتاً طبيعياً ومنهم من قتل في حرب الوهابي . لأن في ذلك الوقت كان الوهابي مقتدراً ويقاثل العرب الذين يرفضون طاعته ولا يعطونه الزكاة أي العُشر^(٣٢) .

ثم رجعنا إلى بيت فدغم ابن أسراج . وكانت إقامتنا عنده سبعة أيام . وتوجهنا إلى عرب قبيلة بني صخر مع هلال واثنين آخرين من عرب السردية . وكان سيرنا إلى الشمال للغرب ، كل ذلك النهار إلى المساء . فوصلنا إلى نزل عرب صغير نحو عشرين بيتاً من عرب السردية . فبتنا تلك الليلة عندهم . وثاني يوم مشينا على طريقنا الأول ، وقبل غياب الشمس وصلنا إلى النزل ، وكان نحو ألف وخمسة مئة بيت ، في أرض عظيمة يقال لها الزَّرابية . فدخلنا إلى بيت أميرهم الذي يقال له سلامة ابن نجر . وتحوي قبيلته على ألفين وسبع مئة بيت : رجال مشهورة ، خيل عظام ، أغنياء أكثر من السرحان والسردية . وأما أميرهم سلامة فرجل كريم ولكنه خفيف العقل . كل من جاء عنده يظن أنه جاسوس يريد أن يقطع رأسه . وكل

(٢٧) «الجلول» .

(٢٨) «وشَحَلَة» .

(٢٩) القصير ، بالمصطلح البدوي ، هو من يلتجئ إلى عشيرة غير عشيرته ويعيش بين أهلها .

(٣٠) كلمة غير مقروءة ، وكتب الصائغ في الهامش : تُحَنَكَار .

(٣١) «الدهعي ابن شعلان» ، ولكن الصائغ خط على هذا الاسم بالحرر الأسود .

(٣٢) «من العشرة واحد» .

ليلة عند النوم يضع أناساً تحرسه كل الليل . له ولدان شباب والدته وأخ أصغر منه . فتحدثنا معهم بخصوصه وما السبب حتى اعتراه هذا الداء . فأخبرونا أنه حين كان ولداً ابن عشر سنين وقع في جب ماء فاختل عقله . وكلما تقدم بالعمر تزداد علته وكذلك كلما زاره أحد [يعاوده هذا الوسواس] . ومن جديد الآن ، منذ نحو شهرين ، كلما جاء أحد عنده يظن أنه يريد أن يقطع رأسه ، حتى يأخذه إلى ابن سعود ، أعني الوهابي ، مع أن قبيلتنا^(٣٣) فقط محبوبة عند الوهابي ، ونحن نعدّ من أتباعه^(٣٤) ، ونعطيه كل سنة عُشر المال حتى نخلص من شره . ولا يوجد في قبائل حوران وبلاد الجليل وكامل عربستان^(٣٥) من هو راض بالوهابي مثلنا ومحبوب عنده .

فابتدأنا نتكلم معه^(٣٦) ونأنسه بالكلام ، وهو يرد علينا بالصواب ويتكلم معنا بكل رقة وظرافة . وأمه من طائفة قديمة ، وآبأؤه وأجداده أمراء سابقاً يأخذون صرة من الحج ، كل سنة عشرة أكياس . وله أخوة على قرى الشام وحوران إلى حد البحر الميت . ويأخذ هو أيضاً مثلما يأخذ دوحى ابن سمير أمير ولد علي .

ثم فتحنا بضائعنا وبنا وتعرفنا بكثير منهم ، واستقمنا عندهم أحد عشر يوماً . وكان العربان قد غرّبوا وامتلاّت الأرض منهم ، فافتضى أن نذهب إلى دمشق^(٣٧) ، حتى نأخذ باقي حوائجنا ودراهمنا ، لأن الذي كان معنا رجع منه شيء قليل جداً . وما بقي بددته النفقات والكراء والبخاشيش .

(٣٣) الضمير يعود إلى ولدَي الأمير وأخيه .

(٣٤) في الأصل : « ونحن محسرين على كيسه » .

(٣٥) « عرب بستان » .

(٣٦) أي مع الأمير سلامة .

(٣٧) الشام .

[من دمشق إلى الجزيرة]

وطلبنا من هلال أن يذهب معنا إلى الشام ففعل . وثاني يوم من وصولنا ، أتانا هلال بخبر سمعه من بعض العربان الذين التقى بهم في السوق ، أن الدريعي تقرب نحو الغرب وهو الآن نازل بقرب زيتا^(١) بالجزيرة ، وأن ابن الدريعي وهو شاب يقال له سحن غزا عرب الحسنة ، أي قبيلة مهنا ، وكسب منها غنائم وافرة ، وكان مهنا نازلاً بقرب القريتين . فسرتني هذا الخبر جداً لأنه الشيخ إبراهيم كان طلب مني الوصول عند الدريعي كما تقدم الشرح . فقلت يا هلال هل بوسعك أن تأخذنا عند الدريعي ؟ فقال : يا سيدي كان ذلك غاية مرادي إلا أننا محسوبون نحن ومهنا بالحال الواحد ، وأنا لا أعرف أحداً من الرولا^(٢) عرب الدريعي ، وأخاف أن نلتقي بواحد منهم فينهنا فتكون القضية خسارة لكم ويبقى العتب والعار عليّ . فقلت وكيف العمل ؟ قال اصبر إلى غد حتى أدور بالشام ، لأرى ما فيها من العرب المعروفين وكيف يدبرها الله . ولما كان الغد ذهب هلال ودار بالبلد ورجع قرب غياب الشمس إلى عندنا ومعه واحد من البدو . فسلم علينا وترحبنا به . وسألنا هلالاً من هذا الرجل ؟ فقال : هذا الذي يقدر أن يأخذكم عند الدريعي ، لأنه ليس من عرب عنزة^(٣) بل من عرب بني

٣١ / ١

(١) «ذيتا» وأحياناً «ذيتة» .

(٢) كذا ، والصواب الرولة أو الروالة (انظر : أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، دمشق ،

١٩٤٧) .

(٣) الرولة والحسنة هم أيضاً من العنزة .

سعيد، أميرهم يسمى **فحل الخليل**، وإقامتهم بالزور، شرقي حلب نحو ثلاثة أيام على ضفة^(٤) الفرات، وهم عرب أيضاً ولكنهم لا يرحلون إلا مراحل صغيرة، ويشربون دائماً من ماء نهر الفرات. وهم اليوم صحبة مع الدريعي ومهنا وكل العربان، لا يعترض لهم أحد بالطريق ولا يأخذ منهم شيئاً. ففرحنا بذلك وسلمنا عليه مرة ثانية، حسب عوايد العرب، وسألناه عن اسمه فقال: **جاسم الحمد**. فقلنا له: أتقدر يا جاسم أن تأخذنا؟ قال: نعم، إن شاء الله آخذكم سالمين غانمين إلى بيت الدريعي ابن شعلان، ومعني ريع (يعني رقاء) يحملونكم، لأن معنا جمالاً جلبنا عليها سمناً وبعنائه بالشام. فاطمأن فكرنا بالأكثر إذ معهم جمال ودراهم ثمن السمن، وهم أصحاب تجارة. فربطنا معهم رباطاً متيناً، وتم الاعتماد على أن نتوجه بعد ثلاثة أيام على باب الله الكريم. فدبرنا أمورنا وأخذنا لوازمنا وثمنا في الليلة الثالثة عندهم بالخان، ومشينا مع الصبح. فركب كل واحد منا حملاً، وسرنا على الطريق الذي جئنا منه للشام، حيث أن مرادنا أن ندخل^(٥) القريتين ونأخذ الرزق الذي تركناه أمانة عند الخوري موسى. فوصلنا بالسلامة إلى القريتين، وبكل راحة، من غير أن يحصل لنا كدر بنوع من الأنواع. وكنا فرحين جداً بهذا التوفيق. ولكن ثاني يوم من وصولنا جاءنا خبر أن الدريعي (رد النقا) على بني سعيد، أي عرب جاسم الذي نحن معه، ومعني ذلك أنه أشهر الحرب عليهم وعاداهم. فحين بلغ هذا الخبر جاسماً ورفقاءه رجت قلوبهم، وخافوا جداً على أرواحهم وجماهم ورزقهم، وحالاً قرروا على الذهاب إلى صدد، ومن هناك إلى حمص وحلب ثم إلى الزور عند أهلهم، متبعين الطريق الذهاب من حلب لأنه أكثر أماناً لهم. فغمنا جداً هذا الخبر وصعب الأمر علينا ولم يبق لنا رأي نعتمد عليه. وسافر رفقاؤنا في اليوم الثاني، وبقينا نحن في القريتين، لا نعرف ماذا نفعل، إذ لا نجد لنا باب فرج يوصلنا إلى مطلوبنا. فاسودت الدنيا بعين الشيخ إبراهيم وفقد شهية الطعام. وداق علينا الحال جداً، وابتدأت الأخبار تتوارد علينا، وعلمنا منها أن العربان انقسمت إلى قسمين: أناس مع مهنا وأناس مع الدريعي، وابتدأت الغارات بينهم والمعارك والركض على بعضهم، وبلغنا أن الدريعي أغار على بني سعيد وأخذ منها/مكاسب جزيلة.

٣١/٢

ولم نزل جالسين في القرية اثني عشر يوماً حتى كادت تخرج أرواحنا من كدنا وعدم

(٤) في المخطوطة: جفت.

(٥) «نفوت على القريتين».

توفيقنا . فقال لي الشيخ إبراهيم : يا ولدي ضاع عقلك ومعرفتك ، اما كنت وعدتني بالوصول عند الدريعي ؟ قلت : نعم ، ولكن ما كنت أتوقع ما حدث من الأمور . وأما من خصوص الذهاب عند الدريعي ، فيظهر لي أن هذا الأمر عسير جداً . فإن كنت ترغب في الوصول إليه لأجل البيع والشراء ، فإنني لا أرى ضرورة ذلك . وأنا الذي أحب المتجر أكثر منك صغر في عيني . ولكن إذا كان مرادك الوصول إليه لأجل غايات أخرى ، فعرفني بها حتى أعمل حساني . قال : اعلم يا ولدي أن سفري هذا مقسوم إلى عشر نقاط مرتبة من حين خروجي من باريس^(٦) : أولاً الوصول من باريس^(٦) إلى حلب بالسلامة ، ثانياً الحصول على إنسان موافق لأوامري ومطيع لأقوالي مثلك ، ثالثاً تعلمي اللغة العربية وتقويتي بها ، رابعاً الوصول إلى تدمر ، خامساً الدخول عند العرب بطريقة مناسبة تغطي أهدافي ، سادساً كشف أحوال العربان وأموارهم ومعرفة كبارهم واكتساب صحبتهم ، سابعاً رمي الاتحاد والوفق والمحبة بينهم حتى يكونوا جميعهم برأي وعمل وقول ويد واحدة ، ثامناً إبعادهم عن محبة العثماني وعشرته ، تاسعاً معرفة كافة الصحاري ومياهاها ومنازلها والمسالك الملائمة إلى حدود الهند ، عاشراً الرجوع بالسلامة إلى بلاد سورية . فقلت : وبعده ياسيدي ، ماذا يكون الهدف من ذلك ؟ فقال : أنسيت الشروط ؟ لا تسألني عن شيء بل أنا من نفسي رويداً رويداً أعرفك إذا اقتضى الأمر ، فإلى الآن يكفي الذي قلته ، فدبر حالك واعلم أن لا بدّ من الوصول عند الدريعي ولو متنا .

فتلك الليلة حرّم النوم على عيني من شدة الأفكار ، وما كنت أستطيع أن أجِد طريقة لتنفيذ ذلك . ومن بعد أن استعرضنا آراء كثيرة ، تحسن عندي أن أذهب منفرداً عند الدريعي ، وأدبر فيما بعد طريقة لاحتضاره عندي ، لأن ذهابي منفرداً أسهل ، بسبب طلاقة لساني الطبيعية باللغة العربية ، فمن الممكن أن أدخل^(٧) [البادية] من غير أن يعرفني أحد ، لأنني أثناء ذلك كنت تقويت باللهجة البدوية ، وصرت أتكلّم معهم كأني واحد منهم . وذلك من جرّاء دورتنا عند عرب حوران وبلاد الجليل ، وقد نفعني تلك الرحلة الصغيرة جداً .

فقمّت يوماً وتوجّهت عند صاحبنا موسى بن ورده الذي كان طمرني في بطن الكديش ، وأعلمته مرادي سرّاً فقال : أمهلني اليوم وغداً أعطيك الجواب . / ولما كان الغد ٣٢/١

(٦) باريس .

(٧) «أنوت» .

توجهت عنده وقلت له : ماذا دبّرت يا عزيزي ؟ قال : الله يدبّر كل أمر عسير ، اعلم يا أخي أنه لا يوجد عندي إلا تدبير واحد ، وإن شاء الله يكون خيراً ، وهو أنني أعرف رجلاً خبيراً قديراً من المسلمين ، وهو طوع لإشارتي ، عارفاً بالطرق ، فهيماً بلغة العرب ، مجرباً بالقتال ، شجاعاً ، فرأيت أنه من المستحسن أن أكلّمه ليأخذك إلى عند الدريعي ، فتذهبان سوياً على الأقدام ، يسري بك ليلاً ويكمن بالنهار ، فراح ودعاه إلى بيته ، وتوجهنا معه وتكلّمنا بهذا الموضوع . فقال : قوي مناسب ، ولكن هل بوسعك المشي ؟ لأن الدريعي في زيتنا^(٨) ، ومن هنا إلى منزله نحو عشرة أيام ، كيف تستطيع أن تمشي على مشيتي مدة عشرة أيام ؟ إنك ستموت في الدرب قبل وصولك ، وأخيراً سأطالب بك ؟ فقلت له : لا تخف ، لا يطالبك أحد بدمي ، ولست ملزوماً بي ، وإني قادر على المشي ، فما هي الأجرة التي تطلبها حتى أعطيكمها . قال : خمس مئة غرش . ومن بعد جدال تم الاتفاق على مقتي غرش وعباءة ، وتدفّع إليه هذه الأجرة متى سلم مكتوباً مني إلى موسى بأني وصلت عند الدريعي بالسلامة . وتم القول وأعطينا كلاماً إلى بعضنا . ثم قلت إلى موسى : يا أخي أخشى أن يكون هذا الرجل مثل حسيّسون الكعب الذي كان يريد أن يرينا خاوية الذهب . قال : لا ، فهذا رجل معروف ، وثانياً يجب ألا يكون معك شيء يطمع به ، فيجب أن تكون حوائجك زينة جداً ، وكل ما معك لا تبلغ قيمته عشرة غروش . وهذه الطريقة لا يطمع بك أحد لا هو ولا غيره .

فعدت إلى البيت وأعلّمت الشيخ إبراهيم بما فعلته . فخاف علي جداً من ذلك وقال : يا ولدي ، ما أظن أن هذا الرأي مناسب ، إذ يخشى عليك من الموت إما من التعب ، إما من الوحوش ، إما من أحد من العرب يقتلك . فقلت : إن الإنسان الذي معي شجاع قوي لا يبالي بعشرين رجلاً ولا يخاف من سطوة الأسد ، مشهور بالرجولية ، وثانياً إن العرب لا تقتل من لا يكون لهم عدواً ، بل تكتفي بالسلب ، وحوائجي زينة جداً . ولهذا السبب لا أخاف من شيء بعون الله ، وإن شاء الله إني أتم مطلوبك وأصل عند الدريعي سالماً وأرسل إليك مكتوباً وقت وصولي/عنده سالماً . فابتدأ يدعو لي ويكي ويقول هذه الكلمات : الله يعطيك يد المعونة ، الله يرافقك ، وسلطان الخيرات يحرسك ، ويعمي عنك عيون الظالمين ، ويسهل طريقك ويردك إلي سالماً ، ويتم مقصودي بوجودك ، ولا يحرمني من حياتك ، ولا يريني الردي فيك . ثم قيدنا بالدفتّر كل ما يجب تقييده ، ورتبنا كل أمورنا حيث لا بدّ من فراقنا ،

(٨) منزل على الفرات ، لم يعد له وجود ، على ما أخبرني الأستاذ العزيزي .

وتواعدنا أن لا يغادر القريتين إلى أن أرسل وأحضره عندي على أهون طريقة، وطال بنا الحديث إلى أن قارب منتصف الليل.

طلبنا النوم لنستريح من تعب الدنيا، فأخذني عندئذ القلق وتراكت على الأفكار من مليح وقبيح حتى كاد يبرز الفجر. فغفلت عندئذ ورأيت في منامي أني على رأس جبل عال سليخ^(٩)، ليس به شجرة ولا عرق أخضر. وبأسفل الجبل يمر نهر عظيم يخطف الطير، فارتعت من ذلك ونمت على رأس ذلك الجبل، ورأيت شجرة تخرج من فمي وتعلو وتكبر حتى شقت أحناكي من الجانبين وصارت مثل القبة الخضراء. وابتدأت أشعر بألم في فمي وقلبي، وأحس بأن شروشها تخرج من قلبي، فصرت أثنّ وأصرخ في نومي من شدة الوهم والألم العظيم، حتى فاق الشيخ إبراهيم، فأسرع نحوي لأنه عرف أنني في اضطرابات الأحلام، فهزني حالاً إلى أن صحوت، فنهضت من نومي مثل المجنون أبكي من الرعب^(١٠)، وأشعر بألم بطني وقلبي. فقصصت منامي على المذكور، فتعجب من ذلك وقال: هذا حلم عظيم، وله تفسير جيد وأن حاجتنا بإذن الله منقضية، ولكن بشيء من الخطر والتعب.

وفي اليوم الثاني، أحضرت مصطفى الجمال — وهذا هو اسم الشخص الذي سيراقتني — وحضر معه موسى الوردى عند الشيخ إبراهيم، وأتممنا الرباط وتم قرارنا على الذهاب مساءً مع غياب الشمس. فأحضر لي موسى ألبسة للطريق وهي ألبسة عظيمة: أولاً قميص خام وسخ/مقطع، قنباز^(١١) كان أصله قطعاً ما بقي منه غير الرسم، كوفية عليها الدهن ويشتم منها رائحة الخمامة من بعيد، خرقة في الأصل بيضاء ولكن مزفتة وسخة شنيعة لففتها على رأسي، فروة غنم قديمة منهوشة من أطرافها ليس بها موضع سليم، ولو بقدر كف وهي ملائنة قملاً، بقدمي حذاء وزنه نحو رطل حلبي قديم، زناري سير جلد يساوي درهمين^(١٢)، وقداحة، وفي جيبي قليل من التوتون وقصبة طولها شبران من غير طقم. ثم كحلت عيوني بسواد الطنجرة، وكانت لحيتي قد نمت وصار طولها نحو ثلاثة أصابع. وبهذه الهيئة طلعت أمام الشيخ إبراهيم. فصار يبكي ويضحك في آن واحد، وقال: إن كنت

(٩) كذا والمعنى غير واضح، ولعله يريد: قفر.

(١٠) «بكيا» مرعوب.

(١١) «قنباز».

(١٢) «مصريتين». ولا شك في أن الصايغ يميل إلى المبالغة على حسب عادته.

تذهب معي إلى باريس^(١٣) بهذه الهيئة تستطيع أن تكسب مليون غرش من الناس ، لكي يروك بهذا الزي .

ثم جلسنا وتناولنا طعام العشاء ، وودعنا بعضنا وشيعني إلى خارج القرية هو وموسى الوردى ، ثم رجعا . ونحن توكلنا على الله ومشينا قبل غياب الشمس من القريتين ولم نزل نجد بالسير إلى نحو نصف الليل . فابتدأت أرجلي تؤلني من الحذاء القديم لا سيما وأني كنت بغير جوارب ، فَتَسَلَّحْتُ أَقْدَامِي مِنْهُ وَتَنَفَّطْتُ^(١٤) . فقلت لرفيقي مصطفى أني سأخلع الحذاء من قدمي وأمشي حافياً . فقال : يا أخي هذا ليل وشوك وصوان ، وإنك ستعطل رجلك إن خلعت الحذاء . فصرت أجرد نفسي جراً ، وتارة أخلع الحذاء وأحملة وأمشي قليلاً فتمتلئ أقدامي شوكاً ، وتارة ألبسه فيشتد ألم أقدامي فأخلعه من جديد . ولم أزل بهذا العذاب الشديد إلى أن طلع الفجر . فأدخلني مصطفى إلى مغارة صغيرة ، في كهف جبل ، لنقيم فيها ذلك النهار ونعود إلى المشي مساءً . فدخلت المغارة ورميت نفسي على الأرض من شدة تعبتي وألمي الشديد ، وصرت أقطع من قنبازي وأمسح الأدمية من رجلي وأربطها وأخرج المياه منها ، لأنها صارت مثل العنب ، وحالاً من غير أكل ولا شرب نمت مثل الميت إلى المساء ، ورأيت منامات شنيعة جداً من شدة تعبتي وهمومي واحترق دمي/فما شعرت إلا ومصطفى يوقظني ويقول : قم يا أخي قد غابت الشمس ، فاجلس وكُلْ لقمة وصحي رأسك ، لأننا سنتوكل على الله ونمشي . فارتاع^(١٥) قلبي من هذا الكلام ونظرت إلى رجلي فرأيتها ومرت وزاد وجعها ، فقلت له : يا حبيبي مصطفى دعنا نقضي هذا اليوم في هذه المغارة ، لعل تشفى أقدامي وأستطيع المشي فقال : ألم أقل لك أنك لا تستطيع المشي وأنتك تموت تعباً . وإنني كنت عارفاً بما سيحدث لعلمي أولاً أنك رقيق الجسم وثانياً أنك لم تعتد على المشي كراجل . فنصحتك فلم تقبل نصيحتي . والآن إذا قضينا هذه الليلة هنا علينا أن نبقي أيضاً كل النهار إذ لا نستطيع السير في النهار فيطول بنا السفر ويخلص زادنا ونهفي من الجوع . والرأي عندي إما نرجع إلى القريتين ، أو نتوكل على الله ونمشي رويداً رويداً إلى نحو نصف الليل ، ونكمن في مكان . فسلمنا إرادتنا لله تعالى ومشينا ، وأنا من غير شيء برجلي ، غير أنني لففتهما بالشرائط إلى أن ناصف الليل . ولم يبق لي طاقة . فقعدنا في سهل رمل وبه « قلابات صغار

(١٣) « باريز » .

(١٤) « تَنَفَّطْتُ » .

(١٥) تسكّر .

لا يدروا إنسان»^(١٦)، إلى أن طلع الضوء، وإذا من بعيد، على مسافة ربع ساعة، جلالان يريان على رأس تل. فخاف مصطفى جداً وقال لي: لا شك أنها هجن غزاة غرباء، وإن ظفروا بنا فإنهم ينهبونا وننقطع في هذه الأرض ونموت من الجوع. فالرأي عندي أن نظمر أنفسنا بالرمل إلى أن يذهبوا. فقلت أفعل ما هو أنسب. فحالا حفر الرمل وطمرني إلى رقبتي، ثم ابتعد عني قليلاً وطمر أيضاً نفسه. والجمال كانت تغيب وتعود وتختفي وراء التل، ثم تعود ترعى إلا أن عددها كان دائماً اثنين، لا يزيد ولا ينقص، إلى أن صار نصف النهار، وإذا بمصطفى راكض إلى صوبي ويقول: قم ولا تخف فإنها ليست جمالاً، ولكن نعاعات أنثى وذكر ترعى. وذلك لأن طير النعام يكون بحجم الجمل الصغير، ومن بعيد لا يمكن تمييزه عن الجمل فقمْتُ/وَتَفَضْتُ حالي من الرمل، وشممت الهواء، وأكلت وشربت قليلاً من الماء من الجلود التي معنا وحمدت الله.

ثم قال مصطفى: نَمَ كي تستريح، وسنمشي هذه الليلة أكثر، لأن دربنا أكثره رمل، وهذا سهل على رجلك. فسررت^(١٧) من هذا الخبر وثمت إلى غياب الشمس، ثم قمت وأكلت لقمة ومشينا وبعد مسيرنا بساعتين صرنا أمام تدمر من جهة القبلة، ولم نزل نمشي إلى أن قارب الفجر، وقد أضواني^(١٨) التعب والسهر. فجلسنا بين تلين من الرمل كل النهار إلى المساء. ثم مشينا إلى أن لاح الفجر وصلنا إلى نهر يقال له نهر الرحبية، وهو عظيم آتياً من القبلة وذاهباً إلى الشمال. فخلع مصطفى ثيابه وحملني وقطع بي إلى شرقي النهر. ثم عاد وأحضر ثيابه وقال امشي. قلت له: يا حبيبي قد طلع النهار. فقال: ولو طلع النهار، إذ لا ينبغي أن نبقي إلى جانب النهر، إذ يرد إليه الغزاة والعربان من جميع الأشكال فيروننا والأحسن أن نبعد نحو ساعة عن حافة النهر ونكمن، لأن المكان الذي قطعناه يسمى الخاضة. فجلسنا تحت ظلال أشجار جميلة إلى ضحوة النهار، وإذا بغزو كبير مكون من أربع زردات (أعني طواير، وهذا اصطلاح لغة العرب)، من خيل وركب أي هجن، نحو ألفين آتين من الشرق فقطعوا نهر الرحبية وذهبوا نحو المغرب. فقال لي مصطفى: كيف تكون حالنا لو بقينا على الخاضة، كنا قُتِلْنَا لأن هؤلاء ليسوا من عربان ديرتنا، بل من ربع الوهايي، أثوا ليغزوا على عربان هذه الديرة. وهؤلاء لا يرضون فقط بالنهب ولكنهم يقتلون

(١٦) كذا، والله أعلم بمراحه.

(١٧) «فانبسطت».

(١٨) «ضامني».

أيضاً، فالله يساعد من يقع بين أيديهم، فحمدت الله لأنه أعماهم عنا. ولم نزل جالسين إلى المساء، ثم أكلنا ومشينا إلى الفجر. ثم كمنّا في ردم رمل فقال لي مصطفى: بقي بيننا وبين الفرات نحو ثلاث ساعات فقط. فقلت له: بشرك الله بالخير، والليلة لا نمشي إلا بعد نصف الليل حتى نكون صباحاً على حافة نهر الفرات، مقابل زيتا^(١٩) لأن/داخل^(٢٠) الفرات يُعدّ من العراق، ومن هناك نجد لنا أناساً يجتازون بنا الفرات، إذ يوجد دائماً عرب يسكنون على الشاطئ ويأخذون أجرة من الناس لقطع الفرات. ولما كان نصف الليل مشينا، وقبل طلوع الفجر وصلنا إلى الفرات الذي ينشر الفؤاد والقلب من حسن رؤيته، وأصبحت زيتا أمامنا على الضفة الثانية من الفرات. فجلسنا إلى أن بزغت الشمس وأكلنا جميع الزاد الذي بقي معنا، لأننا كنا نأكل قليلاً خوفاً من أن يطول بنا الطريق بسبب بعض الموانع. وبعد طلوع الشمس، بان لنا بعض بيوت العرب على شاطئ الفرات، وعرفهم مصطفى لأنهم أصحاب ومساكين^(٢١) من سكان شاطئ الفرات. فمشينا إلى عندهم فاستقبلونا وترحبوا بنا، وحالاً أحضروا لنا أكلاً وشرباً. وبعد ذلك سألتهم مصطفى عن الدريعي في أي مكان هو الآن؟ فقالوا كان سابقاً أي من مدة عشرة أيام نالاً على زيتا ثم رحل، والآن على ما نعلم، قد نزل في أرض يقال لها المحولة، تبعد ثلاثة أيام ما بين زيتا والزور، لأن الدريعي تصالح مع ربع فحل الخليل وصار على وداد مع عرب بني سعيد من بعد الخصومة^(٢٢)، وقد أطاع فحل وعربه للدريعي، وصاروا يعطوه الخوة كل سنة أي مبلغاً من الحبوب والملبوس والدرهم، لأن الدريعي لا يستطيع أحد أن يعاديه، فهو رجل مرّ في الحرب ومدبر وجيوشه كثيرة. والآن أكثر العربان تميل إليه نكاية ببيت ملحم، وعلى الأخص بناصر المهنا، وعلى ما نظن أنه لا يقطع الشامية، أي غربي الفرات لأنه غير معتاد على هذه البلاد^(٢٣)، ولكنّه قد يضرب قبيلة مهنا ثم يرجع إلى ديرته، أي بغداد والبصرة وتلك النواحي. ففرحت من هذا الخبر لأنه يدخل في مطالبات الشيخ إبراهيم، وقد تقدم الشرح أن مراده أن يتعرف بالأمير الدريعي وأبعاده عن العثماني وحكام بر الشام.

(١٩) ويكتب الصايغ أيضاً: زيتة.

(٢٠) ابتداء الكراس الخامس على حسب تقسيم الصايغ، إذ وضع في أعلى الصفحة: ثمرة ٥.

(٢١) كذا والمعنى غير واضح، فهل يريد فقراء الحال أو الأشخاص الذين يسكنون في تلك الناحية؟.

(٢٢) «الضامنة».

(٢٣) أصل قبائل عنزة من نجد، وأول من دخل الشامية منها الفُدعان والجسنة. أما الرولة فيظهر أن هجرتهم إلى بر الشام كانت في بداية القرن التاسع عشر.

ثم التفت بعض الحاضرين وسأل مصطفى ماهي حاجتكم عند الدريعي أنت وهذا الشاب^(٢٤) الذي معك؟ فقال: لا غرض لي عند الدريعي إنما ريفقي له غرض. ٣٥/١ فسألوني: ماهو غرضك أيها الشاب عند الدريعي، فأجبت حالاً: ياسيدي، أنا رجل/من تجار حلب، ولي شريك في بغداد انكسر على مبلغ خمسين كيساً من رزقي. فاقضى الأمر أن أسعى بالوصول عنده بكل سرعة عساني أتمكن من الحصول على شيء، ولكن لا يوجد اليوم قافلة من حلب إلى بغداد، وعليّ الانتظار أربعة أشهر، فيطول الأمر ولا أستطيع أن أحصل على شيء من أموالي. وبلغني أيضاً أن الأمير الدريعي هو كبير عربان الجزيرة، وهو الآن قريب من نواحي الزور، فتحسن عندي أن أصل عنده وأرجو منه أن يرسل معي إلى بغداد أحد أتباعه المعروفين بالأجرة، وهذا هو سبب تعبي وحضوري إلى هذه الأماكن. فقالوا جميعهم: حسناً فعلت والله لا يضيع لك حقاً. ورضي أيضاً مصطفى بهذا الكلام وقال: الآن فهمت سبب مجيئك والحق بيدك.

(٢٤) «الشب».

[الصايغ عند الدرعي]

وثاني يوم قمنا مشينا وأخذنا معنا واحداً من عرب بني سعيد ليدلنا على الدرب . فبعد مسير ثلاثة أيام ، عند المساء ، كشفنا على نزل الدرعي ، وكان نزلاً عظيماً نحو ألفي بيت شعر ، الطنب بالطنب (الطنب هو الحبل الذي يشدّ به البيت) ، ورأينا من بعيد من المواشي^(١) والجمال ما يغطي عين الشمس ، ولم نرَ مثل ذلك عند غيره من العريان .

فتقدمت إلى بيت الدرعي ، وكان الوقت بعد غياب الشمس ، فدخلت وسلمت عليه ، فرحّب بنا وحالاً أمر بالعشاء . وبعد العشاء سألتني من أين وإلى أين يا شاب ؟ قلت : ياسيدي من حلب إلى عند جنابك بغرض . فقال : حلت البركة بمجيئك^(٢) ، غرضك مقضي بعون الله ، ولكن عادة الضيف عندنا يقعد ثلاثة أيام وبعد ذلك يتكلم على غرضه ، قلت : السمع والطاعة . ثم نمنا وثاني يوم كتبت حالاً إلى الشيخ إبراهيم وإلى موسى الوردی ، وأعطيت المكاتيب إلى مصطفى وزودته بالدعاء وتوجه إلى القريتين . / ٣٥/٢

وجلسنا مع الدرعي نتحدث ، وهو رجل ذو نخوة زائدة ، عمره نحو خمسين سنة ، لحيته كوساة بيضاء ، جسم ، أسمر اللون ، جريء^(٣) . وجميع ما سمعنا عنه موجود به

(١) « طرش » .

(٢) « يا حلة ألف بركة » .

(٣) « جريء » .

حقيقة. وله ولدان ذكران، الواحد اسمه سحن^(٤) وهو الأكبر، والثاني سعدون. وهما متزوجان ومقيمان عنده بالبيت. وبيته كبير وهو أكبر مرتين من بيت مهنا. وعريه أغنى نوعاً ما من غير عشائر، وعندهم الخيل العظام المشهورة ويقال لقبيلته الرولا^(٥)، وهي تحوي على خمسة آلاف بيت. هذه هي عشيرته، إلا أنه كثيراً من العشائر تنقاد له، بعضها فرضاً^(٦)، وبعضها خوفاً وبعضها محبة. فبان لي أنه رجل على قدر حاله في كل أمر، وأن جميع ما قيل عنه صحيح. ومن حسن التوفيق أنه لم يكن عنده كاتب، فصار كلما احتاج إلى ورقة أو مكتوب يسخرني به، إلى أن مضت الأيام الثلاثة، وهي مدة إكرام الضيف، فما قال لي شيئاً لأن عندهم من العيب أن يسألوا أحداً ما هو غرضك، لأن معنى ذلك أنهم يرغبون في أن يذهب من عندهم. ولكن العادة أن المسافر يبادر بالحديث^(٧). فبعد ثلاثة أيام قلت: يا أمير، انتهت مدة إكرام الضيف وحل وقت الذهاب. قال: يصعب علي فراقك، فقلت وأنا كذلك، واعلم أن سبب مجيئي عندك هو التوجه إلى بغداد بمسألة ضرورية، ولكن محبتك أنستني أشغالي وأود أن أكون في عشتك دائماً. فسر من هذا الكلام وقال: أنت مثل ولدي، والذي تشور علي به فأني سأعمل به، لأنه كان رأي مني في مدة هذه الأيام الثلاثة محبة وخدمة وآراء جيدة، لأني عملت كل جهدي خلال هذه الأيام كي أرضيه وأدخل في عقله وقد حصل مطلوبي. وكنت علمت أنه ينوي أن يركب هو بنفسه على قبيلة مهنا الفاضل، ويبيدها ويغنم أرزاقها وحده، أعني فقط الخيل والركب، ويبقي النساء والبيوت عند فحل الخليل أمير بني سعيد بالزور. وكان مرادي أن يقطع الفرات/ويدخل الشامية حتى أقربه رويداً رويداً من القريتين وأتمكن من احضار الشيخ إبراهيم عنده. فابتدأت أقول له: يا سيدي بما أنك جئت إلى هذه الديرة وعمرك ما زرتها^(٨)، فدعنا نقطع للشامية ونقضي الغيظ (أعني الصيف) في هذه الديرة، ومتى حل الخريف نشرق على حسب عوايد عشائر عنزة^(٩). وهذه الطريقة تكون أولاً قهرت عدوك وضايقتهم في الأرض،

(٤) ولعل الصواب صحن، على حسب عادة الصايغ أن يبدل الصاد بالسين.

(٥) الرولة.

(٦) «البعض ملزومين التزام».

(٧) «يفتح سيرة».

(٨) يقول الصايغ: «وعمر ما خطرته»، أي لم تصل إليها، وهو يريد المكان الذي كان الدريعي نازلاً به عندئذ.

(٩) «عنزة».

ثانياً يصير لك هدايا من القرى ومن عشائر العرب ، ثالثاً يصير لك اسم بهذه الديرة ، رابعاً تكون شاهدت براري بلاد سورية ، وأخيراً ترتد إلى ديرتك كما كنت . فقال : هذا نعم الشور .

وثاني يوم نَبَّه على الرحيل ، ورحلت العربان بعد طلوع الشمس كأنهم الغمام الأسود . ومشي ابنه سحن ومعه خمسون خيال يتقدمونهم^(١٠) ، وبعده هو وطابور خيل من نحو خمس مئة خيال ، وأركبني فرساً من خيله كَحَيْلَة^(١١) عظيمة ، وجرت الظُّعُن^(١٢) (أعني البيوت) خلفنا مثل الجراد ، وأكثر النساء في الهوادج المجوخة ، وعلى الخصوص بيت امرأته وكناته^(١٣) في الهوادج ، والعبدات حوَهَنَ ، وكان على ذلول أحد العبيد خرج ملاً خبزاً تمرّاً يفرّق منه على الجائعين من الناس ، وكلما مشينا ثلاث ساعات يأمرنا بالنزول حيث يوجد منتزه ، فيعملون القهوة ونستريح قليلاً^(١٤) ثم نركب ، إلى أن وصلنا إلى المحل المقصود وهو على حافة الفرات ، منزلة يقال لها الخلاجة . فنصبوا البيوت بكل هدوء وركون ، وبلحظة صارت بلدة وأشتعلت النيران ، فبتنا تلك الليلة ، وثاني يوم رحلنا ونزلنا بقرب الزور ، وثالث يوم رحلنا وقبل الظهر وصلنا إلى الزور . فركب فحل الخليل ، وبصحبه نحو ألف خيال ، ولاقى الدريعي ، وصار لعب خيل وإنشراح^(١٥) ، ودعي الدريعي عنده ، فرحنا تلك الليلة وتعيشينا عند فحل . فكان الدريعي وأولاده وأخوه فجر ، وهو أكبر منه بالعمر لا بالمعرفة والقدر ، وجميع اقربائه ، ومعنا نحو مائتي خيال ، فتعيشينا عنده وبعدها ركبنا ورحنا إلى البيوت .

(١٠) «قدام سلف» .

(١١) «كَحَيْلَان» ؛ أي من سلالة الخيل الأصيلة .

(١٢) «الضعون» .

(١٣) «كنانية» .

(١٤) «شوية» .

(١٥) «وكيفية» .

[الحرب بين الرُّوْلَة والحِسَنَة]

٣٦/٢ ثم ثاني يوم قطعنا الفرات على ظهور الجمال/ودخلنا الشامية وتوجهنا غرباً ونزلنا بأرض يقال لها الطافح، من حكم حلب. وثاني يوم ورد علينا مكتوب من مهنا الفاضل وكان بهذه اللفظات :

بسم الله الرحمن الرحيم، من مهنا الفاضل إلى الدريعي ابن شعلان، بعد السلام ورحمة الله، سمعنا أنك قطعت الفرات ونزلت الطافح، ومرادك أن تتقدم إلى ديرتنا وديرة آبائنا وأجدادنا، فاستغرينا منك هذا الفعل وظننت أن كل لحوم الطيور تؤكل^(١)، واعلم أن عندنا جيوشاً لاتعد ولا تحصى، ووراءنا حكماً عثمانيين، ووزراء أقوياء لا يتعاندون، فالأنسب أنك ترحل أنت وعربانك وتكسب حالك ورجالك، وإن طمعت وعاندت لا تسأل عما يجري عليك من البلاء والندم، ونردك بحول الله مكسوراً على أثر القدم.

الامضاء: تحيات مهنا الفاضل ابن الملحم

فحين فرغت من قراءة المكتوب نظرت إلى وجه الدريعي، فرأيت عبس صورته واصفر لونه وصار النور في عيونه ظلاماً، ودخل في الغيظ والحرق. ثم قال: يا خطيب خذ قرطاساً واكتب جواباً لهذا الكلب بأصعب خطاب، وقل له لا بد من هدم بيته وتدنيس رايته وتطهير

(١) كذا والمعروف: أن كل الطيور لا تؤكل لحومها.

الأرض منه ومن ابنه الكلب ناصر، صبي الروم (أي العثمانيين في اصطلاح كلام عنزة). فأخذت ورقة وكتبت جواباً وكان بهذه اللفظات :

بسم الله الرحمن الرحيم وهو على كل شيء قدير . من الدريعي ابن شعلان إلى مهنا الفاضل . والتالي^(٢) : /وصل مكتوبك وفهمنا تهديدك الفارغ الذي ليس هو عندنا بنقل حبة الخردل . واعلم يا مهنا أنه لا بدّ من هدم بيتك وتنكيس رايتك وتطهير الأرض منك ومن ابنك ناصر . أما قولك أن هذه ديرة أبيك وجدك فالقاضي يشرع بيننا ويظهر لمن هي ، وهو السيف . ويكون معلوم عندك أن بعد تاريخه نحرك ركبنا لقتالكم فكونوا على حذر ، ترى مردود عليك النقا . تحيات الدريعي بن شعلان . مكان الختم .

فأعطينا المكتوب إلى الطارش^(٣) وسافر وابتدأ الدريعي بالمهمات وجمع عربانه . فقلت له : يا أمير ، أريد أن أشور عليك ، فإن أعجبك قلبي فافعل به وإلا فليس هناك من خسارة . قال : كيف يعني ؟ قلت : أنت رجل غريب لست من هذه الديرة ، ومهنا معروف وكل الحكام معه ، والبلاط معه ، والعربان قد اعتادوا عليه ويحفظون وده إكراماً لاسمهم السابق ، وقد أكلوا من خيرهم شيئاً كثيراً . ولعلمهم الآن ، لسبب جرى من ناصر عليهم ، رموا في حقه كلاماً ، ولكن بعد حين ، حين يرون أن بيت مهنا سيخرب ، وأنه سينكسر ، فإن العشائر تعود إليه ولا بدّ أن تكون معه ، وكذلك الأمر بعساكر البلاط ، فيكون هو والعثماني والعرب وتكون أنت وحدك ، فيحصل لك ضرر وتذهب رجالك وتكسب صيت الكسرة^(٤) . / فقال : هذا صحيح ولكن كيف الرأي يا خطيب . قلت : أنا الرأي عندي يا سيدي أن تكتاب جميع العشائر والقبائل الموجودة بهذه الديرة وتخبرهم أنك خصم^(٥) بيت ملحم وتريد تنكيسهم وتطلب منهم اظهار حالهم للوجود . فمن كان معك يرحل وينزل بقربك ويظهر حاله ، ومن كان ضدك يتعد وينزل بقرب مهنا ويظهر حاله أنه خصمك ، وبهذه الطريقة تكون عرفت صديقك من عدوك ، وتكون كشفت ما تخفيه قلوب العربان ، وعندئذ اعمل ميزانك واعرف شغلك . فسّر من هذا الشور ورآه غاية الصواب وقال : يا خطيب حقاً إنك صاحب تدبير . فقلت له حالاً : يا سيدي أنا غشيم وولد لا أعرف شيئاً ، ولكن إذا كنت

(٢) بياض بعد هذه الكلمة إلى نهاية صفحة ٣٦/٢ .

(٣) الجَمَال .

(٤) بياض في الأصل نحو ربع صفحة ، إلى نهاية ورقة ٣٧/١ .

(٥) «ضثمان» .

تريد العقل والتدبير الجيد والمعرفة والنظام، فلي معلم يقال له الشيخ إبراهيم القبرصي^(٦)، موجود الآن بالقريتين، إن شاء الله ستسمح الظروف بإحضاره عندك فتراه وتعبه وتكون مسروراً جداً منه، لأنه رجل جليل ومعلم ماهر، ومهما كان بخاطرك من الأمور أعانك بمعرفته وتدبيره وأوصلك إلى مطلوبك. فكان مسروراً بهذا الخبر وقال لي: أركب حالا مع مفة خيال لاحضاره، فقلت: لا، فمن الأولى أن يبقى الآن بالقريتين حتى تقترب نحن منه فنحضره. وكل هذا التدبير والشور الذي أشرت به عليه، إنما لأتمكن من فتح سيرة الشيخ إبراهيم، وقد حصل مرادي، فصرت مسروراً محظوظاً.

ثم قال الدرعي: خذ ورقة واكتب إلى دُوخي بن آسمير أمير ولد علي^(٧)، وقل له نحن جئنا من بلادنا لأجل إعانتكم وتخليصكم من يد ناصر المهنا الذي يريد أن يدوسكم ويخرب نظامكم ويتكبر عليكم بوساطة الحكام، وأخيراً تأكلكم نار العثماني. فالآن رديتُ النقا على بيت ملحم وأريد أن أهاجمهم^(٨)، وقصدي الآن أن تظهروا حالكم من غير محاباة إن كنتم معي أو علي، فمن كان معي ينزل قريباً مني، ومن كان علي ينزل بالقرب من مهنا والسلام. ٣٨/١

وكتبتُ عشرة مكاتيب مثل هذا المكتوب نفسه، الأولى إلى دُوخي بن آسمير أمير ولد علي، والثاني إلى سلامة شيخ بني صَحْر، والثالث إلى إدغيم بن علي شيخ السرحان، والرابع إلى باي بن إُمْتَيْب شيخ بني خالد، والخامس إلى ذراك بن مِعْجَل شيخ الرفاشا، والسادس إلى سلطان البراق^(٩) شيخ العُمُور، والسابع إلى سلامة النعسان شيخ الفواعر، والثامن إلى علي بن نجد شيخ بوحرنا والتاسع إلى سعدون شيخ البقارة^(١٠)، والعاشر إلى قاسم الوكبّان شيخ الشمسي. فطوينا المكاتيب وأعطيناها للدرعي، فأعطى كل مكتوب إلى خيال مخصوص وأرسله إلى قبيلة.

وثاني يوم نحن رحلنا مع الدرعي وكان مسيرنا ثماني ساعات ونزلنا بأرض واسعة يقال لها الشومرية، لنستقبل العربان بها حيث أنها سهل عظيم واسع، وهي تبعد عن حماة ثلاثة أيام شرقي هذه المدينة. ولم يمضِ إلا قليل من الأيام حتى ابتدأت تتوارد علينا الجوابات. فالجميع

(٦) «القبرصي».

(٧) ولد علي، أبناء محمد، من فروع الفدعان، من ضنا عبيد.

(٨) «أن أركب عليهم».

(٩) «البراك».

(١٠) «البقارة».

أتوا ونزلوا بالقرب من الدريعي ، إلا دوخي بن آسمير فكان جوابه لا معك ولا مع مهنا فإني مشغول بحالي في ديري . وكذلك كان جواب سلامة شيخ بني صخر ، وأما جواب قاسم الوكبان شيخ قبيلة الشمسي ، فبسبب القرابة التي بينه وبين مهنا ، فإنه راح ونزل بالقرب منه . وأما القبائل السبع الأخرى فإنها نزلت على الدريعي ، وأتى مشايخها وكبارها وسلموا عليه ، فاستقبلهم بكل إكرام .

وكان الدريعي أرسل جواسيس^(١١) إلى عند مهنا ، فحضرُوا وأخبرونا أنهم خائفين جداً ، وأن ناصراً نزل إلى حماة ليستنجد بالحكام ويحضر العسكر العثماني لأجل إعانتة . وبعد أربعة أيام ركب الدريعي وركبت معه جميع القبائل وكان عددهم نحو ستة آلاف خيال جميعهم رماحة ، ويصحبهم نحو ألف ذلول مراديف (ذلول يعني جمل ، ومراديف يعني كل اثنين على رماحة) ، فهؤلاء جميعهم بواردية بتفنك فتيل ، /لأن من عادة العربان أنها لا تحوي تفنك ٣٨/٢ بقداحة ، أولاً لأن قليلاً من يأخذ لهم من هذا الصنف للبيع ، وثانياً بسبب غلائها ، ثالثاً لأنها إذا تعطلت^(١٢) ليس عندهم عمال تصلحها ، رابعاً بسبب الخطر لأنهم دائماً في حل وترحال وتبقى التفنك مرمية بين حوائجهم وبأيدي النسوان والأولاد ، خامساً أنها أسرع للضرب ولا تخطئ ولا تخالف ، فلأجل هذه الأسباب إن جميع العربان بالبادية^(١٣) بتفنك فتيل ، وتجند النساء لهم الفتيل من غزل القطن .

فمضى الدريعي بكامل ما ذكرنا لحرب مهنا الفاضل ، ونبه ، قبل توجهه ، أن بعد غد ترحل العربان على أثره ، يعني على الطريق الذي توجه منه ، وكان مراده أن تكون عربانه قريباً منه ، لأن من عادات العربان إذا كانت مع أهلها أن تقاتل بشدة ولا يكون قتالها فقط ركض خيل وجمال^(١٤) ، وثانياً لأنه يتمكن من الديرة أكثر . فحسب الأوامر رحلنا ونزلنا بأرض يقال لها الطامة ، تبعد يومين عن حماة شرقاً . وكان بقي بيننا وبين مهنا يوم فقط ، لأنه كان نازلاً بأرض اسمها بّري ، تبعد يوماً عن حماة . ثم بعد خمسة أيام من ذهاب الدريعي ، وصلت البشائر أنه قد انتصر على مهنا ، وبعد قليل أقبل عربنا منصورين وقد غنموا طروشاً وجمالاً ونوقاً وخيلاً . فالذي لم يذهب إلى الحرب لسبب ما ، إما لأنه ليس عنده سلاح ، أو أنه

(١١) «دواسيس» .

(١٢) «إذا انعكسوا» .

(١٣) «بالشول» .

(١٤) «جرد خيل وركب» .

مريض أو لسبب مَنَعَة ، فكل واحد ركض وطلب العَرَضَة من الذين غنموا فأعطوهم إما جملاً
إما غنماً إما قطعة سلاح أو ملبوس . فهذه عادة عند العرب ، فالذي لم يستطع الذهاب
لسبب ظاهر يعرض للذين كسبوا أعني يعارضهم بالدرب قبل وصولهم للبيوت ويقول
لهم : العَرَضَة يا خيبرين ، فعليهم أن يعطوه شيئاً مما غنموا ، وهذه هي العادة المصطلح عليها
في كامل البرية^(١٥) . ثم حضر الدريعي ومن معه من العُقَداء ، أعني الرؤساء ، فسلمنا
٣٩/١ عليهم فحكوا لنا ما جرى لهم مع قبيلة مهنا وعشائره . وهو أنه بعد توجههم بيومين/من طرفنا
وصل إلى نزل مهنا ، ورمى عَرَبُ مهنا الصوت^(١٦) على بعضهم وابتدأت الحرب بكل
حرارة . وكان مع مهنا عساكر من العرب بمقدار الذي مع الدريعي بل أكثر ، فاشتعلت
الحرب بينهم من الصباح إلى المساء . فانتصر الدريعي وكسب طرشاً وجمالاً وخيلاً ، حتى أن
ابن الدريعي سحن كسب من الجملة فرس ابن مهنا فارس . وأما ناصر فإنه لم يكن موجوداً
بالوقعة بل كان في حماة . ثم انكسر مهنا وهجَّ بعربانه ومن معه من غير عشائر بكامل
البيوت ، وقطعوا غربي عاصي حماة . وكثير من عرب مهنا دخلوا حماة وحكوا لناصر
[ما حدث] . ووقع خوف الدريعي في قلوب أهل حماة والحكام ، وضح الخبر في كامل
البلاد . ونزل مهنا بنفسه إلى حماة وحكى للحكام صورة الواقعة واستنجدهم طالباً منهم
العساكر حتى يضرب الدريعي . وقُتِلَ من عرب الدريعي اثنان وعشرون فرداً^(١٧) ، أما من
عرب مهنا فإنه قُتِلَ أكثر .

وأما المذكور ، فبعد حضوره رحل وتقدم إلى قرب مدينة حمص بكامل عربانه . فبعد
خمسة أيام إذ رعيان عرب الدريعي يركضون ويقولون : أتتنا الروم^(١٨) ، وناصر المهنا معهم
وعربه وأخذوا الطريق . فصارت الضجة بين عربنا وصاحوا : الخيل يا أرباب الخيل . وفي لحظة
ركبت الخيل وطلبت [الحرب] في كتف ناصر وعربه والعساكر العثمانية . وفي قليل من الوقت
لحقوهم وانتشرت الحرب بينهم حتى عقد الغبار إلى الجو وصارت موقعة أكبر من الموقعة
الأولى . فدخل الليل وأظلم وما عاد يعرف العدو^(١٩) من الصاحب . فاقتضى الانفصال ،

(١٥) « الشول » .

(١٦) « السوط » .

(١٧) « واحد » .

(١٨) الأتراك .

(١٩) « الضشمان » .

وراح قسم من طرش الدريعي وعريه، لأنه حين دخل الليل، انهزم عرب مهنا بقسم من الطرش ولم يرههم أحد. وقتل عدد من العسكر العثماني وغنم عرب الدريعي سلاحاً وخيلاً وحوائج حتى قلابق^(٢٠) الدالاتية. وقتل من عرب الدريعي اثنا عشر فرداً فقط، الواحد منهم ابن أخت الدريعي وهو شاب عظيم، تحصرت عليه كل العرب ويكت، /وزرع قتل هذا الشاب عداوة في قلوب العربان، وينوع خاص في قلب الدريعي لمهنا، واستقام سحن ثلاثة أيام في بيته^(٢١) ولا يأكل من جراء قتل هذا الشاب الذي فقد، وحلف أن لا بد أن يقتل ناصراً، أولاً ليأخذ ثأره منه، وثانياً لأجل طفلي النيران التي اشتعلت بين العربان.

ثم بلغنا خبر أن ناصراً وأباه ذهبا لدمشق ليشكيا حالهما إلى الوزير، ويحضرا العساكر لطرش الدريعي من الديرة. فاضطر الباشا أن يكتب المكاتب إلى قبائل حوران وبلاد الجليل، وألزمهم أن يكونوا في إعانة مهنا وطاعته ومساعدته على الدريعي، فبعض القبائل دخلت في طاعة المهنا لا خوفاً من الباشا ولكن محبة بيت ملحم، وبعضها عملت عكس ذلك والتحمت مع الدريعي نكاية بالباشا. وانقسمت العربان إلى قسمين، وكل يوم تقع غارة وحروب حتى عجزت الحكام عن تلك الفتنة، وأتت القبائل من البرية فمناها من كان مع الدريعي ومنها من كان مع مهنا، واشتعلت النار وانتشرت في برية عربستان^(٢٢) حتى انقطعت السابلة وامتنعت القوافل عن السفر.

ثم رحلنا ونزلنا في مكان يقال له القمقوم يبعد يومين عن القريتين. وهناك ركب سحن ثاني يوم وغزا قبيلة مهنا. فبعد ذهابه بيومين حضر عندنا غزو كبير من عرب مهنا، وكان عقيدهم أي صاري عسكرهم فارس بن مهنا، وغنموا من عندنا مئتين وعشرين جملاً. ولم يلحقهم أحد لأن الطرش كان يرعى بعيداً عن البيوت نحو ساعتين حسب العادة، وكانت الخيل أكثرها مع سحن. وحدث بعد يومين أن عاد سحن وهو كسبان من عرب مهنا مئتين وعشرين جملاً، الشيء الذي يكاد لا يصدق أن يكون الكسب نفسه لا أكثر ولا أقل. وحكى لنا سحن أن ما طلبهم أحد لأن الخيالة كانت مع ناصر. النتيجة كما صار فيهم صار

(٢٠) قلابق، مفردا قَلْبَق: «غَمَرَة تقوم مقام الطربوش، تتخذ من جلود صغار الخرفان، وكانت هذه الغَمَرَة في الأصل من الفراء» (العزيري، قاموس، ج ٣/ص ١٠١).

(٢١) «محسوراً».

(٢٢) «عرب بستان».

٤٠/١ فينا حتى بالوقت نفسه . فنقل هذا الأمر عنا وعنهم حتى صار سيرة بين العريان ، /لأنه من الصدف التي يُحكى بها .

ثم أن ناصراً غزا ذات يوم قبيلة تابعة للدريعي يقال لها بني خالد . وكان معه نحو خمس مئة خيال من العرب ومئتي خيال من الدالاتية أتى بهم من حماة ، فضرب بني خالد وكسب منهم ، ومن جملة ذلك ثلاث نساء سلمهن إلى العسكر وبتاً أعطاها إلى آغا الدالاتية ، ورجعوا فدخلوا قرية بقرب حماة اسمها زين العابدين . فالآغا دخل البيت وحده وأخذ الفتاة وتصرف بها ونام معها بالغرفة^(٢٣) ، فحين هدي الليل قامت البنت وأخذت خنجر الآغا وشكته في قلبه فمات . وبالحال فتحت الباب وهربت من غير أن يراها أحد ، ورجعت عند أهلها وأخبرتهم بالذي جرى . فسارت أخبار ناصر الشنيعة بين العريان وضجوا منها ، وامتلأت قلوبهم من العداوة له ، لأن العرب من طبعهم [تكريم] الحریم والنأموس ، فاغتاظوا جداً من ناصر لأنه سلم الحریم إلى العسكر ، وقر رأيهم إما أن يموتوا جميعهم ، وإما أن يقتلوا ناصراً ويشربوا دمه .

فذلك اليوم حضر أشخاص من قرى حمص وأخبروا أن ناصراً توجه إلى ضيعة يقال لها التُّبْك ، في طريق دمشق ، وهو يريد الذهاب إلى صَدَد ، لأجل أن يأخذ من أهالي صدد الخوة التي رتبها عليها سنوياً ، وأن ليس معه إلا نحو مئة خيال من العرب . فحين بلغ ذلك الخبر سحناً أخذ حالاً نحو مئة خيال وتوجه بهم إلى الدرب الذي سيمر به ناصر في طريقه إلى صدد ، وكمن بهم في كمين وراء جبل بالقرب من مهين وحوارين ، الضيعتين اللتين كنا ذكرناهما سابقاً بين صدد والقريتين . وبعد أن كمن يوماً واحداً فقط وإذا بناصر وخيالاته مقبلون ، فنفذ عليهم مثل الأسد الخاطف وقعت الحرب بينهم ، فانكسرت خيل ناصر ، فنزل ناصر بنفسه للميدان ونزل سحن أمامه واشتد الحرب والقتال بينهما فقط نحو ساعتين ، وهما بين أخذ ورد ، وأخيراً تمكن سحن من ناصر وضربه بالرمح فمرك من الخاصر إلى الخاصر ، فوقع ناصر من على ظهر جواده وهربت خيله ، فالذي تمكن من الهرب خلص ، والذي لحقوا به على فرسه وسلم فاز بدمه لأن هذه العادة عندهم الذي ينزل عن فرسه ويسلمها لمن لحق به لا يُقتل . وأما سحن فإنه نزل حالاً من على فرسه وأمسك ناصراً وقطعه

٤٠/٢

(٢٣) «بالأوضة» .

قطعا صغيرة وأرسل من جاء بقفة من ضيعة حوارين ووضع ناصراً بها إرباً^(٢٤)، وخیط القفة وأمسك بواحد من عرب ناصر وقطع انفه وحمله القفة وأرسله إلى عند مهنا وقال له: رح واحلک كما رأيت^(٢٥).

ورجع سحن وبشر العربان بما جرى، فضج خبر ناصر بين العربان وفي المدن، واستنجد مهنا بقبائل أن تعينه على الدريعي، من قبائل شمّر أعني سمرقند^(٢٦)، ومن عربان نجد، حتى اتصل خبر ناصر بالوهاني في بلاد الحجاز، فحضرت قبائل غريسة من البادية^(٢٧) إلى قرب الديرة الشامية وعملوا رباطاً مع مهنا على السنة القادمة أنهم يحضرون السنة القادمة ويضربون الدريعي، [ورجعت القبائل]^(٢٨) لأن الوقت فات، وقرب الخريف ولم يبق وقت لمثل هذه الأمور، حيث قرب وقت تشريق العرب على حسب عوائدهم.

(٢٤) «شقف شقف».

(٢٥) «كما شفت أحكي».

(٢٦) أين نجد من سمرقند؟

(٢٧) «الشول».

(٢٨) المعنى واضح إلا أن الكلمات غير مقرّرة لأنها مخيطة في جلد المخطوطة.

لاسكاريس في مخيم الدرعي

وفي أثناء هذه المدة كنا قربنا من القريتين ، وبقي بيننا وبينها ساعتان فقط . فقلت للدرعي : يا سيدي إن كنت تأمر حتى أركب أنا وبعض الخيالة ونذهب من طرفك إلى القريتين لاحضار معلمي الشيخ إبراهيم . فسُرَّ من ذلك وحالاً أمر لي بعشرين خيلاً ، فركبنا ودخلنا القريتين وصافحنا بعضنا وسلمنا على الأحباب ، وبقينا ذلك النهار بالقريتين : الخيالة في بيت الشيخ سليم ونحن في بيت الخوري موسى ، وبقينا كل الليل أيضاً ، وما كنا نستطيع أن نذهب [للقاد] لأننا لم نَر بعضنا من زمن . وفي الليل حكيت للشيخ إبراهيم جميع ما جرى ، وقيدنا جميع أوراق اليوميات بالدفتر ، ورتبنا شغلنا ، وطلع الصبح من غير نوم كلياً . وثاني يوم فطرنا وودعنا المحبين وأخذنا الشيخ إبراهيم وتوجهنا بالسلامة ، فوصلنا إلى عند الدرعي . ٤١/١
فحالاً ركض/وصافحه وسلم عليه سلاماً كبيراً وترحَّب به ، وحالاً أمر بذبح جمل من العظام ، فذبحوا إكراماً للشيخ إبراهيم وأكلنا منه تلك الليلة وكان أول مرة نأكل لحم جمل^(١) ، وقد وجدناه طيباً وغير رديء يشبه طعمه لحم الغزال وله مزة^(٢) [تمييزه] نوعاً عن لحم الغنم . ولكنه مدهن ولحمه أحمر جميل ، لأن الجمال التي يذبحونها وحدها ليست من جمال التحميل ، ويخصصون لها دائماً راعياً ، وهي ترعى من غير أن يوضع على ظهرها شيء ، مثل

(١) نسي الصائغ أنه أكل لحم جمل عند مهنا الفاضل ، (انظر اعلاه ص ٦٩) .

(٢) طعم خاص .

قطيع الغنم ، والتي للأكل تكون بيضاء مثل الثلج ، وحين تتقدم بالعمر يجعلونها للتحميل .
وأما النوق فإنهم يرغبون فيها لأجل النسل^(٣) والحليب ، لأنهم يشربون حليب النوق بكثرة ، ومن
كثرت يسقونه أيضاً الخيل الأصايل ، كل ليلة شربة عند المساء ، حيث أنه يغذي ويقوي
عصب الخيل . ونحن في الأول ما صار لنا نفس نشربه ، وأخيراً جربنا وتبين لنا أنه طيب جداً
وحلو ، وهو أكثر حلاوة من حليب الغنم والماعز ، ولكن لا يعطي سمناً كما يستخرج من
حليب آخر .

ثم رحلنا ثاني يوم ونزلنا في أرض يقال لها شغب اللوز ، على نبع ماء القريتين ، وفي غير
نبعه ، وهي أرض عظيمة بها مرعى ومياه كثيرة . فبعد يومين إذ بالرعيان يصيحون : يا أهل
الخييل . وكان الطرش بعيداً نحو ساعتين عن البيوت ، فركبت الخييل وطلبتة . وكان غزو كبير
من عرب الوهابي نحو ألف خيال وألفي مردوف ، ف وقعت حرب شديدة ودخل الليل .
فانكسر الدريعي لأن ما كان معه غير نحو خمس مئة خيال فقط ، وريح العدو^(٤) وراح
بمكسبه .

فثاني يوم أخذني الشيخ إبراهيم وذهبنا وحدنا إلى نبع القريتين . فقال لي : إن هذا
الرجل طبق مرادي ، ولكن لأجل غاييتي يجب أن تكون جميع قبائل البادية^(٥) وعشائرها في
طاعته ، حتى إذا أراد أمراً من الأمور لا يعارضه أحد ، فيجب أن تعمل الطرائق والوسائل من
جميع الأنواع ، بحرب كان أم بالمليح ، / بالتهديد أم باللسان الحلو للوصول إلى الغاية التي
أريدتها . أريد منك أن يكون هذا الرجل مسموع الكلام ومطاعاً من حد أبواب حلب إلى
حدود الهند الشرقية^(٦) ، ولا يكون هناك مانع ولا خصم^(٧) . فقلت : يا سيدي هذا أمر
صعب جداً ، لأن حال العربان معروف ، فهم جماعة أحرار في ذاتهم ، فلكل قبيلة شيخ
أو أمير يحكمها ، ولم يستطع أحد في زمن من الأزمان أن يسيطر عليهم أو يجعلهم تحت
حكم ، فأخاف إذا ابتدأنا بمثل هذه الأمور أن يحصل لنا ضرر . قال : من دون ذلك لا يمكن
تتميم أغراضني . فقلت : معونة الله على كل أمر عسير .

(٣) « الحلمة » .

(٤) « الضشمان » .

(٥) « الشول » .

(٦) « لحد حدود الهند الشرقي » ، كذا وهو يريد الغربي .

(٧) ضشمان .

فرجعنا إلى البيوت وأنا أفكر كيف سأجد طريقة حتى أقول ذلك للدريعي ، ومن أي باب يجب أن أدخل عليه . فافتكرت أن عندنا ألعاباً من نار الهوا ، مثل صوفة تشعلها فتطلق ، ومكتوب تفتحها فيطلق أيضاً ، وقنينة ملآنة نار هوا فوسفور ، ومن هذه الأشياء معنا بكثرة في آلة الزعيرة^(٨) . فقلت للشيخ إبراهيم : أريد منك الليلة أن تعمل لنا بعض الألعاب في نار الهوا . ولما كان المساء أخرجنا من صندوق الزعيرة بعض الأشياء من التي ذكرناها ، فتعجب العريان من ذلك لأنهم لم يروا بعمرهم مثل هذه الأشياء ، ومن طبعهم الغشم الطبيعي^(٩) ، حتى طارت عقولهم من رؤوسهم فصاروا يعتبروننا جداً ويكرمونا ونشعر أننا في نظرهم مثل الأولياء ونستطيع أن نفعل العجائب . وصاروا يتذاكرون ثاني يوم بذلك ، وشاع هذا الخبر بينهم حتى صارت العريان تأتي خصوصاً ليرونا . حتى أن الدريعي قال لي : يا عبد الله ما هذه الأمور العجيبة التي فعلها معلمك الليلة البارحة ؟ فقلت : ياسيدي إنك لم تر شيئاً من مهارته ، هذا معلم جليل ويقدر على أمور كثيرة أصعب من هذه ، واعلم أن هذا الرجل ، بوساطة معرفته وعلومه العميقة ، يستطيع أن يجعلك سلطاناً على كامل العرب ويملكك الدنيا . واعلم يا دريعي أن سعدك كبير ورزقك كثير وعلى وجهك فتوحات عظيمة . واعلم أن معلمي رأى ذلك من دلائل نجم أبو ذنب الذي ظهر بالشمال . (وذلك لأن قبل سنتين طلع نجم أبو ذنب من طرف الشمال) . فهذا نجمك وخاص بسعدك ، فإن عملت^(١٠) بما يقول لك بواسطتي^(١١) لا يصير أكبر منك/بين أبناء جنسك ، وتنال درجة عالية لم ينلها أحد من العرب قبلك . فانشرح من كلامي ودخل في عقله لأن من طبعه يحب التكبر والمكسب والتقدم ، كما هو طبيعي في كل إنسان ، وثبتت كلامي إذ قال : صدقت يا عبد الله فيما قلت لأنني كنت رأيت مناماً من زمن [بهذا المعنى ، فرأيت] أن شرارة من نجم أبو ذنب قد سقطت على بيتي واحترقت جميع ما فيه ، وأنا أمسكت الجمرة بيدي وما أحرقتني . وبالحال صاح على امرأته فشهدت بذلك ، لأنه كان قصّ عليها هذا المنام في الليلة التي رآه ، وتحقق عنده أن سعده عظيم لأنه مانوى قط على أمر إلا ناله ، وتأكد له الآن أن له توفيقاً عظيماً لا مثيل له . ثم قال : يا عبد الله مهما يقول معلمك وأنت على رأسي وعيني وإن شاء الله يكون قدومكم خيراً علي .

(٨) الشعوذة .

(٩) سلامة الطوية .

(١٠) « طعت » .

(١١) « عن يدي » .

فأعلمتُ الشيخ إبراهيم بجميع ما جرى، فأعجبه ذلك جداً وأصبح مسروراً تماماً. وثاني يوم أرسلنا وأحضرنا رزقنا من القريتين وأهدينا الدريعي أشياء يكون مسروراً بها، وأهدينا أيضاً أولاده ونساء أولاده وأكابر العربان ونساءهم فأصبحنا معزوزين جداً عندهم. وذلك كان من نوع التدبير، لأن الدريعي أولاً من طبعه حب المكسب والهدايا، وثانياً ليتأكد أن ما هو مرادنا أن نكسب منه لكي لا يظن أن دخولنا عنده لأجل الكسب، بل ليتحقق أن مرادنا ربحه وكبره فقط، ولم ندخل عنده لأجل طمع. فزادت كرامتنا ومقامنا عنده حتى أنه كان لا يدعنا نأكل بالديوان مع الضيوف بل عند الحريم، أكلاً ممتازاً معداً لنا، مع امرأته ونساء أولاده وهو معنا بعض الأحيان. ويقال لحرمته سكر بنت هذال من أكابر العربان، أخوها كيخيا الوهاجي، يقال له عبد الله الهذال.

ثم كان عند الدريعي واحد قُبَيْسي^(١٢) من القُبَيْسَةِ^(١٣)، وكان يباعاً على حسب عوائد أهل القُبَيْسَةِ^(١٣)، هذا عملهم ويوجد منهم عند كل قبيلة عربية، ومن طبعهم الطمع واحسد والغيرة. فرأى هذا الرجل أننا معزوزون عند العرب بهذا القدر، وأنها نبيع بضاعتنا بنصف ثمنها^(١٤)/وأكثرها ببلاش^(١٥)، فدخلت عليه الغيرة والحسد، وابتدأ يعمل ما بوسعه ليخرب أشغالنا ويكره فينا العرب، وإن استطاع يقتلنا، إذ لم يعد له سبب ليتقدم أو يبيع رزقه ولم يبقَ له إكرام عند الدريعي أو عند العرب كالسابق، لأن المذكور كان يوكله بكتابة المكاتيب وبيع أشغاله ويكرمه بالمال نظير خدماته، فانقطع عنه جميع ذلك، ولم يبقَ له قيمة عند الدريعي ولا عند العرب، فازداد غيرة منا وعداوة لنا. وكان اسمه عبيسي، وهو رديء الطباع، شنيع الأفعال، حقود غيور حسود ملعون لا يتصف. فابتدأ يتكلم ويفسد العرب علينا، ويعطل أمورنا، ويقول عنا أننا سحرة جئنا نخطف بنات العرب، ودخل ذلك في عقول البنات حتى أنه كلما رأتنا فتاة تهرب منا. وابتدأ أيضاً يدخل في عقول النساء أيضاً أننا سحرة، نريد أن نفسد قبائل العرب ونكره الرجال بالنساء، ونقطع نسلهم حتى تملك ديرتهم والبلاد للأفرنج. فشاع هذا الخبر حتى أن في ذات يوم، إذ كنا مارين على بيت أحد العربان،

(١٢) «قبسي»، ويقول الصائغ في كتابه «المقرب»: هو البائع الذي يحضر عند البدو، من اسم بلد في طريق بغداد اسمها القبيسة.

(١٣) القُبَيْسَةِ وهي غير القُبَيْسَةِ، بالفتح ثم الكسر، قرية من أعمال شرقي مدينة موصل (معجم البلدان).

(١٤) وضع الصائغ في أعلى هذه الصفحة: «نمرة ٦».

(١٥) دون ثمن مقابل، بلا شيء.

خرجت لنا عجوز ويدها عصا^(١٦) وهجمت علينا وقالت : والله العظيم إن قريبكم من بيتي كسرت رؤوسكم بهذه العصا ، جئتم لتخطفوا بنتي وتفسدوا رجالي علي ، فضحكنا من عقلها وابتعدنا عن بيتها وفهمنا أن [كلامها من نتائج] شغل عبي القبيسي . ولم يزل هذا الخبر [ينتشر] حتى وصل إلى الدرعي ، فاغتاظ جداً واحمرت عيونه وقال لي : لماذا يا عبد الله لم تحك لي حتى أقتل هذا الكلب ونخلص من هذه المفاسد ؟ فقلت له : لا ياسيدي لا نريد ضرر أحد ، ولكن إن كنت تأمر وتنفيه من قبيلتك فيذهب إلى بلاده . فحالاً أرسل وأحضره ونبيه عليه أن يسافر حالاً من قبيلته ، وإن رآه أو سمع أنه موجود في اليوم التالي يقتله ، فقام عبي وهو لا يرى الدرب من الغيظ ، وحالاً سافر وهو لا يعلم إلى أين يتوجه .

ونحن بعد ذلك رحلنا وتقدمنا إلى جهة دمشق^(١٧) قرب ضيعة يقال لها المعضية ، ٤٣/١ ضيعة كبيرة . فهذه الضيعة تعطي إلى مهنا كل سنة خوة ألف غرش غير مقطوع/فأرسل الدرعي وطلب منهم خوة كل سنة ألف غرش ، كما يعطون إلى مهنا يعطونه أيضاً ، فرفضوا ذلك وطردوا المرسل^(١٨) وتكلموا بكلام غير لائق ، فعاد المرسل وحكى بما جرى . فركب نحو مئة خيال وأرسلهم إلى دائر القرية وأخذوا طرشها . وكان عندهم بالضيعة عبي القبيسي ، فارتبط معهم ونزلوا إلى دمشق^(١٩) هو وكبار الضيعة وذهبوا عند التفنكجي باشي يقال له السقا^(٢٠) أحمد آغا كركتلي ، لأن المذكور كان طيب على عبي^(٢١) ، وقالوا له : ياسيدي يوجد عند الدرعي اثنان من الإفرنج جواسيس^(٢٢) ، وهما اللذان يدبران الدرعي ويعلمانه على هذه المفاسد ، ومرادهما أن يكبرا شأنه ويمتلكا البلاد بواسطته [لتسليمها] للأفرنج . فصديق التفنكجي باشي ذلك وذهب حالاً عند الوزير ، وكان يومئذ والي الشام سليمان باشا^(٢٣) والي عكا ومعه المدبر الجليل المعلم حاييم اليهودي^(٢٤) . فحين عرض ذلك على

(١٦) «عصاية» .

(١٧) «الشام» .

(١٨) «وقلّعو المرسل» أي الرسول .

(١٩) الشام .

(٢٠) كذا .

(٢١) كذا ، وفي اصطلاح البادية : طيّب على فلان معناه صالحه ، والظاهر من سياق الكلام أن الصائغ يريد أن يقول : عزّاه أو أخذ بمخاطره .

(٢٢) «دواسيس» .

(٢٣) من أصل كرجمي مسيحي ، وكان يحترم كافة الأديان .

(٢٤) حاييم فارسي كان متسلماً شؤن الخزينة في أيام الجزائر ، وكان الأمير يسومه أحياناً ألوان العذاب . وبعد وفاة

مسامع الوزير صدّق، وانشغل خاطر المعلم حايم بهذا الأمر. وبحسب أمر الوزير كتب حالاً بولردي مشدداً إلى الدرعي وأرسله مع جوخدار. وإذ نفذ علينا البولردي مع الجوخدار المذكور. فأخذه الدرعي وقال لي: اقرأ ذلك، فقرأت وكان مشدداً جداً بهذه الألفاظ: افتخار الأمراء والمشايخ الدرعي ابن شعلان زاد مجده. المنهى إليكم قد طرق مسامعنا ما قد صدر منك من الأفعال الشنيعة والطغيان، وقد خربت هذه الديرة ودمرت عربانها وأهلكت رجالها، لا سيما أنك تجاسرت وقتلت ناصر المهنا محسونا^(٢٥)، الذي كان نافعاً إلى بابنا ومهتماً بأمر الحكام ومنفذاً لمصالحهم، وخربت قبيلته وغيرها من القبائل الطائفة لنا. وتريد برأيك الفاسد امتلاك ديرته بقائم سيفك حتى أنك اتصلت بالقرى التابعة لآيلتنا^(٢٦) وطلبت منها الخوة [وتريد] بلصها^(٢٧) وتغير عليها وتنهبها، ولا زلت تزيد في غيك الردي. وجميع ذلك قد صار معلوماً لدينا أنه ناشئ من شخصين من الإفرنج الكفار موجودين عندك، وهما اللذان يدبرانك على هذه الدروب الشنيعة الراجعة إلى خرابك، ومنتهى حياتك، وتطهير/ ٤٣/٢ الأرض منك ومن كافة من يلوذ بك. فالمراد حال وقوفك على مرسومنا هذا أن ترمي القبض على الأشخاص الذين عندك وترسلهم مع الجوخدار مصطفى آغا تابعنا، حتى نقاصصهم على تجاسرهم ونجعل قتلهم شهرة. وأنت بالخال ارحل وارجع إلى ديرتك وردّ جميع ما أخذته من عربان ديرتنا ومن ضيعة المعضية، وإن عاندت حسب طبعك، لا تسأل عما يجري عليك من الأحوال الجسيمة وتندم حيث لا يعود ينفعك الندم، والحذر من حركات المخالفة، اعتمد ذلك.

فحين خلصت من قراءة البولردي نظرت إلى الدرعي، فرأيت وجهه أعتّم^(٢٨)، وصارت عيونه حمراء، ودخل عليه الغيظ والحنق، ونهض قائماً وقال للجوخدار: وحق من رفع السموات وبسط الأرض، لولا يكون [ذلك] خرقاً للعوائد الجارية، لكنت قتلتك وربطت رأسك بذنوب حصانك وأرسلتك إلى وزيرك بدمشق. قم واركب بلا تكثير كلام. صحيح أنا عندي شخصان غريبان، إلا إني لأسلمهما إلا بعد موثي. فإن كان وزيرك قادراً أن

الجزائر وتعيين سليمان باشا والياً على عكا، أسندت، من جديد، إدارة الخزينة إلى المعلم حايم. (٢٥) أي صيغتنا.

(٢٦) وآيلتنا، أكبر وحدة إدارية في العهد العثماني.

(٢٧) أي ابتزاز أموالها.

(٢٨) من العتمة، أي أظلم.

يأخذهما بسيفه فهما عندي ، وأنا لستُ راحلاً من هذا المكان ، فليكلف خاطره ويحضر ، وأن ماركبَتُ حالاً قتلتك . فاصفر وجه الجوخدار وارتعب وقال : أنا ما هو ذنبي ، ما على الرسول^(٢٩) إلا البلاغ . فنهضتُ أنا وأمسكت يد الدريعي وقلتُ له : يا سيدي استرح ، نحن كفؤون لتدبير هذه المادة . نحن نكتب إلى الباشا ونريك الجواب . فبعد رجاء كبير رضي أن نكتب للباشا من طرفنا . وكان بين الباشا والمعلم حايم والشيخ إبراهيم معرفة ومحبة عظيمة ، والسبب أنه حين كانت العمارة^(٣٠) الفرنسية في مصر تزوج الشيخ إبراهيم واحدة كرجية من سراري مراد بك ، فأخبرته بعد مدة أنها بنت عم سليمان باشا والي عكا . ثم أخذها معه إلى باريس ، وحين رجوعه من باريس إلى بر الشام ، أحضرها معه ودخل^(٣١) عكا وأخذ بيتاً ووضع لها خداماً وواجه الباشا ورأى أن الأمر صحيح ، وعمل له سعادته إكراماً زائداً وأهداه تحفاً عظيمة ، وهي كان أكثر إقامتها في بيت الباشا ، والمعلم حايم قام بواجبه بإكرام ووقار زائد ، أولاً لأنه^(٣٢) متزوج بنت/عم الباشا ، وثانياً احتراماً لقدره لأنه من أكابر بلاد الإفرنج وأشرفها ، وكما هو معلوم أن بيت لاسكاريس دي فنتميل كان مشهوراً ، ثالثاً لإجلالاً لعلمه ومعرفته . ثم قال لي اكتب من طرفي مكتوباً إلى جناب المعلم حايم ، ويكون بهذه الألفاظ كما سنوضحه لمسامعكم الكريمة :

جناب المهاب ، فسيح الرحاب ، حضرة عمدة الأحباب ، الأجل الأكرم الخواجا حايم ، بعد السؤال عن شريف خاطركم والمعروض لمحببتكم بخصوص مادة محبنا الأمير الدريعي ، فجميع ما بلغ سعادته من أقوال الوشاة لأصل له ، فالإفرنج الجواسيس^(٣٣) هم أنا وترجماني فتح الله صايغ ، فالمرجو من همتكم أن تعرضوا ذلك على سعادته وتعلموه بما ذكرنا ، وتصفوا خاطره وترسلوا لنا بولردي من سعادته إلى الدريعي يكون بضد البولردي السابق ، وتزيدوا به وتفضلوه على كامل القبائل والعشائر ، وتأمروهم أن يكونوا في طاعته ، ولكم بذلك الفضل وتصيروننا ممنونين بكم إلى الأبد ، وأطال الله بقاءكم آمين . وختمناه وسلمناه إلى الجوخدار وتوجه حالاً إلى دمشق .

(٢٩) « المرسال » .

(٣٠) الأسطول ، وهو يريد القوات المسلحة .

(٣١) « فات على » .

(٣٢) أي لاسكاريس .

(٣٣) « الدواسيس » .

وثاني يوم رحنا وتقدمنا إلى ناحية القبلة ، بالقرب إلى حوران ، وإذ نفذ علينا الجوخدار مصطفى آغا بذاته وبصحبته بولردي إلى الدرعي ومكتوب من المعلم حاييم إلى الشيخ إبراهيم . فأخذت البولردي وقرأته إلى الدرعي وكان مضمون ذلك :

افتخار أمراء الكرام ، وعمدة المشايخ العظام ، رئيس العشائر ورأس القبائل ، ولدنا الدرعي ابن شعلان زاد مجده ، بعد السؤال عن خاطركم والمبدي إليكم ، وصل كتاب من جناب محبنا الشيخ إبراهيم إلى محسونا المعلم حاييم ، وبه معرفة عن حسن حالكم وجيد أطواركم ، وأن جميع ما تقرر لدينا سابقاً فهو كلام وشاة ومغرضين ، فبناء على ذلك أصدرنا لكم مرسومنا هذا ، فالمراد أن تكونوا مطمئنين البال وال خاطر ، ودبروا ايلتنا بحسن معرفتكم المشهورة ، وتكونوا من طرفنا متقدمين ومفتخرين على كامل القبائل والعشائر . وكذلك نرغب أن تبدوا غاية الإكرام والتوقير إلى جناب محبنا الشيخ إبراهيم وترجمانه ، فبذلك تصيرونا راضين عنكم واعتمدوا على ذلك والسلام .

ومكتوب المعلم حاييم [يعرب عن] محبة تامة ، ويعرفنا أن مهما لزم من الأمور المتعلقة ٤٦/٢ بالوزير نعرفه عنها فيقضيتها لنا حالاً بكل سهولة وطبق لإرادتنا^(٣٤) .

فتعجب الدرعي وكل الحاضرين من ذلك وازداد إكرامنا عندهم وتوقيرهم لنا . ثم كتبنا جواب البولردي بإملاء يليق بحضرة الوزير ، وأرسلنا أيضاً جواباً إلى المعلم حاييم واستكثرتنا بخبره ، وأعطينا الجوخدار خمس مئة غرش إكراماً وتوجه لدمشق راضياً حامداً شاكرراً لنا وللدرعي أيضاً .

وبعد ذلك رأيت أنني أستطيع أن أكلم المذكور بما أمرني به الشيخ إبراهيم ، إذ حصل الوقت المناسب . فقلت له : اعلم يا أبو سحن (وهذا تكبير عند العرب إذا سميت الإنسان «أبو فلان» باسم ابنه ، وعند الحضر [هذا الأمر] أيضاً مقبول) ، إن الله عز وجل أرسلنا لأجل سيادتك^(٣٥) وتقديمك على أبناء عصرك ، فإن سمعت ما نقوله لك لا يكون أكبر منك بين العربان . فقال : مهما تقولون فهو على الرأس والعين . ففرحت بذلك وقلت : تمت إرادة معلمي . وأعلمت المذكور بذلك فسّر ، وقيدنا جميع ذلك بالدفتري وتتنا تلك الليلة مسرورين جداً .

(٣٤) الصفحة ٤٤/٢ بياض ، أما الصفحات ٤٥/١ و ٤٥/٢ و ٤٦/١ فإنها لحقت بالصفحة ٢٣/٢ ، وفقاً للإشارات التي وضعها الصائغ في المخطوطة .

(٣٥) «كبرتك» .

[ابتداء الحرب مع الوهايين]

وفي اليوم التالي وصل خبر أن غزواً من عند الوهايين ضرب قبيلة وُلد علي ، وغنم منها شيئاً كثيراً ، لأنه غزو عظيم يدور في هذه الديرة ويفتت العربان^(١) حتى أنه ابتداءً يدخل القرى ويبلص^(٢) أصحابها . والعربان خائفون جداً منه ، والبعض منهم قرروا على إعطاء الزكاة ، أي عشر المال ، للوّهائي حتى يخلصوا من شره ، ويبقوا محسوبين من أتباعه ومُوهَّبين ، لأن الذي يعطي الزكاة ويطيعه يقال عنه موهب^(٣) . فأعلمتُ الشيخ إبراهيم بهذا الخبر ، فاعتم جداً وقال : هذا ضد إرادتي ، والرأي عندي أن الدريعي يجب أن يكون ضد الوهايين ، ويعمل كل ما يستطيع ليجرّ إلى طرفه زيادة من القبائل ، وأما العربان التابعون للدريعي فيجب أن يكونوا جميعهم مطيعين له ، وعلى قلب ورأي وعمل واحد . فتكلمتُ مع المذكور بذلك وحسنت له الأمور بقولي له : اعلم أن الوهايين إذا لم يرتدّ من هذه الديرة سوف يملك كافة العربان ، ويجعلهم تابعين له ، وتكون أنت من جملتهم وتصير عبداً من بعد أن كنت أميراً وحرّاً وأكبر منه . فالأنسب قطع رجله من ديرتنا وإفراز عربه عن عربنا . فحسنتُ عنده هذا الرأي وحالاً اعتمد أن يضرب غزو الوهايين/ويلحقه في أي مكان كان ، ويظهر العداوة بينه وبين

٤٧/١

(١) بالأصل : يفتت على العربان ، ولعل الصائغ يريد : يشتت شمل العربان .

(٢) يبتز الأموال .

(٣) كذا ، ولا أدري كيف ضبط هذه الكلمة : موهب أو مُوهَّب . ونلاحظ أن الصائغ كثيراً ما يستعمل كلمة وهايين .

الوهابي . وأمر العربان أن تجمع بعضها بعضاً وأرسل طروشاً (أعني سعاة) إلى قبائل حوران وبلاد الجليل يخبرهم ويطلب منهم اسعافاً، وكذلك إلى غير قبائل . وحمل الرسل^(٤) كلاماً، وهو أن يقولوا من طرفه إلى القبائل أن مراده أن يضرب غزو الوهابي ويشهر العداوة معه، فمن تبعه فليظهر حاله، والذي يريد أن يكون من أتباع الوهابي فليرحل إلى ديرة الوهابي .

فبعد يومين، جميع القبائل التي كانت بالقرب منا طاعت الدرعي على ذلك الرأي وحضرت إلى عندنا، وبعد ذلك حضر الطروش^(٥)، وأخبروا أن جميع القبائل طاعت على ذلك واعتمدته، سوى قبيلتين وهم بني صخر والحسنة، قبيلة مهنا، فما أطاعوا ولا لهم إرادة أن يعادوا^(٦) الوهابي . فتركهم الدرعي وتخذ، وركب حالاً ولحق غزو الوهابي . وكان معه نحو خمسة آلاف خيال وألفي مردوف بواردية، كل اثنين على جمل، وطلب غزو ابن سعود . فغاب عنا عشرة أيام وانقطعت أخباره عنا، وصرنا في وجل عظيم وخوف جسيم، حتى ظننا أنه قتل هو وكامل عسكره، وحزنا في قلوبنا حزناً شديداً، وصرنا خائفين جداً على أرواحنا، لأن إذا حصل ذلك فالعربان تقتلنا، حيث نحن سبب ذلك الأمر .

ثم يوم الحادي عشر قبل نصف النهار إذ ورد علينا خيال جاء كالغائر، يحمل راية^(٧) وهي زنار أبيض رابطه من الطرفين وعامله مثل بنديرة^(٨) بالرمح، وهو يركض ويقول: هذه راية الدرعي، نصرنا الله على الضشمان، ابشروا يا عربنا . فحالاً ركضنا وسلمنا عليه، وهو بشرنا أن الدرعي انتصر وسيكون هذه الليلة عندنا . فألبسناه حالاً مشلحاً جديداً وكوفية وجزمة [وأعطيناه] مئة غرش بخشيشاً . وكذلك نساء أكابر العربان أهدينه^(٩) نظير بشارته . وقامت الأفراح والألعاب والغناء^(١٠) والكيفيات^(١١)، وذبحت الذبائح وعدت المآكل^(١٢)، وكان نهار من العمار^(١٣)، مبهج/وعظيم . وقبل غياب الشمس

٤٧/٢

(٤) «المراسيل» .

(٥) أي السعاة، كما جاء في الشرح أعلاه .

(٦) «أن يضشمنوا» .

(٧) «جاية غارا وساحب رايه» .

(٨) أي مثل العلم .

(٩) «هادوه» .

(١٠) «والغنة» .

(١١) «المسرات» .

(١٢) «الأماكيل» .

(١٣) الأعمار، أي يوم يذكره الإنسان طول عمره .

إذ أقبل الدريعي وكامل من معه . فركضنا نحن وركب جميع من بقي من الرجال ، واستقبلناهم بلعب خيل وإطلاق النار^(١٤) والزلاغيط ، إلى أن وصلوا . فنزلوا وسلمنا عليهم وحكوا لنا أنهم لحقوا بهم بعد ستة أيام في أرض يقال لها حذملما ، شرقي تدمر لناحية القبلة ثلاثة أيام ، على حسب ركض العرب . وكانوا بمقدار عسكر الدريعي وعقيدهم رجل صاحب صيت^(١٥) عظيم وفعل جسيم يقال له أبو نُقْطَة ، إنسان من جملة طباعه حين ينزل إلى القتال أنه يسلح عارياً^(١٦) ويتزنى على القميص ويشلح أكماله فيبقى مستتراً من الزنار وما تحته وأما سائر جسمه فيكون عارياً مكشوف الرأس ، حافي الرجلين ، وهو أسود غامق السواد ، جسيم بمقدار ثلاثة أفراد^(١٧) ، شعره منفوش لم يحلقه قط ، كبير اللحية تصل إلى بطنه ، النتيجة تفزع منه الجن ، وأكثر عربانه قرييون من هذه الصفات^(١٨) .

ثم التحم القتال بينهم واشتد الحرب ، وطار الغفار^(١٩) والغبار ، واستقاموا ثمان ساعات على هذا الحال . ثم انكسر أبو نقطة وتفرقت عربانه ، وانتصر الدريعي بعون الله ، وأخذ جميع ما أخذوه من الكسب من قبيلة ولد علي وأتى به معه ، وجاء أيضاً بخمسة وثلاثين فرساً كحاييل^(٢٠) ، كسبها جميعاً من عرب أبو نقطة . وقتل من عربنا اثنان وخمسون نفراً ، ومن عرب أبو نقطة نحو مائتي نفر . وهج المذكور مع باقي عربانه في نواحي بلاد نجد ، وشاع خبر هذا الانتصار حتى وصل إلى سليمان باشا في دمشق ، فسُرَّ جداً وحالاً أرسل فروة وسيفاً إلى الدريعي ، مع بولردي يحمده ويشكره به على فعله هذا ، لأن الباشا وأهالي ديرة الشام كانوا خائفين جداً من الوهايي ، وخصوصاً من صيت أبو نقطة .

وبعد ذلك رحلنا ونزلنا بأطراف بلاد حوران ، وحصل لنا إكرام زائد من دوخي ابن آسمير ، أمير قبيلة ولد علي ، لأن الدريعي ردَّ عليهم جميع ما أخذ منهم أبو نقطة . وتخاوى دوخي مع الدريعي ، وجاء مشايخ القبائل وقدموا الطاعة وارتبطوا جميعهم معنا ضد الوهايي ، وصار رباط عظيم في حوران مع كامل العشائر ، إلا مع بني صخر والحسنة . ٤٨/١

(١٤) « قريصات » .

(١٥) « سيط » .

(١٦) « بالظلط » .

(١٧) « أزالام » .

(١٨) ذكرنا في المقدمة أن أبا نقطة مات قبل هذا التاريخ ، قتله الشريف حمود قائد عرب اليمن سنة ١٨٠٩ .

(١٩) غُفْر وغُفْر ج أعفار : التراب ؛ أعفار وعفار رمال بالبادية ببلاد قيس (القاموس المحيط) .

(٢٠) كحيلات .

ثم ثاني يوم نفذ علينا شيخ عِلْم من دمشق: دنبكية^(٢١) كبيرة خضراء في رأسه معصوبة بمنديل، ثيابه بيضاء، في رقبته مسابح، عيونه مكحلة، كبير اللحية^(٢٢)، في زناؤه محبرة^(٢٣) وعبه ملآن من الكتب، وهو راكب على بغلة وفي يده حربة. فدخل بيت الدريعي وسلم على المذكور وعلى جميع الحاضرين وأخذ يتكلم بأمر الدين، ويرشدهم ويزرع في قلوبهم الرفض والورع، وهذا شيء يخالف طبائع العرب لأنهم لا يريدون أن يتكلموا بأمر الدين، وعندهم جميع الملل بالسوية ولا يسألون قط أحد عن دينه، وعندهم الجميع^(٢٤) خلقه الله وحالهم واحد. وهذه أحسن الخصال التي وجدناها عند العرب، لأنه إلى اليوم لم يسألنا أحد أأنتم إسلام أم نصارى، ولكننا نحن في أثناء الحديث نقول أننا نصارى، ولو كانوا مترفضين وعندهم توريع^(٢٥) مثل أهالي المدن، لما كنا استطعنا أن نعيش معهم يوماً واحداً.

ثم قمت من المجلس ورحت إلى خيمتنا الصغيرة وكلمت الشيخ إبراهيم عن هذا الشيخ فتأذى منه، وبعد ساعة من الزمن رجعت إلى المجلس، وحسب عوائدهم نحوي نهضوا جميعاً واقفين، وقام أيضاً الشيخ الغريب. وبعد جلوسنا استخبر من أحد العرب الذين كانوا قرييين منه عني، فأخبروه أنني نصراني كاتب عند الأمير. فنهض قائماً وقال: لا يجوز في دين الله أن تقوموا واقفين لنصراني كافر عدو الدين، فأقم جميعكم إلى نار جهنم، ونساؤكم طوالق منكم بموجب شريعة سيدنا محمد شرف الله ذكره. فبعد هذا الكلام نهض الدريعي بنفسه وقبض عليه من لحيته وطرحه بالأرض وسحب سيفه يريد ذبحه. فكان بأمر الصدفة أن الشيخ إبراهيم دخل المجلس. فركض وأمسك بيده ورفعته عنه. فقال: إكراماً لخاطرك لا أذبحه ولكن بحق ذات الله العزيز لا بد من قطع لحيته وهذه الساعة يعود إلى بلده. وركض مرة ثانية وأمسك بلحيته وقطعها بالسيف وأمره بالركوب حالاً. فما صدق أنه يخلص بروحه وركب حالاً وتوجه لبلده. / ٤٨/٢

ثم بعد ذلك بيومين، ركب الدريعي وكامل عربانه وراح ضرب عربان بني صخر لسبب: أولاً أنهم لم يطيعوه، وثانياً نكاية بالوهابي، لأن بني صخر، كما ذكرنا، يعدون من

(٢١) دنبكية، من التركية. عمامة ملفوفة مدورة تدل على بركة حاملها وطهارته.

(٢٢) «ذقن».

(٢٣) «دواية».

(٢٤) أي جميع الناس.

(٢٥) لعله يريد: الحث على الورع.

أتباع الوهاشي^(٢٦) ويعطونه الزكاة، أي عشر المال. فعاد منهم بخيرات جزيلة وقتل كثيرين من رجالهم. فشاع هذا الخبر بين القبائل ووقعت سطوة الدرعي في قلوب الناس، وطاعته جميع العشائر، إلا قبيلة مهنا، فإنه لم يرد أن يتعرض^(٢٧) لها، لأنها أكلت جزاها، وتضعضت أحواها، وقتل ناصر، ولم يبق لها اسم مثل السابق، وخمدت سطوتها.

فبعد كل هذه الأمور كان مضي فصل الصيف ودخل الخريف وابتدأت العربان رويداً رويداً تنسحب إلى الشرق. ونحن أيضاً لم نزل نرحل وننزل إلى أن صرنا أمام حماة. فقال الدرعي: أكتب يا ولدي مكتوباً إلى متسلم حماة وعرفه، لكي يرسل إلينا بقليل من الخنطة. فكتبت مكتوباً ظريفاً وأرسلناه مع طارش خاص، فوصل إلى المتسلم وقرأه وحالاً أمر بأربعين جملاً [حملة] حنطة وعشرة مشايع وفروة إلى الدرعي. فوصلنا جميع ذلك وفهمنا جيداً أن المتسلم لم يرسل هذه الهدية إلا خوفاً من الدرعي، وما هي كرم منه، حيث نعرفه من السابق أنه رجل بخيل ورديء الأفعال.

ولم نزل ننسحب حتى صرنا بقرب حلب. فقال لي الشيخ إبراهيم: يا ولدي نحن راجعون إلى البادية^(٢٨)، ولم يبق عندنا ثياب نلبسها، ولم يبق عندنا رزق حتى يكون لنا حجة، ويلزمنا من حلب أشياء كثيرة، فكيف ندبر ذلك. قلت: أعطني مكتوباً إلى محبك الذي ستأخذ منه الدراهم وأنا أقوم بتدبير الباقي. فكتب لي حالاً مكتوباً فأخذته منه واتفقت مع الدرعي أن يرحل إلى الزور، وأنا آتي عنده من حلب. وأخذت معي اثنين من العرب بالأجرة ونزلت إلى ضيعة يقال لها الجبول، وهو المكان الذي يستخرج منه ملح حلب. ووجدت ساعياً، وكتبت مكتوباً من طرفي إلى الشخص الذي سيعطينا الدراهم، وأرسلته مع مكتوب الشيخ إبراهيم، فعضر/المرسال^(٢٩) وجاءني بالدراهم، وكان قصدي من ذلك ٤٩/١ ألا أواجه أحداً من أهالي حلب ولا أدع أحداً يعرفني. فنزلت إلى البلد وأنا بلباس^(٣٠) العرب، وبلحية، وأتكلم مثلهم، ولا يستطيع أحد أن يعرفني. فأخذت غرفة في خان من الخانات التي بأطراف البلدة، وابتدأت أشترى لوازمي وأرى كثيرين من الأصحاب والمحبين وهم

(٢٦) «بني صخر محسوبة على كيس الوهاشي».

(٢٧) «ماراد يقارشها».

(٢٨) «الشول».

(٢٩) المرسل أو الرسول.

(٣٠) «كسم».

لا يعرفوني ، وأنا أضحك بقلبي منهم ، ومررت عدة مرات بالطريق الذي يمر أمام بيتنا ، وكل رغبتني أن أرى أخي وإن لم أعرفه بحالي ، فلم أتمكن من رؤيته ، ولم أستطع أن أعرف إذا كان مات أو مسافراً ولم أثق بأحد لأظهر حالي ، وأسأله عن أخي وعن والدتي المسكينة ، وهي لم ترني منذ نحو سنتين ، ولا عندها خبر مني ، ولم تستلم مني مكتوباً من يوم خروجنا من حلب ، لأن من جملة الشروط التي شرطها الشيخ إبراهيم علي أن لا أكتب أحداً ولا إلى والدتي ، كي لا يزيغ خبرنا بين الناس وتشتت أمورنا . وبعد ستة أيام أنهيت جميع مطلوبي وتوجهت مع رفقائي العرب إلى الزور ، فوجدنا عربنا نازلين على شاطئ الفرات ، بقرب محل يقال له دير الشُّعَّار ، وكنا ذكرنا سابقاً أن جميع سكانه شعار^(٣١) ، وكان بلداً في السابق وبه عمارات قديمة لم تزل إلى الآن . فسلمتُ على الشيخ إبراهيم وعلى الدريعي ، وحكيته لهم ما فعلت . فقال الشيخ إبراهيم : حسناً عملتُ ، كنت أخشى أن تذهب وتواجه والدتك ، فتمسك بك ولا تدعك تعود إلى عندي . ومن المؤكد أن والدتي لو رأتني لما دعنتني أعود قطعاً . ولعلمي بذلك عملتُ كل جهدي لكي لا يعرفني أحد ، ولأنا عرفتُ بحالي .

ثم وجدت أناساً كثيرين عند العرب ، من أهالي حلب وحماة وحمص والمعة وسرمين وإدلب وكَلَر وعتتاب ، ومن كل ايلة حلب وغيرها ، وهم يشترون جمالاً من عند عربنا ومعهم بضائع : ملابس ومأكول ، من مشال وجزمات وكوفيات وقمصان خام سميك وسروج خيل ، وعُدَد خيل وقمصان قَر^(٣٢) للنساء ، ودبس وزبيب وتوتون ، أي جميع لوازم العرب . وقد فتحوا سوقاً^(٣٣) عظيماً وهم يبيعون بضائعهم قسماً منها نقداً وقسماً منها بالمقايضة^(٣٤) ، ويشترى جمالاً لأجل التحميل . / وبيع أغلى جمل بمائة غرش . وأما بخصوص العملة التي يتعامل بها العرب فإنهم لا يرضون إلا بالعملة الفضية^(٣٥) . وأكثر ما هو مقبول عندهم الريال الفرنجي . وإذا كانت قطعة العملة قيمتها خمسة غروش إلا ربع ، كما هي الحالة بالعملة العثمانية ، فإنهم ، لكي لا يغلطوا بالحساب ، يقبضونها بالتمام ، ولو أخذوا قطعة العملة بزيادة

(٣١) شعراء .

(٣٢) حرير .

(٣٣) « بازار » .

(٣٤) « داكيش » .

(٣٥) « عملة بياض » .

عشر مصريّات^(٣٦)، فإنهم لا يختلفون على ذلك إذ يهون عليهم الحساب . وكذلك لا تكون المساومة على سعر الجمل بالغروش ولكن بالريالات، أو أنهم يختارون لهم قطعة من العملة العثمانية تكون المساومة عليها .

فاستقام ذلك السوق^(٣٧) ثمانية أيام . وعملنا حساباً تقريبياً [تبين لنا منه] أنه سُري من عند عربنا فقط ، بمائة وخمسين ألف غرش جمالاً . ثم توجه [الناس] إلى بلادهم . ومن صار عنده دراهم كثيرة من العرب ، مثل الدريعي أو غيره ، وضعها في عدل الطحين أو القمح ، لكي لا تفرقع وقت التحميل .

ثم بعد ذلك أمر الدريعي بالرحيل وقطع الفرات إلى الجانب الثاني . فكان نهار عظيم وضجيج واضطراب^(٣٨) ، حتى قطعنا من جانب إلى الجانب الآخر ، من جهة الدير . وغرق منا امرأة ومعها ولدان أثناء قطع الفرات ، لأن جملها تعثر فوقعت وأخذها مجرى الماء لشدته وأخذ أولادها بسرعة . ولم يكن إلى جنبها أحد [ليتشلها] فماتت هي وأولادها .

(٣٦) مصريّة: قطعة صغيرة جداً من العملة تعادل البارة التركية أي ١/٤٠ من الغرش العثماني .

(٣٧) « بازار » .

(٣٨) « وغوشات وكركات » .

[أول خطوة نحو الاتحاد]

فبعد أن أقمنا ثلاثة أيام، رحلنا وتوجهنا نحو البادية شرقاً. وكانت الجزيرة ملآنة من العربان، منهم من الذين كانوا معنا بالشامية، ومنهم غرباء أعني من عرب ديرة بغداد والبصرة والبادية^(١)، وهم أشكال وأشكال لا يمكن إحصاؤهم، ونزلنا في أرض يقال لها عين الراج. فهناك حضر عندنا أمير يقال له فارس الجريا، وقبيلته اسمها الجريا^(٢) تضم نحو أربعة آلاف بيت يعدّون من عرب البصرة. وكانت غايته من هذه الزيارة التعرف بنا والصحبة مع الدريعي على يدنا، لأنه كان سمع أن المذكور قد عادى^(٣) الوهابي وهو عاص عليه. وصار له اسم عظيم بين القبائل، وكل ذلك بسبب تديبرنا وحسن مشورتنا، لأنه كان شاع الخبر بين العرب أن عند الدريعي جماعة ماهرين يقومون بتديبره على/أمور الدنيا، وبواسطة تديبرهم سوف يصير سلطان العرب وأكبر من ابن سعود الوهابي. فبلغ ذلك فارس الجريا، وعمل حسابه أن المحبة والوفاق معنا أنسب، وعلى الخصوص حين سمع أن الدريعي على خصام^(٤) مع الوهابي، لأن العرب على إطلاق لا تحب الوهابي لسببين كبيرين: الأول لأنه يأخذ منهم العشر ويستعبدهم بواسطة أمور الديانة، [والثاني لأنه] يستجرهم إلى الحرب والموت مع القبائل العاصية ومع

(١) «الشول».

(٢) الجريا، بطن من شمر، فيهم الرئاسة (وصفي زكريا، عشائر الشام ج ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها).

(٣) «ضشمن».

(٤) «ضشمنة».

أهالي بلاد الحجاز واليمن. وهذا شيء ضد طبيعتهم لأنهم أولاً يحبون أن يأخذوا ويكرهون أن يعطوا، وهو يأخذ عشر المال منهم بالغصب، وعمله هذا كأنه نوع من البلص وخصوصاً أن المزكي^(٥) الذي يحضر من طرف الوهابي ينتقي ما يعجبه من كل عشرة رؤوس واحداً، سواء كان ذلك من جمال أو نوق أو هجن أو خيل نجدية^(٦) أو غنم أو دراهم، وهذا يصعب جداً على العربان ويزرع العداوة في قلوبهم. وثانياً أنه يستعبدهم بالصلاة، كل يوم خمس مرات، والذي لا يصلي يُقتل، وهو يستجرهم دائماً إلى الحروب والقتل. فهم والحالة هذه رعايا يبتز أموالهم وعسكر دون نفقة^(٧) يقتلون بسببه. ولذا ضجت^(٨) العربان منه كثيراً ولكنهم يطيعون خوفاً منه لأنهم ليسوا على رأي واحد ليكونوا عصابة عليه.

ثم قال فارس الجربا للدريعي: أريد منك أن تجمعني مع عبد الله الخطيب الذي عندك، إذ بلغني أن عندك جماعة أصحاب معرفة وتدير. قال نعم. وبالحال أتى العبد وصاح علينا، وكنا في خيمتنا الصغيرة مكبين على الكتابة، فحضرت وسلمت عليه وترحبت به، وعرفني الدريعي به وشكره لي جداً. فقال: أريد منك ظهرة^(٩) أي خلوة، والسبب في هذه التسمية أن الحضر، سكان المدن، يختلون داخل [البيوت] ليتكلموا بالأمر الواقع السري، وأما العرب فإنهم بعكس ذلك يخرجون إلى ظاهر البيوت، ويبعدون عنها قليلاً ويجلسون في أرض سهلة، لا يكون حولهم شيء ولا يستطيع أحد أن يسمعهم. فنهض الدريعي وفارس وقمتُ معهما، فقال الدريعي: ادع^(١٠) الشيخ إبراهيم، لأن من الأنسب أن يكون معنا، إذ لا بد أن يحتاج الأمر إلى تدبيره الجيد. / فجلستنا للحديث، فقال فارس للدريعي: قد بلغني جميع ما صدر منك في بر الشام، وقد عملت حسناً وأصبحت المراد، وخصوصاً بقتل ناصر، فإنك خلصت إخوانك العرب من شره، وكذلك خصومتك مع هذا الظالم ابن سعود. وقد تأكد عندي بعلم اليقين أن جميع ذلك نتيجة تدبير هؤلاء الأشخاص، وأوماً بيده علينا. وإني أريد أن أكون معكم برأي وفعل وقلب واحد، في كل

(٥) «المزكي».

(٦) «نجدية».

(٧) «ببلاش».

(٨) «ضجرت».

(٩) «ظهرة».

(١٠) «عيط».

ما يحصل من خير وشر، أرجو أن تقبلوني أخاً لكم على عهد الله ورأي محمد وعلي. فقال الدريعي: من جهتي قد قبلتك من كل قلبي، ولكن حتى نرى رأي^(١١) الشيخ إبراهيم وعبد الله. فقال لي الشيخ إبراهيم بالإيطالي: يا ولدي أخاف أن يكون ذلك حيلة^(١٢) علينا لأجل خراب أشغالنا، وخراب حبيينا الدريعي. فقد يكون هذا الرجل من طرف الوهابي، أو من طرف قبيلة مهنا، أو من طرف إحدى القبائل التي عاديها، وهو يريد الدخول معنا حتى يفسد عملنا. فقال الدريعي: تكلم يا خطيب، ماذا يقول الشيخ إبراهيم، لا تستج، إذ يقتضي على الإنسان، في مثل هذه الأمور، أن يتكلم بما في قلبه. فكلمتهم بجميع ما قاله الشيخ إبراهيم. فضحكوا وقالوا: اعلم يا عبد الله أن هذا الأمر لا يحدث عند العرب، ولم يمشوا قط على مثل هذه الخيانات^(١٣)، ولا يمكن أن يمشوا عليها، فهذا شيء لا يتصور عندنا، بل عند العثماني، ونحن كل أمورنا خلاف أمور العثماني وتدابيره، فكونوا من هذا القبيل في برج الراحة. وقال الدريعي: أنا أعرف شمس بلادي، يريد أنا أعرف أحوال أبناء جنسي، والوقت الذي يحدث منه أقل حركة مضادة فالله أكبر عليه، فقال فارس: ساعدوا على الخير، يا جماعة أنا قلبي محروق من الوهابي، ويد واحدة لا تصفق، وما رغبتني في عشرتكم إلا خصامكم مع الوهابي. فأعطيناه كلاماً وتعاهدنا معه على عهد الله ورجعنا إلى البيت وتغدينا وسررنا.

ثم بعد ذلك قال الشيخ إبراهيم: يا ولدي هذا التدبير لا يستقيم^(١٤) من غير رباط^(١٥)، فيجب أن تعمل ورقة رباط عظيمة، تربطهم بالشروط والعهود^(١٦)، وكل من هو ٥١/١ معنا،/وعلى رأينا وعملنا يضع اسمه وختمه، ومن ليس عنده ختم [يضع] اسمه، ويطلع في رأس الإصبع الطويلة من يده اليسرى بالحبر في الورقة، كناية عن الختم. فقال الدريعي وفارس: هذا نعم الشور، وقد رضينا فاعملوا الورقة. فدبرنا ذلك اليوم الورقة، في طريحة ورق كبيرة سمكة، وكانت بهذه الألفاظ:

(١١) «حتى نشوف خاطر».

(١٢) «ملعوب».

(١٣) «على هكذا أمور خيانة».

(١٤) «فالت».

(١٥) وثيقة.

(١٦) «إيمان».

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين على القوم الخائنين، ونحمد الله الذي نور أبصارنا، وروق أذهاننا، ودبر^(١٧) أحوالنا، ونشكره على ما أنعم به علينا من العلوم الإلهية والنفحات^(١٨) الربانية، وهياً لنا طريق الخير، وجنبنا عن الشر، وجعلنا في الدنيا نفوز بالحرية، ونبتعد عن رق العبودية. ونشهد أن لا إله^(١٩) غيره، ولا يُعبد سواه القادر على كل شيء آمين. وبعد فنقول نحن المحررون اسماءنا بذيله، قد اتحدنا جميعنا باختيارنا وإرادتنا من غير إكراه ولا إجبار ولا إلزام يجوزنا إلى ذلك رغماً عنا، بل بكل رضانا ومن كل قلوبنا ونوايانا وبكامل صحتنا أن نكون جميعنا بقلب ورأي وعمل وتدبير ورضى واحد، وبذات واحدة في جميع ما يقوله الشيخ إبراهيم وعبد الله الخطيب من التدابير والأمور الراجعة إلى صالحنا، ونافعة لرفع^(٢٠) شأننا، ونيل حريتنا، واشهار رايتنا. أما الشروط التي قبلنا بها [وفرضناها] على أنفسنا^(٢١) فهي:

- أولاً: الابتعاد عن التعامل^(٢٢) مع العثماني.
- ثانياً: أن نكون ضد الوهابي حتى الموت.
- ثالثاً: عدم التكلم بأمر الديانة.
- رابعاً: أن نكون طائعين إلى أخينا الأكبر الدريعي ابن شعلان.
- خامساً: كل واحد منا يكون ضابطاً عربي من كل أمر يخالف هذه الشروط، سواء كان ذلك من نوع الخيانة أو اشعار للعدو بما نفعل.
- سادساً: أن نكون جميعنا ضد من لا يطيعنا من القبائل.
- سابعاً: نحمي من هو معنا وضارب ختمه في صك الوقف هذا ونعادي من عاداه.
- ثامناً: كل من وضع ختمه في هذه الورقة وصدر منه أدنى حركة مخالفة لهذا الإلتباط، فإن دمه وماله وعياله حلال، ويكون جزاؤه الموت السريع.
- تاسعاً: لا نقبل رشوة^(٢٣) ولا نسمع كلام الوشاة ضد الشيخ إبراهيم وعبد الله.

(١٧) «ويدر».

(١٨) «والنفحات».

(١٩) «الإله».

(٢٠) «قيام».

(٢١) «ذواتنا».

(٢٢) «مقارضة».

(٢٣) «برطيل».

٥١/٢ عاشرًا/ : قد قبلنا بهذه الشروط من كل قلوبنا ، وعلى هذا عهد الله وأمان الله ورأي الله ورأي محمد وعلي ، والخائن يخونه الله . وقد عزمنا على أنفسنا أن نموت ونحیی على هذه الأمانة ، مادام فلك وسبح ملك والسلام تحريراً في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ألف وثمان مئة وأحدى عشرة مسيحية غربية .

فقرأنا لهم هذا الرباط فسروا به جداً ، ووضعوا ختمهم حالاً الدرعي وفارس الجريا . ورحلنا ثاني يوم ، وتوجه فارس عند عربيه حيث كانوا بعيدين عنا نحو خمسة أيام ، ونزلنا في أرض عظيمة واسعة جداً يقال لها الرامة . فتحسن عند الدرعي أن يجمع القبائل القريبة منه كي يدعوهم إلى وضع ختمهم بالشروط . فأول من حضر الشيخ عَوْض ابن جَنْدَل شيخ قبيلة عرب السَّوَالمة . فهذه القبيلة تحتوي على ألف وخمس مئة بيت : رجال مجربون بالحرب والقتال ، لهم صيت عظيم بين العربان ، مهابون جداً . وشيخهم رجل كامل معدود الخاطر . فقرأنا له ورقة الشروط والرباط ، فأعجبته وأعطى كلاماً ثابتاً ووضع ختمه بها حالاً .

وحضر معه إطْعِيسَان ابن سَرَّاج ، شيخ قبيلة عرب العلما^(٢٤) ، قبيلة تحتوي على ألف وأربع مئة بيت . وهو شاب ابن أربعين سنة ، وكان حكم العربان منذ كان ابن خمس عشرة سنة ، إذ توفي والده واستلم هو القبيلة بكل تدبير وسياسة أحسن من زمن والده . وهو فهم جداً ، وعربه اسمهم العلما ، والصحيح أن هذا الاسم لائق بهم لأنهم فهمين جداً بالنظر إلى غير قبائل ، عارفين بأمور الدنيا أكثر من غيرهم ، فصحاء اللسان ، شعراء^(٢٥) .

والسبب بهذه التسمية ، على ما قيل لنا ، أنه كان لهم جد يقال له عَلْيُوي ، وكان من عرب ديرة بغداد ، فحضر عنده إنسان بدوي وقال له : يا شيخ عليوي ، حرمتي^(٢٦) فقدت من جنبي بالفراش^(٢٧) ، ولي ثلاثة أولاد صغار يكون . وصار لي الآن أربعة أيام أفتش عنها ولم أجد لها خبراً لا في الأرض ولا في السماء ، فجئت أشكي لك مصيبتني وأرجو منك أن تجد لي حرمتي ولك الأجر . / فقال له : اذهب إلى بيتك ولا تعرف امرأتك إلا مني ، فانصرف ٥٢/١

(٢٤) العَلَمَة ، من عنزة (حَمَد الجاسر ، معجم القبائل ، ص ٥٧٤) .

(٢٥) « شَعَار » .

(٢٦) زوجتي .

(٢٧) « بالفرشة » .

الرجل^(٢٨). أما الشيخ عليوي فقد كان له ولد شقي رديء الأفعال يقال له الغضبان ، لم يره منذ أربعة أيام . فحالاً شك في ابنه ، لأنه كان فهم من الرجل ، زوج الحرمة ، أنها جميلة ، ويعرف أن ابنه يحب النساء الحسان ، فتأكد عنده ذلك . فقام وركب ذلولاً وأخذ يطوف بالبراري ، فرأى من بعيد نسوراً خارجة من باب مغارة ، في كهف جبل ، ففكر أن النسور لا تجتمع إلا على الجثة . فقصده تلك المغارة ودخلها ، فوجد المرأة مذبوحة والطيور تأكل جسد ها . فدار حولها فما وجد أي أثر ، إلا أنه وجد على باب المغارة بعر ذلول صحاح غير مفروطة ، وشرابة تُخرج من شرابات تُخرج ذلول . فأخذ الشرابة وركب ورجع إلى بيته ، فوجد أن ابنه قد عاد إلى البيت أيضاً . فسأله أين كنت ؟ فقال له : كنت عند أقرائنا العرب الفلانية وكان زارهم من زمن غير بعيد . ورأى بعد ذلك الذلول^(٢٩) الذي كان راكبه الغضبان ، وكان منوخاً أي باركاً أمام البيت ليستريح . فنظر الشيخ عليوي إلى الذلول فوجده أطول من غير ذنب ، فتأكد عنده أن البعر الذي رآه على باب المغارة هو بعر هذا الذلول ، لأن كل ذلول ليس له ذنب يكون بعره صحاحاً غير مفروطة . ووجد أيضاً أن الخرج ينقصه شرابة . فوضع الشرابة التي معه فجاءت بمكانها ومن قماش رفيقاتها . فاشتد عندئذ غضبه على ابنه وقال له : يارديء الأفعال أخبرني بحقيقة^(٣٠) ما فعلت . فاصفر لون الغضبان وأقر بذنبه . فحالاً قبض^(٣١) عليه وقتله . ثم أرسل خلـف الرجل زوج الحرمة وحكى له القضية وزوجه ابنته ، وشاع هذا الخبر في كل العشائر والقبائل ، وصار للشيخ عليوي صيت عظيم على هذا الفعل والنظر الثاقب ، وصار الناس يقولون عنه أنه عالم ، ودرج هذا الاسم عليه حتى أصبح اسم عربـه العلماء ، وهذا كان السبب بهذه التسمية .

ثم قرأنا ورقة الشروط على الشيخ لإطعيسان وأفهمناه [مضمونها] ، ففرضي بتلك الشروط ووضع ختمه وقال : أنا أول من أطاع وآخر من/عصي ، لأنني معكم في كل أمر تريدونه الذي به خير العرب ، وضرب ختمه واسمه .

وكذلك حضر ثاني [يوم رجل] يقال له سطم ابن مِعْجَل ، شيخ عرب عبد الله ، قبيلته تحتوي على ألف ومائتي بيت ، فقبل كذلك بالشروط ووضع اسمه وختم بإصبعه حيث

(٢٨) «الرجل» .

(٢٩) عبارة الصائغ متقلقلة وغير واضحة المعنى . فهو يقول : «وكان ماصار له زمان وصل بعده الذلول» .

(٣٠) «اصدقني» .

(٣١) «قضب» .

ماله ختم. وأيضاً ذراك شيخ عرب الرفاشة^(٣٢)، وضع اسمه وختم بإصبعه وهو الذي كنا ذكرناه سابقاً.

ثم نزلنا في منزلة يقال لها عين الوساد بقرب نهر يقال له الشايبور^(٣٣). فكان قريب منا قبيلة من العرب يقال لها الوليدة، شيخها اسمه جندل المهدي، تحتوي على ألف وست مئة بيت، رجال مجربة بالحرب والقتال. فأرسل الدرعي يدعوه^(٣٤) عنده حتى يدخله بالرباط مثل غيره. ولكن جندلاً المذكور كان بلغه جميع ما حصل في بلاد سورية من الأمور مع العريان والدرعي والوهابي، وعارفاً بورقة الشروط والرباط، الغاية أنه كان على علم بجميع ما حدث حين وصل عنده رسول^(٣٥) الدرعي يدعوه للحضور، فقال له: ارجع إلى سيدك وقل له أن جندلاً وعريه ماهم تحت يدك، وكل هذه الأمور راجعة إلى خراب بيتك وزوالك^(٣٦) من العالم، إنك لست بقدر ابن سعود ولا تقدر على مثل هذه الأمور، فحط عقلك في رأسك وضع هؤلاء المدبرين الذين يعملون على تدبير خرابك وخراب العرب.

فعاد الرسول وتكلم بما ذكرناه. فاغتاز الدرعي ومن كان حاضراً، حتى أن سحن ابنه نهض قائماً وأرسل من ينبه العريان ليكونوا على استعداد للذهاب عند قبيلة الوليدة وضربها، وإحضار جندل أسيراً^(٣٧). فقلت له: يا سحن، كن طويل البال، إذ يظهر من الكلام الذي بعثه مع الرسول أنه ليس كلام عدو، بل كلام إنسان غير فاهم حقيقة الأمور، والذي بلغه الخبر هو من الوشاة، وليس من الأصدقاء، فخذ الأمور بالحلم^(٣٨). ويجب أن نكتب لهذا الرجل كتاباً نجلب خاطره ونعلمه نوعاً ما عن رباطنا وأنه يرجع إلى خير طائفة العرب لأنه اتحاد وليس تفرقة، ومن المعلوم أن الاتحاد قوة^(٣٩) وخير للطائفة. واعتمدنا على المكتوب. ثم في الليل قال لي الشيخ إبراهيم: ليست المهارة^(٤٠) أن تكتب له مكتوباً، ولكن

(٣٢) «الرفاشا».

(٣٣) كذا، ولعله يريد الخابور كما يظهر من سياق الحديث.

(٣٤) «يعزمه».

(٣٥) «مرسال».

(٣٦) «وذوالأنك».

(٣٧) «يسر».

(٣٨) «بالرايق».

(٣٩) «مكن».

(٤٠) «الشطارة».

المهارة أن تذهب عنده وتحضره معك وتدخل في عقله أن يكون معنا، وترفع من رأسه الوسواس والأمور غير الملائمة لنا، قلت على رأسي.

ثم ثاني [يوم] قلت للدريعي أريد منك أن ترسل معي من يوصلنا عند جندل. فتعجب من ذلك وقال لأي سبب تذهب أنت عنده؟ إن جاء من تلقاء نفسه فأهلاً وسهلاً به، وأن لم يأت فهذا السيف يحضره. فقلت له: يا سيدي، الشيء الذي يمكن عمله باللسان فقط، لأي شيء حتى نتعب حالنا ونسفك دماء رجالنا؟ فإن رضي وحضر معي انقضت المصلحة، وإن لم يطاوع، أرجع حالاً وندبر له عندئذ طريقة أخرى.

وبالحال ركبنا وأرسل معي اثنين من الخيالة وتوجهنا. وبعد ست ساعات من المسير وصلنا عنده. فسلمنا عليه وجلسنا، فما عرف الدعوى وظن أننا ضيوف عابرو الطريق، حتى تكلم رفقاؤنا وسلموا على الحاضرين ففهم أنهم من عرب الرولا^(٤١) تابعين الدريعي. فسأل رفقاؤنا عني فأجبتهم: أنا محبك والساعي في خيرك عبد الله الخطيب. فعرف عندئذ من أنا وأني جئت لاحتضاره. فقال: لولا أنك وطأت^(٤٢) المحل لكنك جعلت قتلك شهرة، ولكن لا يمكن الآن ذلك إذ ليست العادة^(٤٣) عندنا. ثم قلت له: يا أمير، الكلام لا يلصق بالإنسان، أريد أن أتكلم مع محبتك كلمتين سرّاً في ظهرك^(٤٤)، يعني خلوة، فإن رأيت أن الأمر يناسبك ويريضيك^(٤٥) كان به الخير، وإن لم يناسبك فإننا نعرف الدرب^(٤٦) الذي جئنا منه.

فقام حالاً وأخذ معه ابنه الكبير، وقمت أنا ورفقاؤنا واجتمعنا خارج البيت بالسهل، على حسب عوائدهم، كما ذكرنا سابقاً. فقلت يا جندل، أي شيء في الدنيا ترغب فيه أكثر: العبودية أم الحرية. قال: لاشك الحرية. قلت: تحب الوفاق أكثر أم الإنشقاق^(٤٧)؟ قال: الوفاق. قلت: تحب العز أكثر أم الذل؟ قال: العز. قلت: تحب الفقر أكثر أم

(٤١) كذا، أي الرولة.

(٤٢) «دَعَسْتُ».

(٤٣) «الطريقة».

(٤٤) «ظهراً».

(٤٥) «وقطع عقلك».

(٤٦) «دبر».

(٤٧) «التفخض»، وهو لاشك يريد التفخذ. أي الإنقسام إلى أفخاذ.

الغنى؟ قال: الغنى. قلت: تحب القوة^(٤٨) أم الضعف؟ قال: القوة. قلت: تحب الإنكسار^(٤٩) أم النصر؟ قال: النصر. قلت: تحب الخير/أم الشر؟ قال: الخير. قلت: ما هي الأسباب التي تجلب ذلك؟ قال: الحرية والاتحاد. قلت: من حيث أنك تعرف ذلك كيف تقول عنا أننا جواسيس^(٥٠) مفسدون نريد خراب العربان. فنحن مرادنا أن نخلصكم من أسر الوهابي ومن ظلم العثماني وخيائته، ونجعلكم أحراراً أقوياء في ذواتكم، وورقة الشروط التي سمعت بها هي لأجل اتحادكم مع بعضكم بعضاً وتقويتكم بالأكثر على أعدائكم، والخصام^(٥١) مع الوهابي كي نخلصكم من رق العبودية ونجعلكم أحراراً في أنفسكم. فما أن هذا الأمر الذي نرغب فيه فكيف تبين لك أن مرادنا خرابكم؟ قال: صحيح ولكن يا عبد الله نحن لسنا بقوة ابن سعود حتى نعاديهِ، هذا سلطان وجيوشه كثيرة. قلت: اعلم أولاً أنه إنسان مثلك، وثانياً أنه ظالم والله لا يحب الظالمين ولا يصلح عمل المفسدين، ثالثاً أنه غشيم لا يحسن تدبير ما يجب^(٥٢)، رابعاً لا تظن أن النصر يحصل بكثرة العساكر، ولكن الله يعطي النصر لمن يشاء، وكَم من جيوش قليلة كسرت جيوشاً كثيرة. فالمسألة ليست بكثرة العساكر بل بالهبة والثنام^(٥٣) إذا كان موجوداً. فإذا أرفض كامل الوسواس من بالك، وتأكد أن قصدنا خيركم ونشاطكم، وقيام عزكم وجاهكم، ورفع مجدكم وراياتكم، وإغمام سيفكم في رقاب أعدائكم، فلا تكن من الأغبياء بل من المدركين، وبالله نستعين على القوم الظالمين. وقمّت حالاً دون أن أعطيه الوقت ليرد علي، وصافحته وصافحت ولده، فسّر من ذلك ودخل في عقله وقال: جميع ما قلته يا خطيب فهو حق وصدق، فكن طيب الخاطر فكل شيء يكون وفق إرادتك.

ثم رجعنا إلى البيت وذبحوا رأس غنم وتغدينا وقضينا ذلك النهار عندهم. وما كان عملي^(٥٤) ذلك النهار والليل إلا أعظمهم^(٥٥)، حتى صاروا جميعهم بيدي مثل الخاتم. وثاني

(٤٨) «التقوي».

(٤٩) «الكسر».

(٥٠) «دواسيس».

(٥١) «ضشمنة».

(٥٢) «غشيم تدبير الواجب ماعنده».

(٥٣) «الوفق».

(٥٤) «كاري» أي صنعتي.

(٥٥) «أكرز عليهم»: أعظمهم وأكرر النصيح.

يوم ركبنا . وركب معنا جندل وتوجهنا عند الدريعي ، فدخلنا وسلمنا عليه . فتعجب المذكور والشيخ إبراهيم من ذلك . ثم أخرجنا له ورقة الشروط وقراءناها وأفهمناه رموزها ومعناها . وكذلك الدريعي أعلمه بجميع ما رأى منا من النصائح والتدابير الجيدة الراجعة إلى خير العرب . فأنشراح من ذلك وقال : إن غاية مرادي هذا الأمر ولكنني أخشى ألا نكون كفويين له فنفسل ونخرب ، ونكون نريد الخير فيحصل لنا الشر وتضحك منا الناس . فقلت يا جندل إن الله مع الضعيف كي يتعجب القوي ، إن الله مع منكسري القلوب ، الله جبار^(٥٦) الخواطر ، / كس مع الله ، الله يكون معك . ثم قال : توكلنا على الله ووضع ختمه واسمه بالورقة وأعطى كلاماً ثابتاً ، ففرحت بذلك ، وصارت ضيافة عظيمة لي ولكبار الموجودين في عربنا .

[الدخول في الحلف]

وثاني يوم توجه وراح إلى عريه ، ونحن رحلنا ونزلنا في أرض يقال لها **يخشتم الحواره** . وهناك كنا بالقرب من جبل **سِنْجار** وسكانه ، كما هو معلوم ، يعبدون الشيطان . وكنا أيضاً قبله على نهر **الساجور** ^(١) بالقرب منا [قبيلة] يقال لها **المفنفج** ^(٢) أميرها اسمه **حمود التامر** . فهؤلاء مثل عرب فعل **الخليل بن سعيّد** ، لا يرحلون مثل عرب **عنزة** ، بل إقامتهم دائماً على نهر **الساجور** ^(١) وحول جبل **سِنْجار** . وقبيلتهم كبيرة تضم نحو خمسة آلاف بيت ، جميعهم رجال حرب ^(٣) ، ينقلون التفنك أكثر من الرمح ، ويأخذ أميرهم **الخوة** ^(٤) من كامل قرى الجزيرة . وكل أهل بلاد العراق تخاف منه وتهابه جداً . فقال لي الشيخ **إبراهيم** : كيف السبيل يا ولدي حتى ندخله في جمعيتنا ؟ قلت : هذا حصتك ، واحد عليك وواحد علي . فقال : لا تتأمل مني ولو بواحد ، قم دبرّ حالك معه . فتكلمت مع **الدريعي** وتم رأينا أننا قبل كل شيء نكتب له كتاباً ظريفاً ونرى ما يكون جوابه ، فنعلم طرفاً من نواياه ^(٥) . فكتبنا له مكتوباً وكان بهذه اللفظات :

(١) كذا ، والواقع أنه يريد **الخابور** .

(٢) في مكان آخر : **المفنفج** ؟ (بالحاء بدلاً من الجيم) .

(٣) «حرباجية» .

(٤) «خوة» .

(٥) «يصير معنا رموز لنتيه» .

بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين . من الدرعي ابن شعلان إلى حمود التامر ، بعد السلام عليكم ورحمة الله لديكم ، نعلمك يا محب ، أعلمك الله بالخيرات ، أنه ربما بلغك أحوال الظالم ابن سعود الذي يستعبد العريان ويبتز أموالهم^(٦) ويقتلهم بالحروب بجرائره ، لأجل عظمتهم وغاياته الفاسدة ، حتى خرب حرم الله الشريف ، وقطع الحج المنيّف ، وكل مراده أن يكون سلطاناً^(٧) على العرب ، ويملكهم ويسودهم ويتم مقاصده بواسطتهم . فلم يزل يأخذ الجزية^(٨) ، ويجعلنا في العبودية ، ويقتل من أهل السنة . فهذا الرجل لا بد أن يصل شرار ناره إليك ، كما وصلنا إلينا وإلى غيرنا . فحين شاهدنا هذه الأفعال ، وهي ضد الطبع البشري وضد إرادة المولى ثقتي ، توكلنا على باسط الأرض ورافع السماء ، وشمّرنا عن ذيل الجدد ، وقصدنا أن نحقق^(٩) دماء إخواننا العرب المؤمنين ، وإنقاذهم من يد/هذا الظالم الغشيم . فنحن الآن لذا مهتمون وإلى جوابك منتظرون ، ونرغب أن تكون لنا معيناً ومعاداً ، والله أكبر^(١٠) على القوم المخالفين والسلام .

وسلمنا المكتوب إلى خيال خصوصي وذهب بالسلامة . وثاني يوم إذ ورد علينا المرسال من غير جواب ، وأخبرنا أن حموداً قرأ الكتاب وما أعطى جواباً ، بل قال : قم رخ عند سيدك وقل له ما عندي لكم جواب . فاغتاض الدرعي من ذلك وقال : يا عبد الله هذا الرجل لا يمكن أن يدخل معنا عن طيبة خاطر^(١١) لأنه قوي الظهر ، أولاً برجاله وثانياً بسكان جبل سنجار ، لأنهم جميعاً يلبّون نداءه . فما له عندي من دواء غير السيف ، ولذا فلنرسل له ورقة وأردّ عليه النقا . وثاني يوم كتب له ورقة بهذه اللفظات^(١٢) :

من الدرعي إلى حمود ، سبق أن أرسلنا إليك مكتوباً ولم ترد الجواب ، فبان لي من ذلك أنك تريد الخصام معنا ، فمن حيث أنك تريد ذلك فخذ حذرك^(١٣) ، مردود عليك النقا . وأرسله مع خيال ثان . وسلمه المرسال المكتوب ، فحين قرأه تغيرت ألوانه ، وحالاً

(٦) « يبلصهم » .

(٧) « يتسلطن » .

(٨) وهو يريد الزكاة .

(٩) « اكتفاف » .

(١٠) « وماذا الله وأكبر » .

(١١) « بالمليح » .

(١٢) الألفاظ .

(١٣) « خوض حضرك » .

أرسل من قبيلته رجلين كبيرين بالسن^(١٤)، أحدهما عمه وآخر غريب، وحملهما كلاماً وسارا مع خيالتنا. ثم وصلا إلينا وطلبا خلوة. فاجتمعنا خارج البيت على حسب العوائد. فقالا: يا جماعة كلما ذكرتم لنا هو حق وصحيح، ولكن حمود التامر ليس رجل حرب^(١٥) مثلكم. صحيح أنه من العرب، ولكنه مستقر لا يتزعزع وأنتم لستم عنده دائماً، ويخاف من شر الوهابي على حاله ورجاله ورزقه. فقال الدريعي: حمود، بفضل الله، قوي بقوة الله ورجاله. وهو لا يحسب حساباً لغزو ابن السعود. فالوهابي لا يحضر بنفسه بل يجيء من طرفه غزو فقط. وأكثر ما يكون خمسة آلاف. وعلى ظني أن حموداً لا يأكل^(١٦) همها. وإن شاء الله أتى سأقطع أخبار غزو الوهابي من هذه الديرة. فأنا وكامل من يلوذ بي من العرب معه على الخير والشر حتى الموت. ولكن إن خالف فأنا وجميع من اتحد معي خصومه إلى الأبد. فليطلع عند عبادين الشيطان ويلوذ بهم^(١٧)، ويستعين بكل الشياطين، وأنا بعون الله ٥٥/١ انتصر عليه وسوف يندم على ذلك.

فبعد كلام كثير، من الدريعي بالتهديد، ومنا باللين، قالوا: نحن ليس معنا تفويض بإعطاء جواب، يجب أن نخبر حموداً بجميع ما ذكرتم، وهو يفعل ما يستحسنه. وبالحال ركبوا ورجعوا عند حمود وكلموه بجميع ما سمعوه. فخاف من ذلك وحسب حساباً كبيراً للدريعي، ثم أرسل ابن أخيه، وهو شاب متكلم يقال له صقر، وبصحبه عشرة خيالة، كي يدعونا للذهاب عنده. فوصل المذكور واستقبلناه بكل إكرام، فدعى الدريعي ومن يلوذ به وكل الكبار الموجودين في القبيلة إلى ضيافة عمه الأمير حمود التامر. فركب الدريعي وأولاده وكل الكبار والشيخ إبراهيم والفقيه، وركب معنا ثلاث مئة^(١٨) خيال وتوجهنا عند المذكور. فركب هو وكبار قبيلته ولاقونا من نحو نصف ساعة، وصار لعب خيل وفرج.

ثم نزلنا عن الخيل فعملوا^(١٩) معنا كل معروف وإكرام وذبحوا ثلاثين رأس غنم وخمسة جمال وابتدأوا يُعدون المآكل. وجلسنا نحن وسلمنا على حمود التامر، وهو رجل ذو حسن

(١٤) «اختيارية».

(١٥) «نزال».

(١٦) «يهكل».

(١٧) «يُحاصر عند عبادين الشيطان».

(١٨) بالأصل خمس مئة ثم أبدلها الصائغ بثلاث مئة.

(١٩) «فساقو».

وشجاعة ومعرفة جيدة . فاختلينا مع المذكور وصرنا نتفاوض ونتكلم كثيراً . ففهمنا نيته وهو أنه يريد هذا الأمر ، ولكنه يخاف من تقلبات العرب . فهو يقول : إن العرب ليس لهم رباط ثابت ، وأخاف أن تتغير نواياهم ويفسد الرباط ، فأولاً يكون نصيبنا الخجل ، وثانياً يشتد علينا من جديد ساعد العثماني والوهابي وتحرقنا نارهم . فأكدنا له أن هذا الشيء لا يحصل لأننا عملنا رباطاً عظيماً ، بالشروط الواجبة ، وسوف يطلع^(٢٠) عليها ويرى أن الرباط متين ، لا يستطيع أحد أن يخون من جميع الذين يدخلون معنا على هذا الرأي . فوثق^(٢١) بهذا الكلام وأعطى القول إنه سيحضر عندنا ويسمع [ما هو مكتوب] بالورقة ويضع ختمه عليها .

فقمنا من الخلوة مسرورين كافة ، وكان حضر طعام الغداء فوضعه بالسهل ، أمام البيت ، في خمسة مناسف من النحاس ، كل واحد منها يستطيع أن يجلس فيه أربعة أنفار ، عليه من الأرز بعلو نحو ذراعين ، وفوقه خاروف محشي . ولكل منسف أربع آذان من نحاس . وحين وُضع على السفرة^(٢٢) حملة أربعة عبيد . والشخص الذي يكون أمامك على السفرة لا يراك ولا تراه/ من علو الأرز وكثرته ، لأن الأرز عندهم كثير وهم يستوردونه من مرعش وملطية حيث ينتج بكثرة . وخبزهم من الحنطة ممتاز ، ويستوردون حنطتهم من بلاد الرها ، لأن الحبوب تطلع كثيراً في بلاد الرها أعني ديار بكر وغيرها .

ثم بعد الغداء وكان قرب المساء ، ابتدأت الطروش بالإياب ، من جمال ونوق وغنم وجواميس^(٢٣) وخيل ، وأشياء لا توصف . فيطلع عندهم سمن وصوف وجمال يبيعون [منها] إلى بلاد الرها بمبالغ عظيمة . وأما نساؤهم فجميلات جداً ، ولباسهن أفخر من ملابس عرب عنزة : في أيديهن أساور فضة وحبال مرجان وحبال كهرا^(٢٤) وفي أذانهن أحلاق فضة أو ذهب ، وفي أنوفهن خزام^(٢٥) من ذهب أو فضة أو نحاس ، [ويلبسن] القنابيز من القطن والحريز^(٢٦) . وكذلك لباس الرجال أحسن من لباس عرب عنزة . وكل ذلك من الخيرات التي تطلع عندهم .

(٢٠) «سوف تسمعهم» .

(٢١) «متأمن» .

(٢٢) «الصفراء» .

(٢٣) «جاموس» .

(٢٤) «كاربا» .

(٢٥) «خدامات» .

(٢٦) «قنابيل قطني حرير» .

وقبل المغرب ركبنا من عنده، وأعطانا كلاماً أنه بالغد سيحضر إلى عندنا. ولما كان الغد قبل الظهر حضر حمود عندنا وبصحته ابن أخيه صقر الذي أتينا على ذكره، وابنه وولده الذي يبلغ عمره سبع عشرة سنة اسمه تامر، ونحو عشر رجال مستين من خواص قبيلته، ونحو مائة خيال لا غير. فترحبنا بهم، وبعد شرب^(٢٧) القهوة عملنا خلوة وقرأنا له الورقة وأفهمناه معناها جيداً. وصار تفاوض وكلام كثير ورضي بجميع محتوياتها، وأعطى كلاماً ثابتاً ووضع ختمه واسمه على تلك الورقة، وصار فرح عظيم واتحاد ومحبة شديدة. وبعد الغداء، قبل المغرب، ركب وتوجه إلى بيته.

ومن هناك رحلنا ونزلنا بقرب نهر ()^(٢٨)، وهو نهر عظيم، وعليه دائماً أناس بالفلائك ليقطع النهر من يريد بالاجرة. فبعد وصولنا بيوم، حضر واحد بدوي من نواحي بلاد نجد على هجين. وقد جاء خصوصياً من عند أمير يقال له علي ابن آغود وقبيلته يقال لها الحُرصة^(٢٩). وبصحته مكتوب من المذكور إلى الدريعي، لأنه صديقه الحميم. فقرأنا المكتوب وكان بهذه اللفظات:

السلام من علي ابن آغود إلى الدريعي ابن شعلان. والثاني الذي بعلمك، أعلمك ٥٦/١
الله علوم الخير ياوجه الخير، نعرفك أن/نهار أمس حضر طروش من ناحية الدُرعية^(٣٠) وأخبرونا أن ابن سعود زعلان كثيراً منك بسبب الأفعال التي تفعلها ضده. وجميع ماعملته صار معلوماً عنده، وقد فهم أن حكاية الرباط والشروط الذي فيه موجهة ضده، والآن قد عزم على أن يكون ضدك وينفي ذكرك وذكر من يتحد معك من على وجه الأرض. وقد أوعز إلى كاخيته^(٣١) ومعه عبد الله الهدال بذلك، وأمر كافة العريان أن يكونوا تحت طاعته لأجل خرابك وخراب من يرتبط معك. وقد ابتدأ الآن عبد الله الهدال يأخذ التدابير اللازمة لذلك، وكل بلاد الدرية ونجد متقلقلة من ذلك، وتريد كسر شأنك وتنكيس أعلامك، لأن ابن سعود وكامل العريان فهموا جيداً أن هذا التدبير والرباط مع

(٢٧) «شرف»، ولعله من خطأ النسخ.

(٢٨) بياض في الأصل، ويذكر الصائغ بعد قليل اسم هذا النهر فيقول الساجور، والواقع أن الساجور يصب في الفرات قرب جرابلس، إنما يريد الحابور.

(٢٩) «الخرسا»، والخرصة من الفدعان من عتزة.

(٣٠) «الضرعية».

(٣١) كُدْخدار أو كاخيا كلمة تركية تشير إلى موظف كبير يعتمد عليه القائم بالأمر في المهمات.

العثماني^(٣٢) لأجل خراب دولة الوهابي ، وامتلاك مكة والمدينة وإرجاع الحج كما كان سابقاً . فالرأي عندي أن ترفع من ذهرك جميع هذه الأمور الصعبة وتتجنب عمل الشيطان وتضع في رأسك عقل الرحمن ، وتميل إلى أبناء جنسك الذين لا يمكن أن يغشوك أو يخونوك ، وبذلك تكسب حالك ورجالك ومالك ، لأن ابن سعود سيفه طويل وماله كثير وجيوشه طوابير^(٣٣) ، ولا يمكنك قتاله بل تخرب حالك بيدك وتندم حيث لا يعود يفيدك الندم . وأنا ناصحك من باب المحبة والصحبة وحق^(٣٤) الخبز والملح . وقد أندرته بجميع ما حصل فافعل ما به خلاصك ولا تكن عنيداً والسلام .

ولما قرأت ذلك قال الدريعي : فشر ، الله أكبر عليه ، الله يدبر كل أمر^(٣٥) عسير . وقال الشيخ إبراهيم : لقد ظن المغفل^(٣٦) الوهابي أننا ننوي خرابه من طرف العثماني ، فهو غلطان جداً ، وأنا لا أريد أن يكون العثماني أقوى منه ولا أن يقوى هو على العثماني ، وكل مقصدي أن لا تكون يد أعلى علينا لا من هذا ولا من هذا ، حتى إذا أردنا أن نفعل أمراً في برنتنا لا يستطيع أحد أن يمنعنا عنه .

ثم قال الدريعي : اكتب يا عبد الله لعل ابن عواد جواب مكتوبه بحسن معرفتك ، ٥٦/٢ ولكن إياك أن تظهر له باب الدل ، ولكن ليفهم أننا لسنا من طرف العثماني/بل نريد أن لا نكون تحت امره . فأخذت [ورقة] وكتبت له مكتوباً بهذه اللفظات :

من الدريعي ابن شعلان إلى علي ابن عواد ، وصل كتابكم وفهمنا خطابكم ، فبخصوص ما ذكرتم لنا عن ابن سعود ، فهذا وحق رب السموات والأرض لا أحسب له حساباً بثقل حبة خردل ، فليقدم على أكثر ما عنده ، والله أكبر من كل كبير ، وإن شاء الله سوف يرى ما يحل به من سطوة مولانا السلطان^(٣٧) ، نصره المالك الرحمن ، وما سيجرى عليه وعلى بلاده ، هذا الظالم الغاشم الذي يريد أن يستعبد العربان ، ويملكهم تحت يده ، ويجري أوامره وغاياته عليهم ، وذلك راجع إلى خرابه وخراب كافة عربان ديرته والسلام .

(٣٢) «الرباطات من العثماني» .

(٣٣) فيالق .

(٣٤) «حقيقة» .

(٣٥) «أمراً» .

(٣٦) «التيس» .

(٣٧) ما كتبه الصائغ يخالف الأوامر الصادرة من الدريعي .

وأعطينا الكتاب إلى المرسال (٣٨). وسألناه من كم يوم خرجت من عند علي؟ قال: من ستة أيام. وكان راكباً هجيناً خمساوياً (٣٩)، فتكون الحملة ثلاثين نهراً. ثم ركب وتوجه. وبعد ذهابه قال لي الدريعي: أني تعجبت منك كيف ذكرت في مكتوب علي سوف ترى ما يحل بك من سطوة السلطان، وأظهرت كما لو أننا صحيحاً من طرف العثماني بهذا الشغل. قلت: نعم وهذا هو التدبير الواجب، دَعُهُ يظن أننا من أتباع العثماني، فيدخل عليه بالأكثر الخوف والوهم بهذه الطريقة. وكذلك إن أتانا مكتوب من العثماني بهذا المعنى، نظهر حالنا من طرف الوهابي، ونقطع قلوبهم من سطوة الواحد على الآخر، ونحن نستريح ونفعل ما نريد: هذا هو عين السياسة الصالحة لنا. ففرح من ذلك.

ثم رحلنا ثاني يوم وقطعنا نهراً يقال له الساجور (٤٠). فوجدنا هناك أناساً تقطع النهر بالفلاتك لأنه نهر عظيم كبير وشاطئه كله رمل ومن الصعب جداً قطعه على ظهور الخيل إذ تغرز فيه رجل الدابة. فهذا النهر يقطع الجزيرة بالنصف، ومواصل من الفرات إلى الدجلة (٤١). ونزلنا على طرف النهر المذكور. وكان بالقرب منا قبيلة يقال لها الشرارات. أميرها اسمه عابد ابن أصبَّيح. فهذه القبيلة تحتوي على ألفين وثلاث مئة بيت، رجالها أهل حرب / ٥٧/١ ولكنهم عنيدون جداً وغشماء نوعاً ما، ونساء هذه القبيلة أفهم من رجالها. ثم كتب الدريعي مكتوب سلام ومحبة إلى أميرها ودعاه لكي يحضر عندنا. فلما وصل المرسال [وقرأ الرسالة] غضب ومزق المكتوب وقال: أنا عارف بجميع هذه الخيل (٤٢). قم وعد عند سيدك وقل له ما من جدوى، والله العظيم، إنه لن يراني في اتحادهم، ولن يرى اسمي وختمي ولو فنيئت أنا وكل عربي ومن يلوذ بي من القبائل والعشائر. فرجع المرسال وتكلم بجميع ما ذكرنا. فقال الدريعي: إني على علم تماماً أنه سيحصل مثل هذه الأمور، أولاً لأن قبيلة الشرارات مشهورة بالغشم والجبن، ثانياً لأنه توجد صداقة عظيمة بين عابد وعبد الله الهدال، كاخيا ابن السعود، وهو المسؤول لدى المذكور عن خرابنا. قلت: هذا رأي جيد، ولكن كيف عرف عابد بهذه الأمور، ومن أين له أن يعلم أن الوهابي قد اسند إلى عبد الله الهدال أمر مضادتنا؟

(٣٨) المرسال أو الرسول.

(٣٩) الهجين الخمساوي يقطع في اليوم المسافة التي تُقطع عادة في خمسة أيام.

(٤٠) يرید الخابور.

(٤١) الواقع أن الخابور يصب مياهه في الفرات آتياً من نواحي الدجلة.

(٤٢) «الملاعيب».

قال : الذي أتى بمكتوب علي ابن عواد وأخذ جوابه قد يكون مرّ عليه أثناء مسيره من عندنا ، وحكى له جميع الواقع . ففحصنا عن ذلك ووجدنا أنه بالواقع مرّ به ، وأن ظنّ الدريعي بمحله . فقلت : وما يستحسن عمله الآن ؟ قال : هذا السيف يفصل بيننا وبينه ، والله أكبر عليه (٤٣) .

ثم ثاني يوم ركب سحن بنحو خمس مئة خيال فقط وسار إلى غزو قبيلة عابد كي ٥٧/٢ ينهب طرشها كما هي عادتهم دائماً . فغاب عنا/ثلاثة أيام وعاد اليوم الرابع وقد كسب مئة وأربعين جملًا ورأس خيل عظيمة . وحكى لنا أنه حين أغار على الطرش وصل الخبر إلى البيوت . فركبت عرب الشرارات ولحقت بهم ، فوقعت حرب شديدة بينهم . فقتل من عربنا أربعة أنفار فقط ، ومن عرب الشرارات كذلك ، وأما المجرحون (٤٤) من الفريقين فكثر من ألف . والسبب في وقوع قليل من القتلى أنهم يتحاربون بالرمح فتكثر الجرحى . ومن جملة خيالتنا الذين كانوا مع سحن واحد يقال له صبيهي ، شاب عظيم من أقرباء زوجة سحن . فعادوا به محمولاً ، وكان به تسعة جروحات كبيرة بالغة بالسيوف وضربت بالرمح خارقة من الخاصرة إلى الأخرى وفي رأسه ضرب كناية كسرت رأسه . فالكناية هي عصا رأسها مكمل بقدر الرمانة ، مضروب بها مسامير من الحديد . وأحد الرماح لم يزل مشكوكاً فيه مثل قرية اللحم ، فوضعه على الأرض ولا يمكن أن يميّز المكان المجرّح من السليم إذ كان مثل بركة دم . فأتوا حالاً ونشروا طرف الرمح من الجانب الواحد عند خاصرته وسحبوه من الطرف الثاني . وبينما هم على هذه الحال إذ رفع أجفانه فرآني واقفاً فوق رأسه فقال : لا تخف علي يا عبد الله تراني بعون الله سالماً (٤٥) . أعطني غليونك حتى أدخن (٤٦) التوتون . ومد يده وأخذ الغليون وصار يدخن كأنه في غاية الصحة وكأنه لم يحدث له أمر . فتعجبنا منه نحن وكل من كان حاضراً ، وبعد عشرين يوماً شفي وعاد إلى ركوب الخيل أحسن مما كان سابقاً . وكل المداواة (٤٧) كانت قلة شرب الماء ، لأنه يشرب عوضاً عن الماء حليب الجمال والسمن الطرى ، وأكله دائماً التمر بالسمن مع قليل من الخبز . وكل ثلاثة أيام تغسل جروحاته ببول الجمال . وعلى تلك الحكمة

(٤٣) « الله وأكبر » .

(٤٤) « المجرّح » .

(٤٥) « طيب » .

(٤٦) « اشرب » .

(٤٧) « حكمته » .

شفي ورجع كما كان أولاً بل أحسن . فتعجب الشيخ إبراهيم وقال : لا يمكن أن يلتقي بباريس جراح^(٤٨) يشفي مثل هذا الإنسان بعشرين يوماً .

ثم تمت العداوة وكثرت بيننا وبين عابد ، وصار يجمع العربان الذين هم تحت قيادته ، وحميت المادة جداً بين الطرفين . ثم رحلنا ونزلنا في أرض يقال لها الكافرية ، أرض رمل ما فيها ماء إلا من نهر الخابور^(٤٩) الذي كان بعيداً عنا نحو ساعتين من الزمن ، فجميع المواشي ترد للشرب كل يوم بعد طلوع الشمس حتى تسرح في المرعى . وجميع ما يلزم من الماء للخيل والبيوت تنقلها النساء على ظهور الجمال بالروايا . وفي كل بيت يوجد راوية ، وفي بيوت الكبراء راويتان وثلاث روايا لأجل جلب الماء ، إذ كانوا في مكان ، وكان الماء بعيداً عنهم . وجميع الروايا كبار من جلود الجمال .

فبعد ثلاثة أيام من نزولنا في هذا المكان ، إذ رمت الرعيان الصوت على العرب ، وقامت الصيحة والضجة بالنزل . وكان السبب أن عرب الشرارات أغارت على الطرش ، وهو يشرب ، وأخذت منه عدداً عظيماً نحو ثمان مئة جمل . فركبت الخيل وسحن معهم وطلبوا أثر العدو ، فوصلوا إلى النهر فما وجدوا أحداً لأنهم كانوا قطعوا وراحوا وأبعدوا كثيراً . لأن النهر ، كما ذكرنا ، يبعد ساعتين [عن النزل] ، فاقتضى لجمي الرعيان وأخبارهم بالغزو ساعتان ، ونحو ساعة لركوب العرب وجمعهم ، ونحو ساعة ركض إلى أن وصلوا إلى النهر فصار المجموع نحو أربع ساعات . ومن المعلوم أن الذين أخذوا الطرش أصبحوا بعيدين جداً فلا يمكن طلبهم كلياً . فحالاً نبه الدريعي بالرحيل والمشي بكامل العربان والبيوت على عرب الشرارات . فرحلنا نحن وقبائل الذين كانوا بالقرب منا من الأصحاب . وكان عددنا نحو عشرة آلاف بيت فجدينا بالسير كل ذلك النهار والليل ، وأصبحنا الصباح أمام نزل الشرارات . فنزلنا بعيداً عنهم نحو نصف ساعة . وكان عرب الشرارات ومن معهم من غير قبائل نحو ستة آلاف بيت أيضاً^(٥٠) .

وبعد طلوع الشمس أرسل الدريعي رسولا^(٥١) إلى عابد يقول له : يا عابد ، كن

(٤٨) « جريحاتي » .

(٤٩) « الساجور » .

(٥٠) كذا ، مع أنه سبق القول أن عدد بيوت الدريعي نحو عشرة آلاف .

(٥١) « مرسال » .

آدمياً خيراً لك من العناد، وأرجع بالرضى^(٥٢) ما أخذت من الطرش واكسب حالك ورجالك. وإن عانددت حسب طبعك، لا تسأل عما سيجري عليك، لا أرحل من أمامك حتى لا يبقى منكم من يخبر عنكم. ونحن قد أنذرناك فافعل لخلاصك. فراح الرسول وعاد بالجواب: يقول عابد ارجع له الفرسين^(٥٣) والجمال التي أخذها منه سحن ذلك اليوم وهو ٥٨/٢ يرجع لكم ما أخذ منكم، وأما^(٥٤) لا تتأمل بصحبته معك كما في عقلك. /

فقلت للدريعي: أصبح أن هؤلاء الناس جنباء؟ فقال: إنهم ليسوا فقط جنباء ولكن أحوالهم ومزايهم عجيبة، فهم أولاً ينقادون لنسائهم، في جميع أمورهم، ويراجعونهم بالشور في كل مادة يريدون أن يفعلوها، وهذا كان عندنا معلوماً، فمن جملة أطباع العربان ومزايهم تكريم الحريم، وعمل الواجب لمن، وأخذ الشور منهن في جميع أفعالهم، ولكن هذه القبيلة بزيادة عن غيرها، وخصوصاً شيخها عابد فهو لا يعمل شيئاً من غير أمر حرمة لأن أولاً هذا طبع خاص بالعرب كما ذكرنا، ثانياً أنه يحبها بزيادة عن العادة، ثالثاً أنها صاحبة عقل وتدبير جيد. فجميع ذلك صار عندنا معلوماً وفكرنا أنه ليس لدينا عندهم مدخل إلا من طرف النساء^(٥٥).

فحين فهمنا ذلك قال الشيخ إبراهيم: عرفت من أين يمكن الدخول على هذا القوم. قلت: نعم من باب النساء. قال: دبر حالك. فتكلمت عندئذ مع الدريعي وقلت له: استرح أنت وعليّ قضاء هذا الغرض وإدخال هذا الرجل في اتحادنا. لأن الحرب لا يحصل منها إلا الخسارة، وقتل الرجال، وتبديد المال، وزيادة العداوة، وسفك الدماء، وشماتة الأعداء. وأما أنا فمتحسّن عندي أن أصل عندهم وأكلهمم بالذي يلهمني به الله. والرجاء بالله أن يحصل المطلوب ونكون بذلك وقرنا الرجال والتعب. وإن أنا لم أقدر على ذلك يكون عندك الوقت لتعمل ما تريده. ولم يسمح لي بذلك إلا من بعد جهد. فحالاً أخذت معي هدايا من كهربا ومرجان وأساور زجاج وعبي سود وشمالات حرير سود وقمصان قز حر: أشياء بقيمة ألف غرش وتوجهت إلى طرفهم. فدخلت البيت فما وجدت عابداً

(٥٢) «بالمليح».

(٥٣) «رأسين الخيل».

(٥٤) كذا، والمعنى غير واضح. فهل يريد «ولاً» كما يتبادر إلى الذهن أو يريد: «ولكن» فيستقيم المعنى.

(٥٥) في المخطوطة إشارة إلى أن هذا المقطع الذي بين خطين //، المدرج ص ٥٧/١، يجب أن يؤخر ليوضع

ص ٥٨/٢.

فأخبروني أنه مجتمع مع المشايخ وأكابر القبيلة في بيت صهره زوج ابنته . فدخلت حالاً عند الحرم وسلمت عليهن^(٥٦) سلاماً عظيماً طويلاً عريضاً كأنني أعرفهن منذ عشرين سنة . فرحبن بي واستقبلنني بإكرام . وحالاً أمرت زوجة عابد بذبيحة وابتدأن يعملن لي غداء ، فجلست عندهن وابتدأنا نتحدث عن أمور العربان من غير أن نفتتح السيرة التي جئت أنا بسببها . وكان بلغ عابداً خبر حضوري فأرسل حالاً رسولا^(٥٧) إلى امرأته يقول لها اطردي هذا الضيف الذي جاء الآن عندك فهذا خطيب^(٥٨) الدرعي عبد الله ، أتى خصوصاً حتى يفسد قبيلتنا ويخرب نظامنا . وإن جئت إلى البيت ورأيتَه فما له عندي من دواء إلا التقطيع بهذا السيف . فقالت للمرسل : رخ وقل لسيدك عابد الضيف الذي جاء لم يأت عندك بل جاء عندي مخصصاً ، وهو ضيفي فإن كان يستطيع أن يأتي ويقتله فهو حاضر في بيتي ، وكان اسمها اركية . فحين سمعت ذلك نهضت قائماً وقلت والله إني لا أبقي/قاعدأعندك ، فأنا جئت من غير إذن الدرعي مخصصاً إلى عندك حتى أتشرف بمعرفتكَ . فإن كان بين عابد والدرعي بعض الأمور ، فأنا لا يعلق بي منها شيء ولست ملزوماً أن أتكلّم بها ولو كلمة واحدة . ثم أخرجت بسرعة جميع ما كان معي من الهدايا ووضعتها أمامها وقلت : أرجو منك أن تقبلي مني هذه الهدية الدنية ، إذ جئتُ بها على اسمك ولا يجب أن أرجعها معي ، ولو أن زوجك كسر بخاطري ويريد أن يقتلني ، مع أن ذلك على علمي ضد رسوم العرب ، ولكن إكراماً لخاطرك ساحتَه ، الله يساعذك على عقله ، لأنّي فهمت خلال هذه الساعة التي قضيتها عندهم ، أن لولا حضرتك لكانت هذه القبيلة^(٥٩) عدمت ، ولكن من ذكاء عقلك وحسن معرفتك وتدبيرك الجيد جعل هذه العشيرة^(٦٠) بخير وعز وجهه ورفعها على كل قبائل عنزة ، أسأل الله عز وجل أن لا ينقصك عنها ، ولا يميلك عن رأسها ، ويكون عمرك طويلاً ، وينصرك على من يعاديك ، لأنك بالحقيقة جوهرة ثمينة ضائعة بين هؤلاء الناس . وركضت بسرعة كي أركب وأروح . فوثبت^(٦١) وأمسكت بيدي وحلفت بالله قائلة لأدعك تخطو خطوة من هنا إلا بعد أن تكون رضىت عنا وراق خاطرك على عابد . فكن صافي البال

(٥٦) «عليهن» ، وكذلك في ماسياقي من الكلام عن النساء يستعمل الصائغ الجمع المذكّر السالم .

(٥٧) «مرسال» .

(٥٨) كاتب ، على اصطلاح أهل البادية .

(٥٩) يستعمل الصائغ القبيلة بمعنى العشيرة ولا يميز بين العشائر والقبائل .

(٦٠) «فغارث» ، يريد هَجَمَتْ .

ولا تضع في عقلك أدنى شيء من كلام عابد، فَشَرَّ^(٦١) فهو يحكي كثيراً بغير معنى، وحياة الله العزيز لا أدعك تذهب من عندي إلا راضياً بكل ما تريد. ثم أدخلتني البيت وأعدت القهوة فشربناها. وهي لم تنزل تتلطف بخاطري وتروق خلقي. فقلت: يا أركية، الله يساعد زوجك على أيامه، لأنه لا يعرف الخير من الشر مهما كان. فظنّ أنني جئت لأصلح والحال لو أن الدريعي عرف أنني جئت عندهم كان تكدر مني كثيراً، لأنه لا يريد الصلح معكم ولا يستطيع أحد أن يكلمه بهذا الخصوص. ولو كان الأمر بيدي لعقدت الصلح، إذ يقول المثل الصلح سيد الأحكام، ولا ينتج عن العداوة إلا خسارة المال والرجال وكثرة الأعداء ٥٩/٢ وازدياد الخصام وشماتة العدو. /

وبينا نحن بهذا الكلام إذ أقبل علينا عابد، فما دخل البيت بل وقف خارجه وقال لولا أنك دخلت بيتي لكنت قتلتك يا جاسوس الشر. فردّت عليه زوجته قائلة: كذبت يا رجل فيما تقول. ثم خرجت عنده وكلمته وجرتّه من يده وأدخلته عندي، فجلسنا للحديث فقلت له: يا أمير، ليس معي إذن بأن أتكلم معكم بخصوص الأمور الواقعة، بل أنني جئت فقط حتى أكسب صحبتكم وأشرف بمعرفتكم، لأن الصحبة والمعرفة بالناس شيء مشكور بالدنيا. ولكن بما أنك فتحت هذه السيرة فعرفني بذنبي الذي تريد أن تقتلني به. قال: ذنبك أنك تعمل على تدبير الدريعي لتجعل العربان تحت حكمه حتى يستكبر عليهم ويستعبدهم أكثر من الوهابي، وأنت مزعم^(٦٢) على أن ترمي العداوة بيننا وبين الوهابي حتى تحربنا دون شك^(٦٣)، وعلى الخصوص الورقة التي عملتها رباطاً حتى نبقي جميعنا في طاعة الدريعي يفعل بنا كما يريد. فقلت له: يا أمير عابد، الكلام الكثير لا يُستحلّ. هل وصل إلى مسامعك أنني أعمل على بث العداوة بين القبائل أم على صلحها؟ هل أريد إنقسامها أم اتحادها؟ هل أرغب في حرّيتها أم في استعبادها؟ عرفني ماذا ينتج عن الصلح؟ الاتحاد والحرية خير أم شر؟ فسكت فقالت له امرأته: علام سكت^(٦٤)؟ ردّ الجواب على عبد الله. قال: ينتج عن ذلك الخير. قلت: بما أنك تعرف أن النتيجة خير فكيف تسميني جاسوس الشر؟ فاختر الشيطان من بالك وسم بالرحمن، واعلم أن الذي مراده صلحك مراده خيرك،

(٦١) تبجح.

(٦٢) مزعم.

(٦٣) ولا بد.

(٦٤) علامك اسكة.

والذي مراده عداوتك مراده شرك . وصحيح أني عملت ورقة لأجل اتحادكم مع بعضكم بعضاً ، كي تصيروا أقوياء من قوة بعضكم وتخلصوا من عبودية الوهابي وبلصه لكم في كل سنة . وأنا كما سبق القول ليس معي إذن لأتكلم معك بهذا الخصوص ، والدريعي ليس له خاطر بالصلح كلياً . والآن ولو أردت أنت أن تذهب معي لما استطعت أن آخذك ، بل علي أن أذهب أولاً لإرضاء خاطره ثم أرسل من يحضرك ، لأن جميع عربان الدريعي متأملين الكسب من عربك ، لأنهم أكثر عدداً منكم وسيحضر بعد قليل قبائل تابعة للمذكور ٦٠/١ لا يعلم عددها إلا الذي خلقها . /

ومن بعد كلام كثير دخلت اركية إلى الداخل^(٦٥) وصرخت على عابد وتكلمت معه . ثم خرجا وأتيا عندي وقال لي عابد : افعل ما ترى فيه خيراً ، إذ تأكدت من اركية أن الصلح أنسب لنا ، وأنت تريد خيرنا وراحتنا واتحادنا^(٦٦) فاذهب ودبر هذا الأمر بمعرفتك مع الدريعي ، وأرسل لي رسولاً كي أحضر عندهم . فبعد الغداء ركبت ورجعت وتكلمت مع المذكور عن الرباط الذي صار بيني وبين عابد . فأرسل حالاً رسولاً يدعوه عنده . وبعد قليل حضر عابد وبصحبه ابنه وصهره ونحو خمسين خيلاً فقط . فترحبنا بهم وعملنا لهم غاية الإكرام وصار كلام كثير ومن بعد ذلك وضع ختمه واسمه بورقة الشروط وتوجه عند أهله وأرسل جميع الجمال التي أخذها من على النهر ونحن أرجعنا لهم جمالهم ورأسي الخيل وصار صلح عظيم .

(٦٥) « إلى جواء » ، وما أن الاجتماع كان داخل الخيمة فالصائغ يعني القسم الداخلي من البيت الخاص بالنساء .

(٦٦) « اعتصابنا » أي أن نكون عصبة واحدة .

[من قصص البادية]

ثم بعد يومين رحلنا ونزلنا بأرض يقال لها العاطرية، والسبب لهذا الاسم، على ما أخبرنا العرب، أن بعيداً عنا نحو ساعة قلعة قديمة اسمها العاطرة، وكان بيننا وبين الدجلة نحو ثلاث ساعات، [وفيها] مرعى ومياه كثيرة. فأقمنا ثمانية أيام في ذلك المحل ثم رحلنا وتوجهنا نحو الشرق، وبيننا نحن في الطريق إذ حضر واحد من البدو راكباً على ذلول أملح يعني أسود. فسلم على الدريعي وسلم جميعهم عليه سلاماً طويلاً عريضاً بشوق واستمالة عظيمة، وخذوا يسألونه عن أحواله وعن الغرض الذي كان ذهب لأجله العام الماضي، فحدثهم بذلك، ونحن فيما بعد سألناه عن قصته فأخبرنا بها، وهي حكاية غريبة كما سنوضحه لمسامعكم الكريمة.

حكى أن هذا الرجل^(١)، واسمه علوان، كان يدور [في البرية] ذات يوم [سعيًا وراء] الصيد. فبينما هو دائر مرّ بأرض وجد بها أثر حرب، من قتلى^(٢) وأدمية وأرماع مكسورة وسيوف مرمية، الغاية إثر حادث جديد. فصار يدور بين القتلى فوجد شاباً فيه رمق من الحياة، وهو يئن. فنزل حالاً وأركبه على الذلول وأخذه إلى بيته^(٣) وأبتدأ يعالجه ويدأويه

(١) «الراجل».

(٢) ليس من عادة البدو إبقاء القتلى في البرية لتأكلها وحوش الفلاة.

(٣) ابتداء الكراسية نمرة ٨.

ويطيبه^(٤) ويخدمه ويعلله مدة ثلاثة أشهر ، حتى شفي واستراح [والتأمت] جميع جروحهم ورجع كما كان بل أحسن . فقال له علوان : يا أخي فارس — وهذا اسم الشخص^(٥) — أنت والله الحمد استرحت ، فإن شاء خاطرك ذهبت بك عند أهلك . وإن شاء خاطرك تبقى عندي ، فأنا أخوك وزوجتي هذه امرأة أخيك ، والبيت بيتك ، أنت صاحب البيت وأنا ضيف عندك . فقال له فارس : أنت أخي ولولاك كانت بليت عظامي من زمان وأكلت لحمي الوحوش . فأين أستطيع أن أجده أهلاً أحسن منكم ، أنا لا أفارقكم مادام في جسمي روح^(٦) . فانشرح علوان من هذا الكلام ، وزادت عنده قيمة فارس ، وسلمه البيت وتديروه . وما كان هذا الكلام من فارس وسبب بقاءه عند علوان إلا حباً بامرأة علوان ، وكان اسمها حفظة إذ عشقها وعشيقته وغاصا بالحب لبعضهما ، وليس عند علوان شبهة ولا شك في فارس ولا يمكن قط أن يفكر بشي من هذا القبيل حتى [بان له الصحيح وذلك أنهم] في ذات يوم أزمعوا على الرحيل على حسب عوائدهم . فركب علوان من الصبح على ذلوله وتوجه للصيد وقال لفارس : ارحل يا أخي مع الناس ، وأنا على معرفة بالمنزل الذي سترحلون إليه ، والمساء أكون عندهم . أما فارس فإنه كان على اتفاق مع زوجة علوان للهرب معاً ، فرأى أن ذلك اليوم مناسب للهزيمة . فما كان كسلان وأرسل الطرش مع الطروش وحمل الخوارج والبيت ، وأرسل بهم مع غير ظعون . وكذلك فعل مع العجوز أم علوان أركبها ووضع ولدي علوان معها وهما صبي و بنت . أما هو وامرأة علوان فأخّر حالهما إلى آخر كل الناس فركب هو فرساً وزوجة علوان فرساً آخر وفرّا هارين بكل سرعة طالبين عرب فارس . وأما العجوز أم علوان ، فإنها التفتت فلم تر أحداً وراءها فظنت أنهما مع العرب ماشيين . ولم يزل الناس سائرين حتى وصلوا إلى النزل المقصود . فنزلت العجوز مع الأولاد وانتظرتهم إلى المساء فلم يحضر أحد . فساورتها المخاوف ولم تنصب البيت لأنها لا تستطيع ذلك وحدها ، إلى أن غابت الشمس وهجم الليل وإذ حضر علوان من الصيد فرأى أمه وأولاده وحدهم/يكون والبيت لم يزل مرمياً بالأرض . فسأل أمه عن جلييلة الأمر وقال : أين أخي فارس وحفظة ؟ فقالت : من المرحلة لم أرها ، وعلى ظني أنهما ركبا الخيل وهربا . فتأكد له ذلك ، وقال : إني أستحق أكثر من ذلك . ولكن صدق من قال : ابعج القرية واقتل السقا ، خير لا تعمل شر لا تلقى . فنام

(٤) « ويحكمه » .

(٥) « الزيلة » .

(٦) « مادام فيه روح بالعالم » .

تلك الليلة وثاني يوم ركب ذلوله وأخذ معه زوادته وسار يسعى وراءهما. فبعد يومين وصل مساءً إلى نزل عرب فارس يقال لهم الموايجه، قبيلة عظيمة. فنزل في بيت صغير حقير عند عجوز تعيش وحدها^(٧) ليس لها أحد. فقالت له العجوز: يا سيدي أنا امرأة فقيرة ليس عندي شيء حتى أقوم بواجبك، فُرخ وانزل في بيت الأمير. فقال لها: إن زادي^(٨) معي لأحوجك إلى شيء. ثم قالت: لقد عملت حسناً بمجيئك حتى تنشرح وتري الليلة عرساً. فقال عرس من؟ قالت عرس فارس بن أمهيد، وهو عرس على عرس، لأن هذا الرجل كان غائباً^(٩)، وسمعنا أنه قتل وأهله قبلوا التعازي به، ولأن نسوه إذ مضت على القضية نحو سنة. ولكن صباح أمس عاد بالسلامة ومعه عروس جميلة جداً، وهذه الليلة سيدخل عليها، فصبر علوان إلى أن دخل الليل كثيراً، فقام من عند العجوز ومشى إلى قرب بيت العرس واختلط بالناس إلى أن انفض القوم وانطفأت النيران وتامت كل عين ساهرة. فأتى بكل ظرافة إلى المكان المختلي به العريس والعروس ودخل من تحت أروقة البيت وأتى نحو الفراش فوجدتهما نائمين. فسحب سيفه وذبح فارساً وجره إلى خارج الفراش. ثم هز امرأته وصحّاها من النوم وقال لها يا حفظة أنا علوان. فقامت مرتعشة وقالت له: يا مجنون ما هذا الجيء؟ الآن يفيق فارس وأخوته فيقتلونك. فقال لها: يا شينة يعني يارديفة، ماذا فعلت معك وما الذي جرى مني بحقك من العمل الرديء؟ اذكرني الله وفكري بأولادك الذين كادوا يموتون [حزناً] عليك. فقومي وتعال معي حتى نذهب إلى بيتنا، عند أهلنا، واخزي الشيطان عنك، فإنك لن تجدي بحياتك أحسن من علوان. فيا روحي ما هو ذنبي بحقك؟ عرفيني فقط بذنبي. ومن بعد كلام كثير مثل هذا قالت له: إن لم تذهب / فإنني أنبه فارساً^(١٠) وأجعل قتلك شهرة. فقال: إن كنت لاتذهبين معي فاعطني فرسي ودعيني أروح. فقامت وفكت الفرس من قيدها وأعطته إياها. فحين صار على ظهر الفرس ورجحه بيده قال لها: يا حفظة يا بنت الحرام، نسيتي رجلك وأولادك. فأقل ما يكون أن تعطيني قبلة^(١١) من فمك حتى أودعك. فمدت فمها إليه، وهو راكب على ظهر الفرس، فعصّ على شفتيها بنوع أنها ما كانت تستطيع أن تصرخ، ورفعها من الأرض، وقبض عليها مثل

٦١/٢

(٧) «مقطوعة».

(٨) «زوادي».

(٩) «كان في الكون».

(١٠) «علوان»، وهذا الخطأ يدل على أن الصائغ لم يُعَدِّ إلى قراءة مخطوطته أو أنه قرأها بكل سرعة.

(١١) «بوسة».

الباشق على العصفور، وطار بها مثل الأسد الخاطف. وفي لحظة صار خارج البيوت، فوضعها خلفه على ظهر الفرس وسار بكل سرعة.

أما أهل فارس فما واحد عرف أو فاق إلا بعد [هَرَبَ عَلَوَان] بنحو ساعتين من الزمن، لأن [الوقت] كان قريب الصبح. فوجدوا ابنهم فارساً مذبوحاً والعروس والفرس مأخوذتين. فرموا الصوت وركبوا الخيل^(١٢) وصار الطلب في كتف علوان ولم يزل [الطراد] حتى تلاقوا مع علوان، والذين لحقوا به هم أخو فارس وأبوه وواحد من أقربائه^(١٣). أما علوان فحين رآهم أقبلوا عليه، وضع حفظة على الأرض وارتدّ عليهم. وعلقت الحرب بينهم واشتد القتال بكل حراة. وكانت حفظة من طرف أهل فارس، تعينهم على زوجها بضرب الحجار، حتى أنها ضربت زوجها بحجر فصدعت رأسه. ولم يزل [علوان] بالحرب حتى قتل أخا فارس، وبقي الأب وأحد الأقرباء^(١٤) فاشتد الحرب بالأكثر. فبعد قليل قتل علوان قريب^(١٥) فارس، وبقي الأب وعلوان فقط وحفظة. فتعبت الخيل جداً ولم يبق لها قوة على التحرك. فنزلوا من على ظهور الخيل وصاروا يتعاركون^(١٦) على الأرض، وتماسكوا ببعضهم بعضاً، علوان وأبو فارس. وجاءت حفظة وصارت تعين أبا فارس على زوجها/فمن بعد [قتال شديد حتى بان] العجز العظيم^(١٧) فيهما، تمكن علوان من أبي فارس وأخذ سلاحه. ثم أركبه على فرسه وقال له أنت رجل كبير السن^(١٨)، وعيب علي أن أقتلك، فاذهب عند عيالك وأعطاه فرس قريه، وركب هو وأركب حفظة فرس أخي فارس، لأنها كانت عين الفرس التي كانت راكبتها حفظة حين انهزمت هي وفارس. ولم يزل سائراً حتى وصلَ عند أهله. فما قال لحفظة كلمة واحدة إلى أن وصل إلى بيته، فأرسل وأحضر أباها وإخوتها وأقرباءها وقال لها احكي بما جرى من دون زيادة ولا نقصان فحكّت جميع الذي جرى حرفاً حرفاً فقال: يا جماعة هذا فعل ابتكم فانظروا ما تستوجه فافعلوه. فحالاً قام أخوها الأكبر وذبحها في وسط المجلس. فهذا ما كان ومن الأمور التي جرت.

(١٢) «وركبت الخيل».

(١٣) «قرايينه».

(١٤) «وقرايينهم».

(١٥) «قرايب».

(١٦) «يتكاونوا».

(١٧) «العجز العظيم».

(١٨) «اختيار».

[مع عرب البصرة]

ثم رحلنا وكان مسيرنا إلى طرف بغداد، ونزلنا بأرض يقال لها المزوان. وثاني يوم رحلنا أيضاً وجدنيا بالسير إذ جاء خبر للدريعي أن عرب البصرة^(١) تخاصم بعضهم مع بعض وصاروا قسمين بسبب الوهابي: أناس يريدون أن يعصوا، وأناس يريدون أن يطيعوا ويعطوا الجزية. والذي كان محرك الشر دعاس ابن علي أمير قبيلة يقال لها الأشاجعة^(٢) تحتوي على مقدار ألفي بيت. فهذا كان مراده أن يعصي على الوهابي، وبرجس ابن أهديب شيخ قبيلة الموايجة التي ذكرناها، من عرب فارس، فهذا مراده أن يطيع الوهابي، لأنه من طرف الوهابي، وزوجة برجس أخت عبد الله الهدال، كخيها الوهابي، وهو الذي كان موكولاً بالعمل ضدنا^(٣) من طرف الوهابي. فرحلنا ثاني يوم وصبرنا أمام بغداد، بعيدين عن البلد نحو أربع ساعات فقط. فنزل الشيخ إبراهيم إلى بغداد سراً عند القنصل الفرنسي الذي يقال له ادريين كورنسه^(٤)، لأنه كان صديقه الحميم. ولكنه لم ينزل من أجل الصحة ولكن ليأتي لنا بالدرهم^(٥)، لأن دراهمنا كانت نفدت، ولم يبق معنا شيء بتاتاً. وكان يحصل لنا تعطيل ٦٢/٢

(١) «البصرة».

(٢) «الأشاجعة»، قبيلة من عنزة.

(٣) «مقيد من طرف الوهابي ضدنا».

(٤) Adrien de Corrence.

(٥) «مصريات».

بعض الأحيان في بعض الأمور بسبب قلة الدراهم . فاضطر الشيخ إبراهيم رغباً عنه أن ينزل [إلى بغداد] ليحضر لنا المصريات . وبعد يومين عاد من بغداد ، وأحضر لنا معه المطلوب . وأثناء ذلك حضر من بغداد ، عند عرب الدريعي ، واحد قبيسي بياع ، فاشترينا كل البضاعة التي كانت معه لاحتياجنا إليها في بعض الأمور ، فما كنا نستطيع أن نقضيها إلا بوساطة البراطيل ، سواء للنساء أو للرجال .

ثم ثاني يوم رحلنا وقطعنا الدجلة من مكان يقال له المشهد ونزلنا على نهر تسميه العرب **الفهان** . وفي ذلك اليوم وصلتنا أخبار أن فتنة عظيمة واقعة بين العربان وأن اختلافاً كبيراً قد حصل بينهم : أناس [مع] الوهابي خوفاً منه ، وأناس ضده . والسبب بوقوع الفتنة هو ما كان بلغهم من أمورنا وأرباطنا^(٦) ضد الوهابي . فبعض القبائل حسن عندها رأينا وصارت من طرفنا قبل أن نراها ، والبعض الآخر رفض هذا الرأي . ولذا وقع الاختلاف فيما بينهم واشتد الحرب . فحين بلغنا ذلك استحسّن الشيخ إبراهيم والدريعي وجميعنا أن نجِدَ بالسِرِّ ونلحق بهم بكل سرعة^(٧) ، كي نعمل طريقة لاطفاء هذه النيران وإخماد هذه الفتنة بين العربان ، لأن الشيخ إبراهيم قال : يجب تدبير هذا الأمر إذ ينتج عنه ضرر وتعطيل لأمرنا . فاضطررنا ثاني يوم إلى الرحيل ، ونزلنا بأرض يقال لها **الدرغوان** ، ماؤها يتابع عيون^(٨) في الأرض ، إذ بالقرب منها جبال تبعد عن بغداد نحو عشرين ساعة إلى ناحية [تقع] ما بين الشمال والشرق . ثم رحلنا وقطعنا جبلاً عظيماً ، والعربان جميعهم سقت طروشها ، وملأت [الروايا] ماء قبل انتهاء الجبال ، لأن المنزل التي نحن قادمون عليها ما بها ماء كلياً . ثم وصلنا وكان مسيرنا نحو اثنتي عشرة ساعة بأرض صحراء ما بها مرعى ولا ماء وهي على حدود **العجم** : رمل أحمر وهواء ساخن/وإذ ورد مكتوب من عند دعاس ابن علي ، شيخ الأشاجعة ، إلى الدريعي وكان بهذه اللفظات :

من دعاس إلى الدريعي بعد السلام عليكم ورحمة الله لديكم والثاني يا أخانا نعلمك أننا واقعون في ضيق عظيم ، لأن القبائل جميعها ردت النقا علينا وهي المواجعة والسُّبَّة والفِدَعان والمَعَايدة والمُضَيَّان^(٩) وكثير غيرها من القبائل ، وحسبنا عددها خمسة عشرة ألف بيت ،

(٦) « وأرباطنا » .

(٧) « قبل النوم » .

(٨) « نبوعات أعيون » .

(٩) من السُّلُقا ، من العزّة .

ونحن واضعون ثققتنا^(١٠) بالله وبك ، ونحن معك على الخير والشر ، فالرجاء أن تجدد بالرحيل وتلحق بنا في أقرب وقت ممكن^(١١) لأن العربان أكلتنا . وكل سبب هذه الفتنة من أجل ابن سعود . فإياك المهمل والتأخير يا أهل المرؤة والحشمة^(١٢) ، تراني بوجهك (يعني وقيعك)^(١٣) يا أبا الفوارس والرجال^(١٤) .

فحين انتهينا من قراءة المکتوب ، نبه على الرحيل المداوم يعني من غير نزول ولا راحة ، وكانوا بعيدين عنا ستة أيام . فصار الرحيل وجدينا بالمسير ثلاثة أيام ليلاً نهاراً من غير راحة ولا نزول ، بل النوم على ظهور الجمال والأكل كذلك ، والنساء تعجن وتخبز على ظهور الجمال بالصباح ، يضعن الجلة والحطب في خرج تحتن على الجمل . تأتي المرأة بصاحين من حديد ، الواحد تضع فيه النار ، والآخر فوقه تخبز عليه . وإلى جنبها امرأة أخرى راكبة على جملها ومصاففة لها ، عندها العجين ، تقطع أرغفة وتعطيها للأخرى وهي ترقها وتخبزها . وامرأة ثالثة^(١٥) أمامها طاحونة وهي تطحن الطحين . والجمال والغنم والحيل ترعى وهي ماشية . وكلما وصلنا إلى ماء ، وكانوا على علم أن الماء أمامهم بعيدة ، تملأ كل امرأة قربة ماء وتربطها تحت بطن الجمل أو الناقة التي راكبة عليها . وكان أكلنا من غير طبخ فقط الخبز والحليب والتمر . فحين نجوع تنزل النساء حالاً ويحلبن النوق ويملأن لنا قده حليب ، (فالقدح يكون من الخشب ويسع نحو رطل حليبي) . فنجتمع^(١٦) أربعة أو خمسة ونحن راكبون ، فنضع لقمة خبز في فمنا ونشرب قليلاً من الحليب ونعطي القده للذي جنبنا ، /وهكذا يدور من واحد إلى آخر بالدور . وكلما نعسنا نتمدد على وجعنا فوق ظهر الجمل . ونضع أرجلنا في عيون الخرج ، لأن لكل جمل أو ذلول خرجاً كبيراً لأجل وضع أغراض الراكب وحاجاته^(١٧) . وكنا نستلذ كثيراً بالنوم أولاً من شدة التعب والنعاس ، ثانياً اعتدنا على ذلك ثالثاً من عادة

(١٠) « نحن شادين ضهرنا » .

(١١) « قبل بساعة » .

(١٢) « الحشمة » .

(١٣) الوقيع بمعنى الدخيل : الذي يطلب حماية شيخ من قبيلة غير قبيلته .

(١٤) « الرجاجيل » .

(١٥) « ثانية ؟ » .

(١٦) « فنجتمع » .

(١٧) « مصالح » .

سير الجمل إذ يهتز ويتأيل فيظن الإنسان أنه في سرير فيطيب له النوم ، وهكذا ينام حتى يشبع .

ثم ثالث ليلة من مسيرنا ولدت امرأة الأمير فارس الجريا ووضعت^(١٨) صبياً في هودجها ، على ظهر الجمل ، من غير أن تنزل ، وسما الولد القرناً^(١٩) ، لأننا كنا بالقرب من القرنا أعني مجمع النهرين أي الدجلة والفرات ، [كما هي العادة] في أكثر أسماء العرب ، لأنهم يسمون أولادهم باسم المحل الذي ولد فيه كي يعرفوا أين وُلِدَ .

ثم لم نزل جادين بالمسير نحن والقبائل التي معنا . وكان برفقتنا ثلاث قبائل : الجربا والسوالة وعبد الله . فوصلنا ثالث يوم بعد العصر عند دعاس ، وكان عددنا نحو سبعة آلاف بيت . فصار الفرع عند دعاس وعربه ، وآمنوا على حاهم ، وأطمأنوا وتقوّوا . وبالحال حضر دعاس وكامل كبار قبيلته ولاقانا ، وفرح بنا فرحاً عظيماً ، وذبح الذبائح ، ودعى كل كبار القبائل . وبعد العشاء وضع اسمه وختمه بورقة الشروط .

وكان العدو^(٢٠) بعيداً عنا يوماً واحداً فقط على حافة شط العرب ، أمام البصرة ، من الجانب الشرقي . فكان رأي الدريعي ثاني يوم أن يرحل ويتقدم نحوهم . ولكن بما أن الناس والخيل والجمال كانت تعبانة من السير ثلاثة أيام وثلاث ليالي متوالية . فتحسن عندنا الرأي أن نستريح يومين ثم نقدم على العدو . إلا أن العدو لم يصبر حتى نقدم عليه ، بل ثاني يوم العصر ، إذ أقبل نحونا عربان لا يعلم عددهم غير الله فقط . فحالاً رحل الدريعي وتقدم إلى قرب الشط لأجل الماء . وكذلك العدو نزل على الشط أماناً . وكان بيننا وبينهم/ميدان نحو ٦٤/١ نصف ساعة . وكان بالقرب منا قرية يقال لها الهوطا .

وثاني يوم كتب الدريعي لهم مكتوباً وكان بهذه اللفظات :

من الدريعي إلى ضويحي ابن اغيين أمير قبيلة الفدعان وإلى صقر ابن حامد شيخ المضتيان وإلى مُفَضِّي ابن عَيْدِه أمير السُّبَّة وإلى برجس ابن أهديب شيخ الموايجة وإلى عمران ابن نَجْرَس شيخ المعايدة وإلى كامل المشايخ والكبراء بالسن^(٢١) عموماً ، والثاني

(١٨) « وجابت » .

(١٩) « الكرنا » .

(٢٠) « الضثمان » .

(٢١) « الاختيارية » .

نعلمكم أنه قد بلغنا عدم الوفاق والمحبة الواقع بينكم وبين دعاس ابن علي، شيخ قبيلة الأشاجعة لقد أخذنا العجب الشديد من ذلك لأننا على علم بالحبّة السابقة التي كانت بينكم. والآن أنتم مزعمون على الحرب والقتال وسفك الدماء وخسارة الرجال من أجل ابن سعود الذي مراده خراب العربان، وتدميرهم واستعبادهم ووضعهم تحت رق العبودية، وأخذ الجزية^(٢٢) منهم ورميهم في مهالك العثماني وهلاكهم. فتأكد عندنا رأيكم الفاسد وعدم تبصركم بأمور الدنيا، لأنكم تركتم الخير والحرية وتمسكتم بالشر والعبودية. وأما أنا فمن محبتي لكم حررت هذا الكتاب، ومرادي التوفيق بينكم والمحبة ورفع هذه الفتنة القبيحة^(٢٣)، فإن أصغيتم إلى قولي كنتم عندنا مكرمين، وأنتم ونحن على حال واحد رجالاً ومالاً، وإن خالفتم كنا الكفاية بعون الله عليكم بل أكثر. والفتنة شر والصلح خير فاعملوا كما تريدون^(٢٤) والسلام.

وأرسلنا المکتوب مع خيال، وبعد قليل حضر المرسل وأتى بالجواب، وكان بهذه الألفاظ:

من ضويحي وصقر ومفضي وبرجس وعمران إلى الدريعي ابن شعلان وبعد، وصل مکتوبك ولكن لن يتم ما في عقلك. فإن كنت مخدوعاً^(٢٥) فنحن على علم بالحيلة التي تمت عليك. وكل هذه التدابير التي أخذتها صار لنا علم بها، وفهمنا مراد المدبرين وهم لا يريدون خير العرب ولا يشفقون عليهم من ظلم ابن سعود بل يريدون فائدتهم^(٢٦). وقد صارت هذه الأمور معروفة لدينا من أناس عارفين وخابرين بنيتهم من حين ابتدائها، وجميع ما جرى في بر الشام صار معلوماً لدينا. فالأنسب لكم أن تكسبوا حالكم وأموالكم وتكفوا بلاكم عنا وترجعوا إلى ديرتكم، وإن بقيتم على رأيكم وقصدتم حربنا تندمون.

(٢٢) كذا ولعله يريد الزكاة كما هو ظاهر من أماكن عديدة من الكتاب.

(٢٣) «الشينة».

(٢٤) «ارغبوا ما تشتهو».

(٢٥) «فإن كان أنت داخل عليك ملعوب».

(٢٦) «اصطلاحهم».

[عبد الله الخطيب في الأسر]

فحين قرأنا هذا المکتوب أخذنا العجب من هذا الكلام لأنه ليس كلام عرب ، كما عهدنا بكلام العربان . فكان رأي المعلم إبراهيم أنه من المستحسن أن أذهب أنا عندهم وأتکلم معهم لساناً ، وأجلهم بقوة الكلام اللين وما يقرب من العقل ، كما سبق أن فعلنا مع غير قبائل فاعتمدنا على ذلك الرأي وثاني يوم توجهت عندهم ومعى جملة هدايا . وكان برفقتي واحد بدوي بصفة خادم لا غير . فحين وصلت إلى بيت مُفضِّي ابن عيَّده أمير السُّبَّة ، إذ كان بيته أمام الجميع وهو أكبر الموجودين ، وقبل أن أسلم عليهم ركضوا علي مثل الأسد الخاطف ، ونهبوا جميع ما كان معى وأمسكوا بي وبالخادم وأخذوا جميع ما علينا وضربوا بأرجلنا قيود الحديد وألقونا بالشمس على الرمل الحامي . فابتدأت أتکلم معهم واستغيث^(١) بهم ، فكان جوابهم اسكت ولا قتلناك وعملنا قتلک شهرة . فابتدأت أبكي وأترجى أن يطلقوا سبيلي وأعود عند عربي ، فما كان أحد يصغي إلى قولي . وبينما أنا بهذا الحال الشنيع إذ أقبل علي عيسي القُبَيْسي ، عدونا الكبير الذي ذكرناه سابقاً حين كنا في بر الشام ، وهو الذي نزل واشتكى إلى سليمان باشا والي الشام ، وكان خلال كل هذه المدة يدور من قبيلة إلى قبيلة باحثاً عما يضرنا . فحين رأيته تأكدت أنه هو الذي أفهم العربان ووشى بنا ، وإن الكتاب الذي ذكرناه سابقاً من المشايخ إلى الدريعي هو أيضاً عمله وتدبيره .

(١) « واستغيث » .

فأتى إلى عندي وبصق بوجهي وقال: يا كافر أي موتة تريد حتى تموت^(٢) بها. فكان جوابي روعي ليست بيدك. فإن كانت انتهت حياتي فأني أموت، وإن بقي لي عمر بالدنيا فلا أنت ولا غيرك يستطيع أن يأخذ نقطة دم مني. إني فهمت أن كل ذلك تدبيرك فالله كريم. / وكان ٦٥/١
يوقد نار الحقد ويدور بين العربان يوشي بنا ويعظم الشر ومراده قتلي. فاستقمت على هذا الحال أربعاً وعشرين ساعة مقيداً من غير أكل ولا شرب. فعظمت عندي المادة وضاعت بي الدنيا. وكان كل بدوي من نساء ورجال وأولاد يأتي ليراني في هذا الحال وكل واحد منهم يعمل لي عملاً قبيحاً.

فبعد // أربع وعشرين ساعة اجتمعت المشايخ عند مفضي ابن عيده. فتحسن عندهم الرأي أن يبقوني عندهم، فأطلقوني وأحضروني أمامهم وقالوا: كنا قادرين على قتلك، ولكننا نهيك دمك إذا كنت تحكي لنا على الصحيح ما هي نيتكم؟ وما هو السبب في تدبير كل هذه الأمور؟ وإلى أي غايات تسعون؟ وما هو مرادكم من ذلك؟ فابتدأت أتكلم محاولاً التمويه عليهم^(٣) قائلاً: إن ذلك لأجل راحتكم وحريتكم وخلاصكم من ظلم الوهابي. فكان جوابهم: وإذا نحن خالصنا من ظلم الوهابي وصرنا ممتلكين ذاتنا أحراراً في أنفسنا فما هي الفائدة لكم من ذلك. فقلت: نكون قد فعلنا خيراً معكم وعملنا جميلاً. فقالوا: هذا شيء لا أصل له. نريد أن نعرف حقيقة نيتكم التي أنتم من أجلها مهتمين بهذا الأمر كل الاهتمام. فإن رأينا الشيء مناسباً، صرنا معكم على الخير والشر وإن لم يرضنا أطلقنا سبيلك وأرجعناك إلى محللك من غير ضرر لك كلياً. ونحن قادرون بعون الله على كسر الدرع وطردكم^(٤) من هذه الديرة. فقلت: يا جماعة ليس معي إذن أن أتكلم معكم بشيء أبداً^(٥)، وذلك لأنني رأيت عين الغدر منهم، بوساطة عيسي، لأنه يريد قتلي بلا شك، وهو يعمل كل جهده لذلك، فما رأيت مناسباً أن أتكلم معهم بحقيقة مرادنا أولاً بسبب وجود عيسي العدو الذي يعمل ما بوسع له لخرابنا، ثانياً وجود الشيخ برجس ابن أهديب الذي هو صهر عبد

(٢) «أموتك».

(٣) «بالمحاولات».

(٤) «وتهيجكم».

(٥) قد وضع الصائغ خطأ على كل هذا المقطع الذي بين خطين // كما لو كان يريد حذفه بنوع أننا لا نعلم إذا كان المشايخ أطلقوا سراحه ثم أعادوه إلى القيود. فهل اختلق هذا الحادث أم خاتته الذاكرة كما يتبادر إلى الذهن لأنه أبقى صفحة ٦٥/٢ بيضاء كما لو كان يريد إملأها بعد مراجعة مذكراته.

٦٦/٢ الله الهدال، كيخيا الوهاني وهو المسؤول عن خراب نظامنا. ومن جهة أخرى رأيت أن خلاصي صعب ولا بد لهم أن يقتلوني أولاً بسبب كلام عبي^(٦) للعربان ضدي، ثانياً أن مفضي ابن عيده الذي أنا عنده [في الأسر]، محب كبير لبيت ملحم وصديق حميم للأمر مهنا الفاضل، وعنده علم بجميع ما جرى بيننا وبينهم في سورية، وعنده عبي يفهمه ويوشي بنا. فما رأيت أحسن من الهزيمة فابتدأت أبحث عن طريقة [توصلني إلى نجاتي].

وقد تقدم الشرح أن العربان كانت تأتي لرؤيتي [بالقيود]، وكل واحد منهم يهيني أنواع الإهانة. ولكن شاباً بدوياً أتى مراراً عديدة من غير أن يقول كلمة واحدة، وكان فقط ينظر إلي ويذهب، وكان أيضاً يطرد الأولاد عني، وهم كانوا يضربوني بالحجار ويقفزون فوق ويسخرون بي. فأتى آخر مرة قبل غياب الشمس وطرد الأولاد عني وقال: هل أنت جائع لأحضر لك شيئاً تأكله؟ فقلت له: أنا لا أريد أكلاً وشرباً وإن كنت تريد أن تفعل معي خيراً وجميلاً، وأنا لا أنسى جميلك، فتعمل طريقة لأهرب من أيدي هؤلاء الناس. فقال: سأتيك هذه الليلة وأفكك من القيد وأوصلك عند عريك. وعند نحو نصف الليل كان سرق مفتاح قفل القيد الذي في قدمي، وهو قيد فرس من زنجير^(٧) وقفل ومفتاح يقيدون به الخيل ليلاً حتى لا تسرق. فأتى نحوي بكل لباقة وفتح القفل وفكني من الزنجير^(٨)، وأخذ بيدي وخرج خارج النزل بكل هداوة وخفة^(٩)، ولم يزل حتى اجتزنا العرب، وهو دائماً معي إلى أن وصلنا إلى عربنا، فوجدت الجميع نياماً إلا الحراس، لأن من عادة الدريعي دائماً أن يضع أربعة عبيد للحراسة عند النوم. فحين رأوني عريان ليس علي ثياب تعجبوا وذهبوا وصحوا الدريعي من النوم، فأفاق وأفاق معه الشيخ إبراهيم وكثير من الناس، وصارت ضجة في الليل وابتدأ الشيخ إبراهيم يبكي من شدة فرحه لأني نجوت من ذلك الخطر^(١٠). / وحكيته لهم جميع ما جرى، فشكر الله الشيخ إبراهيم وكامل المحبين على خلاصي، وأعطى الشيخ إبراهيم البدوي مئة غرش بخشيشاً^(١١)، وكان اسمه فاعور، فعاد المذكور عند أهله. وأما الدريعي، فإنه استاء منهم كثيراً^(١٢) واشتد قهره منهم فكتب لهم مكتوباً يطلب البدوي الثاني

(٦) الصفحة ٦٥/٢ بياض والصفحة ٦٦/١ كناية عن حاشية كبيرة تأتي بعد صفحة ٦٨/٢.

(٧) «حندير».

(٨) «خفّية».

(٩) «القطوع».

(١٠) هبة.

(١١) «أخذ على خاطره».

الذي كان ذهب معي ، لأنه لم يزل مقيداً عندهم وخاف عليه من أن يقتلوه لأنني هربت من عندهم ، وفي الوقت نفسه يقبح فعلهم الذي فعلوه معي . فكان الجواب لا نرسل الرجل^(١٢) ، واستعد للحرب والقتال غداً صباحاً ، ولا تقل ما أنذرك فكن على حذر^(١٣) .

فجمع الدريعي حالاً كبار القبائل وابتدأوا بتحضير مهام الحرب وتدبير أمورهما . وثاني يوم من الصبح خرجت الجموع من الطرفين ، واصطففت الطواوير أمام بعضها ، وانفتح ميدان الحرب ، واشتد القتال بين الطرفين . وكان نهار لا يوصف شديد الحر جداً ، إلى أن غابت الشمس ، فما رجحت كفة الواحد على الآخر ولكن حصلت مقتلة عظيمة في الفريقين ، وقتلت فرس عوض جندل شيخ السوالة التي تسوى عنده أكثر من خمسين كيساً ولا تقدر بثمان لا بكثير ولا بقليل . فتكدرنا عليها جميعنا كثيراً وأعطاءه الدريعي فرساً عوضاً عنها ، ولكن دونها لا تماثل التي قتلت ، فرضي واستكثر بخيره^(١٤) عليها .

وفي اليوم الثاني وقع القتال أيضاً ، وكان أشد من اليوم الأول ، وكانوا هم الراجحين علينا بسبب أنهم أكثر منا . فهم كانوا نحو ثلاثين ألف مقاتل من خيالة ورجال ومراديف ، ونحن كنا مقدار نصفهم لا غير . فأخذوا منا في هذا اليوم أربعين ممسوكاً^(١٥) ، يعني أسيراً^(١٦) ، تُسمّيه العرب ممسوكاً . ونحن أخذنا أحد عشر واحداً . وكان من جملة الأحد عشر ممسوكاً عندنا ابن صقر شيخ قبيلة المضيان ، فقيدنا الجميع ، وهم كذلك/ قيدوا مماسيكهم . ٦٧/ ٢

وبعد ذلك النهار قضينا ثلاثة أيام دون حرب ولا كلام بين الجانبين . ولكننا كنا متيقظين إلى بعضنا ليلاً ونهاراً . وبعد ذلك إذ حضر إلى طرفنا الشيخ صقر ابن حامد الذي كان ولده ممسوكاً عندنا ، من جملة الأحد عشر ، وبرفته خيال واحد فقط ، لأن هذه عادة العرب إذا وقف الحرب يزورون بعضهم بعضاً ويتكلمون ويأكلون ويشربون ، وحين رجوع الحرب كل منهم ينسحب إلى فريقه . فحضر المذكور عندنا ، فرحب به الدريعي وعمل له غاية الإكرام . وكان سبب حضوره أنه يحاول أن يفك ابنه لأنه كان غالياً عليه جداً . وكان قد

(١٢) « الدلة » .

(١٣) « صبر على حضر » .

(١٤) شكره .

(١٥) « مسلوك » ، ولكن في مكان آخر من المخطوطة يكتب الصائغ « مسوك » ويجمعه على « مماسيك » .

(١٦) « يسير » .

جُرِحَ يوم الذي وقع أسيراً فبقي مشغول البال عليه خوفاً من أن يكون مات . ولكننا كنا داوينا جرحه كالواجب ، على حسب مداواتهم للجروح ، ومهتمين به جداً لأننا نعرف أنه غالي الثمن على أبيه وعلى كافة عربانهم ، وهو شاب عظيم وفارس مشهور اسمه حامد باسم جده .

[ما وراء الحلف من أغراض سياسية]

ثم جلسنا للحديث مع صقر. فقال: يا جماعة نحن متعجبون منكم على فعلكم هذا، واجتهدكم بإدخال القبائل في اتحادكم وسعيكم العظيم في هذا السبيل، من غير أن نرى لكم ثمرة من ذلك تستحق ائثال هذه الحروب وهذه الأتعاب التي تتكبدونها أنتم، ويتكبدوها الناس بسببكم. وإذا قلنا شفقة على العرب حتى ننقذهم من أسر ابن سعود، فما أظن أنكم شفقون على العرب إلى هذا الحد، ولا يكون لكم فائدة خاصة من ذلك. ويقول المثل: لا يصلي أحد حتى يطلب الغفران. فأنا واحد من الناس لا أدخل معكم إلا إذا أعلمتموني حقيقة غرضكم، وهكذا يرى أكثر الناس. فإن شاء خاطركم افهمتموني المادة، وأنا بعون الله معكم وواحد منكم. فكان جوابنا: أنت على حق وما تقوله هو الصواب ولكن ماهي الطريقة لنعرفك بسرنا من غير أن تضع ختمك وتقبل الشروط؛ قال هذا عين الصواب^(١) فاحضروا ورقة الشروط لنسمعها. فأتينا حالاً بالورقة وقرأناها له، فسرّ كثيراً وقال: كنت أخمن^(٢) من جملة التخمينات^(٣) أن مرادكم أمور الديانة، فوجدت أول شرط أن لا يتكلم أحد بالأمور الدينية. وكان تخميني الثاني أن ربما أنتم من طرف العثماني سياسة،

(١) «قوي مناسب».

(٢) أظنّ.

(٣) الظنون.

لأجل تدمير ابن سعود الوهابي ، فوجدت كذلك من الشروط الابتعاد عن التعامل^(٤) مع العثماني وحكامه ، وكثير من الأشياء كنت أظنها صالحة لكم فوجدتها بعكس ذلك . وعليه فقد انفتحت علي المادة جداً وضاعت ظنوني تماماً ، فبالله عليكم^(٥) أن تعرفوني المادة وأنا أول من أطاع وآخر من عصي . ثم وضع ختمه واسمه بالورقة وتعاهدنا معه بكل محبة ، وقلنا له : اعلم أن المراد الوصول إلى أبواب الهند ، والكشف عن طريق يكون بعيداً عن المدن ومعرفته ، ويكون به المياه اللازمة ومراعي للمواشي دائمة . فقال : حسناً ، ولكن هذا الأمر لا يحتاج إلى كل الأعمال التي تقومون بها ، فبوسعكم أن تأتوا معي ، وأنا أرسلكم إلى غير قبيلة ، وهكذا من قبيلة إلى أخرى تنتقلوا حتى تصلوا إلى الهند ، من غير هذه الحروب والمعارك التي تصدر عنكم . وأنا لا أظن أن هذا مقصودكم ، بل هو تملص مني^(٦) لأنكم لا تريدون أن تعرفوني حقيقة الحال ، فإن تدبركم ومساعدكم ليست فقط لأجل كشف الطريق ، ولا بد أن يكون لكم غايات داخلية لا تريدون أن تعرفوني بها على الوجه الصحيح ، وستندمون لأنني قادر ، بعون الله ، على مساعدتكم إن أعلمتموني بحقيقة مرامكم . فقلنا الصحيح أن مرادنا الوصول إلى الهند ، ولكن ليس نحن فقط بل أيضاً جيش كبير نحو مئة ألف . فلأجل ذلك نريد أن نجتمع العرب على رأي واحد ، ونجعل لهم رأساً كي يسعفوا الجيش المذكور ، ويساعدوا على إيصاله إلى الهند ، ويحملوا جميع لوازمه من أكل وشرب وغير ذلك من المهمات ، واركاب العساكر على الجمال والمسير معهم وإعانتهم في كل ما يلزمهم والوصول معهم إلى الهند . قال : حسناً ولكن ما هي فائدة العرب من ذلك وما هو أملهم . فقلنا له : أولاً إن السلطان الذي سيرسل هذا الجيش سيصير لكم منه خير عظيم ، ثانياً تملكون حريتكم وتخلصون من عبودية الوهابي وحكم العثماني عليكم ، ثالثاً تغنمون أموالاً لا تحصى من الهند ، لأن غنى الهند زائد كما هو معلوم عنكم ، رابعاً من اتحادكم مع بعضكم بعضاً ، وكسب مثل هذه الكميات من الأموال ، ونظر مثل هذا السلطان عليكم تستطيعون أن تملكوا أنفسكم ، وتعودوا ملوكاً كما كنتم سابقاً ، ولا خسارة لكم من ذلك بل تكسبون صيتاً كبيراً ويحصل لكم ربح عظيم .

وصار حديث كبير في هذا المعنى ودخل الموضوع في عقله وتشرب المادة على

(٤) «مقارشة» .

(٥) «سابق الله عليكم» .

(٦) «صرفه منشاني» .

جليتها ،//وتعهد لنا بإدخال كثير من القبائل معنا واتحادهم في رباطنا . ونحن وضعنا أملنا به لأنه رجل ذو عقل وتديبر ، طاعن بالسن ، مسموع الكلمة ، وعملاً بالرباط تعهدنا أن نعيد كل الأسراء^(٧) ، وهو يرسل إلينا الأسراء الذين عندهم وأخذ على نفسه أن يهتم بأمورنا بكل رغبة ومحبة ثم أفهمناه مرادنا//^(٨) فقال : يا جماعة إني قد فهمت المادة جيداً ، وعرفت الغاية من جميع ذلك ، إنما العداوة مع الوهابي لا معنى لها ولا علاقة لها بهذا الأمر ، لأن الرجل في بلاده ونحن في ديرتنا نفعل ما نشاء ، وهذه العداوة تؤدي إلى سفك الدماء ، وذهاب الرجال والأموال وتحميل أثقال شتى من غير فائدة لنا ، وليس هناك أمر ضروري يحوج إلى ذلك .
فقلنا : يا صقر كل منا يعرف وجعه ، فاعلم أيها العزيز^(٩) /أن الوهابي اليوم متقوي جداً ، وأخذ يملك البلاد وعمل نفسه ملكاً ، وإلى الآن صارت بيده بلاد اليمن والحجاز ، حتى أنه ملك مكة المكرمة والمدينة ، وهو يرسل جيوشه إلى أماكن أخرى ، حتى وصل إلى ديرة عريستان^(١٠) وقرب من الشام كما هو معلوم . ونحن نرى أن العثماني غير قادر على رده ، وهو لم يزل يمتد ويملك ، فإذا ملك سورية فمن المعلوم أنه سيزحف^(١١) ويملك بغداد وديرتنا هذه مع القمادي ، وإذا امتد ملكه وصارت سورية في يده وهذه الديرة ، لا يعود يتم لنا أمر وتتعلل أشغالنا لأسباب كثيرة . أولاً بسبب رفضه وتمسكه بأمور الديانة وشدة بغضه للملة النصرانية ، ونحن نصارى ، والجيش الذي يريد أن يمر بهذا الطريق نصراني أيضاً ، فلا يمكن أن يتفق معنا ويسمح لنا بذلك ، ثانياً لربما افترأ أنها حيلة عليه من طرف العثماني لأجل خرابه وتدميره ، فعلى هذا الجيش النصراني أن يحارب في وسط الصحراء^(١٢) ، وأنتم تكونون يومئذ معه وتحت أمره ، وإذا لم تساعدونا بالحرب وتركتمونا وحدنا في البرية نهضى وغوت من الجوع والعطش ، لأن جيشنا لا يعلم كيف يسلك في البراري ، وإذا العرب لم تساعد وتعين على الركوب ، وتدل على المسالك ، وتنقل الماء والأكل والشرب ، وتمشي أمام عسكرنا ، لا يمكننا الوصول إلى الهند . ثالثاً إن سلطاننا الذي نحن في خدمته له عدو كبير ، والبحر بيد هذا

٦٦/١

(٧) «اليساره» .

(٨) وضع الصائغ علامة في المخطوطة كما لو كان يريد أن يكون هذا المقطع في مكان آخر ولكن لم تظهر لنا حقيقة ذلك .

(٩) في المخطوطة إشارة إلى أن تنمة الكلام في صفحة ٦٦/١ .

(١٠) «عرب بستان» .

(١١) «يسحف» .

(١٢) «الجلول» .

العدو ، ويستطيع أن يصل عند الوهابي من بحر الهند ، ويقوى الوهابي ويعمل اتحاداً معه ضدنا ويخرب شغلنا ونظامنا . فلهذه الأسباب وغيرها يجب معاداة^(١٣) الوهابي والإنفاد عنه . / ٦٩/١

ثم تكلمنا معه كلاماً كثيراً فدخل في عقله وفهم المطلوب ، واتحد معنا اتحاداً عظيماً ، وأخذ على نفسه الضمان بأن يجذب إلى طرفنا كل ما يستطيع عليه من القبائل ويوفق بينها وبيننا ويكون هو المقدم في هذا العمل ، وينال مكافأة على تعبته مثل الدريعي . ونحن عملنا على أن يكون مطمئن البال وأملناه بشيء كثير ، ووعدناه بكل ما يسر خاطره ، فأمل بالعز^(١٤) والكسب من أموال الهند ، وهذا شيء طبيعي في العرب لأنهم يسرون جداً من النهب^(١٥) ، فهذه صنعتهم^(١٦) وليس لهم صنعة غيرها . فجلس صقر عندنا يومين كان حديثنا معه على هذه الأمور وأخذت تدابير جيدة ، وانتهى الكلام والوعد معه على أن يعمل كل جهده هذه السنة ليأخذ رأي القبائل ويمزجنا معها . وأما نحن ، فنتابع طريقنا إلى طرف المشرق . وإن استطاع أن يفعل كل هذه الأمور هذه السنة ، فإنه لا يغرب بل يبقى بالمشرق عند القبائل التي لا تغرب ويتم العمل ، بينما نحن نغرب حسب العوايد ، وحين التشريق يكون كل شيء مرتباً وحاضراً ، فندخل ونتم مرغوبنا .

فأطلقنا الأسراء الذين كانوا عندنا وأهدى الدريعي فرساً عظيمة لابن صقر ، وقدمنا له نحن جملة هدايا ونفقة جيب^(١٧) وافرة ، وودعنا بعضنا بكل محبة وذهبوا عند أهلهم . وبعد توجههم من عندنا بنحو أربع ساعات من الزمن أرسلوا مماسيكننا ، وقبل توجههم عندنا ذبحوا لهم الذبائح وصنعوا لهم غداءً عظيماً وأبدوا لهم غاية الإكرام والمحبة .

هذا وفي اليوم الثاني أتانا مكتوب منه ومن مفضي ومن ضويحي ، وكان بهذه اللفظات :

من مفضي وضويحي إلى الدريعي بعد السلام عليكم والثاني حضر أخونا صقر من عندكم ، والمذكور بغاية الرضى عنكم ، فهو شاكر لكم وحامد حسن مزايكم والإكرام الزائد الذي فعلتوه معه . وقد تكلم معنا بخصوص المطلوب ، شيء قليل الذي كافي لنا لحد

(١٣) «ضامنة» .

(١٤) «الكبرا» .

(١٥) «ينحظوا في النهايب» .

(١٦) «كارهم» .

(١٧) «خرجية» .

الآن^(١٨)، والله يعين على كل أمر يحصل منه نفعٌ لجيوش العرب. وقد توجه صقر عند
(١٩)، لأن^(٢٠)/المذكور بعيد عنا نحو ثلاث ساعات ليتكلم معه، فيكون معكم علم
بذلك والسلام. ٦٩/٢

فسررنا من هذا الكتاب إذ تأكدت لنا صداقة صقر. وثاني يوم رحل من أماننا ونحن
أيضاً رحلنا لأن الأرض قد امتلأت بالأوساخ ولم يبق فيها مرعى. فتقدمنا إلى الأمام نحو عشر
ساعات ونزلنا بأرض يقال لها مقتل العبد على شط العرب، فأقمنا ثمانية أيام وإذ حضر عندنا
صقر وابنه، وأخبرنا أنه استطاع أن يجلب بعض القبائل إلى طرفنا وأضاف أن هذا الأمر
لا يتمل بالعجل، لأن أماننا عرباناً لا تحصى ولا تعد، وكل واحد برأي وعقل يختلف عن
الآخر، وإذ أردنا الدخول هذه السنة نتعب ويحصل لنا هموم وحروب وسفك دماء كثيرة،
[وقال]: والرأي عندي أن أبقى بالمشرق هذه السنة، وأعد^(٢١) لكم هذه الأمور كما يجب
وحين تشرقون من بلاد سورية يكون كل شيء جاهزاً وفق مرادكم، فتدخلون الأراضي وتصلون
إلى الأماكن التي تريدونها، وتكشفون عما تريدون، وتفهمون جميع ما ترغبون، ويصير كل
شيء حسب مطلوبكم إن شاء الله، ولكن بالتأني وطول البال، وقد بذلت كل جهدي
لأنكم وصلتم إلى هنا، وكابدتم من المشقات والأتعاب ما لستم معتادين عليه، لتقضوا
مطلوبكم وترجعوا إلى سورية وتنمو الأمور المنوطة بكم. ولكن تحقيق ذلك غير ممكن الآن،
وأنا أقوم مقامكم بل أحسن منكم، إذ كما يقول المثل الشجر لا يقطعها إلا فرع منها.
فاعتمدنا على رأيه وجلس عندنا نهراً واحداً، ثم ودعناه وأفهمناه جميع الأمور اللازمة وسافر
بالسلامة.

(١٨) كذا بالحرف الواحد، والمعنى: عرفنا القليل ولكن ما عرفناه يكفيننا الآن.

(١٩) في المخطوطة: ضويحي ابن حبس (٩) إلا أن الصائغ شطب الاسم بالخبر مراراً ولم يضع مكانه اسماً آخر.

(٢٠) هنا ابتداء الكراسية نمرة ٩.

(٢١) «اطبخ».

[العودة إلى بر الشام]

أما نحن فنوينا الرجوع إلى بر الشام ، إذ كان انتهى فصل الشتاء ودخل الربيع ، ونحن لم نزل فوق البصرة بنحو ثلاثة أيام . فابتدأنا نعود إلى الغرب ، وبعد عدة مراحل قطعنا الدجلة ودخلنا الجزيرة من القرنا ، فجلسنا يومين فقط بالجزيرة ، وقطعنا الفرات من المنصورة وخرجنا إلى الصحراء^(١) التي يسميها العرب الحَمَاد وهي قبلي الفرات . / ٧٠/١

فرحلنا بعد مقطعنا ، ونزلنا أرضاً تبعد عن الفرات نحو ست ساعات ليس فيها ماء جار . فحفر العرب كلهم حفراً طول قامة الإنسان ليستقوا منها . فكل عشرة بيوت أم أكثر أم أقل عملت لها حفرة ماء . وهذه المنزلة اسمها غَيِّيب الدَّر : الدر يعني الحليب وغيبب يعني الشرب ، كناية عن قلة وجود الماء بهذا المكان ، يعني محل شرب الحليب عوضاً عن الماء . فما أطلنا الإقامة ، بل رحلنا ثالث يوم ، أولاً بسبب قلة الماء كما سبق الشرح ، وثانياً لأننا كنا مستعجلين لنلحق ربيع بر الشام ، إذ الوقت أدركنا وأصبحنا في منتصف الربيع^(٢) ، ونحن نخاف أن يحضر غريزنا من العربان ويضعوا يدهم على الأماكن الجيدة ، وخصوصاً وأن وراءنا خصومنا وهم بيت ملحم ، فلربما كانوا شدوا أزرهم ببعض القبائل كي يملكوا الديرة ويحاربونا ، كما تقدم الشرح عنهم عام الماضي قبل تشريقنا .

(١) «جول» .

(٢) ربيع سنة ١٨١٢ .

ثم رحلنا ونزلنا أرضاً يقال لها الصَّارعة، مياها كثيرة من نبوعات ومراعيها كثيرة أيضاً، ولكن بها عشبة تسمى الخافور^(٣) تحبها الجمال، إنما لها فعل غريب إذ يبجن منها الجمال فقط، وليس لها فعل على غيرها من الدواب. فمتى أكل منها الجمال صار مجنوناً وعمي، فلا يرى بعينه شيئاً ويهيج. فاستقمنا يومين في تعب^(٤) عظيم مع الجمال لأنها تهجم على البيوت من غير أن تراها فتخرب البيوت وتدعس الأولاد وكل من كان بوجهها. فكانت الناس دائماً راكبون وراكضون خلف الجمال حتى يردونها عن البيوت. فخلال هذين اليومين لم يستطع أحد أن ينام أو يستريح بل حصل تعب^(٥) عظيم أشد من معركة كبيرة مع خصم قوي. والسبب أنهم أطلقوا على هذا المكان اسم الصارعة لأنها تصرع الجمال وتجعلها كالجنانين. وثالث يوم قلت للدرعي بالله عليكم دعونا نرحل من هذه المنزلة الملعونة فكأنني بكم مسرورون من هذا التعب فضحك. وفي ذلك الوقت نفسه إذ بجمل عظيم هاج وركض نحو الدرعي نفسه، فركضت حالاً ودخلت البيت واختبأت فيه. أما الدرعي، فإنه أخذ عاموداً من عواميد الخشب التي كانت أمام البيت، وضرب الجمل على رأسه، فانكسر العامود قطعتين ولم يردّ الجمل، واحتترنا عمن نقول أنه أكثر قوة الجمل أم الدرعي، لأن المذكور يقول: لو ثبت العامود كنت كسرت رأس الجمل وقتلته. فأنا عدلت بينهما وقلت: أظن يا درعي، أنك والجمل بالقوة نفسها، لأنك تحتج بأن العامود قد انكسر، والجمل على ما أظن ما أحسن بالضرب، وعليه فإنكما متقاربان لبعضكما بعضاً. فضحك كل من كان حاضراً.

ورحلنا ثاني يوم، وبينما نحن في الطريق إذ نفذ علينا مكتوب من صقر مضمونه أنه ذهب عند برجس ابن أهديب، ولكنه لم ينل فائدة، ووقع بينه وبين المذكور إغاطة. وقد حرد صقر عليه وذهب من عنده متكديراً، وإن برجس غرب بكامل عربه ودخل الجزيرة ويريد أن يصل بسرعة إلى بر الشام، ويجتمع مع بيت ملحم ومع جيوش الوهابي، لأجل تنكيس رايتكم وخراب نظامكم وتدميركم، من حيث أولاً أنه زوج أخت عبد الله الهدال، وثانياً أنه محب لبيت ملحم، وثالثاً أن عنده عبي القبيسي وهو يحرك الشر عليكم دائماً، فكونوا على

(٣) الخافور: «ثبت كالزوان» (القاموس المحيط مادة خفر).

(٤) «جنك»، ويريد ضنك.

(٥) «جنك».

علم بذلك وخذوا حذرهم منه . فقال الدريعي : الله أكبر منه . ولم نزل نجد بالسير من مرحلة إلى أخرى .

وعلمنا أن السلقة^(٦) ، وهي قبيلة عظيمة نازلة في منزلة يقال لها حزملمما^(٧) . فقال الدريعي : هذه قبيلة عظيمة ورجالها مشهورون بالمواقع^(٨) . وأميرهم رجل طيب ، فيجب أن نجلهم إلى طرفنا قبل وصولهم إلى الديرة الشامية . والأمير اسمه جاسم ابن حرميس وهو صديقي جداً . فقلت نكتب له مكتوباً ، قال الدريعي : هذا لا يناسب لأنه لا يقرأ ، فيجب أن يقرأ له أحد المكتوب ، وتصبح المادة مسموعة ، ونحن نريد أن تكون سرية . فرأى الشيخ إبراهيم أنه من المستحسن أن أتوجه أنا عنده وتم الرأي على ذلك . وثاني يوم أرسل الدريعي معي ستة أنفار ليدلوا^(٩) [على الطريق] ، وأنا ركبت ذلولي وكنا سبع أنفس . وكان بيننا وبين حزملمما مرحلتان ، وسرنا طالبين قبيلة السلقة . فبعد يومين وصلنا إلى المحل [المقصود] ، فما وجدنا أحد لأنهم كانوا رحلوا ولكن لا يعلم أحد إلى أي جانب توجهوا . فصرنا ندور بالبرية إلى المساء ، فبتنا بالخلا في البادية^(١٠) ، من غير أكل ولا شرب لأننا لم نأخذ معنا/غير زاد يوم فقط ، إذ كنا متأملين بالعرب . فأقمنا ثالث يوم ندور أيضاً إلى المساء ، ولكننا كنا نمشي بجدة فما وجدنا أحداً ، ولم نلتق بغير عريان . فاشتد بنا العطش وخصوصاً بي أنا ، فتلاشت حواسي وبيس فمي واحترق جسدي من شدة الظمأ ، حتى كدت أغيب عن الوجود ، إذ مضى علي ثلاثة أيام من غير ماء . فصاروا يضعون في فمي حصوات صغيرة وتارة رصاصات ، وكل ذلك بدون فائدة ، ولم يزل يزداد عطشي . فأسود وجهي ، وبيس لساني وصار مثل الفحم الأسود ، وجمدت عيوني ، ورميت نفسي على الأرض كالميت ، وغاب عقلي وعدمت حواسي بالكلية . ومنذ يومين كنا نبحث عن الماء فقط ولا نسأل عن العرب . وكنا دائماً نبعد كأننا مسحورون ، فلا نستطيع أن نجد عرباً أو ماء لنشرب . فبعد ذلك رفعوني عن الأرض وأنا غير واع ، ووضعوني على ظهر ذلولي ومشوا قاصدين منزلة يقال لها جب الغنم بها ماء . وما زالوا سائرين إلى بعد الظهر ، وكان ذلك خامس نهار من غير ماء .

(٦) «السلقة» ، من العنزة .

(٧) «حزملمما» ، إنما من عادة الصائغ أن يكتب ذالاً بدلاً من الزاي .

(٨) «بالمراحل» .

(٩) «دلالة» .

(١٠) «الجلول» .

فأقبلنا على الجب فصار رفقاؤنا يتسابقون إليه ، فرميت نفسي من على ظهر الجمل على الأرض وابتدأت أبكي ، إذ تصور بعقلي من شدة احتراقي وعطشي أنهم سيشربون كل الجب ولا يبقون لي شيئاً ، فعادوا وصاروا يضحكون من عقلي وقالوا : أنت عدمت عقلك فهذا الجب يكفي جيوش عنزة^(١١) وطروشها ولا يخلص ، ونحن ستة أنفار نريد أن نشرب الجب بكامله . ثم وصلنا وحين صرنا على فم الجب ركض واحد من العرب اسمه غَلَقَص ، واشهر سيفه وجلس على فم الجب وقال : كل من قرب منكم قطعت رأسه ورميته بالجب ، ااعدوا وأنا أسقيكم بمعرفتي . فأخذني أولاً ووضع رأسي عند فم الجب وقال : شم رائحة الماء فقط شماً . فابتدأت اترجاه وأسأله بالخاص^(١٢) أن يسقيني . فبعد حصّة أخرج قليلاً من الماء قدر نصف وقية ، وصار يأتي بالواحد بعد الآخر ويدهن شفاهنا ولساننا دهناً بالماء فقط . ثم بعد حصّة أخرى أخرج كمية أكبر من الماء ، وصار يعطي لكل واحد نحو نصف فنجان قهوة ماءً ، وبعد حصّة قدر فنجان وبعد قليل قدر فنجانين/ ^(١٣) . ولم يزل يدرجنا رويداً رويداً مقدار أربع ساعات حتى شبعنا ماء . وأخيراً قام من على الجب وقال : اشربوا قدر ما تريدون . وقال : لو لم أفعل ذلك معكم لكنتم متم جميعكم إلى جانب الجب . وبالحقيقة كم من السواح وغيرهم الذين بلغنا عنهم أنهم ماتوا من شرب الماء بعد عطش . فبتنا تلك الليلة إلى جانب الجب من غير أكل ، فقط على الماء ، وكنا نشرب كل ربع ساعة وما كنا نروى . فأصبحنا ثاني يوم وكان أماننا تل عال فصعدنا عليه عسانا نرى عرباً نذهب عندهم فما رأينا شيئاً إلا أن أحد رفقاؤنا رأى عرباً نازلة بعيداً جداً ، فصار يرينا مكان نزولهم ويعلم لنا ، ولكن ما كنا نستطيع أن نرى النزل ، حتى أكد لنا أن بينهم بيتاً كبيراً على ستة عواميد وأمامه شيء أحمر . فاعتمدنا على كلامه إذ شهد رفقاؤه أنه حاد البصر بعيد النظر جداً ، فتوكلنا على الله ومشينا بسرعة . فبعد ثماني ساعات وصلنا عند العرب ووجدنا أن كلامه صحيح : بيت كبير على ستة عواميد ، وأمامه هودج امرأة الأمير وهو ملبس بالجوخ الأحمر . وكانوا هم عرب السلّقا الذين كنا نبحت عنهم ، وذلك البيت هو بيت جاسم ابن خرّيميس . فدخلنا وسلمنا عليه ، وأعطيناه المكتوب الذي معي وهو بخطي وقد كتبته ليكون وسيلة للوصول إليه . فأخذ

٧٣/٢

(١١) « عنزة » .

(١٢) « اتدخل عليه » .

(١٣) ورقة ٧١/٢ بياض — وقد أعاد الصائغ ترتيب الصفحات فجاءت ورقة ٧٣/٢ بعد ٧١/١ ، وأُخّر بعض المقاطع وقُدّم غيرها ، ونحن أعدنا سبكها على حسب تعليمات المؤلف .

المكتوب وفرح به وقراه^(١٤) وترحب بنا جداً. فحكينا له ما أصابنا فصعب عليه جداً وقال : ليتكم أرسلتم هجاناً فما كنت رحلت من حزمنا ، ولكن ما حصل إلا خير ، أهلاً وسهلاً بكم . ثم سألتني عن الدريعي وأحواله ، وعن جميع ما حدث فحكيت له إذ معه علم بالأمور الجارية . ثم أخذت بالكلام معه وابتدأت أتحدث معه من أبواب مناسبة وملائمة له حتى جذبته رويداً رويداً إلى طرفنا واعتمد على رأينا وأعطاني كلاماً ثابتاً أنه معنا على الخير والشر ، وأنه في أول اجتماع له مع الدريعي سيضع ختمة واسمه في ورقة الشروط .

(١٤) يقول الصائغ (ص ١٧٢) إن هذا الأمير لا يعرف القراءة .

[إنكلترا تبدي نواجذها]

// ثم أخبرني أن بنت سلطان الإنكليز أتت إلى تدمر، دعاها مهنا الفاضل بالشتاء، فأتت بهرج^(١) عظيم وكبر زائد، وبقيت نحو عشرة أيام في تدمر، وهبت أموالاً وأعطت بخاشيش كثيرة وقد شاع الآن خبرها^(٢) بالكرم في تدمر وبين القبائل. وهي بنت سلطان الإنكليز، وهذا شيء أكيد، وهي معروفة عند الحكام وكل أهالي البلاد، ومقيمة حالياً في حماة. وصار كل من يحكي عنها ويتحدث بصيت كرمها ويعظم به، لأن من عادة العرب أن يكبروا الحكاية ولو كانت وضيفة وخصوصاً بالبهية. فدخل علي الوسواس من هذا الخبر وتصدع^(٣) عقلي، وماعدت أصدق متى سأصل عند الشيخ إبراهيم لأطلععه على هذا الخبر//^(٤).

فدرا في القبيلة ودعينا عند كبارها وهي عشيرة عظيمة تحتوي على ثلاثة آلاف بيت وأغنى فرسان، أنفسهم قنوعة جداً^(٥). فأقمنا عندهم خمسة أيام، ورحلنا معهم مرحلة. ثم ٧٤/١

(١) هرتك .

(٢) «خبرنا» [كذا].

(٣) «وانشعب» .

(٤) جميع هذا المقطع ورد في المخطوطة صفحة ٧٢/١.

(٥) عبارة الصائغ غير واضحة المعنى فهو يقول: «أغنا فرسان أنفسهم رضية جداً» .

بعد ذلك وصلنا خير أن الدرعي نازل في نواحي القُبَيْسَةِ^(٦)، بعيداً عنا نحو أربعة أيام . فودعنا حالاً جاسماً وعائلته وكبار قبيلته وكامل المحبين وتوجهنا طالبين الرجوع عند الدرعي . ومن بعد مسير أربعة أيام ، وصلنا بالسلامة عند عربنا ، فوجدنا الشيخ إبراهيم والدرعي في وجل عظيم جداً بسبب تأخرنا . فحكينا لهم جميع ما حدث لنا ، فشكروا الله على سلامتنا ، وسروا جداً من مكتوب جاسم وكان بهذه اللفظات :

من جاسم إلى الدرعي بعد السلام وصلنا مكتوبكم الذي يحوي سلاماً منكم صحبة عبد الله الخطيب ، وصار لنا علم بسلامتكم وحمدنا الله على هذا . وتكلم معنا عبد الله المذكور بكل ما يلزم ، وأفهمنا كل ما حدث ، وعلمنا منه عن مرادكم ، فرأيكم عندنا حسن جداً وقبلنا شروطكم ، ونحن وأنتم إن شاء الله بالخال الواحد ، ليس بيننا شيء محرم غير الذي حرمه الله . وأنا معكم وعلى رأيكم بجميع ما يصدر من خير وشر . على هذا قول الله ورأي الله ورأي محمد وعلي ، والخائن يخونه الله . ومتى تواجها معكم نضع ختمنا بالشروط ، ونكون معكم أحسن من غيرنا ، لأن صحبتنا معكم قديمة ومحبتنا إن شاء الله مستديمة .

٧٢/١ سدى ، بارك الله بهمتك . / ثم أخبرت الشيخ إبراهيم سرّاً بخبر بنت السلطان ، فتعجب من هذا الخبر وصار في وجل عظيم وأخبر الدرعي . فصرنا جميعنا متحيرين من هذا الخبر ، وصرنا نحسب أشكالاً وأشكالاً وحسابات شتى . وكلما اقتربنا من تدمير نسمع هذا الخبر من كل شخص نلقاه وهو يزداد ويكبر . فدخل الوسواس على الشيخ إبراهيم ، وقال : إنها أتت خصوصاً ضدنا لتعكس أشغالنا ، ويظهر أن سرنا قد انكشف ، ولكن لا نستطيع أن نفهم شيئاً إلا من تدمير .

ثم رحلنا ثاني يوم ، ولم نزل نرحل بسرعة ونقرب إلى نواحي تدمير . وفي قليل من الزمن وصلنا إلى تدمير ونزلنا بعيداً عن البلد نحو ساعة على ماء أبو الفوارس . فنزلت إلى تدمير ، وسلمت على الشيخ وكامل المحبين ، واستخبرنا عن المادة ، فأخبرني الشيخ علي أن بنت سلطان الإنكليز قد أحضرها مهنا الفاضل ، وأقامت ثمانية أيام في تدمير تدور فيها وترى [آثارها] ، وأعطت هدايا كثيرة لأن كرمها زائد ، وهي لابسة ألبسة^(٧) رجال ، وتركب الخيل

(٦) « القيسي » .

(٧) « كسم » .

مثل الرجال ، وهي بنت سلطان ومرادها الإقامة في هذه البلاد لأنها ، على ما أخبرني ، دائماً مريضة ، وقد وصف لها الأطباء^(٨) الإقامة بهذه الأقاليم ، وهي الآن في حماة وقد كسب منها الفاضل منها كثيراً ، وجميع العرب يشكرونها لأنها صرفت مالا جزيلاً على العربان . وفي حماة لم يزل العرب يلقون عليها ، وهي تقدم لهم الهدايا ، لأنها تحب العرب كثيراً ومرادها المعرفة بهم ومحبتهم^(٩) . ولم تنزل تهدي الحكام التحف الإنكليزية وأصبح لها صيت عظيم .

فهذا الخبر دخل علي منه الوسواس بالأكثر ، وعمي قلبي وتأكدت أنها مرسله خاصة حتى تفسد عملنا . فرجعت عند الشيخ إبراهيم وحكيت له جميع ما سمعت ، فتأكدت عنده [ظنوني] ، وأشتد قهره ودخل عليه الوهم والهم . وأعلمنا الدريعي أيضاً فقال المذكور : لا تفكروا بشيء ، والله العظيم لا أغير نيتي نحوكم ، ولا يمكن أن أدع أمرها يسلك وفي جسدي نقطة دم ولو صفت لي أكياس الذهب من أبواب حماة إلى الهند . فكونوا مطمئني البال والخطر ، فأنا أعطي كلاماً ولا يمكن أن أرجع عنه حتى الموت . فابقوا أنتم على حالكم وتديروكم ولا تغيروا شيئاً مما يجب عمله ، وضعوا في عقولكم أن هذه المادة ما سمعتم بها ، وثابروا على جهدكم وارفعوا كامل الوسواس من فكركم . وقال : أنا عندي الرأي أن نتوجه أولاً/نحو بلاد حوران حتى نكشف أخبار ابن سعود ، وبعد ذلك نتابع الرحيل ونذهب نواحي حماة وحمص وغيرها . فقال الشيخ إبراهيم : بما أن الأمر كذلك فانزل يا عبد الله إلى القريتين واحضر لنا ما بقي من اللبس الذي عند الخوري موسى ، ونخذ هذا المكتوب وأرسله مع ساع خاص إلى حلب ، يكون أميناً معروفاً نصرانياً حتى يجلب لنا مصريات ،/لاذلم يبق معنا مصرية واحدة .
وما أننا سنذهب نواحي بلاد حوران فسيكون حتماً طريقنا على القريتين . فحين نكون قرييين منك نرسل لك خبراً ، وأثناء ذلك يكون حضر الساعي وأتى بالدرهم فتحضر عندنا . أما أنا فرغبت في ذلك إذ كنت ستمت من البرية والتعب والعطش والجوع والرحيل والنزول والوسخ والأخذ والرد^(١٠) والخطر . فقلت بعقلي : أنزل إلى القريتين وأقيم بها نحو خمسة عشر يوماً إلى حين رجوع الساعي ، وأنام براحة في بيت الخوري وأغسل ثيابي وأغير أفكاري ، لأنني كابدت أتعاباً ومشقات شتى ما لا يوصف ولا يجب ذكرها .

(٨) «الحكام»، يريد الحكماء.

(٩) «والحبة» .

(١٠) «المعالجات» .

[عبد الله يهتف باسم امرأة وينجو من الموت]

ففي اليوم التالي استعديتُ حالاً وبكل سرعة وأخذتُ المکتوب ، وركبت وركب معي عبد من عبید الدريعي اسمه **فُطَّة** ليوصلني ، وجدينا بالمسير من قبل الشمس إلى ما بعد العصر ، نحو عشر ساعات جداً عظيماً فكشفنا على نزل عرب كبير ، نازلين في منزلة يقال لها **القمقوم** ، ما بين تدمر والقريتين ، ولم نعرف من هم من العرب إلى أن وصلنا إلى البيوت ، وإذا هم المواجهة أكبر أعدائنا ، وما عاد يمكننا الرجوع كلياً ، فتقدمنا إلى بيت كبيرهم وهو بيت أميرهم برجس ابن أهديب ، وكان عنده جمع عظيم أمام البيت ، فحين نزلنا من على الدلول وصرنا على الأرض عرفني برجس وعرف عبد الدريعي ، فحالاً أمر بتقطيعنا ، فأشهروا سيوفهم وركضوا علينا وقبضوا أولاً على العبد فضة فقطعوه نحو خمسين قطعة ، وأنا أرى ذلك بعيني ، ثم تركوه وأتوا نحوي كالغزاة^(١) ، والسيوف مجردة بأيديهم ، فحين رأيتهم مقبلين علي ورأيت العبد قتيلاً انقطع قلبي من الخوف ، وغبت عن الدنيا ، فما أذكر إلا أنني رأيتهم جاءوا ليقتلوني فصحتُ أنا وقبع بنت هذال^(٢) ، وغبت عن الوجود وصرتُ مثل الميت لا أدرك شيئاً ، ولا أدري إلا أنني لما فتحت عيني وجدت نفسي في فراش ، وعلى رأسي نحو عشرين

(١) « غارة » .

(٢) إن الاستجارة بالنساء معروفة عند العرب في الجاهلية والإسلام ، وما يقوله الصائغ لا يخرج عن المألوف المشهور .

٧٥/١ امرأة من العرب، منهن بأيديهن بصل يشممنني إياه، وبأيدي غيرهن شرائط^(٣) محروقة وصوفات محروقة، ومع غيرهن شعر محروق، وأناس ترش الماء على وجهي/واحدة منهن ماسكة بيدي تشد عليها وتقول: لا تخف يا عبد الله، تراك عند بنت الهدال، سكن روعك وقوي قلبك، أنت عند بنت الهدال، والله لأأخلي يصيبك مطر السماء، لا تخف افتح عينيك. فصرت أسهو ولم يبق لي إدراك لأعرف أين أنا وأصبحت مهبولاً^(٤)، أرى الناس بعيوني ولكني لا أستطيع الكلام ولا أعرف نفسي عند من أنا موجود، إذ قد ذهب من عقلي كل شيء ونسيته وصرت مثل الطفل الذي لا يدرك شيئاً. فأخذت تسقيني زبدة مذوبة إذ ييس حلقي^(٥)، ولساني مربوط وحالتي حالة الموتى. ودمت على هذه الحالة الشنيعة كل تلك الليلة، وعند الصبح وعيت نوعاً ما وصرت أتكلم رويداً. فدخل برجس حتى يراني ويتصالح معي، فحلفت امرأته بحياة رأس أخيها عبد الله الهدال أنه لا يدخل عندها حتى يشفى عبد الله ويعود كما كان. فأقمت ثلاثة أيام وثلاث ليالي عندها وهو لا يدخل البيت بل إنه كان ينام خارجاً عند الضيوف، وما دخل البيت بسبب اليمين الذي حلفته. فبعد هذه الأيام الثلاثة ركن قلبي ورجع عقلي وملكتُ حواسي فدخل برجس وغار^(٦) عليّ حتى يصالحني، فامتنعت عنه ولم أرد الصلح، فصار الحاضرون يترجونني أن أصالحه وأسمح عما مضى، فما كنت أقبل بذلك وأخيراً أتت امرأته وقالت: إكراماً لحاطري صالح برجس وتآخ معه، فما مضى قد مضى. فلم أستطع أن أرفض طلبها لأن حياتي على يدها، فقممت وصافحته وصالحته على شرط أن يكون هو أول محب لنا، ويتحد معنا ويضرب ختمه في شروطنا ويكون معنا على الخير والشر. فقبل ذلك وتصافحنا ثانياً. وأهداني عبداً لأقدمه للدريعي بدلاً من العبد الذي قتل، واسمه جوهر، وقال برجس: قتلت لكم فضة وعوضت عنه بجوهر وهو أغلى وأثمن. ثم خرجنا من [بيت النساء]^(٧) إلى مجلس الرجال فأمرؤا بالبائس وابتدأوا يعدون ضيافة الصلح، وراقت الأمور وحصل الحظ والإنشراح. وفيما نحن/على هذه الحال قبل الغداء، إذ وصل مكتوب من الدريعي إلى برجس لأن الخبر كان بلغه بأني قُتِلْتُ وأن العبد قد قتل. وكان بهذه اللفظات:

(٣) «شرائط».

(٤) «مهبول مبضول» (٩).

(٥) «زلاعي».

(٦) أقبل.

(٧) «إلى برا».

من الدريعي ابن شعلان إلى بركز^(٨) ابن اهديب ، أعلم يا بركز أن مردود عليك النقا التام ، فكن على حذر^(٩) ، إن مكنتني الله سأجازيك على فعلك هذا أضعافاً ، فنهار غد نحرك جوادنا لقتالكم ، ولا أرجع عنكم حتى لا يبقى في قبيلتكم من يخبر عنكم ، يا خائن ، يا عثماني ، يا فاسخ عهود العرب ، الذي خرق رسوم عنزة ، الذي أساء بسمعة^(١٠) العريان بفعاله الردية ، يا قتال ضيوفك ، يا أسود الوجه ، أعلم أن دم عبد الله غال جداً لا أرضى نظيره كل عشيرتك فأندرك يا خائن فكن على حذر^(١١) .

فمن هذا الكلام اصفر وجه بركز والحاضرين وقالوا : لو كان عبد الله قتل كنا حسبنا حساباً كبيراً ، ولكن نحمد الله لأن عبد الله حي . و[بحسن] تدييره و[بعد] نظيره لا يحدث إلا الخير . فقلت كونوا في برج الراحة ولا تفكروا بشيء لا يصير إلا الخير . هاتوا لنا الغداء عاجلاً كي نمشي ونلحق [بعربنا] قبل بساعة لنطفي هذه النار ، لأنهم متى رأوني حياً يهون الأمر . فحضر الغداء وبعد القهوة ودعناهم حالاً وركبت وبعد قليل وصلت^(١٢) . فحين رأني الشيخ إبراهيم مقبلاً عليه وأنا على أحسن حال^(١٣) ، وقع على الأرض وصار يكي ويقبل الأرض ويشكر الله . وركض الدريعي علي وجميع الحاضرين وهم لا يصدقون من شدة الفرح ، فجلسنا وحكيما لهم كل ما جرى من الأول إلى الآخر ، وبردنا همتهم وقدمنا العبد بدلاً من العبد الذي قتل ، وعملنا على تهدئة خاطر الدريعي على بركز ورفعنا فكرة^(١٤) الحرب التي كانوا مهتمين بها ، لأني وجدت العرب جميعهم حاضرين ومستعدين ، وكان مرادهم أن يركبوا في اليوم التالي على المواجبة . فتقع أمور رديفة جداً فتلافيناها^(١٥) . وذهبنا ثاني يوم وبعد تلك المرحلة نزلت إلى القريتين وسلمت على الشيخ رجب وعلى الخوري وعلى موسى بن ورده/وعلى كل المحبين وفي اليوم التالي وجدنا ساعياً إلى حلب وأرسلناه ليحضر لنا الدراهم وجلسنا نستريح ونغسل شقاء جسدنا من التعب .

(٨) كذا في هذه الصفحة من المخطوطة وما بعدها ، والصواب برجس كما الصفحات السابقة .

(٩) «حضر» .

(١٠) «رذل» .

(١١) «حضر» .

(١٢) يقول الصائغ صفحة ١٧٨ أنه سار عشر ساعات سيراً حثيثاً قبل أن يكشف على نزل المواجبة ، ولعل الدريعي كان اقتراب من خصومه .

(١٣) «طيب» .

(١٤) «همة» .

(١٥) «فمضت المادة» .

[غارة وهابية على تدمر]

فبعد جلوسي بقليل من الأيام ، إذ وصل خبر أن غزواً كبيراً من طرف الوهابي جاء إلى الديرة الشامية ، وهو يعمل على تخريب الضيع والقرى ونهبها . فخاف أهالي القريتين جداً ونبه الشيخ سليم إلّا يتطرف أحد خارج الضيعة ، وكل ليلة كانوا يحرسون^(١) ، وكان هذا الخبر صحيحاً ، لأن ثاني يوم أتى خبر أن الغزو الوهابي ضرب تدمر ولم يستطع أن يدخلها لأن من المعلوم أن لها باباً يغلقونه فتصبح في مناعة عظيمة ، فالتدامرة مقيمون في مكان مثل القلعة ، وهو هيكل الشمس القديم . فلم يتمكن الوهابيون من دخول البلد ، ولكنهم وجدوا بعض الأنفار خارجها فقتلوهم وأخذوا جانباً من جمالهم وذهبوا إلى أرك ، وهي ضيعة تبعد عن تدمر نحو خمس ساعات ، فكبسوها عند وجه الصبح وقتلوا جميع الرجال من كل جنس ذكر ، ولم يبقوا إلا على النساء فقط ، وأحرقوا البيوت وأخذوا طروشهم ، وقد فعلوا كل ذلك نكاية بالدرعي . فخاف أهالي القريتين جداً ، ولم يبق أحد له الجراءة^(٢) ليخرج منها أو يدخلها ليلاً أو نهاراً وهم يحرسون دائر الضيعة تحت الخوف والرعب .

فأقيمت عشرين يوماً بالقريتين ولم يحضر الساعي . فكنت في وجل عظيم خوفاً من أن يكون التقى بالغزو الوهابي حين رجوعه ، فقتلوا الساعي وأخذوا منه الدراهم . فكنت في

(١) « ينظروا بالليل » .

(٢) « الجراءة » .

خوف وتفكير شديد جداً إذ وصل الساعي بالسلامة وأحضر معه المطلوب . فسألناه عن سبب تأخره فقال : كنتُ في صدد منذ خمسة أيام جالساً بها خوفاً من الغزو إذ بلغني خبر ذلك . وقد منعني الشيخ عساف ، شيخ صدد ، عن الذهاب حتى عرف أن الطريق نظيف فأرسلني . وهو يسلم عليك . فسألته عن أهالي صدد إذا كانوا خائفين من الوهابي قال : لا لأن لهم أخاً^(٣) من الوهابي — وهم يقدمون له كل سنة شيئاً معلوماً — يحميهم من كل ضرر يحدث من الوهابي . واستخبرت عن عربنا فأخبروني أنهم وصلوا إلى غوطة^(٤) الشام ، ولكن الوصول إليهم صعب لأن أهالي القريتين لا يستطيعون السفر خوفاً من أن يلتقي بهم الغزو الوهابي . فاضطررتُ أن أسافر ليلاً مع اثنين من أهالي القريتين ، من النصاري ، إلى صدد فوصلتُ وسلمتُ على الشيخ عساف وكامل المحبين . فسألني الشيخ عساف وأهالي صدد عن تجارتنا^(٥) مع العرب ، فقلت : لله الحمد نحن مسرورون جداً وراحمون ، وغرشنا كسب خمسة مع العرب ولو كنا نعرف أن التجارة مع العرب فيها كل هذا الربح لكننا تعاطيناها من زمان . فدخل ذلك في عقلهم لأنهم قد عرفونا على هذه الصنعة وهذا كان كلامنا معهم منذ الابتداء . فجلست عندهم يوماً وفي اليوم التالي تزيّيتُ بزي^(٦) أهالي صدد ، أي لبست مثلهم ، وأخذت معي اثنين من أهالي صدد لأنهم مضمونون^(٧) لدى الوهابي ، وسافرت من عندهم قاصداً غوطة الشام . فبعد ثلاثة أيام وصلت عند عربنا ، فوجدتهم نازلين بالغوطة ، ونازلاً إلى جانبهم بركز^(٨) ابن اهديب بكل قبيلته ، وأصبحت المحبة بينهم عظيمة . وقد وضع بركز اسمه وختمه في ورقة الشروط . وأما الأمير مهنا الفاضل فهو نازل نواحي الزرقا والبلقا ، ومعه جملة قبائل من عرب جبال شمر ، ويريد قتال الدرعي وأخذ ثأره السابق . وبلغنا أيضاً أنه عمل رباطاً مع حكام حمص وحماة ضد الدرعي ومن يلوذ به ، واشتد أثره بقوة عظيمة من عرب وعثمانيين . فرأينا من المستحسن فسخ هذا الرباط وذلك بأمر والي البلاد ، وهو وزير الشام سليمان باشا ، إذ يوجد بيننا وبينه

(٣) الأخ ، في العرف البدوي ، شيخ عشيرة أو قبيلة ، كبير السلطة يأخذ الخوة من عشيرة أو قرية ضعيفة ويحميها ، ويكون أحياناً من بعض أفراد البدو .

(٤) «غوطة» .

(٥) «متجرنا» .

(٦) «بكسم» .

(٧) «مسوكرين» .

(٨) بركس .

محبة عظيمة، وبنوع خاص بيننا وبين مديره الأكبر المعلم حايم اليهودي، فأصبح من الضروري أن نركب من الغوطة وننزل إلى الشام أي الشيخ إبراهيم وأنا.

[ميلادي استانوب]

// فنزلنا في بيت المعلم حايم ، فترحب بنا بكل إكرام . وقبل كل شيء سألناه عن بنت سلطان الإنكليز . فأخبرنا أن ابنة أحد وزراء دولة الإنكليز ، يقال لها ميلادي استانوب ، تريد الإقامة بهذه الأقاليم لأن هواء بلادها لا يناسبها ، وذهبت إلى تدمر وطلبت من الباشا بولردي إلى حكام حماة وحمص . وهي الآن مقيمة [في حماة] وربطت أواصر الصداقة المتينة مع العرب ، وصاحبة كرم زائد ولا تزال تهب وتعطي ولا أحد يعرف حقيقة نيتها . فتشوشت أفكارنا من كلام المعلم حايم ، وبما أن المذكور على علم بسبب سياحتنا فإنه حرص على أن نكون مطمئنين البال وقال : لا تخافوا ، أريد منكم فقط إن شاء الله أن تربطوا شغلكم جيداً مع العرب وكما يجب ، وأنا معكم دائماً ، وأعمل كل ما أستطيعه لصالحكم . ثم اطلعنا أيضاً على أحوال مهنا الفاضل وعلى الرباط الذي أجراه مع حكام حمص وحماة^(١) ، وطلبنا منه بولردي من قبل سعادة الوزير إلى حكام حمص وحماة يفسخ رباطهم مع مهنا ، ويطلب منهم أن يكونوا مساعدين للدرعي في كل ما يلزمه من الأمور والمصالح . فأحكم المعلم حايم العمل مع سعادته وأخرج لنا بولردي عظيماً مشدداً جداً وكان مضمونه بهذه اللفظات : /

افتخار الأماجد الكرام ، أولادنا المحترمين ، وكيل متسلمنا بمحروسة حماة سليم بك ، ووكيل متسلمنا بمحروسة حمص حسن آغا مملوك ، وسائر الضباط من دالي باشا وآغة

(١) ورد هذا المقطع صفحة ٧٢/٢ و ٧٣/١ .

هواسره^(٢)، وكامل خدام بابنا، وجميع وجوه البلاد، نحيطكم علماً أنه قد طرق إلى مسامعنا أنه حصل منكم تعاهد ورباطات باهوية أنفسكم إلى طرف مهنا الفاضل، ضد محسونا وخاصتنا، افتتحار أمراء العشائر والقبائل ولدنا الدرعي ابن شعلان. فهذا شيء ضد إرادتنا وبخلاف خاطرنا، ولا نرضى به كلياً لأنه غير مناسب لسياسة حكمنا. فالمراد أن ترجعوا عن غيركم الذي أنتم معتمدون عليه، وتكونوا محبين ومساعدين لولدنا الأمير الدرعي في كل ما يلزم ويقتضي له من الأمور والأغراض، حيث فوضناه في ديرتنا، فليكن ذلك معلوماً كل العلم لديكم، وتعتمدوا عليه غاية الاعتماد، والحذر كل الحذر من حركات المخالفة لأمرنا هذا والسلام.

فوضعنا البولردى عندنا واشترينا لوازمنا من دمشق، وأصبحنا جاهزين للسفر. فقال الشيخ إبراهيم: يجب أن نذهب ونسلم على الطبيب الفرنسي شاباصون قبل خروجنا، فلربما يكون عنده أخبار من فرنسا قد نحتاج إليها. فتوجهنا عند المذكور وسلمنا عليه، فوجدنا عنده الشيخ إبراهيم السائح الإنكليزي^(٣) فسلمنا عليه. ولكن الشيخ إبراهيم استاء لأنه التقى بالإنكليزي المذكور، لأن ذلك ضد مصالحنا وأوصائي أن أكون يقظاً لكل كلمة أقولها أمامه. وأما المذكور فإنه عمل كل جهده واحتال حتى يكشف أخبارنا ويطلع على أمورنا ويعرف أسباب سياحتنا فما استطاع، ونحن عدنا حالاً إلى منزلنا وتوجهنا في اليوم التالي عند عربنا من غير تمهّل فوجدنا الدرعي في حوران نازلاً عند الأمير دونخي/ابن سمير. فأعلمناه بالذي جرى وأعطيناه البولردى ففرح به. ثم أقمنا بعض الأيام في حوران ووصلنا خبر عن الوهابي أن قواته زادت جداً ويريد امتلاك ديرة عربستان وهو آخذ بتدبير ذلك. أما مهنا فهو بصحبة عربان كثيرة تلوذ بالوهابي، ومراده قتال الدرعي. فدخل علينا الخوف والوسواس وفكرنا^(٤) بعقولنا أن الإنكليز حضروا عند الوهابي عن طريق بحر الهند من بوغاز^(٥) باب المندب، وارتبطوا مع الوهابي وأرسلوا ميلادي استانوب عن طريق بر الشام، وارتبطت مع مهنا الفاضل الذي هو خصمنا، ومرادهم خراب نظامنا ومنعنا عن متابعة مقاصدنا، من بعد

(٢) كذا في الأصل ولم يظهر المعنى.

(٣) هو السائح السويسري بوركهارت الذي اكتشف آثار بترا.

(٤) وكسرنا المادة.

(٥) مضيق.

تعب ثلاث سنين^(٦) ونحن بهذا العمل . فقال الدريعي : كونوا مطمئني الفكر من طرفي ، إني أعطيت كلاماً ولا يمكن أن أرجع عنه ، وأنا أضمن جميع الذي اتفقوا معي أنهم لا يخونون . وماذا تستطيع أن تعمل هذه البنت ؟ أما الوهابي فإني لا أحسب له حساباً ، لأنه في ديرته وكل ما هو قادر عليه إرسال جيش^(٧) علينا ، ويعون الله لا آكل هم ، أولاً لأن الحكام يجب أن تساعدنا عليه ، فهو عدو السلطان وعدو الديانة ، ثانياً أصبحنا نحن ، بعون الله ، نحو عشرين قبيلة ، متحدتين على رأي واحد ، نقاتل ملوك الروم^(٨) ، فكونوا أقوياء القلب ولا تفكروا بشيء أبداً . فأطمأنت قلوبنا نوعاً ما .

وثاني يوم رحلنا من حوران وابتدأنا بالتقرب من حصص وحماة . وبينما نحن بالقرب من حصص إذ وصل مكتوب من الميلاي إلى الشيخ إبراهيم تدعوه عندها بحماة ، وتعلمه أنها أرسلت من يحضر حرمة مدام لاسكاريس من عكا إلى عندها بحماة ، لأن الشيخ إبراهيم متزوج كرجية وذلك حين كان في مصر مع العمارة^(٩) ، وحين حضر من باريس إلى عريستان أتت معه وأبقاها في عكا كما تقدم الشرح سابقاً^(١٠) . / ضاق صدر^(١١) الشيخ إبراهيم من ذلك جداً وفهمنا أن الشيخ إبراهيم الإنكليزي هو الذي حدثها عنا حين رآنا بدمشق . فاضطر أن يكتب لها جواب مكتوبها بكل رقة واحتشام ، ووعدها أن يزورها في حماة بعد عدة أيام . وكان القصد من ذلك أن يرسل علماً إلى مدام لاسكاريس لينعها عن الحضور عند الميلاي . فأرسل ساعياً إلى ميلاي ، وكتب مكتوباً إلى امرأته بعكا يحذرهما من الذهاب عند ميلاي ، وأرسله مع ساع خاص . فعاد الساعي وأخبر أنه لم ير مدام^(١٢) لاسكاريس في عكا ، وأخبروه أن ميلاي أرسلت وأحضرتها عندها وهي ذهبت

(٦) كان التوقيع على الرباط في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨١١ ، أي بعد سنة وتسعة أشهر من مغادرة لاسكاريس والصابغ مدينة حلب . ثم تابعا رحلتها خلال الشتاء والربيع . وعليه فالحوادث المذكورة هنا ، على ما يظهر من سياق الحديث ، وقعت في صيف سنة ١٨١٢ .

(٧) «أرضي» .

(٨) يريد العثمانيين .

(٩) الحملة الفرنسية .

(١٠) انظر أعلاه ص ١١٩ .

(١١) «فانحصر» .

(١٢) السيدة .

حالاً بملء إرادتها، إذ لها ثلاث سنوات من غير خبر من زوجها الخواجه لاسكاريس فتضايق جداً من هذا الخير ونزل إلى حماة وبقيت أنا عند العرب .

وأما مهنا فإنه لم يزل يقرب إلى طرفنا مع القبائل التي معه ، حتى بقي بيننا مقدار مرحلة واحدة ، وأصبحنا جميعنا في طبراق حماة وحمص . فنزل سحن ابن الدريعي إلى حمص ومعه البولردى ، فأقام ستة أيام ثم عاد وبصحبه الشيخ إبراهيم ، وأخبرنا أنه عرض البولردى على الحاكم فأطاع للأمر ، وعمل إكراماً زائداً لسحن وألبسه فروة ، وتوجه من حمص إلى حماة وهناك أيضاً حصل له إكرام وهدايا من الحاكم وكامل الضباط^(١٣) وأكابر البلد ، وكذلك ألبسه المتسلم فروة و وعدوه بكل ما يلزم من المساعدة دون أي قصور ، وامتلأوا بأوامر الوزير . //وربط سحن رباطاً مع الحكام مقتضاه أنه متى نزل مهنا أو أحد أولاده يرمون القبض عليه بحجة أنه أحضر عرباً وهابيين ، وهم أعداء سلطاننا وديانتنا ويريد أن يسلم البلاد للوهابي//^(١٤) .

أما سحن فحين كان بحماة أرسلت ميلادي تدعوه عندها . وتناول عندها طعام الغداء ، وعملت له إكراماً زائداً وأعطت هدايا له ولأبيه ولزوجة أبيه لأن والدته متوفية ، وهدايا أيضاً لزوجته ، وألبست جميع من معه من الفداوية كل واحد عباءة وجزمة و وعدته أن تزوره .

وأما الذي جرى للشيخ إبراهيم فإنه حين نزل إلى حماة وجد مدام لاسكاريس قد وصلت ونزلت عند ميلادي . فاستاء من ذلك من غير خوف لأنه على علم أن امرأته لا تعرف شيئاً من أمورنا لتحدث بها ميلادي . وبعد أن سلم/على المذكورة أخذت تسأله عن أمور كثيرة وعن سبب حضوره وعن نيته ، ولكن بكل ظرافة تريد أن تسرق منه الكلام فلم تحصل بفائدة ، فاستاءت منه وأخذت تتحدث معه بقساوة وحتمت عليه بأمر أن يقول لها ما هو مراده من هذه السياحة بين العرب . فدخل عليه الحمق من ذلك واختلف معها إختلافاً شديداً وحرد عليها وأمر امرأته ، مدام لاسكاريس أن تعود حالاً إلى عكا . وفي اليوم التالي تمكن من العودة عند عربنا مع سحن . وبعد قليل سافرت ميلادي إلى دمشق ورجعت مدام لاسكاريس إلى عكا .

٧٨/٢

(١٣) «الظبط» .

(١٤) ورد هذا المقطع ص ٧٣/١ منفرداً وأثبتناه هنا وفقاً لتأثيرات التي جاءت في المخطوطة .

[الصلح بين الدرعي ومهنا الفاضل]

وأما مهنا الفاضل فإنه كان يريد الحرب معنا لا سيما وقد اشتد ظهره بحكام حمص وحماة، فأرسل ابنه فارساً ليطلب منهم العساكر والمعونة علينا، فرأى الحال متغيراً جداً، وحالاً رمى حسن آغا المملوك متسلم حمص القبض عليه وعلى جميع من معه، نحو عشرة فداوية، وكبلهم بالزنابير، وأفهمه أنه يفعل ذلك على حسب أمر الوزير، لأنكم جثتم بالعرب الوهابيين الذين هم أعداؤنا، وتريدون أن يملك الوهابي عربستان^(١). فخاف فارس ابن مهنا جداً من ذلك وأرسل يخبر أباه بالذي جرى. وأما نحن، فحين بلغنا ذلك، أرسلنا حالاً مراسلاً^(٢) إلى مهنا ننذره أن أستعد غداً للحرب والقتال فإننا محركون عساكرنا عليك. وكان مرادنا أن نخطه بالمصائب من كل الأطراف. فحين وصل رسالتنا إليه، وأخبره أن غداً صباحاً سيشن عليه الدرعي الهجوم، وكان عَلمَ قبل ذلك بقليل أن ابنه فارساً قد ألقى القبض عليه في حمص، ومن جهة أخرى رأى أن عربيه قليلون وأن الدرعي أولاً أقوى، وثانياً أن الحكام والوزير من طرفه، فكبر عليه الوهم ودخل عليه باب الخوف، فتلك الليلة رحل ليلاً بكامل عربيه ونزل إلى صدد، عند الشيخ عساف، يترجاه أن يمشي بالصلح ويصالحه مع الدرعي/إذ رأى أن الأمور عظمت عليه ولم يبق له ملجأ، فخاف من الأعظم

٧٩/١

(١) «عرب بستان».

(٢) رسول أو مرسل.

ودخل على الشيخ أبو إبراهيم وترجاه . فركب الشيخ المذكور ومهنا وأربعة مشايخ قبائل من الذين مع مهنا ، وبصحبتهم نحو مئة خيال لا غير وحضروا عندنا ، وكنا نازلين على عاصي حماة . فأبقاهم جالسين في محل بعيد عنا نحو نصف ساعة ، وحضر وحده ليعلم مرادنا ، خوفاً من أن لا يكون لنا رغبة في الصلح ، والحال أن الصلح كان جل مرادنا .

فحضر المذكور فترحبنا به وأظهرنا له ^(٣) غاية الإكرام اللائق ، فابتدأ يتكلم بخصوص الصلح فصار الدرعي يعتذر ويمتنع فترجينا نحن أيضاً وقام ابنه سحن وقبّل يده وترجاه ، فأعطى كلاماً بالصلح بشرط أن يرضعوا أسماءهم وختموهم في ورقة الشروط . فأخذ الشيخ عساف على نفسه ضمان ذلك ، وركب للإتيان بهم فحضرنا جميعهم ، فركضنا لملاقتهم وأنزلناهم بكل إكرام وإعزاز . فأمر الدرعي بالقهوة فقال مهنا : يا ابن شعلان لا نشرب قهوتك قبل أن نتصالح ونتصافح ونطمر الحصى ^(٤) . وحالاً قام مهنا والدرعي واشهرا سيفيهما وكل واحد قبّل سيف الآخر . ثم أنهما تصافحا مع بعضهما وصار كل من الحاضرين يقبل الآخر . وابتدأت النساء تهاهي وتزلفن . ثم أخذ مهنا سبع حصيات من الأرض وحفر مقدار نصف ذراع في الأرض ، وأمسك الحصيات بيده وقال : يا درعي هذا حقك وحقي طمرناه إلى الأبد . ودفن الحصيات في الحفرة وردّ التراب عليها ، وداسها برجليه وتفل هو والدرعي عليها بعد الطمر ثم جلسا . وأمروا بالقهوة وما عدت تسمع كلمة واحدة مما يخص ذلك . فتعجبنا أنا والشيخ إبراهيم من ذلك لأننا ما كنا رأينا بعد هذه النكتة ولا سمعنا بها . فسألنا عن ذلك فأخبرونا أن ذلك من عاداتهم ، ومعنى السبع حصيات هي السبع فتن التي صارت ضد الإمام علي بالكوفة بعد محمد . وعلامة الطمر أن الشيء مات ولا عاد يذكر ، والتفل فوقه يعني/على ^(٥) الشيطان خزاه الله ، لأنه هو محرك الشر بالعالم فهذا من جملة عاداتهم وتقاليدهم ^(٦) .

٧٩/٢

(٣) «وسقنا معه» .

(٤) «الحصوات» .

(٥) يتدبّر هنا الكزاس رقم ١٠ . أما التفل فمعناه البصاق .

(٦) «ذياتهم» (٩) ولعله يريد أنيائهم . إن عادة دفن الحصى طاعة بالقدم وقد ذكرها شهاب الدين العمري وابن ناظر الجيش والقائد شندي ، ونظن أنها زالت اليوم أو أخذت بالزوال . (انظر مقالنا : رحلة فتح الله الصائغ إلى البادية ، مجلة العرب ص ٧٩٦ ، ج ١١ ، ١٣ ، سنة ١٤٠٦ هـ كانون الثاني ، شباط ١٩٨٦ ، رياض) .

وبعد الغداء حدثت خلوة كبيرة قرأنا عليهم ورقة الشروط فأعجبت الجميع . وحالاً وضع مهنا ختمه واسمه بالورقة وكذلك رؤساء الأربع قبائل الذين كانوا معه ، وهم ذرّاك ابن فخر ، شيخ قبيلة الجمّان^(٧) ، عشيرته تحوي على مقدار ألف ومئتي بيت ، وأيضاً جراح ابن معجل شيخ قبيلة الجّهّما ، عشيرته تحوي على نحو خمس مئة بيت ، وأيضاً غالب ابن رمضون ، شيخ قبيلة البلاعيس^(٨) ، عشيرته تحوي على ألف وأربع مئة بيت ، وأيضاً فارس ابن نجد شيخ قبيلة المصاليخ^(٩) ، عشيرته تحوي على مقدار ألفي بيت . فالجميع وضعوا ختمهم وأسماءهم وقبلوا بما شرط عليهم وأعطوا كلاماً ثابتاً وصار صلح على أتم المراد . فارتاح بالنّا جداً من ذلك إذ لم يبق قبيلة في عربستان عدوة لنا بل الجميع اتحدوا معنا . ثم نزل سحن إلى حمص وفكّ ابن مهنا من الحبس وألبسه خلعة من المتسلم وحضر عندنا . وكذلك الشيخ عساف كشف على المادة وفهمها جيداً ، وعاتبنا لأننا لم نعرفه بنيتنا منذ البداية ، لأنه كان أسعفنا ببعض الأمور . ثم المذكور ودعنا ورجع إلى صدد .

(٧) من العشائر الغتامة المستقرة اليوم (وصفي زكريا، عشائر الشام، ج ٢، ص ٣٩ و ١٥٤).

(٨) البلاعيس: فرع من الأشاجعة.

(٩) المصاليخ، من ولد علي، من عنزة.

[حلقة زواج في البادية]

ثم تفرقت القبائل من حدود بلاد حوران إلى شمالي حلب ، جميعها عصابة واحدة قولاً وعملاً والرأس عليهم هو الدريعي ، وبقينا بانتظار خلوص فصل الصيف حتى نتوجه إلى المشرق ونكمل المقصود . وأثناء هذه المدة اتفق أن اجتمعت جملة قبائل على منزلتين كبيرتين الواحدة إلى جانب الأخرى ، بالقرب من حلب ، يقال لهما تل السلطان والمتج . فكان من جملة القبائل الجربا ، ولأميرها فارس ولد [شاب] فاهتم بزواجه وأراد أن يأخذ له بنت بركز [برجس] ابن اهديب . فتاة جميلة جداً اسمها صبيحة . فأقى عند الدريعي وترجاه أن يذهب معه حتى يطلبها على حسب عاداتهم . /فراح الدريعي وجملة مشايخ ورؤساء قبائل وبعض الكبراء سنأ^(١) ، وأنا من جملتهم لأجل المشاهدة^(٢) لأننا ما كنا رأينا بعد عرساً منظوماً . وكان بركز بعيداً عنا نحو ساعة من الزمن .

فركبنا جميعنا وكل منا لبس أفخر ما عنده ، وجاء العريس معنا إذ لا بد للعرس أن تراه . فإن أعجبها أعطت كلاماً وإن لم يعجبها ما صار شغل مثل طرائق الإفرنج . وكان اسمه جراح ، وهو شاب عظيم حلو المنظر . فحين أقبلنا عليهم كان وصلهم الخبر ، فما خرج أحد

(١) « اختيائية » .

(٢) « الفرجة » .

للقائنا ولا وقف أحد على أقدامه^(٣)، وهذه عادتهم حتى لا يقال عنهم أنهم فرحون بزواج ابنتهم، بل العادة عندهم أن يظهروا أن ليس لهم رغبة^(٤) ويعتذروا من الطالبين.

ثم وصلنا ونزلنا عن خيلنا وسلمنا عليهم فترحبوا بنا وأمر بركز بالقهوة. فبعد شرب القهوة قال الدرعي: مالك يا بركز عابس الوجه بنا؟ فإن كان ذلك بسبب الغداء، فنحن لا نريده، إذ أكلنا في بيوتنا وجئنا عندك لنراك فقط. فأجابته زوجة بركز بنت هذال التي حياتي على يدها وقالت: أهلاً وسهلاً بالدرعي وكامل من معه، مرحباً بكم، وأبشروا بالغداء والذي تريدونه حاضر أمامكم. فاستكثرنا جميعنا بخيرها وابتدأ الكلام.

وكانت العروس من خلف النساء تنظر إلى العريس فأعجبها وقالت لأُمها: قد أعجبني العريس. فصار لنا علم بأن العريس قد قُبِلَ. فقال الدرعي: يا بركز أطلب بينتك على حسب عوائدنا. فقام ودخل إلى الحرم وشاور امرأته وابنته وطلع وقال: أريد بصبحة مئة ناقة وخمسة رؤوس خيل نجادي^(٥)، وخمسة مئة نعجة، وثلاثة عبيد وثلاث عبدات، وحسائرية مقصبة، وشملة مقصبة وزيتونا^(٦) شامياً يعني قطنياً شامياً ومعاضد كهريا ومرجان أي أساور، وجزمة صفراء. فقال له الدرعي: إن كنت لاترغب في زواج ابنتك فعرفنا بذلك كي لا نتعب ونتكلم، إذ يقول المثل: إذا كنت لاتريد أن تعطي بنتك فغلّ نقدها. /والنتيجة، بعد كلام كثير ورجاء شديد، انتهى الحال على خمسين ناقة ورأس خيل ومئتي نعجة وعبد وعبدة وحسائرية وشملة وزيتون ومعاضد كهريا ومرجان وجزمة صفراء، وإلى والدها حساوية وجزمة، وإلى أخيها كذلك، وإلى أمها حساوية وشملة. وهذه الأشياء الأخيرة من غير طلب منهم، لأن العادة أن يقدمها العريس. فقال الدرعي: أكتب يا خطيب الذي صار عليه الاتفاق. فكتبت جميع ذلك في ورقة ووضعنا بها أسماء شهود الحال، وقرأنا الفاتحة على ذلك. وبعدئذ أتوا بحليب النوق وسقوا جميع من كان حاضراً. وهذا عوضاً عن الشرايات التي يقدمها أهالي المدن، وصار الوعد إلى ثلاثة أيام لإحضار النقد جميعه. ثم بعد الغداء ركب الشباب وصار ميدان لعب خيل عظيم، والعريس من جملة من جملتهم، والعروس تنظر إلى عريسها وتتفرج على لعبه فأعجبها جداً. فباركنا لهما وتوجهن إلى عربنا.

(٣) «فما حد لاقا لنا ولا قام على حيله».

(٤) «ما لهم خاطر».

(٥) خيل أصابيل لنجدية.

(٦) من التركية: نوع من الصدرية بأكام موشاة.

وفي اليوم الثاني أرسلوا رسالاً^(٧) إلى حلب فأتى بالمطلوب وأعدوا كل شيء. وفي اليوم الثالث الذي هو يوم الوعد، منذ الصباح، فرزوا خمسين ناقة بيضاء عظيمة ورأسى خيل ومثني نعجة وجميع الذي صار القول به. ثم جمعوا حشيشاً من البرية وزينوا رؤوس الناقات بالحشيش الأخضر، وزينوا العبد والعبدة وأركبوها على الفرسين اللذين تقدّم ذكرهما، وركب نحو خمس مئة خيال بأيديهم^(٨) الرماح، وساقوا الجمال أمامهم، بالغناء الحربي والتقويصات^(٩). وكذلك نحو مئتي امرأة، جميعهن مزيّنات وسائقات الغنم أمامهن، والعبدة راكبة معهن، وسائر النساء ماشيات بالغناء والتهايل^(١٠) والزلاغيط. ومشي خيال أمام الجميع ناشراً على رحمة زناً أبيض على هيئة العلم وهو ينادي هذه راية بكرز ابن اهديب. ومشت امرأة أمام الغنم، ويدها إناء من فخار^(١١) فيه نار، تضع عليها بخور البان كل الطريق ونحن سائرون. وكان أمام الجميع حامل الراية البيضاء، وبعده النوق، وبعد النوق البواردية الرجالة^(١٢)، وبعد الرجالة الخيالة، وبعد الخيالة المرأة التي بيدها البخور، وبعد المرأة الغنم، وبعد الغنم العبد راكبة، وبعد العبدات النساء، وبعد النساء الأولاد ومعهم جمل يحمل الحوائج من غير حزم، وعلى ظهره مشلح من حد رأسه إلى ذنبه، وقد نُشِرَتْ الحوائج عليه، الحاجة بعد الحاجة، حتى الجزمات مربوطة بخيطان ومدليات على جانبي الجمل، وركب أحد الأولاد من أكابر القبيلة فوق الجمل على الحوائج [وهو يقول]: أحمد الله نيران الخصم، كسر الله قوة عدونا، نصرنا الله على من يعاديننا، والأولاد ترد عليه: آمين، إلى أن وصلنا. فخرج للقاءنا نحو ألف رجل وكامل نساء القبيلة، بالبخور والزلاغيط وضرب البارود والغناء الحربي ولعب الخيل، حتى طار الغبار وغطى عين الشمس من طرد الخيل وكثرة الناس. فوضعنا جميع ما جئنا به معنا في سهل أمام البيت وجلسنا. فأتوا بالقهوة وسقوا الجميع. وكانوا غلوا القهوة بالدست الكبير. ففحصنا عن ذلك فأخبرونا أنهم وضعوا في الدست راوية ماء ونحو خمسة أرتال بن. وأما الشيخ إبراهيم فإنه أملأ طاسة قهوة وشربها، حتى يقول يوماً شربت قهوة بالطاسة من الدست. وذبحوا للغداء عشرة جمال وخمسة وعشرين نعجة غنم

(٧) رسول أو مرسل.

(٨) عبارة المؤلف بالأصل: «وبأيديهم رماح وركبت نحو خمس مئة خيال».

(٩) «والقويصات».

(١٠) «الهلاهيل».

(١١) «شقف».

(١٢) «الزلم».

حاييل^(١٣)، وضعوا أرزاً ولحماً مسلوقاً وأكثروا السمن والخبز حتى أشبعوا جميع العريان وفضل من الأكل. فبعد ذلك شربنا دسّاً آخر قهوة، وسلمنا النقد إلى بركز وكتبنا الكتاب على حسب عاداتهم وقرأنا الفاتحة، وصار الوعد بعد ثلاثة أيام نحضر لنأخذ العروس ويتم العرس. فدخلت أنا والشيخ إبراهيم عند زوجة بركز وباركنا لهم. واستكثر الشيخ إبراهيم بخيرها لما فعلت يوم الذي أنقذتني من القتل، لأنه ما كان رآها قبل ذلك. فكان جوابها إلى الشيخ إبراهيم أنها تريد أن تكمل معروفها معي فتزوجني عندها وتعطيني بنت أختها. فالمذكور شكر فضلها وعدنا إلى السنة/القبيلة إن شاء الله أنه سيحضر عندها ويزوجني، وكان ذلك وعداً بطالاً^(١٤) حتى لا يرفض كلامها، ثم توجهنا جميعاً إلى عربنا.

٨١/٢

وقبل إنتهاء الأيام الثلاثة التي سيكون العرس بعدها، إذ وصل خبر أن غزواً عظيماً وصل من عند الوهابي إلى بر الشام، بقوة عظيمة وجيش كبير. فأرسل الدرعي حالاً إنذاراً إلى جميع العريان وأعلمهم أن يكونوا دائماً مجتمعين، كل ثلاث أو أربع قبائل معاً كي يتمكنوا من أن يدفعوا عن أنفسهم ضرر الوهابيين.

وثاني يوم بعد ذلك كانت مضت الأيام الثلاثة، فاهتموا بإحضار العروس. فركب الدرعي وكل كبار القبائل ونحو ألف خيال وخمس مئة امرأة ومشينا، إلا أن العريس لم يأت معنا. والسبب أنه سيحدث قتال بين أهل العروس وأهل العريس، على حسب عاداتهم. فإذا كان العريس حاضراً فقد يقتله أحد أقرباء العروس، إذ قد يكون لأحد من الشباب خاطر بها أو أنه يحب الفتاة ويريد أن يأخذها فيقتل العريس حتى تبقى العروس له. فمشينا وحين أقبلنا عليهم نفدت خيلهم علينا مثل الأسود. فنزل كل الكبار والمشايخ الذين معنا [عن خيولهم]، وكذلك جاء كبار [قبيلة أهل العروس] ومشايخها وجلسنا بعيداً عن البيوت، وابتدأ الشباب بالحرب كأنها حرب جدية مثل العادة. فدامت الحرب نحو ساعتين من الزمن حتى وقع من الطرفين نحو عشرين جريحاً^(١٥)، وأخيراً تفوقت خيلنا عليهم وهجموا على بيت بركز وأخذوا البنت وسلموها إلى النساء. ثم أتى الجميع واجتمعنا كلنا جملةً وشربنا قهوة فقط، وإذ مقبل علينا نحو عشرين امرأة الآتي يقال هن حجابات العروس يردن أن يذهبن

(١٣) حائل تجمع على حُول وحيال، الحيوان الذي لا يزيد عمره على السنة.

(١٤) باطل.

(١٥) «مجارع».

معها، وبصحبتهن ثلاثة جمال، الواحد عليه هودج العروس ملبس جميعه ببوخ أحمر وشرايات أشكال وأشكال، ومرصع بالودع الأبيض وأنواع الخرز وریش النعام والمرابا الصغار، النتيجة منظر جميل جداً^(١٦)، وعلى الجمل الثاني البيت والعواميد، وعلى الجمل الثالث أواعي البيت مثل السراجات والبسط والنحاس لأجل المطبخ: فهذا فقط ما يجب أن على العروس أن يكون معها. / فركبنا ومشيت جميع الخيالة أماماً، والعروس راكبة في هودجها وحولها النساء، كل واحدة في هودج مزين، ومشى وراء العروس نحو عشرة خيالة من أقربائها ونحن جميعاً أمامها. وكل الدرب لعب خيل ومحارية وضرب تفنك وزلاغيط وتهاليل وكلما مررنا على عرب بالبخور ذبحوا رأس غنم أمام جمل العروس. وحين وصلنا دخلنا بيت فارس أبي العريس، واقمت العريمان من صدر البيرة وصارت تأتي حتى اجتمع خلق لا يحصى عددها غير الله. فكل تلك الليلة لعب ماصول^(١٧) ودق طبول، ورقص وإشعال النيران من كل جانب إلى أن أصبح الصباح. فابتدأوا يذبحون الذبائح لأجل أن يصنعوا الغداء، فلجحوا يومئذ عشرين جملاً وخمسين رأس غنم، وأتوا من حلب بخمسة قناطير أرز، وكانت القبائل المجتمعة لأجل العرس ثمان قبائل. فأكل الجميع وشبعوا وفضل من الأكل حتى نادوا بالنزل: «العيش يا جوعان»، إلى أن صار المساء وابتدأت الناس تعود إلى بيوتها. فذهبت امرأة فارس ومعها عدة نساء ونصبت بيتاً صغيراً على عامود واحد بعيداً عن بيتها نحو مرمى الرصاص. وكان ذلك لأجل خلوة العريس مع عروسته. ثم أنهم أخذوا^(١٨) العروس وأدخلوها ذلك البيت. وقبّل العريس يد أبيه وأمه ويد الدريعي ودخل على عروسته، وكل منا ذهب إلى سبيله.

وفي اليوم التالي رحنا على حسب العادة لنبارك للعريس فأخبرونا أنه ما استطاع أن يتزوج. وهذا شيء عند العرب عار عظيم^(١٩)، وكذلك في الليلة الثانية والثالثة لم يتمكن، حتى أصبح أحدثوة بين العرب، وصار أبوه لا يكلمه ولا يدعه يقعد بين الناس ولا يأمر له بقهوة بل أنه، من جملة علامات الإحتقار، أحضر له مغزلاً مثل الذي تغزل به النساء/ الصوف لأجل حياكة البسط والعدول، ومعنى ذلك أنك امرأة. فاضطرب^(٢٠) العريس وأمه

(١٦) «فرجة».

(١٧) كذا؟ ولعله يريد متواصل.

(١٨) كذا في المخطوطة ولا نعلم لمن يعود الضمير. ولعل الصائغ يريد النساء وكان الصواب أن يكتب: «ثم أنهن

أخذن العروس وأدخلنها».

(١٩) «قوي رذل».

(٢٠) «ضاج».

وكل الناس من ذلك وصار سيرة وفضيحة بين العرب . فأرسلت أمه رسولا إليّ تستدعيني ، فذهبت عندها . وحين دخولي وضعت يدها بزّاري وقالت لي : أنا بجيرتك ، تكتب لأبني حجاباً حتى يستطيع أن يتزوج واطلب الذي تريده فهو حاضر أمامك . فضحكت في نفسي ثم قلت : مرحباً بك الآن أكتب له وبحول الله سيتزوج هذه الليلة . وفي الحال أخذت ورقة وكتبت عليها أحرفاً مقطعة وأرقاماً لا معنى لها ، إنما طلبت من الله سبحانه وتعالى ألاّ يخجلني أمام الناس ، وأعطيته الحجاب وقلت له : صحيح أنك كنت مربوطاً ، والآن حليتك من الرباط ، فلا تخف واذهب وتزوج بكل جراءة ، لأنك صرت الآن مطلقاً ، إذ كان يظن أنه مربوط . فتأكد عنده ذلك واعتمد على كلامي أني فككته من الربط . فذهب حالاً ومن فرحه لم يصبر ، بل أبقاني عند أمه وذهب وتزوج حالاً . فصار الخبير عند أمه وعند جميع الناس ، فابتدأوا بالزلاغيط والأفراح ، وصرّ عنهم في عز عظيم كأحد الانبياء وشاع خبر هذه الأعجوبة بين العريان وازداد إكرامي عندهم .

[الدرعي يردّ غزواً وهابياً]

وبعد ذلك تواردت أخبار جيوش الوهابي تفيد أنها وصلت إلى الديرة وأنها الآن تحاصر تدمر، فرحلنا حالاً بكل جد وسرعة لملاقاة العدو في نواحي تدمر. فالتقينا بالوهابيين في محل يقال له الدَّوَّة، ما بين القريتين وتدمر. وهناك علقّت نيران الحرب بكل حرارة وشدة. وكان الوهابيون نحو عشرة آلاف، منهم خيالة ومنهم مراديف أي كل اثنين منهم على جمل، ومنهم مضاعف أي كل أربعة منهم على جمل بأربع بواريد فتيل، الأربعة ظهورهم إلى بعضهم فوق الجمل، الواحد من الأمام والثاني من الورا والثالث على جانب والرابع على الجانب الآخر، وقد عملوا لهم مقاعد من عشب/مثل الكراسي مربوطة بحبال وعندهم أكل مشترك بينهم وهو جراب طحين وجراب تمر وعُكَّة سمن. فاليوم الذي يصيبون فيه نهياً يهبونه، وشيئاً للأكل فإنهم يأكلون على حسب العادة، واليوم الذي لا يصيبون فيه شيئاً، يأكل كل واحد منهم قبضة طحين، يجبلها بالسمن، ويعمل منهم ثلاث كُرَيَّات^(١)، كل واحدة بحجم الجوزة، فيأكلها ثم يأكل بعض التمرات ويشرب قليلاً من الماء أو الحليب، إذ معهم جود لأجل الماء مربوطة تحت بطن الذلول، النتيجة كأنهم في قلعة لا يحتاجون إلى شيء قط.

فوقع الحرب واشتد القتال وطار الغبار وعجت الأعفار وكان نهار من الاعمار إلى أن دخل الليل وأعتم. فازت كل فريق إلى محله. وكان الراجح يومها نحن، حيث أولاً كنا أكثر

(١) «دعايل».

عدداً منهم ، وثانياً أن بيوتنا ونساءنا معنا ، وهذا شيء مجرب أن البدوي يقاتل زيادة إذا كان أهله معه ، ويكون له نخوة ومرؤة وشجاعة أضعاف عما إذا كان أجرد أي من غير أهله ، وهذا شيء قد لاحظناه عدة مرات ، وكان الوهابيون جرداً أي من غير نسائهم . وثاني [يوم] ارتدوا علينا واشتعل الحرب واشتد القتال بصرامة لا توصف . وأمر الله بالنصر فانتصرنا عليهم ، وقتل منهم عدد وأخذنا أربعة عشر فرساً كلاءة^(٢) يعني كسباً ، وستين ذلولاً واثنين وعشرين ممسوكاً يعني أسيراً وأنكسر عسكر الوهابي وهج في البرية . فسار الخبر في البلاد ففرح الحكام ، وصار للديعي صيت عظيم ، وأصبحت الديرة والقرى والعربان والحكام بيده مثل الخاتم يديرها كما يشاء ، وكان هذا مطلوبنا وغاية رغبتنا .

(٢) كذا ، ولعله يريد قلاءة .

[الاستراحة في حماة]

فبعد ذلك قال الشيخ إبراهيم أن أشغالنا والحمد لله تمشي على حسب خاطرنا وكل شيء تم إلى الآن بموجب مرادنا . فيقتضي الآن أن ننزل إلى حماة لأجل أشغالي ، إذ علي أن أكتب مكاتيب عديدة ، وأقوم بأشغال كثيرة ، ويجب أيضاً أن نهتم بأمورنا إذ قربت أيام التشريق فنأخذ ما نحتاج إليه في الطريق . ثم تواعدنا مع الدريعي أنه متى قرب وقت التشريق يرسل لإحضارنا من حماة/لنتوجه إلى الشرق ونتم شغلنا . فنزلنا إلى حماة وحين دخولنا وجدنا صاحبنا نوفلاً^(١) . فأخذ بنا وأنزلنا في بيت خالته ، بيت يعقوب السرياني . فأبدوا لنا غاية الإكرام والإعزاز . وأما الشيخ إبراهيم فإنه من حين دخولنا قال لي : يا ولدي إنك تعبت كثيراً وتحملت أثقالاً ومتاعب فيلزمك قليل من الراحة مع إنشراح^(٢) ، فهذه حماة بلد المنتزهات ، وأنا علي كتابة مكاتيب كثيرة ، فأنت اعمل لبسطك وإنشراحك^(٣) ، ودعني أتم أشغالي والواجب علي . فابتدأت أنا ونوفل وأولاد يعقوب الذي نحن نازلون عندهم بالترويح عن النفس ، كل يوم في البساتين والأفراح والمقاصف والمنتزهات ، مدة عشرة أيام وهو دائماً يكتب . وبعد ذلك أرسل مكاتيبه بصحبة ساع خاص إلى حلب ، وعند رجوع الساعي

(١) انظر اعلاه ص ٤١ . إلا أن نوفلاً كان يسكن حمص ، فهل وُجِدَ مصادفةً بحماة؟ .

(٢) «شوية راحة بكيفية» .

(٣) «فتش عن كيفيتك» .

أحضر معه مالاً وافراً لنفقتنا^(٤). فابتدأنا نتسوق من حمة بضائع تصلح للعرب لكي نشترق معهم ونكمل مقاصدنا. فاشترينا جميع ما يلزم لنا من الحاجات ودبرنا كل شيء وأصبحنا مستعدين وإذ وصلني كتاب من عند والدتي^(٥) تخبرني فيه ب وفاة أخي وليس لي غيره من الأقرباء، ومضمون الكتاب أولاً وفاة المرحوم أخي في مدينة بيروت حيث توفي غريباً بالطاعون، وثانياً تشكي لي حالها من ألم حزنها على أخي واحتراق قلبها علي، لأنها بغير خبر مني ولا تعلم إذا كنت مت أو لم أزل حياً، وتشرح لي وحدتها ووحشتها إذ لم يبق لها أي ملجأ تستأنس به، فليس لها من طرف أهلها ولا من طرف والدي أحد على قيد الحياة^(٦)، فلم يبق من عائلتها أحد حي سواها، كما لم يبق من عائلة أبي غيري. فمن شدة حزنها و وفاة أخي وفقدني اعتراها مرض سيزساب^(٧)، كمثل الجنون، وبقيت ساهية^(٨) بالبلد. ففكر أيها القارئ في أي حال أصبحت حين قرأت هذا المکتوب/وأي حزن وغم أحاقا بقلبي، فأخذت بالبكاء والنحيب بسبب هاتين المصيبتين، فتارة أفكر بفقد أخي الوحيد، وتارة أفكر بأحوال والدتي الحنونة. فأقمت ثلاثة أيام بالعويل^(٩) والبكاء ليلاً نهاراً من غير أن يدخل الزاد إلى فمي كلياً، فترجيت الشيخ إبراهيم أن يسمح لي بكتابة مکتوب إلى والدتي كي أبرد قلبها نوعاً ما فمما سمح، إذ خاف أن تحضر إلى حمة قبل سفرنا وتعطل أشغالنا. وأخيراً من بعد رجاء عظيم سمح لي أن أكتب لها مکتوباً في اليوم الذي سنذهب عند العرب لنشرق معهم، إذ نكون عندئذ قد غادرنا حمة وذلك لكي لا تحضر عندنا، فاعتمد رأينا على ذلك.

فبعد جميع هذه الأمور ورد إلينا من عند الدريعي أربعة رجال^(١٠) خيالة واثنان معهما جمال كي تحمل العفش^(١١)، وفرسان فريغان^(١٢)، الواحد للشيخ إبراهيم والآخر لي، إذ

(٤) «خرجية».

(٥) لا يعلمنا الصائغ كيف وصل هذا الكتاب، مع أن والدته لم تستلم منه أي خبر، بل أنها تجهل إذا كان ابنها حياً أو ميتاً، كما يقول بعد أسطر قليلة.

(٦) «طيب».

(٧) نوع من السهو والتردد والتحير في الأفكار والأعمال.

(٨) «ساجحة».

(٩) «بالجعر».

(١٠) «أزلام».

(١١) اللبش.

(١٢) «فرغ»، فرس فريغ: واسع المشي، سريع (لسان العرب).

كان مضي فصل الصيف^(١٣) واقشعر وجه البرية . فكتبت ذلك النهار مكتوباً إلى والدني ،
وحدثتها بكل ما استطعت من أنواع التسلية والأخذ بالخاطر والاطمئنان علي ، ووعدها أني عما
قريب سأحضر عندها إن شاء الله .

(١٣) صيف سنة ١٨١٢ ، على ما يظهر من سياق الحديث .

[عبد الله بين الحياة والموت]

ثم حزمنا رزقنا وأخذنا حوائجنا وودعنا الأحباب وركبنا من حماة، إلا أنني خلافاً لعادتي، كنت مغلق القلب ومغموماً كأني ذاهب إلى الموت. وكان الدريعي بعيداً عنا نحن عشرين ساعة. فبعد أن مشينا النهار كله قال العرب أنه من الأنسب أن نسري ليلاً كي نصل غداً صباحاً عندهم، خوفاً من أن يرحلوا ويعدوا عنا. فبقينا جادين بالسير إلى قرب نصف الليل. وكان أماننا دائماً اثنان من خيالتنا يسبقاننا قليلاً، احتراساً من أحد الأعداء لأن الدنيا مظلمة، والمثل عند العرب يقول: «الليل ماله صاحب». وأثناء تلك الغضون رجع الخيالة الذين هم أماننا وقالوا افتحوا عيونكم جيداً لأن أماننا وادياً ملعوناً يقال له وادي الهيل مقدار مسيره ربع ساعة، /طريق ضيق، فوقك جبل وتحتك واد لم ينزله أحد ولا يمكن لأحد أن يعرف قراره، والطريق عرضه نصف ذراع^(١) فقط، فكونوا يقظين لأنه إذا وقع أحد فليس له خلاص. فصرنا ننبه بعضاً وابتدأت أفرك عيوني من النوم لأني كنت نعسان جداً. ثم دخلنا طريق الوادي والليل شديد الظلام ليس فيه ضوء قمر. وبينما نحن في نصف الطريق المعلوم إذ عثرت^(٢) بي فرسي، فأخذت رأسها باللجام نترأ قوياً من شدة خوفي، فرفعت يديها

(١) لا يمكن لدابة أن تمر في طريق عرضه نصف ذراع، لاسيما وأن الجمال موقرة بالبضائع والسلع. ولا شك عندنا أن الصائغ يحب المبالغة فيجمع به الخيال، ونراه عرضة لشتى الأهوال. أما الشيخ إبراهيم فوقع مرة واحدة من على ظهر الجمال.

(٢) «عثت».

الاثنين وأنزلتهما فوقعتا على الخلاء، فما علمت إلا أنني رأيت نفسي أهوي بالوادي أنا والفرس ثم ما عدت أدرك ماذا جرى^(٣). وقد أخبرني الشيخ إبراهيم أنني لم أزل أهوي وأنا أسقط، تارة أنا فوق الفرس وتارة الفرس فوق^(٤). وقامت الصبيحة وابتدأ الشيخ إبراهيم يضرب على نفسه ويتفتل لحيته ويستغيث بالعرب أن ينزلوا ويطلعوني. فقالوا له: يا سيدي إنزع من عقلك هذا الفكر، لأن هذا الوادي لم ينزله ولم يطلع منه أحد، وقد أصبح الآن مئة قطعة^(٥) هو والفرس، فكيف تأمل أن يكون إنسان وقع في واد مثل هذا الوادي هو والفرس؟ فصار يبكي ويستجير بهم فقالوا له: يا شيخ إبراهيم إن عبد الله غال علينا، ولكن نحن على ثقة أنه مات وشيع موتاً، فما هي فائدة من نزولنا نحن في هذا الليل المظلم إلى واد شنيع مثل هذا من غير نفع؟ لقد مات الرجل وأصبح مئة قطعة. قال: أنا راض أن تأتوا به مئة قطعة حتى أعود به وأقبره في حماة ولا أتركه لتأكله الوحوش في هذا الوادي العميق.

فبعد جهد كثير برطلهم بمقتي ربيعة حتى يطلعوني. فنزل اثنان منهم وكان لاح الفجر فوجداني معلقاً بزنازي بغصن شجرة، ورأسي إلى تحت ورجلاي فوق، قبل أن أصل إلى قاع الوادي بشيء قليل. وأما الفرس فوجداهما في قاع الوادي مفزورة وميتة. فأخذنا عدة الفرس وحملاني على أيديهما، تارة يستريحان وتارة يحملان إلى أن وصلا إلى فوق. فرمى الشيخ إبراهيم نفسه فوق وصار يبكي ويلطم على جسده^(٦). فكان في رأسي جروح في عشر مطارح، منها بالغة ومنها [سطحية] سلخ الجلد وبان العظم، وكذلك جميع أضلاعي تغرست وانكسر بعضها، زندي اليمين مجرد جميعه من اللحم ولم يبق إلا العظم، كذلك يداي مسلختان ورقبتي مجروحة وجسدي مهتر وباطن ساقبي مسلخ ومهتر وفي ظهري وفي بطني وجميع جسدي جروحات لا تعد ومواضع عديدة مسلوخة^(٧)، من أخمص قدمي إلى رأسي جسمي ملآن شوكة مثل الإبر، النتيجة حال لا توصف لأحتاج إلا إلى الدفن

(٣) هذه المرة السادسة التي يشرف بها الصائغ على الموت خلال رحلته.

(٤) يعلمنا الصائغ قبل هذا الكلام أن الليل كان شديد الظلام فكيف رآه الشيخ إبراهيم يهوي إلى قعر الوادي؟

(٥) «شفقة».

(٦) «يقتل حاله».

(٧) «سلوخات».

بالأرض . وكان الشيخ إبراهيم على معرفة بأمر الطب^(٨) ومعنا كل ما نحتاج إليه فيما يتعلق بالطب والأدوية ، فحالا أخرج من صندوق الاسعاف^(٩) أرواحاً ووضع منها في مناخيري ، فظهر له بعض إشارات تدل على أن في روحاً ، غير أن حواسي الخمسة كانت معدومة وعيني جامدة في وجهي ، ومن كثرة الأدمية على جسدي لا بيان مكان الجرح من المكان السليم . فتأمل الشيخ إبراهيم وفرح وأعد العرب لي مكاناً على ظهر الجمل وارتدوا إلى حماة . ولم يزلوا سائرين إلى قرب نصف النهار ، فزاد الورم في وأصبح رأسي بحجم الطبل وتغيرت أحوالي إلى أسوأ . فخاف الشيخ إبراهيم أن أموت قبل الوصول إلى حماة ، فاستشار العرب فقالوا له : حماة ما زالت بعيدة ومن الأنسب أن نأخذه إلى زين العابدين وهي قرية تابعة لحماة ، تبعد عن حماة بالنسبة إلينا أربع ساعات ، فاعتمدوا على هذا الرأي ودخلوا بي القرية المذكورة إلى بيت الشيخ ، وهو شيخ جليل يقال له الشيخ درويش وكان بيننا معرفة سابقة . فحالا وضعني الشيخ على فراش في محل نظيف وأرسل رسولاً إلى حماة لإحضار الشيخ خليل وهو جراح^(٩) مشهور ، وجلس الشيخ إبراهيم جنب رأسي مع القطرات^(١٠) والأدوية يعالجنني . ٨٥/٢ إلا أنني إلى ذلك الوقت ما كنت أعني كليا على أمور الدنيا . فعلى قول الشيخ إبراهيم/إني أقمت تسع ساعات ميتاً ، لأعني على شيء قطعاً ، وليس بي حاسية بالكلية . فمن كثرة الأرواح والقطرات فتحت عيني وصرت أنظر إلى الناس الذين أمامي ، وأنا في فراشي داخل غرفة^(١١) ، ولكن كمثل منام ، ليس لي عقل يعي أين أنا موجود أو يعلم ماذا جرى لي ، إذ كنت كالطفل الذي لا يدرك شيئاً . وكان الشيخ إبراهيم يكلمني . وأما أنا فما كنت أرد عليه إذ كنت لا أسمع ولا أستطيع أن أتكلم أو أتحرّك : قطعة حجر بالفراش . بل أنني ما كنت أحس كليا بوجع ، مرتاحاً بذاتي من غير إدراك .

فأقمت على هذه الحالة أربعاً وعشرين ساعة ، إلى مثل الوقت الذي وقعت به ، فرجع إلي شيء قليل من عقلي وصرت أفكر ما الذي أتني إلى هذا المكان ، إذ كنت ذاهباً مع العرب فكيف أصبحت في هذا المحل ، فهل أنا في يقظة أم منام . ثم حضر الشيخ خليل الجراح وأخذ حالاً بمسح الجروح ووضع المراهم . فحسست بالوجع في تلك الساعة

(٨) «الحكمة» .

(٩) «جراحي» .

(١٠) «الاستقارة» .

(١١) «أوضه» .

ووعيت على نفسي وفهمت القضية . فصار المسكين الشيخ إبراهيم يبكي ويسألني عن حالي ويقبل يدي ، فجعلته مطمئن البال عني ففرح فرحاً شديداً وشكر الله وقبل الأرض ، وقال للشيخ خليل الجراح : إعمل جهدك وإذا استطعت أن تشفيه أعطيك مهما طلبت . فرغب الجراح وأبتدأ يعالجنني بكل مهارة^(١٢) . وأما العرب الذين كانوا معنا فإن الشيخ إبراهيم كان أذن لهم بالإصراف كي يذهبوا عند الدريعي ويخبروه بما جرى . فحين وصلوا أخبروه بما جرى وكيف أطلعوني وبأي حال وأني الآن موجود في زين العابدين . فطار عقله من هذا الخبر الشنيع وركب حالاً على خيل وحضر عندنا . فرأى الحال الذي أنا به وقطع أمله من الشفاء وأصبح على يقين أننا لا نستطيع أن نشرق معه هذه السنة وسيحصل تعطيل في أعمالنا ، فازداد غمه علي ، فصار الجراح^(١٣) يسكن روعه فوعد الجراح^(١٤) بهدية عظيمة إذا استطاع أن يشفيني مما أنا به . ثم أخذنا بخاطره بخصوص الفرس التي قتلت/فضحك وحلف بالله أنه ٨٦/١
يتمنى لو قتلت عشر أفراس مثلها وأن أكون أنا معافاً ، مع أن الفرس واسمها العيسية من خاص الخيل البخارية المشهورة ولو أعطيت بها خمسون كيساً لا يمكن أن يبيعها . ثم سافر الدريعي في اليوم التالي وبكى حين فارقتنا ، إذ لم يكن متأكداً تماماً أنني سأشفى من الجروح والأوجاع التي أنا بها ، إذ كان نوعاً ما قاطعاً أمله مني .

فأقمنا ثلاثين يوماً في زين العابدين ، والشيخ خليل يعالجنني على قدر معرفته فلم يحصل على نتيجة بل بالعكس فالجروح أصبحت قروحاً ولعبت المواد بالقروح وانتنت ، واستحال الورم إلى ضعف عظيم . فأشار أناس أهل خبرة إلى أن الشيخ خليل لا يحسن معالجة أمر كبير مثل هذا ، ولكن يوجد في ضيعة يقال لها دير عطية ، على طريق الشام^(١٥) ، وقد ذكرناها سابقاً ، معلم جراح مسلم جليل فهم ، فهو قادر على أمور مثل هذه . فأرسل الشيخ إبراهيم رسولاً لإحضاره فلم يأت بل قال : إن شاؤا أحضروا العليل إلى عندي . فاستحسن الشيخ إبراهيم هذا الرأي ، وحالاً صرف الشيخ خليل وأرجعه إلى حماة ، وأعطاه أجره وافرة ، وعمل صندوقاً من خشب ووضعني به ، ثم حُمِلْتُ على بغل وتوجهنا إلى دير عطية . وحين وصولنا نزلنا في بيت البيطار صاحبنا . فأتى الجراح ، وكان اسمه الشيخ حسن

(١٢) « معلمية » .

(١٣) كذا بالخطوط .

(١٤) « الجراحي » .

(١٥) دمشق .

وعاينني ، وحالاً نزع اللصقات التي علي وغسل جميع الجروح بالنبيذ ووضع مَراهِمَ من عنده وابتدأ بعلاجي .

النتيجة لا أستطيع أن أصف العذاب والأوجاع التي كابدتها إذ يقصر عن وصفها اللسان ، حتى بقيت بالفراش كالخلخال^(١٦) والخيال ، وتبدلت أحوالي وتغيرت صورتي ، وقاسيت آلاماً مريعة وجعاً وعذاباً وشدائد من كل الأنواع . وكنت دائماً أعتب على الشيخ إبراهيم الذي سعى في إخراجي من الوادي ، لأنه لو تركني أموت كان ذلك أريح لي بكثير/ ٨٦/٢ وباختصار لم يبق وُجَعُ بالعالم إلا تركب على جسدي وكذلك الأدوية والوصفات التي كانت تأتيها من عند الخواجه شهابصون الطبيب الفرنسي^(١٧) بدمشق ، إذ كان يخدمنا خيال من أهل الضيعة فقط لأجل إحصار الأدوية من عند الخواجه المذكور ، لأن بيننا وبين دمشق يومين . وإن سألت القارئ^(١٨) لأي سبب ما نزلنا إلى دمشق لكي تكونوا قريبين من الطبيب وتصبح الإدارة أنسب ؟ فالسبب الأول سياستنا ، إذ ليس من صالحنا القعود بالشام كثيراً ، ثانياً أن هواء دمشق رديء وثقيل فلا يمكن أن أحصل على الصحة بدمشق ، فانتقلنا بعد شهرين من دير عطية إلى قرية يقال لها النبك ، نحو ساعة ونصف بين الواحدة والثانية . والقرية المذكورة هواؤها وماؤها مشهوران بالحسن . فالغاية بعد أربعة أشهر استطعت أن أقوم على العكاكيز . وكنت أصبح يومين وأعود مريضاً خمسة ، حتى ذقت أنواع الموت أشكالاً وأشكالاً . وفي أثناء تلك الغضون انزل سليمان باشا العكاوي عن إمارة الشام ، وحضر من اسلابول وزير يقال له أيضاً سليمان باشا سَلَحْدَار^(١٩) سلطان سليم ، وحكم بدمشق ، فهذا صَعَبَ علينا نوعاً لأن سليمان باشا العكاوي كان يوافقنا على جميع ما نريد من الأمور . وكان انتهى فصل الشتاء وقدم الربيع^(٢٠) وابتدأت العربان تبشر بالديرة ، وأزهرت الدنيا وأنا تماثلت للعافية وقمت من الفراش ، وكانت جملة إقامتي بالفراش طريحاً خمسة أشهر . وبعد أن أصبحت قادراً على المشي نوعاً ما تسلط علي حال غريب وهو أنني كلما رأيت فرساً أو حصاناً يصفر وجهي وأقع على الأرض مغشياً علي . وبعد ذلك ، رويداً رويداً ، قويت نفسي

(١٦) الألبسة البالية .

(١٧) «الحكيم الفرنسي» .

(١٨) «القادر» ، كذا .

(١٩) سلاح دار ، أي الذي يحمل سيف السلطان ، وهو من أكابر موظفي الدولة .

(٢٠) ربيع سنة ١٨١٣ .

على رؤية الخيل إذ وضعت نصب عيني أني سأحتاج إلى رؤيتها كثيراً، إلا أني حلفت يميناً عظيماً أني ما دمت حياً يحرم علي ركب الخيل إلا بسبب أمر ضروري جداً جداً. وفيما نحن على ذلك إذ ورد علينا هيجان من عند الدريعي يسأل عن أحوالنا/ويشترنا أن الدريعي قطع الفرات ودخل الشامية وهو في نواحي ديرة حلب. ففرحنا بذلك وحالاً أرسلناه في اليوم التالي يخبر الدريعي ويشره بوجودي حياً، لأن الرسول قال لي: «إن الدريعي ما كان يظن أنك شفيت مما كنت به، وقد تكدرت عليك العربان جداً، وجميعهم قطعوا الأمل منك»؛ فلهذا السبب اضطررنا أن نصرفه عاجلاً. وحين وصل الرسول إليه ويشره أني على قيد الحياة وشفيت من جميع ما كان بي، طار من فرحه وأرسل رسولاً آخر يعرفنا أن لا تتحرك من النبك، بل هو يقرب منا كي لا أتعب بالطريق لأنني ما كنتُ ملكتُ عافيتي مثل السابق. فقعدنا ننتظر قدومه إلى طرفنا.

[من حديث البادية: الخوة]

ولكن قبل ذلك حين كنت بعد بالفراش، وقعت نكتة عجيبة وهو أنه في ذات يوم حدث أن تاجر غنم كان آتياً من ديرة الأناضول وذاهباً إلى دمشق ومعه نحو عشرة آلاف رأس غنم كبار عظام. فوصل إلى الرستن الذي هو ما بين حمص وحماة. فهناك رأى ثلاثة من العرب. فقال الواحد منهم للتاجر: هل لك أن تؤاخيني؟ فضحك التاجر من عقله وقال له: أنا خائف حتى أؤاخيك؟ معي خمسون بارودياً. فقال له البدوي: اسمع مني آخيني وأنا أرضى بشيء قليل، وتم الاتفاق على غرشين وقبضة^(١) توتون. فأعطى التاجر غرشين وقبضة توتون، وظن أن البدوي عمل حيلة لأنه محتاج حتى يأخذ بعض الدراهم. أما البدوي فإنه أخذ الغرشين والتوتون وهب الكل إلى رفيقه الاثنين وقال لهما: اشهدا أنه صار أخي، لأن هذه العادة عند العرب: أنهم يفرقون على العرب أول شيء يأخذونه خوة ويشهدونهم، والسبب أنه إذا ادعى بدوي يريد تخليص شيء أنه أخذ من أخيه فيجب أن يكون عنده شهود يشهدون له أنه أخوه حقيقة وقد خاواه على يد شهود، وأكل الشهود وقت عقد الخوة: هكذا عادتهم.

فبعد ذلك سافر البدوي ورفيقاه وسافر التاجر قاصداً دمشق. وبينما هو في الطريق في مكان يقال له عيون العلق، بالقرب من دمشق، إذ نفذت عليه العرب وتحارب معهم

(١) كمشة.

٨٧/٢ وكسروه وأخذوا جميع ما معه من الغنم، وشلحوه هو^(٢) وجميع من معه وتركوهم عراة^(٣) وذهبوا في حال سييلهم. فنزل إلى دمشق وليس معه مصرية يأكل بها خبزاً، وصار يشحذ ويأكل. وشاع أمر هذه الغنيمة بين العربان حتى سمع بها البدوي أخو التاجر الغنّام. فسأل أي يوم أخذت الغنم وفي أي مكان، فأخبره الناس، فعرف وتأكد أنها غنم أخيه الذي أعطاه غرشين وقليلاً من التوتون. فذهب حالاً وأخذ الشهود وراح عند شيخه، وهو كان من قبيلة العُمُور، ودخل على الشيخ وحكى له المادة وشهد له الشهود. فحالاً ركب وأخذ معه أكابر القبيلة وتوجه إلى قبيلة النّعيم. فهذه القبيلة مثل عشيرة العُمُور، تشرقيها قليل وأغلب السنين لا تشرّق بل تبقى بالديرة، واسم شيخها فهد ابن صالح. فدخل عليه سلطان البرّاق شيخ العُمُور وطلب منه الغنم بموجب عهود العرب وقدم الشهود. فما استطاع فهد أن يهرب من الحق وبالحال والسرعة سلّم الغنم إلى شطي، فهذا اسم البدوي الذي خاوى الغنّام، سلمها بتمامها من غير أن ينقص منها شيء كلياً. فقام شطي واستأجر أناساً تسوق الغنم معه، ومشت الأغنام جميعها أمامه وتوجه إلى دمشق. فأبقى الغنم خارج البلد ودخل هو يفتش عن التاجر، فوجده جالساً في قهوة، عارياً جائعاً. فدخل شطي عنده وسلم عليه. فأدار وجهه ولعنه وشم كل العرب لأنه محروق القلب منهم. ولم يأت على باله أنه آخى واحداً منهم، ولا هو يصدق، والحكاية ذهبت من فكره وصار إذا رأى بدوياً كأنه رأى عزرائيل. فقال له شطي مالك يا أخي؟ أنا أخوك الذي تأخيت معه بالرستن. فقم معي واستلم غنمك جئتك بها كما هو واجب علي. فما كان يصدق. فمن بعد تأكيد صدّق، وخرج معه إلى خارج البلد، وبانت له الحقيقة، فركع على أرجل شطي وصار يقبلها ويستكثر بخيره. ثم نزل إلى دمشق، وعمل التاجر جهده لكي يعطيه قسماً من الغنم فما رضي أن يأخذ شيئاً منه كلياً، غير أنه قبل فقط جزمة وكوفية جديدة قيمتهما نحو عشرة غروش لا غير، وثاني يوم رجع/عند أهله.

٨٨/١

(٢) يبتدئ هنا الكراس رقم ١١.

(٣) «بالظلط».

[الاستعداد للحرب]

ثم بعد قليل من الأيام، قربت العربان من ديرة الشام وإذا بالدريعي حضر عندنا وبصحبتة جملة من أكابر العرب أحبابنا. فرأونا ورأيناهم بخير، وفرحنا بهم وفرحوا بنا. وكان عرب الدريعي قد اقتربوا منا. ثم حدثنا بجميع ما وقع له مع العربان أثناء تشريقه، إذ جرت له بعض المعارك مع قبائل العرب وأخضع أربع قبائل وأدخلها في اتحادنا ووضع شيوخها أختامهم وأسماءهم. وهم **ظهوان** ابن عواد، شيخ عشيرة **الخُرْصَة**^(١)، قبيلته تحتوي على ألفي بيت، وأيضاً **نايف** ابن عابد، شيخ قبيلة **المَحَلَق**، عشيرته تحتوي على ثلاثة آلاف بيت، وأيضاً **روضان** ابن سلطان، شيخ قبيلة **المَرْيَخَات**، عشيرته تحتوي على ألف وخمسة مئة بيت، وأيضاً **مطلق** ابن فيحان، شيخ عشيرة **الزُكُرد**^(٢)، قبيلته تحتوي على ثمان مئة بيت فقط. فهذه القبائل الأربع من أعظم عشائر العرب، وأكثر أنسابها إلى عرب جبل شمر التي هي تحت حكم الوهابي.

ثم أعلمونا أن الوهابي كثير الحركة هذه السنة، ولا بدّ له أن يضرب جانباً من الأراضي التي يحكمها العثماني والأقرب إلى الظن هو بر الشام أو بغداد. فبعد هذا في اليوم التالي دبرنا أحوالنا وذهبنا مع الدريعي وباقي الجماعة عند العرب، وكانوا بعيدين عنا يوماً فقط. وأما أنا

(١) الخرساء، فرع من الفُذَعان.

(٢) لا أعرف عنها شيئاً.

فكنت راكباً حماراً، استأجرته من الضيعة وذلك خوفاً من الوقوع مرة أخرى. فبعد وصولنا
بعده أيام عند العرب، إذ وردت أخبار من طرف الوهابي أنه أرسل جيشاً^(٣) عظيماً على
بر الشام، ومراده أن يأخذ حماة وحمص واستملاك بر الشام. فضجت الناس من هذا الخبر
وحسبت حسابات كبيرة، وصار الخبر عند الوزير ودخل عليه الوهم، وكبرت الدعوة في
بر الشام ووصلت بُرد^(٤) وأوامر من وزير الشام بالمحافظة ليلاً ونهاراً واليقظة واستخدام
العساكر. وما زالت أخبار الوهابيين تزداد وتشيع الأخبار وتكثر حتى تعبت قلوب الناس من
هبة^(٥) الوهابي، وعزم كثير من الناس على الفرار إلى ناحية ساحل البحر، لأن صيت الوهابي
شنيع جداً، والمشهور عنه أنه دموي غدار بحث عن أمور الدين، فسكرت الناس من هذا
الخبر، حتى أن الوزير أرسل إلى الدرعي يدعوه عنده إلى دمشق لكي يدبر هذه الأمور.
إلا أن الشيخ إبراهيم لم يستحسن أن يذهب الدرعي إلى دمشق خوفاً من أحوال العثماني
وخيانته، لأن الوزير جديد من اسلابول وأطباعه غير معروفة. ولذا كتبنا جواباً للوزير من
طرف الدرعي يعتذر عن الحضور لأنه لا يستطيع أن يترك الديرة ويذهب عند الوزير، خوفاً
من أن يحضر الوهابي فجأة، [وجاء فيه]: «أي نعم أن أمر سعادتكم بإرسال فرقة من
العسكر مُعين لنا، وأنا بحول الله كفاية لحفظ البلاد من غوائل الوهابيين»؛ وأرسلنا الجواب.
وأما الدرعي فإنه ابتدأ بتدبير مهام الحرب لدفع غوائل عرب الوهابي وأضرارهم عن البلاد وعن
نفسه. وهو أنه أحضر حالاً ناقة بيضاء وسودها بشُحار^(٦) الدست، وربط برقبتها شقة بيت
شعر سوداء، وأركب فتاة عليها وهي لابسة السواد ومسودة وجهها. وأرسل معها نحو عشرة
رجال من العرب، وهي تدور على القبائل وتدعوهم إلى الحضور لمعونة الدرعي. وكانت كلما
وصلت إلى قبيلة تقول: «الفزاع، الفزاع، الفزاع، يا أهل الخيل أصحاب المرأة والنخوة،
يا من يبيض عرض هذه الناقة ويغسل سوادها، هذه شقة بيت الدرعي المهتد بالخراب^(٧)،
يا أهل الحشيمة والغيرة انهجوا انهجوا^(٨)، ترى ريعكم ذبحهم الوهابي وعدمتموهم،
يا سامعين الصوت صلوا على النبي، أولكم محمد وآخركم علي». فهذه من عاداتهم حين

(٣) «أرضي».

(٤) «برادي»، وهو يريد بُرد جمع برید.

(٥) «رجت»، كذا، ويريد: «رجة».

(٦) «شحوار».

(٧) «المزعم يخرب».

(٨) امشوا على حسب عادات العرب.

يكون عليهم حملة^(٩) كبيرة من عدو كبير أن يسودوا الناقة . ولم تزل تذهب من قبيلة إلى أخرى . ومكاتيب الدريعي أيضاً متواصلة إلى القبائل . وصار الوعد والاجتماع على عاصي حماة لأجل استقاء الماء . وصارت القبائل تتوارد علينا من كل الجهات ، المتحدة معنا وغيرها حتى اجتمع عندنا نحو ثلاثين قبيلة عرب ، جميعها في نزل واحد ، ورابطة أطناب البيوت بعضها إلى بعض وصائرة مثل القلعة أمام العاصي ، وجاعلة العاصي والبلاد وراءها ، /ومتصدية للعدو . ٨٩/١

ومن الطرف الثاني الوزير ، فإنه قد أرسل جيشاً^(١٠) بكامل لوازمه من مدافع وزنبلاك^(١١) وجَبَخَانَه^(١٢) وخيم ، ورأس عليه ابن أخته إبراهيم باشا ، باشا بتوخين^(١٣) صاري عسكر . ووجه بالجيش إلى حماة وكان عدده نحو ستة آلاف مقاتل : دالاتية وهوارة^(١٤) ومغارية وأرناؤوط . فدخل الجيش إلى حماة وأقام بها إلى أن يحضر الاسعاف من وزير عكا سليمان باشا ، لأن والي الشام كان أرسل استنجده . فبعد قليل صارت العساكر ترد من عكا وما يليها حتى حضر علي بك الأسعد . وأرسل البربر^(١٥) أيضاً عساكر حتى اجتمع في حماة ، الجيش مع عساكر البلد ، نحو أربعة عشر ألف عسكري .

وأما الوهابي فإن أخباره كانت تقرب حتى علمنا أنه وصل إلى تدمر ، وهرب^(١٥) أهالي تدمر والقريتين وسائر الضيع التي أمامه ، فأرسل إبراهيم باشا ومتسلم حماة وكامل الضباط إلى الدريعي يرجون نزوله إلى حماة لأجل المشورة بلوازم الحرب وتدبير هذه الأمور . فاضطر أن ينزل إلى حماة ونزلت أنا الفقير معه . وصار الديوان عند الباشا وديرهوا كل شيء يجب تدبيره . وآخر تدبير كان رأي الباشا أن الجيش العثماني يكون مختلطاً بنا ، فوافق الدريعي على ذلك واعتمد عليه . ثم حضر الدريعي من الديوان وأعلمني بجميع ما تقرر من الأمور والتدابير . فرأيت كل شيء مناسباً إلا مسألة واحدة ليست مناسبة ويحصل لنا منها

(٩) وركبة .

(١٠) وأرضي .

(١١) كذا ولعله يريد زنبك أو زنبلكات .

(١٢) قنابل وصناديق بارود .

(١٣) من التركية : طوخ ، أي ذنب الفرس ، وباشا بطوخين أعلى مرتبة من باشا بطوخ واحد .

(١٤) هواراي جمعها هوارة : جنود غير نظامية .

(١٥) وهجّت .

ضرر، وهي اختلاط الجيش العثماني بنا. فقال الدرعي: وما هو سبب ذلك. فقلت هؤلاء ترك غشما لا يستطيعون أن يميزوا عربنا من عرب الوهابيين. فحين اشتداد المعارك واختلاط العساكر يمكن أن يروك أنت ويتوهموا أنك من عرب الوهابي فيقتلونك، لأن العربان جميعهم، سواء عربنا أو عرب الوهابي، على نفس الزي والكلام والهيئة، لا يستطيع أحد أن يميز بعضهم عن بعض، إنما يعرفون أنفسهم بالتنحّي. اعلم أيها القارئ أن لكل قبيلة نخوة خاصة تنتحّي بها وقت/الحرب، وينادي البدوي باسم قبيلته. فكل واحد من الرولة مثلاً يقول: خيال العليا رويلي، ومن قبيلة الحسنة يقول: خيال البيوضا حسيني، ومن الضفير يقول: خيال الحمرا ضفيري، وهلم جرا جميع القبائل. وكل واحد من المشايخ والأمرأ يتنحّي باسم أخته وقت الحرب أو غيره. فالدرعي مثلاً يقول أنا أخو ريدا، إذ كان له أخت اسمها ريدا بديدة في الحسن، ومهنا يقول أنا أخو فضة، إذ كان له أخت اسمها فضة محسنة، وهلم جرا كل الأمرأ والمشايخ، وهذه من جملة عاداتهم. [ثم قلت للدرعي: إن هذا الاختلاط يضر بنا] على الخصوص إذا لا سمح الله وصارت كسرة، فإنهم يقتلون من عربنا أكثر من عرب العدو. فقال: هذا صحيح ويحصل لنا منه ضرر على أي وجه كان. فرجع إلى عند الباشا وقال له: يكون الجيش بعيداً عنا نصف ساعة. فتضايق الباشا من هذا الكلام، ولكن ما كان يمكنه أن يغضب الدرعي واضطر أن يخضع لأمره.

٨٩/٢

ثم خرج الجيش العثماني بكل نظام وتدبير وركب الباشا ودقت النوبة وضربت المدافع على حسب هرج^(١٦) العثماني. فعحضر ونزل الجيش بعيداً عنا نحو نصف ساعة، بكل نظام وخيم معتبرة وصيوانات وعساكر مثل التراب من خيل ورجال. فامتألت أعين الناس من هذه الرؤية، واطمأنوا على أرواحهم من خطر الوهابي، وأمنوا على أحوالهم وشدوا ظهورهم. وأما الدرعي وبقيّة عرباننا فإنهم كانوا يضحكون منهم^(١٧) إذ تبين لهم أنهم ليسوا على قدر المادة.

وفي اليوم الثاني من خروج الجيش قام غبار من صدر البرية واعتم الجو من الغبار وظهرت غمامة سوداء كأنها الضّبّان^(١٨) تمشي على وجه الأرض. وفي قليل من الزمن إذ أقبل شيء يغطي عين الشمس ويجفف النظر. وابتدأ القادمون بنصب البيوت أمامنا، بعيداً عنا

(١٦) «وهرة».

(١٧) أي من الأتراك.

(١٨) ضّبّان ج ضبّ: دويبة تشبه الورل، وهو أحرش الذنب، خشنة، مقلّقة، ولونه إلى الصُّحمة، وهي غبرة مشربة سواداً (لسان العرب، مادة ضب) أو لعله يريد الذّبّان أي الذباب.

٩٠/١ نحو ساعة، لأنهم أتوا بأهلهم، وكان عدد قبائلهم نحو خمسين قبيلة، على حسب ما استنتجنا من البيوت، وكانوا بالحقيقة خمسة وثمانين ألف بيت. وأعلم أيها القارئ أن كل بيت/الأصغر منها فيه عشرون جملاً^(١٩) ومن الغنم ما لا يحسب، ومن الخيل والأولاد والنساء والرجال عدد كبير. النتيجة جاء منهم ما يدهش العقل، مليونات، شيء لا يعرف أوله من آخره. فارتج قلب الوزير وكامل من معه من هذه الرؤية المبهرة وأرسل الباشا يدعو الدريعي ليشرب القهوة عنده. فراح المذكور ورأى أن حال الباشا متبدلة وهو خائف. فسكن روعه وشرب القهوة ورجع حالاً وأمر بجمع كامل الجمال. فجمعوها حالاً وربطوها من أياديها وركبها بالخيال وبركوها أمام جيشنا كالتاريس. وفعلت هكذا كل العربان من عربنا ومن عرب العدو إذ هذه عادتهم، وحفروا ممرات^(٢٠) بالأرض لأجل أن يختبئوا بها ويحاربوا، مثل^(٢١) التاريس. ثم بعد ذلك عملوا ناقة العطفة^(٢٢) وزوقوها، ووضعوا عليها هودجاً مزوقاً بالجوخ والقطني والحريز الأحمر والشرابي والمرايا والودع، وأدخلوا فيه فتاة محسنة جداً يقال لها أريكة وفصيحة متكلمة، لأن التي تقعد في العطفة يجب أن تكون أجمل جميع بنات العربان الموجودين وأفصحهن، فالكلام وجميع الحركة منوطان بها. فهي التي تنحّي الرجال وتشجعهم على الحرب. إلا أن المسكينة تكون في خطر عظيم لأن جميع الضربات والحملات عليها. إذ متى تمكن العدو من أخذ العطفة إنكسر العسكر. ولذا يجب أن يكون الرجال دائماً حولها يحمونها في وسط العسكر.

(١٩) لاشك أن هذه الأرقام خيالية، إذ يبلغ عندئذ عدد الجمال وحدها نحو مليون وسبع مئة ألف جمل أ.

(٢٠) «مرور»، أي خنادق.

(٢١) «نعت».

(٢٢) العطفة (بكسر العين وفتحها وضمها): «ناقة متميزة في شكلها تركبها ابنة الزعيم في أيام الحرب لكي تشجع الفرسان» (العزيري، قاموس العادات، ج ٢، ص ٣١٢). وتطلق أيضاً هذه الكلمة على الهودج الخاص الذي تركب فيه هذه الفتاة. وهذه العطفة لا توضع إلا في بيت أشجع العشيرة وأفرسها (وصفي زكريا، عشائر الشام، ج ٢، ص ٢٤). وقد رأيتها في الكويت، عند آل صباح، سنة ١٩٥٦.

[المعركة الكبرى]

ثم أُحْدِثَ التدابير في كل الأمور، والخَصْمُ أيضاً دَبَّرَ حاله وحفر متاريس ونَوَّخَ^(١) جماعته وعمل عطفة وقسم حاله إلى قسمين: الفرقة الكبرى أمامنا لأجل محاربتنا والفرقة الصغرى أمام جيش الباشا، وابتدأ الحرب بكل حرارة من الجميع. ومن عادات العرب أنهم يبتدئون الحرب كمثّل اللعب، بفتور عظيم، وبعد ذلك تشتد همتهم وقوتهم ويصبحون مثل السباع. وأما العثماني فهو بضد ذلك: أول نزوله بحرارة ثم يفتّر. فسّر الباشا من هذه الرؤية وظن أنه يكسر عرب الوهابيين بعسكره فقط. وبعد ذلك اشتدت حرارة العرب، وصار نهار يقف عن وصفه اللسان/مناومتهم إلى غروب الشمس، فانفك الحرب بعد أن وقعت مقتلة وافرة من الفريقين. ثم في اليوم الثاني أتت نجدة من قبيلة يقال لها الحديدية وشيخها حمود آل إبراهيم^(٢). فهؤلاء العربان من سكان طبراق حلب، لا يشترقون مثل العرب، بل هم دائماً مقيمون في نواحي ديرة حلب وسرمين والمعة، وعليهم شيء مثل الراتب للوزير. وكلهم بواردية، يركبون الحمير فقط، ولكن بعض كبارهم فقط يركبون الخيل. فكانوا نحو أربعة آلاف بارودي^(٣).

(١) أي نَحَى، أثارَ النخوة في رؤوس الرجال وحشهم على الحرب.

(٢) «البراهيم».

(٣) «بواردي».

فعملنا حسابنا: كانت عربنا نحو ثمانين ألف مقاتل من غير جيش الباشا، وأما الوهابيون فكانوا نحو مئة وخمسين ألف مقاتل، ولكن بالحرب والمعارك عربنا أشد حرباً وقوة. وذلك على رأي الشيخ إبراهيم، له علاقة بالأقاليم. فهو يقول: إن الأقاليم الحارة لا يكون أهلها أشداء بالقتال، بل إن سكان الأقاليم الباردة أشد حرباً وقوة، وبما أن الوهابيين من سكان ناحية الجنوب فنحن أشد منهم قوة. وفي اليوم الثاني صار حرب وظهر فعل كبير من الوهابيين رجت منه قلوب الناس وخصوصاً أهالي حماة. وشاع الخبر أن الدريعي إنكسر والباشا أيضاً، وعزمت الناس على الهرب إلى نواحي البحر. ولم يزل الحرب والقتال معقودين^(٤) مدة عشرين يوماً، حتى ضجت الناس وكرّهت حالها، وعلى الخصوص أن الجوع ابتدأ ينتشر، لأن كل لوازمنا ولوازم الباشا من حماة، حتى افتقرت وتعت من جميع المآكل، وحصل الغلاء وعدم وجود الشيء بالمدينة المذكورة. فابتدأ الحكام باستيراد الحنطة من غير أماكن، وأعطى أناس من مؤنّتهم لأجل تقوية الدريعي خيفة من الوهابيين. أما نحن فلم نزل كل يوم في حرب، ونَقَصَ عسكرُ الباشا إذ قُتِلَ منه كثير، وابتدأت الناس من عرباننا تنسل وتهرب من شدة الجوع، حتى أن الجمال التي وضعناها كالمنازيس صارت تأكل بعضها من الجوع، إذ كان لا يمكننا أن نتركها ترعى أولاً لأن نار العدو تعمل بنا ما تريد إذ تبقى من غير وقاية، وثانياً لأنه لم يبق في الأرض شيء لترعاه/بل ولا للأوادم.

٩١/١

ولم يزل الحرب متواصلاً يومياً حتى أنه في بعض الأيام كان يتصل ليلاً نهاراً. وأما أركية التي كانت جالسة بالعطفة، فإنها كانت تنخي الرجال وتهيجهم على الهوشة^(٥) والحرب. وأكثر الذين يقتلون من طرفنا تكون هي السبب بكلامها المهيج للحرب. وكانت دائماً تعد الشباب أن الذي يأتيها برأس عبد الله الهدال تتزوجه، لأن المذكور صاري^(٦) عسكر العرب الذي يقاتلوننا، وأبو نقطة صاري عسكر العرب الذين أمام جيش الباشا. فهذان الاثنان صواري عسكر الوهابيين. وبسبب رغبة الشباب في أركية كانوا يرمون بأنفسهم إلى الموت. حتى أن من جملة من تقدم وزاحم الناس شاب عظيم وفارس عنتري، وصل عند أركية وقال: أرمني وجهك يا زين الملاح، إذ ما كان رآها بعد. فأخرجت رأسها من وراء ستار

(٤) «ولم يزل كل حرب ومقاتل».

(٥) «الهوش».

(٦) رئيس.

العطفة وقالت: أتعرف يا شاب ما هو نقدي^(٧)؟ هو رأس ابن هذال عبد الله. فهز ربحه تحت العطفة وانتخى ورمى بنفسه في وسط العدو فما عاد من نزوله لأنه قتل. فكنت، أنا الفقير، قريباً منها فقلت لها: يا أركية يسلم رأسك بالرجل، فقالت: مثله كثيرون ذهبوا وما عادوا.

[المبارزة]

ثم وفي تلك الغضون، إذ نزل إلى الميدان فارس من فرسان العدو مدرع، في رأسه خوذة من البولاذ، وأنف نازل على وجهه من البولاذ، وعكس صفائح البولاذ، وقميص زرد بولاذ وجزمة بولاذ، والفارس مدرعة أيضاً. فهذا اسمه مدرّع. وكان عندهم من هذا الشكل عشرون واحداً وكان عندنا اثنا عشر فقط. فنزل الفارس المدرع المذكور إلى الميدان وطلب الدريعي. وهذه عادة قديمة عندهم كان من ينزل الميدان يطلب الشخص الذي يريد. وعلى المطلوب أن ينزل وإن لم ينزل يكون ذلك عاراً عظيماً عليه. فحين سمع الدريعي ذلك الطلب نهض قائماً حتى ينزل إلى الميدان. فما استصوبنا نزوله خوفاً من خطر ما يحصل له لا سمح الله، فيخرب شغلنا جميعه. فقمنا كلنا ضده ومنعناه عن النزول لحرب ذلك الفارس الذي يطلبه، بينما هو كان يعمل/كل جهده ليتخلص من أيدينا ويريد أن ينزل الميدان، حتى اضطررنا أن نربطه بالحبال وندق له سككاً مثل الخيل ونقعد فوق السكك خوفاً من أن يقلع السكك ويذهب. ولم يزل الفارس المدرع يصيح ويصرخ^(١) ويقول للدريعي: يا من عاين اليوم يومه، أود أن أراه في هذا الميدان حتى أعده حياته. وكلما سمع الدريعي ذلك يهيج مثل الجمال وتحمر عيناه ويشد على السكك حتى يقلعها ويروح. ونحن نعمل كل جهدنا حتى لا ندعه ينزل إذ يحصل لنا ضرر عظيم في الحاضر والمستقبل إن حدث له أمر لا سمح الله.

(١) يعيط.

وبينما نحن في اعتلاج معه نشده ويشدنا ، وإذ حضر خيال من الشرارات يقال له طعيسان ركباً على فرس شقراء ، ليس عليه إلا القميص ، ويده رمح فقط لا غير . فرأى الحال الذي نحن به ، والفراس لم يزل بالميدان يطلب الدريعي . وكان اشترى في ذلك اليوم الفرس التي تحته ، من عرب الحديدية . وكان له امرأة اسمها شامة بنت جديد . ثم زاحمنا ودخل أمام الدريعي وقال هذا الشعر :

يومي أنا شريت جواد الحديدي شريتها يوم صار لي بها شف
اشتريتها وأبغى عليها الحميدة وأكف طراد الخيل من فوقها كف
وأطعن لعيون شامة جديدة بنت الذي لا طالع الزول ماخف^(٢)

وفرّ من بيننا إلى حومة الميدان مقابل ذلك الخيال ، وابتدأ بينهما الحرب بكل قساوة حتى تعجبت الناس . وبقينا جميعنا ننظر إليهما وهما لم يزلا مع بعضهما بالأخذ والرد نحو ساعة من الزمان ، من غير أن يرجع أحد على الآخر . ثم أخيراً تمكن خيالنا منه فضربه برمح في حلقه^(٣) ، إذ ليس في جسمه مكان خال من الدرع يتحكم به غير شيء قليل عند حلقه فقط ، فضربه بالرمح الأجرد وإذ لمع سنان الرمح من الجانب الثاني فقتل ، إلا أنه بقي على ظهر الفرس ، والرمح عالق في رقبته ، فعادت به الفرس إلى بيته ، وذلك من عاداتهم^(٤) . / ٩٢/١

فرجع طعيسان عندنا . فقام الدريعي وكل من كان حاضراً عندنا وصافحناه وحمده الناس على شجاعته ورجولته ، وأهداه الدريعي فرساً ورمحاً والشيخ إبراهيم قنباراً جديداً من الحرير .

(٢) يقول : في هذا اليوم اشترت جواد الحديدي إذ شغفت بها . وإني اشتريتها أرهد بها الأعمال الحميدة وطرد الخيل من فوقها كما يعمل الخياط عندما يكف الثوب ، وأطعن إكراماً لعيون شامة بنت جديد ، بنت الذي لا يخاف وقت النزال .

(٣) « زلعمه » .

(٤) يرهد أن العرب قد علّمت الخيل أن تعود إلى البيوت متى جرح الفارس أو قتل .

[إنكسار الجيش العثماني]

ثم لم تزل الحرب متصلة والجوع يكثر ، حتى ضجعت الناس عندنا وعند أهالي حماة ، لأن البلدة تعرت تماماً من الحبوب والمآكل ، حتى أن بيت الدريعي بقي يومين من غير أكل . وفي اليوم الثالث أتى من عند الملا اسماعيل دالي ، باش عظيم مقيم دائماً في حماة ، ثلاث قفف أرز ، فأمر الدريعي بطحنها جميعاً دفعة واحدة حتى يأخذ كل واحد من الناس شيئاً قليلاً . أما سحن ابن الدريعي فما رضي أن يأكل مع أنه كان على ظهر فرسه منذ أربع وعشرين ساعة من غير أكل ولا شرب . فبدلنا كل جهدنا حتى يأكل فلم نفز بفائدة . وأخيراً قال : اعطوني ما تريدون أن تطعموني . فأعطوه حالاً من السفرة لحماً وأرزاً وخبزاً . فخلط الجميع بعضها ببعض ووضعها في العليق وأطعم الفرس ، وهو قاعد جائع ، وقال : خير لي أن تكون فرسي شبعانة وأنا جائع .

ولم نزل على هذا الحال سبعة وثلاثين نهاراً ، والحرب متواصلة يوماً ، فقتل من الفريقين شيء كثير . ثم نهار الثامن والثلاثين اشتد الحرب من كل الأطراف فانكسر جيش الباشا وتعطل بكامله ودخلته العريان وغنمت جميع ما فيه من الخيم والأسلحة والخيول . فانهمز الباشا إلى حماة ، وكل العساكر التي استطاعت الركوب ركبت ، إلا أن أكثرها مالحت خيلها . ودخل العسكر مكسوراً إلى حماة . فارتجت المدينة وخافت الأهالي عند رؤية العسكر المكسور ، وفيه من القتل والجرحى شيء لا يعد . وهرب كثير من أهالي حماة وحمص إلى

الجبّال واقترّب غيرهم من ساحل البحر . وأما الدرّيعي فقد صعب عليه ذلك جدّاً
 ٩٢/٢ أولاً بسبب عار الكسرة ، وثانياً لأن جيش أبو نقطة الذي كان أمام/ جيش الباشا ارتدّ علينا
 وكثّر عدونا وزادت قوته واشتدّ الحرب وزاد قساوة ، وانعقد الغبار إلى الجوّ الأعلى وانخلط
 العربان بعضهم ببعض ، وعقد ضرب السيف فيما بينهم حتى تصبغت الأرضي بالدماء
 وجرت مثل سيول المياه ، وصار نهار وملحمة ماجرى قط نظيرهما .

وأقمنا على هذا الحال ثمانية أيام بعد إنكسار الباشا ونحن ثابتون أمام العدو . وأما أهالي
 حماة فإنهم قطعوا مواردهم عنا ، وجلسوا في البلد بكل تحفظ ، وكانوا يدورون بالبلد ليلاً نهاراً ،
 بينما كان أهالي القرى يواصلونهم دائماً بالأخبار الرديئة عنا . وكانوا يسمعون كل يوم ، مرتين
 أو ثلاث مرات أن الدرّيعي قد انكسر ، وصار الخبر أيضاً بدمشق وخاف أهاليها أيضاً من
 هذا الخبر الشنيع .

[انتصار الدريعي على الوهايين]

فبعد ذلك رأى الدريعي أن أمورنا تتأخر كل يوم وأنا صائرون عما قريب إلى العدم ، فتحسن عنده رأي [به النجاة] كما سنوضحه لمسامعكم . وهو أنه جمع كامل رؤساء القبائل وعمل ديواناً عظيماً وقال : أريد منكم أن تفعلوا ما أقوله ، وأنا نهار غد ، إن أراد الله وإن ما أراد^(١) ، أكسر الوهايين . فضحك أناس وقال غيرهم : كَفَرْتَ يا دريعي ، قل ما هو المتحسن عندك . قال : أريد منكم في هذه الليلة أن تُرَحِّلُوا كامل بيوتكم ونسائكم وأولادكم وحوائجكم غربي العاصي من غير أن يبقى بيت واحد ، إنما يفضل هنا جميعكم : الرجال والخيـل والركب والزلم^(٢) ، لا غير ، ولكن بدون ضوضاء ولا ضجة ولا تدعوا العدو يعرف ذلك ، أريد أن نهار غد ، قبل طلوع الشمس ، أن لا أرى بيتاً منصوباً في هذا النزل بشكل من الأشكال . فحالاً انفرط الديوان وكل من راح ونَبَّه عربه بالرحيل . وفي الليل ، من غير غوغاء رحل جميع عرباننا وقطعوا غربي عاصي حماة ولم يبق بيت ولا ولد ولا امرأة إلا فقط رجال وفرسان . فقسمهم الدريعي أربعة أقسام ، ورتبهم من أربعة أطراف / جيش الوهايين ، وأمر الأقسام الأربعة أن يهجموا هجمة واحدة . فدخلوا في الجيش الوهايين وابتدأ ضرب السيف

٩٣/١

(١) «وإنما راد» .

(٢) الزلم ، جمع زلة ، أي الرجال . وهذا التكرار يفيد أن الصائغ يعني أولاً أصحاب الخيل ، ثم أصحاب الأبل والمشاة .

وانعقد دخان البارود وانكسر الوهابيون وفروا هاربين وإلى النجاة طالبين وأبقوا جميع أرزاقهم وبيوتهم منصوبة. وأما الدرعي فكان أمر أن لا يأخذ أحد شيئاً من الكسب كي لا يلبثوا عن العدو بل يطلبونه ويسعون في أثره، وظلوا وراءه حتى قطع تدمر وارتد على أعقابهم، فغنموا جميع أرزاقه وبيوته وجماله.

وأما الشيخ إبراهيم وأنا، فبعد أن انكسر جيش الوهابي وركض عربنا وراءه نزلنا إلى حماة وتكلمنا بالذي جرى فما كان يصدق أحد بذلك حتى الباشا نفسه. وخرج الناس إلى الأماكن المرتفعة، فكنا نرى البرية كمثل الضبان^(٣) الأحمر وهو من الرمل والغبار المتصاعد من أقدام الخيل، وظل الحمار ظاهراً بالجو بعد ثماني ساعات. ومع ذلك ما يصدق أحد أن الدرعي كسر الوهابي حتى أتت أناس من القرى وشهدت بذلك ونحن أكدناه لهم. فصار الفرح عندهم وأرسل الباشا حالاً تانار^(٤) ييشر وإلى الشام. وصارت الناس تدعو للدرعي بالنصر، وامتلاً العالم من البهجة والسرور^(٥).

وأما الدرعي وعربنا فقد كفوا عن الوهابيين، وعدوا على أرزاقهم وبيوتهم، وغنموا شيئاً لا يوصف من أموال وجمال وبيوت وحوائج وأمتعة. ونزل الدرعي وأولاده وكثيرون من كبار العشائر، فخرج المسلم والكيخيا وكل الضباط وكبار حماة لاستقباله وأدخلوه البلد برفقة عظيمة وغرابة^(٦)، والناس من نساء ورجال تدعو له وتحمد فعله. ثم إن الباشا عمل له غاية الإكرام والواجب، وأهداه تحفاً وذخائر. وكذلك وزير الشام أرسل إليه بولردي يحمدّه ويشكره على فعله، وأرسل إليه أيضاً بسيف عظيم، وفروة سمور، وخمسين كيساً، وأربعين حملاً من القمح. /وشاع خبر ذلك في جميع بلاد العرب^(٧)، عند الخاص والعام.

٩٣/٢

(٣) ضبان ج ضب وقد سبق تفسيره (انظر صفحة ٢١٣ حاشية ١٨).

(٤) كذا.

(٥) يظهر من سياق الحديث أن موقعة حماة بين الدرعي والوهابيين كانت خلال صيف سنة ١٨١٣. ولكن هل جرت هذه المعركة حقاً أم أنها من نسج الخيال؟ إننا نميل إلى تصديق الصائغ وإن كان بالغ جداً في عدد المتحاربين. وقد ذكر هذه الموقعة أوغست دي نرسيا في كتيب طبع سنة ١٨١٨، إلا أنها حدثت، على ما يقول، سنة ١٨١٢.

(٦) مظاهرة شعبية للسرور والابتهاج.

(٧) «في كامل بلاد عرابيا»، كذا. فهل يريد الصائغ جميع البلاد العربية أو جميع بلاد الجزيرة العربية؟

[الحلف الأكبر]

ثم بعد ذلك كان مضى فصل الصيف ، وقربت أيام التوجه إلى نواحي المشرق . فأخذنا جميع لوازمنا من حماة وخرجنا نحن والدريمي وكامل كبار قبائلنا من حماة بكل عز وإكرام واجتمعنا مع عربنا وقصدنا التشريق على حسب العادة ، ولكننا دائماً كنا لانتخلي عن عشر^(١) قبائل تكون معنا ، خوفاً من رجوع الوهايين علينا ، لأن هذا الأمر مشهور ، ويقال أن العرب لها رذات . فرحنا ونزلنا في محل يقال له تل الذهب بالقرب من طبراق حلب . فهناك كانت نازلة عدة قبائل ، البعض منها كانت معنا وقبلت شروطنا ووضعت أختامها بالورقة . وهم أربعة مشايخ : فراس^(٢) ابن عجيب ، شيخ قبيلة البشاكنة ، عشيرته تحتوي على خمس مئة بيت ، وأيضاً قاسم الوكيان ، شيخ قبيلة الشمسي ، عشيرته تحتوي على ألف بيت ، كذلك سلامة النعسان ، شيخ قبيلة الفواعرة ، عشيرته تحتوي على ست مئة بيت ، وأيضاً مهنا الصانع ، شيخ قبيلة الصلبة ، عشيرته تحتوي على ثمان مئة بيت .

ثم رحلنا وتوجهنا رويداً رويداً إلى الزور ، وهناك تواجهننا مع حبيينا الأمير فحل الخليل شيخ قبيلة بني سعيد وهي تحتوي على اثني عشر ألف بيت . فحصل لنا غاية الإكرام

(١) «لا تتخلا من عشرة قبائل معنا» : المعنى غير واضح ، فهل يريد المؤلف معاشره القبائل وصحبها أو يريد عدداً من القبائل ، وفي هذه الحالة يقتضي تكرير العدد ، بموجب قواعد النحو .

(٢) في مكان آخر : فارس .

والهدايا، وقطعنا الفرات من عنده ودخلنا الجزيرة نحن وجملة قبائل. وتوجهت غير قبائل من المتحدة من قبلي نهر الفرات قاصدة الحماد وبرية^(٣) البصرة. وبعد قليل من الأيام وصلنا مكتوب للدريعي من الأمير فارس الجريا، لأن المذكور لم يقطع الجزيرة معنا ولكنه ذهب مع جملة قبائل من أحبابنا على طريق الحماد. ومضمون الكتاب:

٩٤/١ نخبركم أن عدة قبائل من/ربع الوهابي قد انفصلوا عنه^(٤) بعد أن فروا عند حماة، لا يلون على أمر^(٥)، وهم الآن نازلون بالعباسية بالقرب من مسجد علي. وهي القبائل التالية: الفدعان، السبعة، الفككا، والمساعد^(٦)، والسلقا^(٧) وبني وهب: ست قبائل كبيرة، وقد بلغني أن لهم فكراً بالصلح والاتحاد معكم، لأنهم كرهوا أحوال الوهابي وخصوصاً بعد الذي جرى عليهم في هذه الأثناء أمام حماة، فقطعوا أملهم من الوهابي، والآن قد لانت أنفسهم إلى الصلح معكم، فإن تحسن عندكم أن ترسلوا إلي عبد الله الخطيب، وترسلوا معه بورقة الشروط وأنا أتوجه بنفس^(٨) معه إلى عندهم، وإن شاء الله يأخذهم إلى طرفنا ويتم الصلح معهم، وبذلك نزداد قوة جداً ونضعف عدونا. ولا تفكروا بأي خطر يقع لعبد الله، نحن نكفله مالاً، ودماً دمه، [ونكفل] كل ما يجري عليه من الأمور المخالفة.

فاعتمد رأينا على ذلك، لأنها فرحة عظيمة وعشائر مشهورة لاتقع بيدنا في كل وقت. فدبرت أحوالي وأخذت ورقة الشروط معي وتوكلت على الله تعالى وتوجهت. وكان بصحبتي خادم بدوي، والشخص الذي أتى بالمكتوب للدريعي رجع معنا. وبعد ستة أيام وصلنا عند فارس، وكان نازلاً على القبيسة، فرحب بنا، وعمل لنا غاية الإكرام، وتكلمنا بخصوص الصلح مع الفدعان وبقية القبائل. وفي اليوم الثاني أمر بالرحيل لنكون قريبين منها. ولم نزل نرحل حتى لم يبق بيننا وبينها إلا مرحلة فقط. فكتب الأمير فارس مكتوباً إلى ضوحي ابن آغبين أمير الفدعان، لأنه هو الأكبر بين القبائل المتقدم ذكرها، وبينه وبين فارس قرابة

(٣) «جول».

(٤) «قد فسخوا».

(٥) «بعد هجيجهم من على حماة».

(٦) «المساعيد».

(٧) «السلقة»: من العمارات، من عنزة.

(٨) «بالأجر»، يريد بالرجل.

من طرف النساء . ومضمون الكتاب أنه يشور عليه بالصلح مع الدريعي وينصح به بترك العناد والعداوة ويتعهد له من طرف الدريعي ، بالصفح عن جميع ما مضى ، وعرفه : « أن ٩٤/٢ عبد الله الخطيب قد حضر عندي/لأجل غير أشغال ، ولكن بما أنه عندي صدفة ، فمن المستحسن أن نكسب الفرصة ونجري الصلح على يده ، والصلح أوفق لك ولعربانك » . وأرسلنا بالمكتوب حالاً .

وعشية اليوم الثاني إذ أقبل ضويحي وبصحبه بعض الخيالة من أقربائه . فاستقبلناهم بكل إكرام وأخذنا نتكلم بالصلح . فكان جواب ضويحي أنا قابل الصلح ، وأعطي كلاماً به عن عشيرتي ، ولكني لا أستطيع أن أعطي كلاماً عن غير عشائر ، إذ لا يخفى عليكم أحوال العرب وحريتهم ، كل واحد يقود قبيلته . والرأي عندي أن تتفضلوا عندي نهار غد ، ونجمع كافة كبار قبائلنا ونتكلم معهم بما يجب ، وإن شاء الله تعالى يتم الصلح . فاعتمدنا على هذا الرأي .

وركبنا صباح اليوم التالي وسرنا مع ضويحي إلى بيته . فوصلنا إلى نزلهم وكان المنظر يؤلم القلب ، وذلك لأن جميع العربان بالشمس ، من غير بيوت ولا جمال ولا حوائج ، رؤية شنيعة جداً : فراشهم الأرض وغطاؤهم السماء ، وفي النهار يحترقون بالشمس ، ومنهم نحو عشرين رجلاً ، وضعوا مشلحاً على العصا ، وأدخلوا رؤوسهم فقط في ظله من حرارة الشمس . والنساء والأولاد وكثير من الرجال ومن الأكابر مرتمون بالشمس مثل الحجار ، حتى أن ما كان عندهم شيء يأكلونه ولا يتقوتون به . وكانوا نحو ثلاثين ألف نسمة . فالنتيجة أن قلبي تألم عليهم وكنت مقهوراً جداً .

وفي اليوم الثاني أرسل ضويحي يدعو كامل كبار القبائل عنده ، فحضر الجميع وصار مجلس عظيم يضم نحو خمس مئة نفر من رجال طاعنين بالسن ومشايخ وأمرأ ومشيرين ، أشكال وأشكال . وكل من يبدي رأياً . فالبعض يريدون الصلح والبعض يريدون أن يتوجهوا إلى نجد ، والبعض يريدون الذهاب إلى جبال شمر . وكل واحد في هواه يخالف الآخر . فرأيت من الأنسب أن أتكلم معهم بالمليح والكلام اللين عساني أستطيع أن أجذبهم جميعاً إلى طرفنا^(٩) . فابتدأت وقلت : اعلموا يا معاشر الناس أنكم الآن ، كما هو معلوم ، قد خرجتم من حزب الوهابي ، ولا بد أن يكون خاطره قد تغلظ لكم ، إذ لم تذهبوا مع جيشه برفقة صاري/ ٩٥/١

(٩) « حوفنا » .

عسكره الأمير عبد الله الهدال ، لأنكم انفصلتم عن المذكور وتركوه يذهب وحده . فهذا لا بد له أن يشي بكم إلى ابن سعود ، ويتدئ معكم بالمكايد والقصاص ، وخصوصاً أنكم تريدون التوجه إلى نجد وجبال شمر ، وهي تحت حكمه وبقبضة يده ، فيخشى عليكم من بغيه وظلمه المشهور ، فيستعبدكم ويفعل بكم ما يشاء ، حسب عادته مع الذين هو راض عنهم ، ولكن كيف تكون حالكم أنتم الذين خرجتم الآن من رضاه^(١٠) وعاديتهم^(١١) كيخياته عبد الله ، فعلى أي شكل يريد أن يقاصصكم ؟ ولكن أنتم مثل الطير الذي فر من فخ الصياد ، ولكن بسبب عدم معرفته وتمييزه عاد ورمى نفسه بالفخ ثانية ، ووقع بالمهالك . فارفضوا هذا الرأي الفاسد من عقولكم واعلموا أن نهر الفرات في مبتدأه نبع صغير ، وأثناء جريانه تصب فيه غير أعين ، فيزداد ويكثر ولا يزال يكبر ويزداد عرضه ويقوى حتى صار بحراً طامياً يجري بكل قوة وعزم ولا يستطيع أحد أن يمنعه عن مسيره ، حتى ولا جميع ملوك الأرض . فأنتم أيضاً إذا اتحدتم مع بعضكم تصيرون كنهر الفرات الطامي الغدار . وأيضاً تشبيه آخر يا إخواننا ، اصبروا حتى أريكهم شيئاً يعيرونكم . ثم نهضت من الجمع وابتدأت أجمع العصي التي بأيدي الناس ، حتى جمعت نحو ثلاثين أو أربعين عصاً . فأعطيت إلى أحد الشباب كان قريباً مني واحدة وقلت له : اكسرها فكسرها ، ثم أعطيته اثنتين فكسرها ، ثم ثلاثاً فكسرها أيضاً ، ثم حزمت الجميع وأعطيته وقلت له : اكسر هذه ، قال : هذا شيء لا يمكن . فقلت له : أنت مالك قوة فاعط إلى غيرك . فأعطى إلى الذي جانبه حتى دارت العصي على كل واحد . ثم قالوا : هذا شيء غير ممكن ، لا يستطيع أحد أن يكسرها . فقلت لهم : وأنتم كذلك ، إن كنتم قبيلة أو ثلاثاً أو خمساً تنكسروا . ولكن إذا كنتم مجتمعين مثل هذه الحزمة ومرتبطين بحبل الشروط لا يستطيع أحد أن يسطوا عليكم أو يقهركم أو يستعبدكم ، بل أنتم تقهرون الجميع وتسودون على الدنيا كافة . وإذا شددوا قلوبكم ، وقوا عزائمكم ، وارفضوا العبودية ، واقبلوا الحرية ، والتحموا مع إخوانكم أصحاب الخير ،/^(١٢) بموجب هذه الشروط . وأخرجت صورة الشروط وقرأتها عليهم ، وعند نهايتها قلت : اعلموا يا إخواننا ، من بعد جميع ما قلته لكم ، إني لا أريد إلا صلاحكم ، بل إني أتعهد لكم أيضاً برد جميع ما أخذه منكم الدريعي عند حماة

(١٠) «خاطره» .

(١١) «وضشمتوا» .

(١٢) ابتداء الكراس رقم ١٢ .

من بيوت وسائمة^(١٣) وغير ذلك ، فكونوا مطمئني القلب وال خاطر واصرخوا : نحن قابلون ، إننا مع المتحدّين على الخير والشر حتى الموت . فقامت ضجة عظيمة وصيحة هائلة من فم واحد : نحن مع المتحدّين وقابلون بهذه الشروط على الخير والشر حتى الموت .

فللوقت صافحنا بعضنا بعضاً جميعنا ، وحصل الفرح والسرور لكامل الناس ، وصرت عندهم بأعلى منزلة . ولكن النهار كان متعباً جداً لي إلى درجة لا توصف . ثم اعتمد رأينا وتواعدنا على أن يرحلوا وينزلوا إلى الحلة ، وأنا أعود حالاً عند الدريعي وآتي به إلى الحلة أيضاً لأنها مقطع جيد ، كي يستلموا بيوتهم وجمالهم ، ويتصالحوا مع الدريعي ، ويضعوا ختومهم بورقة الشروط . فتم الرأي على ذلك . وفي اليوم التالي من الصبح ركبت وتوجهت عند الدريعي ، وقطعت الفرات من الحلة ، وبعد خمسة أيام وصلت عنده . وكان بالهم مشغولاً جداً بسببي ، فحكيت لهم جميع ما جرى ، فسروا جداً وحمدوني على ذلك . وبالحال أمر الدريعي بالرحيل والتقدم إلى حلة . وبعد قليل من الأيام نزلنا نواحي الحلة . وحين رأونا^(١٤) قطعوا نهر الفرات . وحضر عندنا كل كبار قبائلهم مع فارس الجريا . فنهضنا للقائهم واستقبلناهم بكل إكرام وعز ، واجتمعوا كلهم مع كبار قبائلنا في بيت الدريعي . وكان مجلساً عظيماً . فابتدأ بعض الحاضرين يتكلم ويعتب عما مضى . فقال ضويحي : يا جماعتنا ، العتاب للنساء ليس للرجال . ثم نهض^(١٥) قائماً وأخذ سبع حصوات وطمرها في الأرض ، وفعل كما ذكرنا سابقاً عن عاداتهم ، حين تصالح مهنا مع الدريعي وطمر الحصوات . فصار الفرح وأيقنوا بالصلح الأكيد لأنهم متى طمروا الحصوات كان صلح حقيقي من غير/انتقاض قطعاً .

٩٦/

ثم حضر الطعام فتغدينا وتحالفنا على الخبز والملح . وبعد الغداء صارت خلوة خارج البيت مع رؤساء قبائلهم وقبائلنا ، وقرأنا لهم ورقة الشروط الأصلية مرة ثانية ، فقبلوا بها وازدادوا رغبة حين رأوا العدد الكبير من الختوم الموضوعة بها فضربوا جميعهم ختومهم وأسماءهم بها . وهم ضويحي ابن آغبين أمير قبيلة الفدعان ، عشيرة تحوي على خمسة آلاف بيت ، جميعهم فرسان مجربون بالحرب والقتال ومشهورون . وأيضاً علي ابن حريميس ، شيخ قبيلة

(١٣) « وسيحة » ، (٩) كذا .

(١٤) أي ضويحي والقبائل التي معه .

(١٥) « فز » .

السلقا^(١٦)، عشيرته تحتوي على ثلاثة آلاف بيت، وأيضاً نعيمان ابن فهد، شيخ قبيلة المساعيد، عشيرته تحتوي على ثلاثة آلاف وخمسة مئة بيت، وأيضاً امعضي ابن عبده، أمير السبعة، عشيرته تحتوي على أربعة آلاف بيت، وأيضاً شطي ابن عرب، أمير قبيلة بني وهب^(١٧)، عشيرته تحتوي على خمسة آلاف بيت، وأيضاً اشتيوي^(١٨) ابن طيار، شيخ قبيلة الفككا، عشيرته تحتوي على ألف وخمسة مئة بيت.

ثم بعد ذلك قال لهم الدريعي ابشروا يا أحببنا، إن جميع مراح لكم من بيوت وسائمة وغير وغير تفضلوا استلموها، لأن عبد الله الخطيب تعهد لكم بردها، وقوله من قولنا وقولنا من قوله. فجميع ما تعرفونه أنه حقيقة لكم خذوه من غير ممانعة. فشكروا فضله واستكثروا بحيره^(١٩). وبالحال ابتدأ عربانهم يجتازون إلى الجزيرة من مقطع الحلة، لأن هناك أشياء كثيرة مخلوطة في بعضها لا يمكن للرجال أن تفرق بينها، بل يجب حضور النساء حتى تعرف كل واحدة منهن بيتها وحوائجها وجمالها. فالنتيجة حضر الجميع وأخذوا يستلموا ما هو لهم. وكثرت العربان في الحلة حتى اضطر سكان الحلة أن يهربوا من كثرة العربان وضجيجهم. فأقمنا خمسة أيام في تعب عظيم حتى عرف كل واحد رزقه وأخذ ماله، وانفصلوا عن بعضهم بعد غوشة وعياط وضجيج وقتال صغار العربان مع بعضهم، بسبب اختلاط الجمال والغنم بعضها ببعض. وعلى كل جمل/وغنمة كان يقع العياط. ٩٦/٢

والنتيجة أنه حصل لنا تعب كبير بسبب هذه الشعوب، وهي تقدر، ما بين عربنا وعربهم، بنحو مئتي ألف نسمة من رجال ونساء وأولاد. أما الجمال والأغنام فلا يعرف عددها سوى ربنا. وهي مختلطة بعضها ببعض. والشيء الذي سهل الأمور نوعاً ما، أن لكل قبيلة وسماً أي علامة^(٢٠)، يكوى بالنار على أفخاذ الجمال: لكل قبيلة علامة عامة تسمى وسم العشيرة، وإلى جانب وسم العشيرة العام وسم ثان خاص بصاحب الجمال. ولكن من كثرة هذه الوسوم تتقارب العلامات وتشبه بعضها بعضاً، فيحدث القتال لأجل ذلك.

(١٦) «السلقة»، من عنزة.

(١٧) بني وهب: من ضنا مسلم، فرع من عنزة.

(١٨) اشتيوي أم أسطوي؟.

(١٩) أي قالوا له: «الله يكثر خيرك».

(٢٠) «نیشان».

[من حوادث البادية]

ومختصر الكلام أنه حصل تعب لا يوصف بشقة ولا لسان ، حتى استطعنا أن نوفق بينهم وبقوا جميعهم معنا بالجزيرة ثم توجهنا جملة . وكان بالجزيرة غير قبائل أيضاً ، وأتت أيضاً عدة قبائل من نواحي نجد ، حتى تغطي وجه الأرض بالعربان وضائق الطرق والمسالك بهم . وبوقته كان قفل قادماً من بغداد إلى الشام ، فغارت الفدعان والسبعة عليه ونهبوا جميع ما فيه ، وشلّحوا الناس الذين فيه ، وكسبوا أموالاً لا توصف . وكان محملاً من قماش الهند وقهوة ونيل وقرفة وقرنفل وشال وسجادات^(١) وبياض بغدادي وجانب من المعادن وشال كشمير وغير ذلك ، النتيجة بألوف الأكياس . فنهبوا الجميع وغنموه . فشاع خبر ذلك فصارت تحضر الناس من أهالي القرى والقُبَيْسَةِ وأهل شتاته (؟) وغيرهم ، حتى من جهة الموصل ، واشتروا من الأرزاق . فكان يباع شال الكشمير الذي يسوى ألفي غرش بمشلع أسود ، وثوب البياض الهندي الذي يسوى مئة غرش يباع بجزمة صفراء . والقرنفل والقهوة بالكيل ، كل كيل من القهوة أو القرنفل بكيل تمر . وباع واحد من البدو صندوق نيل بقنباز خام ، وباع آخر فردة محزوم بياض هندي بخمسين غرشاً ، وبدوي آخر باع قرفة وفردة بياض هندي ونصف صندوق نيل وساعة إنكليزية/إلى واحد موصل ، كل ذلك بمشلع وجزمة وقميص قز ورطلين توتون ولبادة فرس . فبلغ ثمن جميع ما أعطي نحو مئة غرش ، وأخذ أشياء بعشرين ألف غرش . وقس على هذا النحو جميع ما باعوا من الأرزاق . وأما القرفة السيلانية من الصنف العالي فما

(١) « سداجات » .

صار لها راغب يشتريها ، فكنت ترى منها حزماً حزماً بين أرجل الخيل والجمال . وكذلك بلغنا عن واحد بدوي باع خاتم الماس كبيراً عظيماً برطل توتون . فالغاية أن الذين اشتروا غنموا ، وأما نحن فلم نتدنس بشيء كلياً لأن الشيخ إبراهيم ماضي بذلك .

أما بخصوص القبائل التي ذكرنا أنها أتت من نجد إلى الجزيرة فهي القبائل الخمس التالية : الحماميد^(٢) والضفير والعجاجة والخزاعل وبنو طي . وسبب حضورها هو أن لأمر بني طي بنتاً جميلة جداً اسمها قمر . فعشقها شاب ابن أمير من عرب نجد وهي عشقته بالأكثر . وهذا الشاب نسيب الوهابي من طرف الحرير . فاشتد عشقهما الواحد للآخر حتى انكشفت حكايتهما . فمئنها أبوها عنه ونبهه بعدم الحضور عندهم . فصار المنع من الطرفين واشتدت المحبة أكثر كما هو معلوم . وكان لها ابن عم يريد أن يتزوجها ، وهي لا تحبه بل تريد ذلك الشاب الذي تحبه ، وكان اسمه فهرا ب . فالمدكور من شدة حبه ، حسن لديه أن يحفظها ليلاً وارتبط معها بوساطة امرأة عمجوز ، وهي رغبة في ذلك وأخذت تنتظره . وأما ابن عمها فمن غيرته ومحبتة لها كان دائماً يراقبها ليلاً نهاراً ، حاسباً هذا الحساب ، حتى أنه في الليل أيضاً كان دائماً راكباً فرسه ودائراً بالنزل ، مفكراً باللذي هما مفكرين به . وأما الشاب فهرا ب فإنه تزيا بزي فقير ودخل النزل نهاراً ، وراح إلى بيت قمر ، وعرفها بحاله واتفق/معها . ولما انتصف الليل خرجت من البيت وهو كان يترقبها . فسرق فرس أبيها وركبهاها وطلبها الفرار . فبعد خروجهما بقليل من النزل ، بمقدار ساعة ، تصادفا مع ابن عمها عرضاً ، فعرفهما وصار الطلب . ولم يزل راكضين وابن العم وراءهما ، نحو ست ساعات ، ركضة واحدة . وأخيراً وقعت الحرب بين الرجلين بشدة عظيمة حتى هلكا من التعب وهي واقفة تنظر إليهما . ثم غلب فهرا ب ووقع من على ظهر الفرس مجروحاً على الأرض . فنزل تامر هذا اسم ابن عم البنت ، حالاً وذبح فهرا ب وأخذ يعاتب قمر بالكلام اللين جداً لأنه كان يحبها كثيراً ، ثم سارا إلى أن قربا من النزل . فنزل تامر كي يستريح إذ كان تعباً ونعسان جداً ، فغفل واستسلم للنوم . فقامت قمر وقطعت رأس تامر ابن عمها وأخذت حربة رمح وضربت بها قلبها وماتت هي أيضاً ، إذ وجد الناس ، فيما بعد ، فهرا ب بعيداً عنهما نحو خمس ساعات ، وجدوا تامراً مقطوع الرأس وقمر والحربة لا تزال مغروزة في صدرها ، ففهموا أن قمر قطعت رأس تامر من جها لفهرا ب وأخيراً قتلت نفسها بيدها .

(٢) الحمائدة .

فبسبب قتل فهراب تحركت عدة قبائل ضد بني طي، والوهابي نفسه تصدى لهم، وكثرت الأعداء وتواصلت الحروب وسُفِكَت دماء كثيرة، وابتدأ الوهابي بالكيد لهم والغارات عليهم وعلى من يلوذ بهم من القبائل، وحصل لهم ضيق^(٣) شديد وتعب كثير وحروب، حتى اضطروا أن يهربوا ويأتوا عند الدريعي كي يحموا حالهم من نار الوهابي، لأنهم كانوا سمعوا بالنظام الجديد وبأحوال الدريعي. فحالاً جمعناهم وقرأنا عليهم ورقة الشروط فقبلوا بها ورضوا، ووضعوا ختمهم وأسماءهم بكل قبول ورضى. وهم شطي ابن فارس، شيخ قبيلة الحماني^(٤)، عشيرته تحتوي على ألف وخمسمائة بيت، عوض ابن مطلق، أمير قبيلة الضفير، عشيرته تحتوي على ألفين وثلاث مئة بيت، وأيضاً سلامة ابن براق شيخ قبيلة العجاجة، عشيرته تحتوي على ثمان مئة بيت وأيضاً تخنكار العلّيمي، أمير قبيلة الخزاعل^(٥)، قبيلته تحتوي على ثلاثة آلاف بيت، وأيضاً الحميدي ابن تامر، أمير قبيلة بني طي، عشيرته تحتوي على أربعة آلاف بيت.

ومن بعد هذا رحلنا، وابتدأ التقدم إلى نواحي المشرق بكل قوة، إذ صار حزينا كبيراً وازداد جداً، وتحققنا عندئذ بنجاح أمورنا وإتمام مقاصدنا. ثم قبل وصولنا قريباً من بغداد ضرب العرب قافلة آتية من حلب إلى بغداد، جميعها من أموال حلب وأموال بلاد الإفرنج، من جوخ وطربوش ودوده ومرجان وكهريا وخرز وغير وغير. كذلك باعوها للمشتريين بأرخص ثمن، كما باعوا أرزاق القافلة التي نهبها سابقاً. فبسبب نهب هاتين القافلتين قد تحرك وزير بغداد في طلب الأرزاق من العرب، وأرسل بولردى إلى ضويحي، شيخ مشايخ فدعان يطلب الأرزاق منه لأن المذكور وعشائره هم الذين ضربوا القافلتين. فحضر المذكور عندنا واستشار الدريعي بذلك، فكان جواب المذكور: لا تخف وأجب الوزير بكل شجاعة وقساوة. ففعل ذلك وأرسل الجواب. فتغير خاطر الوزير وأراد أن يجهز عساكره على العربان فمنعه المدبرون، وأعلموه أن الدريعي تصالح^(٦) مع ضويحي، وهو الآن موجود بالقرب من بغداد، وبصحبه عربان لا تعد ولا تحصى تضيق بها الأرض لكثرتها ويخشى منها على العسكر الذي سيطلع. فمن هذا الخبر ارتج قلب الوزير وما حرك بعد ذلك ساكناً.

(٣) «ديق».

(٤) ويكتب الصايغ أيضاً: الحماني ويريده الحماني.

(٥) «الخداعل».

(٦) «طبيب على ضويحي»، طبيب على الفلان، بالاصطلاح البدوي، معناه تصالح معه.

[مع عرب العجم والهند]

أما نحن فلم نزل سائرين وقطعنا الدجلة من مقطع يقال له أبو علي ودخلنا طبراق العجم . وكان معنا نحن عشرين قبيلة من العرب . ولم يزل يزداد عدد القبائل ، إذ صارت المسألة غيرة بين العربان وأصبحوا يأتون ويطلبون الاتفاق معنا من غير أن ندعوهم . ولم نزل بالتقدم في تخوم العجم حتى بلغنا/أرضاً يقال لها التعليبة ، واسعة عظيمة من طبراق العجم ، ٩٨/٢ فنزلنا بها . وهنا حضر صاحبنا صقر ابن حامد ، شيخ قبيلة المُضَيَّان الذي كنا ذكرناه سابقاً . فهذا [الأمير] لم يغرب ، كما قلناه ، خلال كل هذا الوقت ، إذ رأى من الأفضل ، حين افتراقه عنا ، أن يتقدم إلى أواخر طبراق العجم ويصل عند الأمير الأعظم سعد البخاري ، رئيس قبائل عرب الهند ، الذي يقيم دائماً في أواخر طبراق العجم على حدود الهند الشرقي^(١) ، وتسمى بين القبائل عرب الهند . فهذا الأمير الأعظم من طائفة قديمة جداً ، وقد أعلمنا العرب أنه إلى الآن يوجد في بلاد الأندلس (يعني اسبانيا) عرب بالبر يسمون عرب البخاري ، من سلالة^(٢) هذا الأمير ، وذلك من الزمن الذي أخذ ملوك بني العباس بلاد اسبانيا . وعلى قولهم لم يزل إلى يومنا هذا موجود من سلالتهم في برية اسبانيا .

وأعلمنا [الشيخ صقر] أنه وصل إلى عنده وأفهمه المادة سرّاً لذاته فقط ، وربط معه

(١) كذا ، ومن الواضح أن الصواب : الغربي .

(٢) « سلية » .

رابطة متينة جداً وأثار محبة بينه وبين الدريعي عن بعد، وبقي سعد باشتياق لرؤية الدريعي وانتظار قدومه عنده. فسررنا^(٣) جداً من هذا الخبر، إذ كنا نفكر جداً بهذا الأمر ومهتمين به، لعدم معرفتنا إذا كان سعد وقبائله سينجذب إلى طرفنا، فليس هناك معرفة سابقة بينه وبين الدريعي، ولا حدثت مكاتبة بينهما قط. وكان الناس يقولون عن سعد وتلك العربان أنهم جماعة غليظو العقل والفهم، سمجو الأطباع، وكانت هذه الفكرة تقلقنا جداً، لأننا إذا لم نستطع أن نجذبهم إلى طرفنا ونضمهم إلى اتحادنا يحصل لنا تعب، ويصبح الدخول إلى أرضهم عسيراً جداً علينا، ويجئنا^(٤) إلى حروب ومخاصمات وأمر كثيرة. ولكن شكرنا الباري تعالى على هذا التوفيق الرباني، وتسهيله الأمور معنا من كل الأطراف، إذ قد هانت المادة جداً باكتساب محبة عرب الهند وصحبهم. فتحسن الرأي عندنا وعند بعض كبار القبائل أن نتقدم بعض المرحلات^(٥) إلى المشرق، ونرسل إليه بمكتوب مع هجانة، ونرى جوابه وعلى أي معنى ستكون مكاتبته معنا. فاعتمدنا على هذا الرأي، وثاني يوم رحلنا بكامل/عرباننا وتقدمنا ونزلنا بأرض يقال لها منزلة صالح، بها الماء والمرعى متوفران جداً. فأقمنا بها ثلاثة أيام ورحلنا ونزلنا منزلة يقال لها ريح^(٦)، ليس بها ماء جارية بل في حفر. فحفر العرب حفائر بالأرض نحو ذراعين فقط فخرجت ماء عظيمة حلوة باردة. فكل سبعة أو ثمانية بيوت عملوا لهم حفيرة يستقون منها. فأقمنا أربعة أيام ورحلنا ونزلنا بأرض يقال لها المعدنية بها مجاري ماء وافرة. ولكن بعد هذه المنزلة، مدة ثلاثة أيام، لا يوجد ماء إلى رام صالح. فبعد أن أقمنا خمسة أيام في المعدنية لله الدريعي أن يأخذوا معهم فائضاً^(٧) من الماء، فملائت جميع العربان رواياها وقرها وأجوادها^(٨) ورحلنا. فأول يوم سرنا إلى المساء ونزلنا بأرض يقال لها الحوتية، من غير نصب بيوت، لأن مرادنا أن نبكر ونرحل بسبب عدم وجود الماء. وكان بتلك الأرض شكل حيوان صغير بقدر الطبوع أو أكبر قليلاً ولكن يدخل بالأذنين^(٩) وإذا دخل في أذن^(٩) أحد ولم

٩٩/١

(٣) « فانبسطنا ».

(٤) « يتكلف ».

(٥) « كم مرحلة ».

(٦) ريح: موضع بحراسان (معجم البلدان).

(٧) « أفادة ماء ».

(٨) جود تجمع على أجودة.

(٩) « دان » والمثنى « دانين ».

يخرجه^(١٠) فإنه يتسع ، وإن أقام أربعاً وعشرين ساعة يسد الأذن ويطرش الإنسان . فالعربان كانوا يعرفون ذلك الحيوان فنبهوا كل من ينم أن يسد أذنيه . ولكن الشيخ إبراهيم استهتر بذلك ولم يصدق . فدخلت واحدة من [تلك الحشرات] في أذنه وأحس بها ، فحصل تعب عظيم حتى أخرجناها بالملاقيط و(^(١١)) ، حتى خرج الدم من أذنه وتعذب كثيراً إلى أن طلعت .

فثاني يوم رحلنا حالاً إلى المساء ونزلنا أيضاً من غير نصب بيوت لأن الماء أوشكت أن تخلص ، وعند الصباح لم يبق عندنا ماء كلياً . وفي اليوم التالي كان رأي الدريعي أن ينبه على العربان أن يرسل كل بيت جملاً وراويتين يملأهما ماء ، من مكان بعيد عنا ست ساعات إلى ناحية الشمال ، يقال له —^(١٢) ، به جباب ماء . فقال الشيخ إبراهيم أن رأيي ، قبل أن يذهب الناس لأجل جلب الماء ، أن يحفروا هنا لعل تخرج المياه . فما قنع أحد بذلك . أما الشيخ إبراهيم فإنه بنى استناده [على المشاهدة] ، إذ تبين له أن كل أرض التي يكون فيها عشب أخضر ، أو فيها عشب كرم متجمعة صغار من عشب يقال له الرؤفة^(١٣) ، /يطلع بها ماء ، لأنه تأكد ذلك من الأماكن التي حفروا بها حفراً وخرج الماء منها مثل منزلة ريح التي ذكرناها سابقاً ، قبل منزلة الخربة ، لأن عشبها كان مثل عشب تلك الأرض^(١٤) وشكل التراب واحد . ثم قال الدريعي : جربوا ، لعل في الشيخ إبراهيم روح نبوة ، لأن العرب ما كانت قط جربت هذا الحل ، فحفروا وبالأمر الذي يريده الله طلعت الماء . ففرح العربان وشكروا للشيخ إبراهيم فضله وفطنته وعقله . وأقمنا بذلك الحل ثلاثة أيام . ولم نزل نرحل وننزل ونمر بأراض متعددة الأشكال من صحراء ووعر وجبال وسهل...^(١٥) حتى قطعنا بلاد كرمان ووصلنا إلى نهر خرسان ، وهو نهر عظيم غدار كبير ، بمقدار نصف الفرات . إلا أننا أرجعنا كثيراً من القبائل إلى الوراء لأن لالزوم لحضورها معنا ، فنحن مرادنا التقرب لأجل المكاتبه ، وإذا أمكن المقابلة ، مع الأمير سعد البخاري . ولم نزل نرحل وننزل ونواجه أثناء سيرنا قبائل عرب التي تقيم دائماً في طبراق عجم استان ، وتحت تدبير الأمير سعد وأوامره ، في نواحي

(١٠) « وما طالعه » .

(١١) كلمة عبر مرقوة لأنها مخططة بجلد المخطوطة .

(١٢) كذا في المخطوطة ، أغفل المؤلف ذكر اسم هذا المكان .

(١٣) نوع من العشب يستخرج منه أحسن أنواع القلي أو الصودا .

(١٤) « كانت من قماش تلك الأرض بالعشب » .

(١٥) عبارة في الهامش لا يمكن قراءتها لأنها مخططة في جلد الكتاب .

سواحل البحر حيث يكون السهل . ونحن كان مسيرنا بالقرب من ساحل بحر الهند ، لأن جبال العجم أكثرها وأكبرها في وسط الطبراق ، ولأن السواحل سهلة أكثر وإن كان مرعاها أقل من الداخل ، فلأجل سير الجمال يجب أن نلحق السهل .

فمن بعد مسيرنا في طبراق العجم اثنتين وأربعين مرحلة كبيرة ، نزلنا بأرض يقال لها الهندوان^(١٦) ، وهناك كان نازلاً أمير يقال له هَبَش ابن معدن ، رجل من كبار عرب ديرتهم ، له قرابة ونسب من الأمير سعد . فحين بلغه قدوم الدريعي ركب وحضر إلى عندنا لأنه كان سامعاً بصيته . فخرجنا للقائه ورحبنا به وصارت المحبة بيننا وبينه . وأما هو فإنه رجل أنيس جداً . فأقام عندنا كل ذلك اليوم ، واستخبر منا عن أحوال ديرة بغداد والجزيرة والحماد والوهابي وعرستان^(١٧) . وكذلك نحن استخبرنا منه عن أحوالهم ، وعن الأمير سعد ، فقال ١٠٠/١ لنا : أن الأمير سعد نازل الآن في محل بالقرب / من حدود الهند ، يقال له مِراح طُلهماز ، وبيننا وبينه تسع مراحل كبيرة ، فإن شاء خاطركم الوصول إليه ، أرسل معكم دليلاً يوصلكم إليه لأنكم قط ما جئتم إلى ديرتنا ، وتجهلون الأراضي والمياه ، فقبلنا ذلك . وبعد يومين توجهنا برفقة دليل ، وأتى معنا قليل من القبائل لأنه ليس من الضروري أن تحضر معنا ، وكان قَرَب انتهاء فصل الشتاء وقادمٌ فصل الربيع^(١٨) ، ويجب أن نكون وقتئذ في نواحي العراق وبلاد سورية . ولهذا السبب لم ندعها تحضر معنا ، بل توجهنا فقط مع خمس قبائل ، منها قبيلة المُضَيَّان التي شيخها صاحبنا صقر ، وقد صار له معنا تعب كثير .

ثم جدينا بالسير ، وكل يوم مرحلة ، البعض منها فيها مياه والبعض منها خالية من المياه . فكل مرحلة نحن قادمون عليها ليس فيها ماء ، تحمّل العربُ الجمال ماء ، ما يكفيننا ويزيد عن حاجتنا . وكان بوسعنا أن نجد دائماً الطرق التي فيها ماء ، لأن العرب تعرف دروباً كثيرة يوجد فيها الماء يومياً ، ولكن أولاً إنها بعيدة ، وثانياً لا يوجد فيها مرعى للجمال ، ويجب أن تكون الدروب موافقة من الطرفين ، أي أن تكون صالحة للماء والمرعى ، والألزم عند العرب وعند الجميع المرعى ، لأن الماء يحمل وأما المرعى فلا يحمل . وحين بقي لنا ثلاث مراحل ،

(١٦) الهندوان : نهر بين خوزستان وأرجان عليه ولاية . (معجم البلدان) .

(١٧) «عرب بستان» .

(١٨) شتاء سنة ١٨١٤ بمقتضى سياق الحديث ولكن إذا سلمنا أن موقعة حماة جرت سنة ١٨١٢ استناداً إلى ما جاء في كتاب أوغست دي نرسيا ، عامل نابوليون ، كما ذكرناه في المقدمة ، فإن الصايغ يتكلم عن شتاء سنة ١٨١٣ .

أرسلنا مع هيجان، من عرب ديرتهم، بمكتوب للأمير سعد من طرف الدريعي، للسؤال عن خاطره والسلام عليه، ومضمونه أننا جئنا من بلادنا خصوصاً لأجل رؤيتك، وربط المحبة والصحبة والمعرفة معك. ثم رحلنا أول يوم وثاني يوم، وفي الثالث، وهو اليوم الذي سنصل فيه عنده، في منتصف النهار، إذ بالعبار معقود من صدر البرية كأنه غمامة ممطرة. واسود وجه الأرض من جهامة العريان المقبلة علينا. فحسبنا لذلك حساباً كبيراً وظننا أن قوماً أعداء قد أتوا لقتالنا. فاستعدينا للحرب، إلا أننا كنا قليلين فندم الدريعي عندئذ كل الندم، لأنه طلب من القبائل أن تعود، ولم يدعها تحضر معنا، لأنها كانت تعيننا إذا حدث لنا أمر. ١٠٠/٢ فوقفنا في محلنا واتمت عرباننا بعضها على بعض، ولم يبق لنا/جراة^(١٩) على التقدم إلى الأمام ولو خطوة واحدة. فقال الدليل الذي جاء معنا من طرف الأمير هبش: أنا أذهب وأكشف لكم خبر هذا القوم. وبالحال غار من بيننا كأنه الصاعقة فوصل عندهم وبعد قليل ارتد وقال: «ابشروا تراه الأمير سعد بعريانه آتياً للقائكم». وفرحنا بذلك واطمأن قلبنا، وحالاً ركض الدريعي وأولاده وكثير من كبار قبائلنا والشيخ إبراهيم وأنا للقائهم. وكذلك سعد وكبار قبائله ركضوا لملاقاتنا، واجتمعنا مع بعضنا بين الصفيين، وسلمنا على بعضنا، وأمر سعد بنصب البيوت في تلك الأرض لأنها منزلة متسعة للجميع، وهي على نهر عظيم يسميه العرب جيستان يبعد عن حدود الهند نحو عشرين ساعة فقط، بالقرب من بلد هي آخر بلاد العجم يسمونها المنونا. فنزلنا جميعنا هناك، ودعينا عند الأمير سعد نحن وكامل من معنا من أمراء ومشايخ وكبار القبائل، مدة ثلاثة أيام على تنقطة الأمير سعد. وأما المذكور فهو رجل بلغ من العمر نحو خمسين سنة، وله أربعة أولاد شباب و بنت واحدة فقط. وأما بالرجولية^(٢٠) فهو مشكور جداً بين العريان ولكن بالكرم^(٢١). وهو من بيت قديم وطائفة كبيرة مشهورة بالكبر والحكم والإمارة، وذلك من قبل دولة العباسيين في بغداد، وصوته مسموع من قبائل كثيرة، حتى عرب الهند تتبع صوته، وله عندهم اسم كبير مشهور من قديم الزمن.

ثم كل يوم كنا نعمل معه خلوة ونتكلم، حتى فهم المادة جيداً ودخل في عقله مطلوبنا، فوافق على ذلك وسرَّ جداً إذ قال: على ما أعلم أن جميع أهالي بلاد الهند غير راضين على حكاهم اليوم، ويتمنون أن تحدث أمور مثل هذه لأنهم مظلومون. وأما أنتم فلا تفكروا

(١٩) «جراة».

(٢٠) «الرجل».

(٢١) كذا، والعبارة غير كاملة.

بشيء فإنني أقدم للجيش^(٢٢) جميع ما يلزم، وإذا اقتضى الأمر فإنني أرسل من عندي أناساً وجمالاً وذخائر للملاقات الجيش^(٢٢). فأنا معكم على كل ما تريدونه من العمل. ثم قرأنا ورقة الشروط، فسّر منها جداً. ولكنه ما وضع اسمه ولا ختمه بها، بل عمل لنا ورقة ثانية خاصة به ١٠١/١ لنا، ووضع اسمه وختمه بها وكانت بهذه الألفاظ:

بسم الله الرحمن الرحيم، أقول أنا سعد بن بدر بن عبد الله بن بركات بن علي البخاري رضي الله عنه، هو أي قد رهنت لساني بقول ثابت لدى حافظين هذه الورقة، بأن أكون موافقاً لهم ومتحدداً معهم وقابلاً بشروطهم المرقومة في ورقة عمومية غير هذه، وأكون مساعداً ومعيناً لهم في جميع ما يريدونه ويغفونه، وأكون حافظاً لسرهم وعدواً لعدوهم وصاحباً لصاحبهم. وقد أعطيت هذه الورقة حتى يكونوا مطمئنين من طريقي، ومتأكدين من كلامي، والسلام على سيدنا ومولانا الأعظم، فحل الرجال، الإمام الغالب علي بن أبي طالب رضي الله عنه والسلام. ثم وضع توقيعهم وختمه ودفعها لنا.

فأقمنا مع بعضنا ستة أيام بإكرام زائد، ونحن دائماً معه ومع كبار قومه في حديث ومحبة ودعوات. النتيجة حصل لنا منه جبران خاطر عظيم. وأما بخصوص طباعهم فهي تختلف عن مزايأ عربنا، وذلك حاصل من اختلاف المناخ والمياه. ومن ذلك، على سبيل المثال، إن أكلهم أقل من عرب ديرتنا، وطباعهم ألين من طباع عربنا. وأما من حيث الشجاعة والفروسية والخيولية^(٢٣) فإن عربنا أنشط منهم. وأما من حيث الكرم، فإن عربنا، على وجه العموم، أكرم منهم، ولكنهم أكثر طمعاً منهم. إذ ليس عند رجالهم طمع على الإطلاق. وأما تعاملهم مع أهالي بلادهم فهو قليل جداً، لأنهم يحبون أن يتجنبوا المدن، ويرغبون عن معايشة أبناء البلاد. وأما سلاحهم فالرمح والسيف والكلنك^(٢٤) الحديد والترس مثل عربنا، غير أن بارودهم بقداحات وليس بفتيل مثل عربنا وعرب الوهابي.

ثم ودعناهم وصافحنا جميع الأكابر، وتواعدنا أننا عن قريب إن شاء الله سوف نرى بعضنا، ورجعنا إلى بيوتنا. وإذا بالأمير سعد يرسل رأسي خيل عظيمين، مع عبيدين، كل واحد منهما يجر فرساً، والخيل والعبيد هدية للدريعي. فوجب على المذكور أن يعود عنده

(٢٢) «الأرضي».

(٢٣) يريد ركوب الخيل أو الفروسية.

(٢٤) الكلنك ويقال أيضاً الكرنك سلاح يشبه المطرقة من جهة ومعكوف من الجهة الأخرى.

ويستكثر بغيره، لأن الهدية عظيمة الثمن، ثم رجع من عنده وثاني يوم أرسل الدريعي إلى ١٠١/٢ سعد فرساً/نجدية عظيمة من الخيول المشهورة، اسمها العديّة، وهجيناً أملح أي أسود، مشهوراً بالسير، أصله من هجن عرب شمر، لأن هجن شمر مشكورة جداً لسرعة سيرها، وكمية من الكهريا والمرجان والخرز وأساور من الزجاج للحريم، وهذا شيء مقبول عندهم جداً.

وفي اليوم الثاني نادى بالرحيل وقمنا وطلبنا الرجوع إلى ديرتنا. ومازلنا نرحل يوماً لأننا نريد أن نلحق جانباً من فصل الصيف في بلاد سورية، إذ كان مضى الوقت وانتهى فصل الربيع^(٢٥). ثم نزلنا بعض المنازل، ووجدنا هناك محبنا الأمير هَبْش، فاجتمعنا به وسألنا عن أحوال سعد فأخبرنا بالذي جرى وأرنا الورقة، فسُرَّ جداً وقبل بشروطنا ووضع اسمه وختمه بالورقة العامة. وقيلته يقال لها الهوارج تحتوي على مقادر ثلاثة آلاف بيت، من القبائل المشهورة بالغنّى والاسم.

(٢٥) ربيع سنة ١٨١٤ بمقتضى سياق الحديث، ولكن الأقرب إلى الصواب أن المؤلف يريد ربيع سنة ١٨١٣، أي الفصل المعتدل من السنة، لا الربيع على حسب التقسيم السوري، أما الأشهر الحارة فتبدئ في هذه الأقاليم، منذ شهر نيسان.

[كبير أمراء عرب العجم]

وكان أخبرنا بعض العربان ، قبل رحيلنا ، أن في ديرة كَرَمَان يوجد أمير عظيم من العرب يقال له الرَّدْيَنِي ابن حُنْكَار ، رجل معروف من طوائف العرب والعجم ، لأن له صلة بحكام بلاد كرمان وحتى مع الشاهات ، وهو دائماً مقيم في برية كرمان مثل المحافظ لساحل بحر بوغاز العجم . فقال الشيخ إبراهيم : نحن بحاجة لهذا الرجل ولا بد لنا منه ، لأن درنا عليه وليس لنا غير طريق ، وإذا ما كان متحداً معنا ، فلربما يستطيع أن يمنعنا بوساطة الشاهات والعساكر ، أو يحصل اتفاق بينه وبين أعدائنا المعلومين سكان الهند^(١) . وعلى كل حال من الأصلح أن يكون متحداً معنا من أن نبقية هكذا خارجاً عنا ، ولكن كيف الطريقة . فقال الأمير هبش : ليس هناك إلا طريقة واحدة . فاعلموا أن الرديني لا شيء يفزعه على وجه الأرض غير الأمير سعد ، ولا يمكن أن يقبل رأي أحد أو يطيع لأحد ويتحد مع أحد ، لأنه أولاً جبار وليس بين العربان من هو أكثر تجبراً منه^(٢) ، ثانياً عنيد ، ثالثاً دموي . فهذا ماله طريقة إلا بوساطة الأمير سعد البخاري لا غير ، اللهم إلا إذا أردتم أن تتركوه وشأنه الآن إلى أن ١٠٢/١ تعودوا فيدبر الله الأمور/. فقال الشيخ إبراهيم : لا يمكنني أن أغادر هذه الديار وأبقي أميراً

(١) كذا والمعنى غير واضح ، فهل يريد الصائغ أن يقول : وبين أعدائنا الذين يعرفهم ساكنو الهند ، أو يريد أن يقول : وبين أعدائنا الذين يسكنون الهند ، أي الإنكليز ؟ .

(٢) « ما بين العربان أجبر منه » .

مثل هذا بالطريق عدواً^(٣)، بعد أن فهمت صفاته وصارت طباعه عندي معروفة. فرجل مثل هذا يجب اكتساب محبته قبل كل شيء. ففكرنا بالأمر ولم نجد طريقة إلا باحضار رسالة من الأمير سعد، كي يصير واسطة للتعرف به. فكان رأي الشيخ إبراهيم أن أرجع أنا عند سعد. ولكن الدريعي لم يستصوب هذا الرأي، خوفاً عليّ من عربان تلك الديرة غير المعروفين منا أن يقتلوني. فلزم أن أحرر مكتوباً إلى سعد من طرف الدريعي وطرفنا، مضمونه السؤال عن خاطره ومدحه وأسفنا على فراقه^(٤) وعرفناه بعد ذلك مادة الرديني، وطلبنا منه مكتوباً إلى المذكور، على حسب حسن معرفته، لكي يصير واسطة المحبة وعقد الصلحة معه. وأرسلنا المكتوب مع هجان شاطر من عرب الأمير هبش، وتواعدنا مع الهجان إلى محل معلوم. وثاني يوم رحل هبش بكامل عربيه. فودعناه واستكثنا بخبره على تبعه معنا. وابتدأنا نحن نرحل رويداً رويداً منتظرين قدوم الهجان. وكان مضى على ذهابه ثمانية أيام، وكنا دخلنا في طبراق بلاد كرمات، وإذا وقع الصوت^(٥)، فركبت الخيل وطلبت صوت^(٥) الرعيان. وكانت غارة علينا من عرب الرديني يريدون أخذ طروشنا^(٦). فوصلت خيلنا وصارت الحرب بشدة نحو ساعتين من الزمن، فما استطاعوا أن يأخذوا شيئاً بل انكسروا وارتدوا ووقعت الدماء من الطرفين. فغمنا ذلك، لأن هذا الأمر يصعب معه الوفاق والمحبة فيما بيننا ويبعد الصلح. وبعد يومين وإذا بركب عظيم مقبل علينا، وشنّ الغارة على طروشنا لأجل فتح الشر. فركبت فرساننا وركضت رجالنا وتصاعد العفار. وكانوا أكثر منا إلا أن عربنا أشد حرباً منهم وأفرس من فرسانهم. وظهر ذلك اليوم فعل من الدريعي بذاته ما فعله عنتر. وكنا دائماً خائفين أن تأتي عربان ملبية نداءه^(٧)، لأنه يقود قبائل كثيرة، والمدن قريبة منه. /

فرجعنا عليهم بالحرب، ولكننا حسبنا له حساباً كبيراً، لأنه يستطيع أن يأتي بعربان وعساكر ويضربنا لأننا قليلون. ثم وفقّ الباري تعالى إذ نفذ علينا الهجان حين انكسروا، وانفصلنا عن بعضنا، ومعه كتاب عظيم من عند الأمير سعد إلى الرديني وكان بهذه اللفظات:

(٣) «ضثمان».

(٤) «وتجيد له على فراقه».

(٥) «صوت».

(٦) الماشية.

(٧) أي نداء الرديني.

بسم الله الرحمن الرحيم، رب الخلق أجمعين، والصلاة والسلام وأعظم التحيات والإكرام على شرف الأئمة وأجلهم، وأكبر الأبناء وأعرفهم، وأحسن الخلفاء وأفرسهم، الإمام الأكبر، الكبريت الأحمر، سيدنا ومرشدنا الإمام علي الأعلى صاحب سيف ذي الفقار، لعن الله من عاداه والويل ثم الويل لمن آذاه وطوفى لم أجاب دعاه وبعد، هذا كتاب من أسعد^(٨) البخاري، نسيب الجدين، وأصيل^(٩) النسبتين، إلى أخينا الأمير الدريني ابن خنكار، والثاني نعرفكم أنه حضر إلى بلادنا وداس ترابنا أخونا الأمير الدريني ابن شعلان، من سكان ديرة بغداد والشام، فحضر من بلاده إلى عندنا، يقصد صحبتنا ومعرفتنا، ويريد محبتنا. فحل ضيفاً علينا^(١٠) وأكل خبزنا وأجرى المحبة معنا. ونحن أكدنا له [محبتنا]، وصحبناه وأعطيناه كلاماً وثيقاً وصار كواحد منا. فكما استحسنت هذا الأمر الذي سيؤول فيما بعد إلى نجاحنا، كذلك أريد منك أن تفعل معه كما فعلت أنا، وترى الورقة التي بيده منا، وتعمل بموجبها، وإياك الخلاف فتخرج من خاطرننا، وتكون خالفت قول سيدنا الإمام الأعظم كما هو معلوم، وقوله تعالى في الجفر الجامع والنور اللامع لا تكرهون شيئاً فعسى هو خير لكم^(١١). فأنا أعرف أن الاتحاد مع هؤلاء الناس به خير لكم وللعرب أجمعين والسلام.

فأرسلنا بالكتاب حالاً مع الهجان الذي جاء به للدريني، وكان المذكور بعيداً عنا نحو عشر ساعات فقط. وكان معه مكتوب آخر من سعد للدريني، مضمونه محبة وسؤال عن خاطر وجواب مكتوبنا، وبه يعرفنا بمزايا الدريني، وأنه يحب المكسب والبراطيل. فقال ١٠٣/١ الدريني: سبحان الله، من جملة مزاياه الرديئة أنه يحب البرطيل ويقبل الرشوة/فالله يعيننا عليه. وقد كنا تأكدنا من مكتوب سعد أن الجماعة روافض^(١٢) لأن الإمام علي مكرم عندهم إلى هذا الحد، وهذا شيء معلوم أنهم يحبون الإمام علي كما يحبون الله. وسعد من هذه الملة. والشيء الذي جعله يحبنا ويرضى بالشروط فهو الشرط الأول المكتوب في ورقة الشروط لأنه يشعر بعدم البحث والكلام بأمور الديانة. وقد لاحظنا حين قرأنا له الشروط أنه سرَّ

(٨) أسعد، كذا.

(٩) «واصلين».

(١٠) «فانصاف عندنا».

(١١) الآية: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾.

(١٢) «أرواض».

جداً من الشرط الأول وقال هذا ألزم من جميع الشروط ، لأن هؤلاء الناس لا يحبون من يفتح لهم سيرة ديانتهم ، بل مرادهم دائماً كتمانها ويظنون أن ليس هناك من يعرف أنهم روافض .

ثم بعد ذهاب الهجان بيومين ، وإذ أرسل الرديني خبراً قبل وصوله إلى عندنا أنه آت ليضيفنا . فركب الدرعي وجميع الكبار وأولاد الدرعي والشيخ إبراهيم وأنا ، وكنا نحو ثلاث مئة خيال وركضنا لملاقاتهم . وإذ وصل إلينا الأمير الرديني وكان ركبه من نحو خمس مئة خيال ، كلهم بألبسة مفتخرة وسلاح عظيم وتفنك مفضضة وسيوف ثينة ورماح رؤوسها مفضضة ، عظام ، أكابر . فاستقبلناه وترحبنا به وجلس . وهو رجل شاب ، عمره نحو أربعين سنة فقط ، لأن والده كان توفي من مدة قصيرة ، وهو ورث الحكم من بعده . وأراد الدرعي أن يعد له غداء ، فما قبل إلا بشرب القهوة . ثم طلب خلوة ، من بعد كلام كثير عن أحوال البلاد وغيرها من الأديار ، وأمور الوهابي ومادة حماة مع المذكور ، وشكر الدرعي على فعله . ثم اختلينا ، وكان بالخلوة هو وابن عمه واثان آخران من مدبري قبيلته . فقال الرديني : يا إخواننا ليس من الضروري أن أعرف أموراً كثيرة ، أطلعوني على الورقة التي عملها لكم الأمير سعد وأنا على موجبها أعطيكم واحدة نظيرها . فأرناها إياها وقرأنا له الشروط ، فأعجبه ذلك ، وبالحال كتب بيده ورقة مثل ورقة سعد كلمة بكلمة وختمها وقدمها لنا . فقمنا بعد/١٠٣/٢ (١٣) ذلك لشرب القهوة ، وصار بيننا وبينه محبة وكلام ثابت . فقال الدرعي : يا أمير ، يجب أن يصير بيننا خبز وملح . فامتنع لأنه رافضي جداً ، لا يأكل من أكلنا . ففهم الشيخ إبراهيم ذلك ، فذهب حالاً وأتى برغيف خبز وقليل من الملح وقال للرديني والدرعي : تخاوا واعتقدا الحلف على هذا الخبز والملح وكلاهما (١٤) . فتحالفا عليهما وأكلا الرغيف والملح وحدهما فقط . ثم طلب الرديني الذهاب ، فقدم له الدرعي فرساً من أحسن خيول قبائلنا ، أخذها الدرعي من أحد عرباننا ، وأعطاه بدلاً منها فرساً من عنده وأربعين جملًا حتى رضي . فسر منها الرديني جداً إذ ليس بين خيله نظيرها ، لأن خيلهم ليست مشكورة لا بالحسن ولا بالفعل مثل خيلنا . ثم ودعناه وركبنا معه نحو ساعة من الزمن ثم رجعنا . وكنا استخبرنا عن قبيلته فعرفونا أنها تحتوي على ستة آلاف بيت ويقال لها المَعَاوِز ، بارودهم أكثر من رماحهم .

(١٣) ابتداء الكرّاس رقم ١٣ .

(١٤) « وكلوه » .

[العودة إلى بر الشام]

وفي اليوم التالي نّه الدريعي إلى الرحيل بكل سرعة ، إذ كان دخل فصل الصيف^(١) ولم يبق لنا عمل يعوقنا في ديار العجم ، لأن كبار قبائلهم التي تجب صحبتها قد اكتسبناها وحصلنا على مطلوبنا . فجدينا بالرحيل يومياً ، والمرحلة كانت من اثنتي عشرة ساعة إلى خمس عشرة ساعة ، ولم نزل على هذا الحال حتى دخلنا طبراق بغداد ، وقطعنا الدجلة وصرنا بالجزيرة . فنزل الشيخ إبراهيم إلى بغداد وجاء لنا بدراهم إذ لم يبق معنا مصرية واحدة^(٢) . فابتدأت تتوارد علينا أخبار الوهابي ، وبلغنا أن الأمير عبد الله الهدال رجع عنده مكسوراً ومنهوباً ، وأخبره بالذي جرى عليه من الدريعي عند حماة . فدخله الغيظ والحقد وقرّر رأيه على إرسال جيش عظيم بقيادة ابنه ورؤساء عساكر غير الأمير عبد الله ، لتدمير الدريعي ونهب سورية وريح أهلها ، فمنعه أكابر ديوانه من ذلك ، وأشار عليه واحد من مدبريه يقال له أبو محسن قائلاً : إن كان يمكن أن تعمل طريقة لجذب الدريعي إلى طرفك واكتساب محبته

(١) يريد الفصل الحار ، وهو يتبدى ، في هذه الأقاليم ، منذ أواسط نيسان .

(٢) هل قام الصايغ بهذه الرحلة إلى إيران أم هي من نسج خياله كما يتبادر إلى الذهن عند قراءتها ؟ إننا نطعن بصحتها ، إلا أن لاسكارس نفسه ، في مقال له صدر بعد وفاته ، تحدث عن جولاته في البادية وسفره إلى بغداد ثم إلى الموصل (كذا) على حدود الهند الشرقية (كذا) . ويظهر أن العودة من إيران كان خلال ربيع ١٨١٣ ، أي قبيل سقوط نابوليون وبعد انكسار حيوشه في روسيا . ولكن أخبار هذه الحوادث السياسية الهامة ما كانت وصلت إلى السفارات البائية بسبب بطء المواصلات في ذلك التاريخ .

[فيكون ذلك أفضل] ، ولا سيما أن الدريعي أصبح الآن قوياً جداً ، وأنت لك عدو كبير من طرف العثماني ، إذ كان يُشتَم من الأخبار أن محمد علي باشا في علي وشك السفر لأجل أخذ مكة والمدينة ، ورد الوهابي إلى بلاده^(٣) .

فانشرحنا من هذا الخبر وصرنا مطمئنين من طرف الوهابي . ولم نزل سائرين حتى نزلنا منزلة يقال لها مقتل العبد وكان نازلاً هناك قبيلتان يقال لهما النعيم والبَقارة^(٤) . فحضر مشايخهما عندنا ، ويقال لشيخ قبيلة النعيم فهد ابن صالح ، عشيرته تحتوي على ثلاث مئة بيت فقط ، عشيرة صغيرة ، كذلك [يقال لشيخ قبيلة البَقارة] سعدون ابن والي ، عشيرته تحتوي على ألف ومائتي بيت . كذلك بعد مرحلتين حضر عندنا عليان ابن نجد شيخ قبيلة بوحرابا ، ودخل بالاتحاد ووضع ختمه واسمه ، وعشيرته تحتوي على خمس مئة بيت .

(٣) من المعلوم أن الجيش المصري احتل المدينة المنورة في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٢ .

(٤) «البكارة» .

[رسالة من عبد الله بن سعود]

ثم رحلنا وقطعنا الفرات من مقطع بالقرب من بلد يقال لها هيت ، وصرنا بالحماد ، قاصدين تدمر وبر الشام ، وإذا مقبل علينا هجان وبصحبه مكتوب إلى الدريعي من عند الوهابي من غير ختم ، هذا من جملة عاداتهم^(١) أنهم ييقون مكاتيبهم مفتوحة من غير ختم . وكان طول المكتوب نحو شبر وعرضه ثلاث أصابع ، وهذا من جملة نظام الوهابي أن يصغر مكاتيبه حتى تكون بضد مكاتيب العثماني وفرماناته الكبار . وكان بهذه الألفاظ لا غير :

بسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، خالقك ومفرق أصابعك ، من بعد أن نقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له . من عبد الله ابن عبد العزيز ابن عبد الوهاب ابن سعود^(٢) القائم بسيف الله على القوم المشركين ، لإشهار حقيقة الدين^(٣) ، إلى ولدنا الدريعي ابن شعلان أهده الله إلى الصراط المستقيم أمين . نعلمك يا ابن شعلان إن كنت تؤمن بالله وحده ولا تشرك به أن تطيع أمر عبد الله ، القائم بأمر الله ، وتحضر حالاً إلى عندنا وترفع من بالك كامل الوسوس ، وأنت عندنا بأعز منزلة وقبول ، / فقد صفحننا عن جميع زلاتك ، وغفرنا وسامحننا كامل سيأتك^(٤) . فإن حضرت إلى عندنا جعلناك واحداً منا . وإياك والعناد فإنه

(١) أي عادات الوهابيين .

(٢) كذا والنسب خطأ ، والصواب : عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود .

(٣) « لإشهار حقيقة الدين » .

(٤) « سيأتك » .

من أعظم الكفر ، والسلام على من أجاب المطلوب وجُعِلَ من أهل الجنة محسوب ، والامضاء
الرهوب^(٥) من الله ابن سعود عبد الله^(٦) .

فابتدأنا نتشاور ورأينا من المستحسن أن يذهب الدريعي عنده لعدة أسباب :
أولاً لأجل الكشف عن أخباره ورؤية بلاده والاستفهام عن أحواله ، ثانياً ربما نستطيع أن نبرم
الصلح معه لأن الصلح معه يومئذ أحسن بكثير من عداوته ، لأننا أصبحنا أقوياء وصرنا حزباً
كبيراً ، لذلك تأكد عندنا أنه يرضى بالصلح معنا مثل قرّنين مع بعضهما ، ولكنه ما كان في
أول الأمر يرضى بهذه الصفة لأننا كنا ضعفاء ، بل كان مراده أن نكون من جملة رعاياه
بإعطاء الجزية^(٧) ، وتحت أمره في كل ما يريد ، فما كان بإمكاننا أن نفعل أدنى حركة من
مطلوبنا ، ثالثاً لكي نريخ القبائل التي تبعتنا من شره ، إذ يوجد دائماً قبائل متفرقة ، كما هي
عادتهم بالبادية^(٨) ، فيقوم بعمل أذيات لها ، [وبالصلح] تكون آمنة على نفسها من طرفه ،
وغير ذلك من أسباب سياستنا وهي عديدة . فاعتمد رأي الدريعي على الذهاب عند الوهابي
فقال الشيخ إبراهيم : ما هي نيتك يا ولدي ، هل لك جراءة على التوجه مع الدريعي عند هذا
الرافضي ورؤيته الغريبة ؟ فقلت : نعم أتوكل على الله وأذهب ، وإن هي إلا موتة في سبيل الله ،
إذ من المعلوم عندي أنه ييغض جنس النصارى ، وإذا لم يفعل شيئاً مع الدريعي فإنه يقتلني
أنا ، أولاً لأن قلبه ملاّن مني بسبب ما بلغه عني ، وثانياً لأنني نصراني عدو الدين . ولكن لا بد
لي من الذهاب ولو فاحت من ذلك رائحة الموت ، فإني أحسب نفسي قد متّ وأن [هذه
السفرة] من جملة الأخطار^(٩) المميتة التي جرت على رأسي . فقال الدريعي : لك بسعري ،
لا يحدث لك شيء إلا بعد أن يقتلني أنا . فاعتمد رأينا على ذلك وشاع الخبر فأقّى كبار
القبائل ودعونا ، وجهزنا لوازمنا ، ودبرت أموري مع الشيخ إبراهيم ودعته وداعاً كبيراً
وطلبت منه الدعاء ، وأوصيته بوالدتي إن جرى علي شيء يكون نظره عليها . وقبل ركوبنا أمر
الدريعي ابنه أن يرحل بالعربان ويذهب إلى حوران إلى أن نحضر عن طريق الحجاز .

(٥) «الرهوب» .

(٦) تسّم عبد الله بن سعود العرش الوهابي ، بعد وفاة أبيه في أيار سنة ١٨١٤ . ولكن جرت العادة أن يشارك
ولي العهد والده في الحكم ، لاسيما وأن الحروب كانت ترغم الملك على أن يكون على رأس جيوشه لمواجهة
العدو ، فكان يسند أمور الدولة وإدارة العاصمة إلى ابنه عبد الله . ومن البديهي أن الرسالة الأصلية قد
بقيت في حوزة الدريعي وأن الصايغ قد أعاد سبكها بأسلوبه العامي البدوي .

(٧) كذا ، ويريد الزكاة .

(٨) «الجلول» .

(٩) «قطوعات» .

[السفر إلى الدُرْعِيَّة]

١٠٥/١ وركبنا وكان عددنا اثني عشر نفرًا لا غير، /وهم الدرعي، وابنه سعدون، وابن أخيه الأمير هجري، وابن عمه جبل الدرعي، واثنان آخران من وجوه العرب، وأنا، لله عبد، وخمسة عبيد لا غير كل واحد على هجين. فأول ليلة وصلنا عند عرب يقال لهم بني صلوب^(١) الذين صنعتهم^(٢) صيد النعام لأجل ريشه، ويأتون به إلى القرى حيث يبيعونه، وأهالي القرى يأخذونه إلى بغداد وحلب ودمشق وبيعونه إلى تجار الإفرنج. وهؤلاء الناس مساكين جداً وفقراء ليس عندهم جمال ولا غنم بل حمير فقط. يأكلون من لحم الغزلان وملبوسهم جلودها يفصلونها مثل أثواب الباجية^(٣)، بأكام عريضة جداً، [والثوب] مغلق من الأمام طويل، يحنو على الأرض، رؤيتهم تُفزع إذ يظن الإنسان أنهم وحوش، ويوتهم صغار حقيرة جداً. أما زواجهم فهو مع بعضهم بالمرضاة: متى العريس رضي بالعروس وهي رضيت به. وتقدم العروس إلى أهلها من عريسها نصف ما يصطاده من الغزلان مدة سنة كاملة. وهؤلاء العرب يدعون أنهم من أصل بني عيس قبيلة عنتر. فلم نتأكد من ذلك، بل اعتمدنا على أن نحقق ونبحث عنه.

(١) الصِّلْبَةُ أو صُلَيْب (زكريا، عشائر الشام، ٢ ص ١١٢ وما بعدها).

(٢) «كارهم».

(٣) أي الرهبان الفرنسيسكان، من كلمة بادري أي بادره Padre، أب.

ثم سافرنا في اليوم الثاني، ولم نزل جادين بالسير على انطلاق الهجن إلى غروب الشمس. فوصلنا إلى منزلة عرب عظيمة يقال لها رام^(٤) بني هلال، بها رام كبير من نبع ماء منحدر من جبل صغير فعمل راماً أمام الجبل. وبعضهم يسمى هذا المكان المذبذبة^(٥) يعني الحامية، ليس بمعنى السخن ولكن بمعنى الذي يحمي من العدو.

وفي اليوم الثاني جدينا بالمشير أيضاً. وفيما نحن سائرون إذ أقبلنا على بقعة من الأرض صغيرة، نابت بها من شجر الطرفة كمثل حرش صغير. فحين اقتربنا منها وقفت الهجن عن مسيرها، فتعجبنا من ذلك ولم ندر ما هو السبب، وكل الهجن كانت تنظر إلى ذلك الحرش. ١٠٥/٢ فنزل واحد من العبيد وتقدم إلى قرب الأشجار وصاح^(٦) قائلاً: انزلوا وانظروا إلى أثواب الحيات. فنزلنا عن الهجن وتقدمنا فرأينا أن الأرض والأشجار مغطاة بأثواب الحيات، شيء لا يعد ولا يحصى، أشكال وأشكال، كبار وصغار من جميع الألوان، ألوف ألوف، ربوات ربوات، ولكن ليس بينها واحدة طيبة^(٧)، ولكن توجد فقط أثوابها. فظننت أنه لم يبق في الدنيا أفعى إلا أتت وخلعت^(٨) ثوبها في هذا الحل. وشكرنا الله لأننا مارأيناها طيبة لأنها كانت بالحقيقة أكلتنا، إذ كان بين الأثواب أثواب حيات كبيرة جداً بقدر ثخن غنمة^(٩) المركب.

ثم رجعنا ركبنا وجدينا بالمشير إلى المساء، فما وجدنا عرباً، فمنا بالخلاء، وأكلنا مما معنا من الزاد إلى الصباح. وفي اليوم التالي جدينا بالسير، وقبل العصر أقبلنا على نزل عرب عظيم لا يعرف أوله من آخره، فاستخبرنا من الرعيان عنه فقالوا هؤلاء عرب شمّر، وأميرهم اسمه نجم الضرغام. فوصلنا إليهم ونزلنا في بيت المذكور، فاستقبلنا بالترحيب والإكرام، وكل أنس ووداعة. وهذه كانت أول قبيلة نراها من أتباع الوهايي، وهم وهابيون أيضاً. فقبل كل شيء أخفينا غليون التوتون لأن التوتون، كما هو معلوم، محرم عندهم جداً، ومنعه الوهايي بكل شدة وصرامة، والذي يلاحظون عنه أو يرونه يشرب التوتون فليس له مغفرة ولا رجاء ولا سماح،

(٤) الرام نوع من الشجر، والظاهر من كلام الصائغ أنه يعني الواحة أو الحرش.

(٥) كذا، ولعله يريد المذبة.

(٦) «عَيَط».

(٧) على قيد الحياة.

(٨) «شَلَحَتْ».

(٩) لعله يريد صاري المركب.

وقصاصه القتل والموت السريع ، وهذا كان عندنا معلوماً من السابق . ونحن أربعة من ركبنا نشرب التوتون ، ومعنا غليون واحد صغير لأننا كنا حاسبين هذا الحساب . فاستخبرنا تلك الليلة من الأمير نجم عن أحوال الوهايي ، وفهمنا منه برمز العين أن أرواحنا عنده في عين الخطر لأنه غدار ، ويستعمل الخيانة بعض الأحيان . / فمن هذا الخبر قد ارتجت قلوبنا وندمنا على الحضور عنده . ولكن قال الدريعي : لا بد من الوصول إلى عنده ولو كان منتهى حياتي على يده ، لا يمكن أن أرجع من غير الوصول إلى عنده .

ومشينا في اليوم التالي إلى المساء وتقابلنا مع قبائل عرب كثيرة لأننا دخلنا في أراضي نجد ، وهي وديان وجبال وسهول ومياه ، وبها قرى لم تزل مسكونة ، والعرب المقيمون بها يزرعون ويفلحون . وبها أيضاً بلاد قديمة متهدمة ، كانت في السابقة عامرة ومملكة عظيمة في زمن بني هلال الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وأراضيها جيدة ، وبها فواكه ، وأكثر ما يوجد فيها البلح وله لفة عظيمة ، [وبها أيضاً] قبائل عربان أشكال وأشكال لا يعلم عددها غير رب السماء . فالجميع من أتباع الوهايي وعلى مذهبه . وكنا دائماً نسمع عن مزاياه الرديئة ، وظلمه لعربانه ، وردائه وترفضه وقلة الوداد له في خواطر عربانه ، لأنه غير محبوب عندهم من ظلمه لهم .

فمن بعد أربعة عشر يوماً من حين خروجنا من عند أهلنا ، إذ أقبلنا على نخل الدرية ، ودمنا نمشي نحو أربع ساعات بين النخل الملتحم بعضه ببعض وحامي البلد ، وهو نافع جداً لها لمنع العدو . فلم نزل نمشي إلى أن وصلنا إلى باب البلد فوجدنا دائر البلد تلالاً سوداء صارت على نعت السور ، وكان ذلك جميعه من العجوة القديمة التي تتكدس^(١٠) من سنة إلى سنة ، يرمونها خارج البلد على بعضها ، ومع المداومة فإنها كثرت وتراصت على بعضها وصارت حصناً للبلد كمثال الشياح . فدخلنا البلد وهي مركزة على جانب واد ولها أبواب تغلق كل ليلة مساءً وتفتح عند الصباح^(١١) . ولم نزل سائرين إلى السرايا فدخلناها فإذا هي سرايا واسعة جداً ، حجرية على طابقين .

(١٠) « تنعكس » .

(١١) « بكرا » .

[بين يدي ابن سعود]

ثم حالاً أخبر [الحرس]^(١) ابن سعود أن الدريعي قد حضر، فأمر بقُناق^(٢) داخل السرايا فأدخلونا إلى محل نظيف مفروش وأتوا لنا حالاً بالغداء. وقریباً من العصر طلب الدريعي عن يد واحد [أن يستأذن لمواجهة ابن سعود فكان الجواب أن]/يتوجه الدريعي ومن معه لمواجهة من غير طلب إذن، إذ لم تجر العادة بذلك. فدخلنا إلى المكان الذي كان جالساً فيه، وكان عنده جمع كبير من خواصه. فسلمنا عليه، كل واحد منا وحده، من غير أخذ يده ولا تقبيل أذنيه على حسب عادات العثماني، بل حين دخولنا يؤشر كل واحد بيده عليه ويقول السلام عليك يا ابن سعود ويجلس، والعبيد فقط قائمون على أرجلهم. وهو جالس في صدر المحل، عمره نحو خمس وأربعين سنة بلحية سوداء، وعليه قنباز أبيض من القطن، وزنار شاش أبيض من القطن أيضاً، ومشلح حساوي^(٣) أسود غطش^(٤) من غير قصب، وعلى رأسه كوفية ولفة من القطن، قلم أبيض وقلم أحمر رفيع يسمونه دسمان، وبيده محجلات من شجر الخلب. فهذا ملبوسه دائماً لا غير، إذ حرام عنده اقتناء الحرير والأشياء

(١) «أخبروا».

(٢) شقة؛ نزل.

(٣) «حساوي».

(٤) غامق السواد.

المفتخرة الملونة. وأما المحل الذي هو الديوان، فهو مفروش بالحصر، وسجادات الصوف،
وخدات وجوهها صوف، من شغل اليمن لا غير.

فبعدما جلس الدريعي ابتداءً يسلم عليه بهذا الكلام. عساك طيب يا ابن سعود،
عساك عدل، لعلك مبسوط^(٥) وهو يرد عليه: لله الحمد طيب يا ابن شعلان، ولكن بوجه
عبوس يرد السلام. ثم جلسنا نحو نصف ساعة، فما أمر بالقهوة ولا تكلم، فهذه علامة
الغضب.

فبعد ذلك قال له الدريعي: مالي أراك يا ابن سعود عابساً فينا ولا تتكلم معنا؟ نحن
وطناً محلك والآن عندك، فتكلم بالذي في قلبك علينا. فردّ عليه الوهابي قائلاً: أنت عليك
ذنوب كثيرة، وأفعالك لا تغفر، أولاً عصيت علي، ثانياً ضربت قبيلة بني صخر التي في بلاد
الجليل مع علمك الأكيد أنها تلوذ بي، ثالثاً أفسدت العربان علي وجعلت لك حزياً ضدي،
١٠٧/١ رابعاً كم وكمن من الغزوات التي أرسلتها أنا فطلعت ضدها وضربتها وسفكت دماءها وعطلتها
عن أوامري، خامساً قوّيت الروم يعني العثمانيين عليّ في مادة حماة، وكسرت عرباني وأخذت
أموالها وسفكت دماءها حباً بخاطر العثماني، الذي هو أكبر عدو لله من القوم المشركين،
شرابي المنكر، لوطيين^(٦)، وغير وغير أشياء لا تعد من التي فعلتها ضدي وقصّدت بها
تدميري وخراي. فإذا مالك عندي سماح أذهب إلى قنّاقك.

فاحمرت عيون الدريعي، ودخل عليه الغيظ والحمق، ونهض قائماً وتوجهنا جميعاً إلى
قنّاقنا، وجلسنا في تفكير وسواس أشكال وأشكال. وتجنبنا جميع الناس الذين كانوا
عرفونا، ولم يبق أحد يقترب منا، ودخل علينا باب الخوف ووقع بنا الندم على رمي أرواحنا
بيده، وصرنا نلوم بعضنا بعضاً على ما فعلنا، وصارت الناس تتحدث بقلة عقولنا وحضورنا
إلى عنده، لأن الجميع كانوا على يقين وتأكدوا أننا مقتولون من كل بد، ودون أقل شك،
لمعرفتهم بطبع السلطان، [فهو] غدار، مكار، خائن، دموي، مترفض. فأقمنا تلك الليلة
وذلك النهار من غير أكل ولا شرب، ولم يدخل أحد علينا خشيةً، لأننا صرنا من المغضوب
عليهم، حتى أننا ما كنا نجراً أن نخرج خارج المنزل^(٧)، وحرّم علينا النوم من شدة الفكر

(٥) مسرور.

(٦) «لواطية».

(٧) «المنذول».

والوهم . وما كنا نندم على ما مضى إذ ما كان ينفع الندم ، بل صارت أفكارنا إلى الوسيلة التي تمكننا من الخلاص من يد هذا الظالم . فثالث يوم ، أرسل الدريعي واستدعى رجلاً يقال له أبو السلام ، من أحد مدبري الوهابي . فحضر المذكور ، وهو رجل طاعن بالسن حسن الأخلاق ، فترجاه الدريعي أن يذهب من طرفه عند ابن سعود ويقول له هكذا : « يقول لك الدريعي : الذي في خاطرك أفعله عاجلاً ، ولأولم عليك إذ مالك ذنب ، فهو باختيابه رمى بروحه بيدك » . فتوجه أبو السلام / وتكلم بذلك . فما ردّ جواباً بل أرسل خمسة وعشرين عبداً مسلحين يرصدوننا على باب المنزل لئلا نهرب . فصرنا تحت الحوطة^(٨) . فاشتد علينا الوسواس إذ كنا دائماً منتظرين الموت . فأخذت ألوم نفسي على حضوري ، ورمي حالي في مثل هذه المهالك الملعونة التي لا لزوم ولا حاجة لها ، فقط لأجل البحث وكثرة الغلبة . فأقمنا يومين تحت الحوطة والأفكار المتنوعة ، فكثرت الغم على الدريعي وضاعت أخلاقه وكاد يقتل نفسه من شدة قهره ، إذ هذا شيء ماقط ذاقه ولا جرى عليه ، من بعد حرته وإمارته وكبره^(٩) يصبح تحت الحوطة محبوساً مهدداً بالموت ، فيئس من روحه وقال : إنه من المستحسن عندي أن يكون تدبير هذه المادة مع ابن سعود بالكلام القاسي الصارم ، وخرق الحجاب معه وكسر الجرة ، ومن المؤكد عندي أن بالمعروف [لا تصلح أمورنا] ويتأتى عنه قتلنا^(١٠) . فبسبب ذلك ، الكلام اللين والرجاء لا تنجينا ، وإن هي إلا موة في سبيل الله ، لكم بسعري ، فإن متنا نمت كلنا ، وإن خلصنا نخلص كلنا . فقلت له : يا أبو سحن ، جميع ماقلته صحيح ، ورأيك فيه الصواب ، ولكن يا عزيزي على ظني أنه يمكن أن تخلصوا أنتم ولكن أنا غير ممكن أن أخلص من يده ، أولاً لأن قلبه محروق مني بسبب ما سمع عني ، ثانياً لأنني نصراني عدوه الأكبر فكيف يمكن خلاصتي ؟ فقال : يا عبد الله وحق باسط الأرض ورافع السماء إن قتلنا لا أدع أحداً يقتلك إلا بغد أن يقتلني أنا وكل من معي ، وإن خلصنا لا يكون أحد أماننا حين خروجنا من هذه البلد إلا أنت ، وثق بكلامي والله شاهد على ما أقول . فقلت : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، بالرغم عني أقول أفعلم يا أمير ماتراه مناسباً ١٠٨/١ لخلاصنا » . /

وبالحال أرسل واحداً من العبيد الذين يحرسوننا ليحضر أبو السلام . فأقى المذكور .

(٨) « اليَسَق » ، كلمة تركية ، أي الحفظ والمع والحراسة .

(٩) « كبرته » .

(١٠) عبارة الصائغ : « لأن عندي ماكد [= مؤكد] بالمعروف لا تمضي معه إلا نقتلنا » .

فقال له الدريعي: يا أبو السلام، أريد منك، بحق ذمة^(١١) العرب، أن تروح عند ابن سعود وتقول له: الدريعي يريد أن يكلمك خمس كلمات وبعدها افعل الذي تريده يدك ولا تتوان^(١٢). فذهب أبو السلام وقال له ذلك بحضور جمع كبير كان موجوداً عنده. فصار الحاضرون يشيرون عليه أن أرسل وأحضر الدريعي واسمع ما هو كلامه. وإن كنت تريد قتله فيمكنك أن تقتله في أي وقت أردت. فأذن بمواجهته. فحضر أبو السلام مرة ثانية وتوجهنا معه جميعنا، فدخلنا وسلمنا حسب العادة وجلسنا بآخر الناس. فقال ابن سعود: «ما هو الكلام الذي تريد أن تقوله لي، تكلم به». فقال: اعلم يا ابن سعود أنني الآن بيدك، وليس معي غير أحد عشر نفرأ وأنا، ومن المؤكد أنه لا يمكنني أن أقاتلك بهم إذ من المعلوم عندي أن عندك [مثلهم] ألوفاً وريوات، فإن نفخت علينا تعملنا رماداً، وهذا شيء مؤكد. ولكن كن على حذر، وحياة الله الذي لا يعبد سواه، من حد أبواب الهند الشرقي^(١٣) إلى العمجم والجزيرة والبصرة والحماد وعريستان و[من] بلاد حوران إلى حد أبواب نجد، كل من لبس على رأسه كوفية يطالب بدمي منك ويأخذ ثأري^(١٤). فإن كنت سلطاناً حقاً وتدعي بالعروبة، فمن العيب عليك أولاً الخيانة التي هي صنعة العثماني المشهور بها، وثانياً الغدر فهو ليس من شأن الملوك الأقوياء^(١٥) بل للعاجزين. فجيوشك كثيرة وسيفك طويل. فإن كنت حقاً أنت الوهابي سلطان العرب والحجاز واليمن، ردي إلى مكاني وخذني بقائم سيفك، فيكون لك الفخر بذلك. وإن قتلني بالغدر والخيانة يكون ذلك سقوطاً لفخر، وحقارة لشأنك، وخراباً للملك وتدميرك للأبد. وأكثر من ذلك ليس عندي ما أقول. فافعل ما تريد يا خاين عهود العرب وبواق^(١٦) في من يدعس بساطك، وسوف تندم، فما أنا إلا واحد من جملة ألوف/وصفوف، إن قتل لا أنقص وإن بقيت حياً لأكثر، تسلم طائفة بيت شعلان ١٠٨/٢

(١١) إن الحلف بذمة العرب من أعظم الأقسام، وأغلظها استناداً إلى الأعراف البدوية، وفي هذا المعنى يقول

الشاعر المحضرم متمم أبو نيرة:

أَدْعُوهُ بِاللَّهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدُرْ

(انظر كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٥٥، بيروت، دار الحياة، ١٩٥٧).

(١٢) «وما تطول».

(١٣) كذا، والصواب الغربي.

(١٤) الدريعي يتكلم بهذا الكلام لأن جميع العرب الذين ذكرهم دخلوا معه بالرباط وأصبح رؤسهم.

(١٥) «الطابلة».

(١٦) الخائن؛ في مصطلح أهل البادية التواق هو الضيف الذي يخون صاحب البيت الذي أضافه.

وسحن أميرهم ، ووراء عدة قبائل وعشائر لاتعد ، جميعها تطالب بدمي ، فكن على بصيرتك وافتح عينيك ولا تقل ما أنذرتك على فعلك الرديء معي . فتبسم بضحكة خفيفة وصار يلعب بذقنه^(١٧) ثم قال : قم ارجع إلى محلك واسترح ، لا يصير إلا الخير . وأمر العبيد إلا يعودوا إلى الحوطة علينا . فرجعنا إلى منزلنا وحالاً^(١٨) وصلنا الغداء من بيت أبو السلام . فاطمأنينا نوعاً ما وسكن روعنا . ولما كان الغد استدعانا عنده فحضرنا وأظهر البشاشة والميل إلينا ، وأمر بالقهوة لأننا إلى الآن لم نكن قد شربنا قهوته . وبعد ذلك سلم على الدريعي سلام المحبين ، وسأله عن الذين معه كل واحد بمفرده ، إلى أن صار الدور لي ، فقال له : هذا عبد الله الخطيب . فالتفت إلي وقال : أنت عبد الله الخطيب النصراني ؟ قلت : نعم أنا هو . قال : يظهر أن فعلك أكبر منك . قلت : نعم يا ابن سعود ، وما هذا بعجيب فالرصاصة صغيرة ، وتقتل سلطاناً كبيراً . فضحك وقال : قد حققت جميع ما قيل لي عنك . ولا أريد منك سوى سؤال واحد أريد أن تبييني عليه بالصواب وتقنعني . قلت : وما هو ؟ قال : هذا الرباط الذي لكم خمس سنوات تشتغلون به ما هي الغاية منه ؟ فقلت : يا سيدي هذا شيء واضح كالشمس فنحن بوساطة الحرية عملنا على اتحاد القبائل ، وجعلناها روقاً^(١٩) واحداً مع بعضها ، وجعلنا على رأسها الدريعي ابن شعلان وذلك لامتلاك عربستان كي نكون حصناً لك في وجه الأتراك^(٢٠) . قال : قوي مناسب ، ولكن لماذا حين حضر الجيش من طرفي ١٠٩/١ منعتوه عن أخذ حماة وبذلتم جهدهم في تدميره/وكسره ؟ قلت : صحيح لأن مرادنا أن نملكها نحن لا أن نملكها أنت . وبعد امتلاك عربستان^(٢١) وتدميره وترتيب حكمه كما يجب ، فعندئذ نعمل الاتحاد معك ونكون على سوية لأننا جميعنا عرب ، وجنس واحد ، وحاشا أنك تقسو علينا أو نقسو عليك . ونحن لم نزل هذه نيتنا ، وما حضرنا عندك ، يا ابن سعود ، إلا لأجل إتمام ذلك وربطه ، وعقد الشروط الواجبة فيما بيننا ، لتقويتنا وتقويتك واتحادنا معك . وما أن هذه غايتنا فإن الدريعي تكدر جداً نهار أمس وتكلم بكلام غير لائق ، لأنه يريد هو تقويتك

(١٧) لحيته .

(١٨) وصول الغداء بهذه السرعة إلى عدد كبير من الأشخاص يدل على أن ابن سعود كان أعطى الأوامر بهذا الخصوص قبل أن يتكلم الدريعي معه .

(١٩) « روك » ؛ والروك : القرن .

(٢٠) « في وجه باب الأتراك » .

(٢١) في المخطوطة : « بعد امتلاك عرب » ، وهذه العبارة لا معنى لها .

ورفع شأنك وأنت قصدت أن تنزل من شأنه وتكسر شيئته أمام الناس. فصدق المغرور^(٢٢) هذه الحيلة^(٢٣) وسرّ جداً، وصرت عنده في عين القبول وأصبحت مطمئناً على نفسي من ضرره لي فيما يتعلق بأمور الديانة. وما كان هناك واسطة لإقناعه غير هذه الطريقة، أو لنخلص من يده ويجعلنا مقبولين عنده. ثم أمر بالقهوة أولاً وثانياً وثالثاً، وهذا عندهم كرم زائد، وفناجينه كبيرة تطفح بالقهوة الممتازة لأنه هو سلطان اليمن^(٢٤). ولكنني كنت مقهوراً جداً إذ ما كنت أستطيع أن أشرب التوتون، لأن هذا محرم عنده جداً جداً، والذي يشربه ماله قصاص إلا القتل.

ثم توجهنا إلى قناتنا مسرورين. وتلك الليلة دعينا إلى العشاء عند واحد من رجال ديوان الوهابي يقال الحضرموي^(٢٥)، وكان حديثنا تلك الليلة مع المذكور عن أحوال ابن سعود وحكمه، فتبين لنا أن باطناً لا يوجد أحد يرضى به، ولكن بالظاهر فقط. ثم أخبرنا المذكور على تحف وأموال أخذها الوهابي من على قبر الرسول بمكة^(٢٦): شيء لا يوصف، أربعون جملاً محملة ذهباً، وجواهر، وقطع سلاح مجوهر، وأشياء ثمينة التي تجمعت من حين دفن محمد إلى الآن، [هدايا] من سائر ملوك الإسلام والعرب والأعاجم، فتجمعت التحف والأموال والقطع الثمينة في ذلك المكان. النتيجة شيء لا يثمن، ومن الجملة كرسي مرسل من العجم، مرصع بالجواهر الكبيرة داخلاً وخارجاً لا يستطيع أحد أن يثمنه، ونحو مئتي ١٠٩/٢ قنديل/من الذهب ومجوهرات، شماعات ذهب مرصعة بالجواهر واللؤلؤ الثمين، صناديق من ذهب ملآنة ذهباً، عقيق، وتيجان مجوهرات، وأيضاً جواهر، قطعة واحدة بحجم الجوزة التي كانت معلقة على قبر محمد، النتيجة شيء ماله ثمن ولا يدخل بعقل. فجميع ذلك في خزانة الوهابي سوى الغروش التي يجمعها من الجزية، والأموال من خيل وجمال وغنم وغير ذلك، من البلاد التي تحت حكمه، مثل الحجاز واليمن، وحتى المكان الذي يخرج منه اللؤلؤ هو تحت حكمه، وأماكن أخرى يجمع أموالها ويضع في خزينته بالدرعية. فتأكد لنا أنه أغنى من كافة الملوك، لسبب واحد أن ليس عليه مصروف كلياً. لأن أكثر مصاريف الملوك، كما هو معلوم،

(٢٢) «التيس».

(٢٣) «النسبة».

(٢٤) امتد الحكم الوهابي إلى تهامة اليمن.

(٢٥) «الاضراموطي».

(٢٦) من المعلوم أن قبر الرسول بالمدينة.

على العساكر والسخاير^(٢٧) (٩) والكسوة والعلف والأكل والجبخانات وخصوصاً في أيام الحروب، فهذه الأشياء جميعها لا تكلفه أي مال^(٢٨)، وعلاوة على أنه لا ينفق على رعاياه ولا يختصر مصرية واحدة، فإنه يأخذ منهم الجزية ويكثر خزائنه.

(٢٧) السُّخْرَة عمل يقوم به الناس دون أجره.

(٢٨) « ببلاش ».

[وصف الدرعية]

ثم ثاني يوم درنا بالبلد. وهي بلدة صغيرة بها مياه وافرة داخل البلد. عماراتها من الحجر الأبيض، تحتوي على سبعة آلاف نسمة، أكثرهم من أقربائه وأتباعه ومدبريه وعقاده ورؤساء عساكره ومن يلوذ به أيضاً. ولا يوجد فيها سوق للبيع من نوع أكل وشرب، بل كل واحد يأكل من بيته، والغريب يضيفونه عندهم ويتسابقون عليه بالدعوات^(١). وأما صنائعهم فحياكة الخام وشغل المشالخ السود والبيض، والدسمانات، والزناير المقلّعات بأبيض وأحمر. وهناك أيضاً دكاكين سيوفية وقندقلجية لأجل شغل التفنك. ودكاكين بياطرة ودكاكين صنّاع حوائج الجمال ومرجلات^(٢) (٩) الخيل من لباد/لأنهم يصنعون كثيراً من اللباد^(٣) في بلدهم.

مرؤتهم قليلة، وليس لهم قوة للاستطاعة على الشغل والتعب، بل إنهم يحبون الراحة وقلة العمل ويحبون أيضاً الجمعيات والحديث الكثير ولو كان من غير فائدة، فقط للحكي وتقطيع الوقت. نساؤهم لسنّ محسنات كثيراً، وأكثرهن سمر غامقات، والبيضاء كمثل السمراء في بلادنا، يخرجن للطريق وهن مغطيات بمشالخ سود إلى فوق رؤوسهن، [واسعة

(١) «عزائم».

(٢) كتابة الكلمة غير واضحة، ولعله يريد سروج أو مسروجات.

(٣) «لأن يشتعلوا لبايد كثير».

بنوع أن المشلح الواحد يكفي لأمريتين^(٤). وهن حافيات بلا نعال^(٥)، مثل نساء عرب البادية، إلا أنهن يزدن عليهن الغطاء^(٦)، وملابسهن كملايس نساء العرب إلا أنهن لا يقتنين الحرير، لأنه محرم عندهن. يشككن في عراقياتهن^(٧) ذهباً، وفي طرف شملايتهن أيضاً.

عندهم بساتين خارج البلد، في الوادي، بها أنواع الفواكه، مثل الموز والتين والرمان والبلح والليمون والبردقان وقصب المص والطبخ الأصفر والعجور وجوز الهند، ومأكولهم لحم الجمل وحليب النوق ولحم الضأن^(٨) قليلاً، ويزرعون الحنطة سقياً، وأكثر ما عندهم الذرة البيضاء والصفراء ويستعملونها للخبز والطبخ أيضاً، ويكثر عندهم الدجاج. وأكلهم قليل جداً وهم يشبعون بأقل شيء. ومصروفهم قليل جداً أيضاً لأنهم جميعاً يزرعون على نفقتهم^(٩) ذرة وحنطة، ولهم مواشي وخيل، وملبوسهم متواضع لا يكلف دراهم كثيرة، وأكلهم كذلك لا يقتضي له نفقة كبيرة، وكل شيء بأرخص الأثمان^(١٠)، وليس هناك ما يباع من لبس أو أكل ويحوج إلى صرف الدراهم. والشيء الذي ينقصهم مهما كان يجلبه لهم أهالي ينبع بحراً إلى مكا^(١١)، كرسي اليمن المحل الذي يخرج منه كميات القهوة، لا مكة التي بها قبر محمد، بل إلى مكا، بلد عظيم، من ثُحُم^(١٢) صنعاء اليمن بالقرب إلى ديرة الجوف، التي بينها^(١٣) وبين باب المندب ستة أيام لا غير، وهي تابعة لليمن ولكن مالكتها الوهابي/، بلدة كبيرة جداً بقدر مدينة حلب، يعطي سكانها الجزية للوهابي ويخافون منه كثيراً. فأهالي مكا يأتون باللوازم للدرعية ويبيعونها ويشترون منها غنماً وجمالاً ومشال وخيلاً وما يلزمهم، لأن كل نهار أربعاء يوجد سوق^(١٤) بالدرعية للبيع والشراء من مواشي ولباد

(٤) يقول الصايغ: «مرتير في مشلح واحد».

(٥) «لباسات».

(٦) «فقط ذايدين بالغضا [= بالغطاء] عليهم».

(٧) «عراقيتهم».

(٨) «الضأن».

(٩) «كيسهم».

(١٠) «ببلاش».

(١١) يريد الصائغ مدينة مخا على ساحل البحر الأحمر.

(١٢) ثُحُم ح ثُحوم: حدود.

(١٣) أي مخا.

(١٤) «مارار».

ومشاح وشمالات . وأهالي الدرعية يبيعون أيضاً إلى قرى بلاد الحضرموت^(١٥) ، وقد بقي منها شيء قليل إلا أن أكثرها خراب ، والحضرموت ، كما هو معلوم ، كانت بالسابق بلاداً عامرة عظيمة ، وأما الآن فأكثرها خراب ، وهناك بعض القرى تابعة للوهابي ، أهلها فقراء جداً يعطون الجزية تحت رق العبودية . وأما عملة الدرعية فالريال الفرنجي ، وذهب مَشَخَص^(١٦) ، وذهب مجر ، ونصف ريال وربيع ريال ، وذهب جنزلي صنع مصر قديم ، وذهب أبو ورده قديم ومصريات فرط ، وأما عملة العثماني فلا يتعامل بها قط . ثم عند المساء رجعنا إلى المنزل وقيدت جميع ما رأيته وسمعته في اليومية .

(١٥) «الاضرموط» .

(١٦) عملة ذهبية كثيرة (اسماعيل الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٩٤) .

[حديث مع ابن سعود]

وثاني يوم ذهبنا عند ابن سعود فدخلنا وسلمنا عليه فرحب بنا وعمل لنا غاية الإكرام . فابتدأ الحديث بخصوص الممالك الفرنجية وأحوال بونا بارتته ، لأنه كان سامعاً بأخباره فاستقصى مني على سيرته ، فأخبرته على قدر معرفتي ، فسرّ جداً وكان يتعجب من أفعاله وانتصاراته على غير ملوك ، وقال : هذا ، لاشك فيه ، قائم بأمر الله تعالى ، وربما كان بداخله باطنه مع الله ولا يشرك به أحداً حتى أعطاه مثل هذه القوة والانتصارات . فضحكت في قلبي وقلت في قلبي : يا مسكين إن قوى بونا بارتته بعيدة عن ظنك فيه .

ثم غيّر الحديث وقال : يا عبد الله ، أريد منك أن تعرفني ما هو قواعد دين النصرانية . فهذا السؤال عصّ قلبي منه جداً فقلت : يا ابن سعود ، قاعدة جميع الملل والمذاهب/هوالله تعالى وحده ولا شريك له ، وهو الديان فقط ، فاعتقاد النصراني بالله تعالى سبحانه وجل شأنه ، إنه هو الخالق ، والرازق ، والمحيي ، والمميت ، والرافع ، والخافض ، والمقاصص^(١) ، والمسماح والعاطي والقابض ، إله مكنون وأمره بين الكاف والنون . قال : قوي مناسب ، ولأي شيء خلقنا ؟ قلت : حتى نعرفه ونعبده ، ونكرمه ونحبه ونرث جنته . فأنشرح من ذلك جداً وقال : وكيف يا عبد الله تصلون ؟ وماذا تقولون في صلاتكم . قلت : يا سيدي ، صلاة ربانية وهي أبانا الذي في السموات الخ . فسرّ وحالاً أمر أحد الكتاب وكتبها في ورقة ، وأخذها

(١) «المقاصص» .

ووضها في عبه . وقال : وغير ذلك ماذا تقولون ؟ قلت : وصايا الله العشر التي كتبها بإصبعه وأنزلها على سيدنا موسى عليه السلام في اللوح المحفوظ . قال وما هي ؟ قلت : أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيري ، لا تحلف باسم الله بالباطل ، إكرم أباك وأهلك ، لا تقتل ، لا تزني ، لا تسرق ، ولا تشهد بالزور ، ولا تشته امرأة قريبك ، [لا تشته] مقتنى غيرك ^(٢) . قال : وإلى أي جهة تتجهون في الصلاة ؟ قلت : يا عزيز ، نصلي إلى أي جهة كان لأن الله موجود في كل مكان ، في أعلى السموات وعلى الأرض . قال : وبأي نوع تعرفون سيدنا عيسى . قلت : روح الله . قال : عندكم صلب عيسى . قلت : استغفر الله العظيم ولا نكون من الكافرين ، إن روح الله يظلل ويصلب ولكن شبه به ^(٣) . قال عفاك . ثم قال : والإنجيل أهو محفوظ عندكم كما أنزل على قلب سيدنا عيسى عليه أشرف السلام ؟ قلت : نعم ، ولا يمكن أن يبدل أحد حرفاً واحداً منه . قال : وهل تعملون بموجبه ؟ قلت : وكيف لا . قال : الإسلام لا يزال يعاملكم بموجب عهد رسول الله الذي أعطاه لكم . قلت : خيراً يا ابن سعود ، إنهم لا يتمسكون بحرف واحد منه . وما كفى أنهم لا يعاملوننا بموجبه بل يعاملوننا بضده . قال : لعن الله القوم المشركين ^(٤) الناكسين عهد نبيهم ، حلّ ضرب السيف فيهم . ثم قال : وكيف تتزوجون ؟ قلت : بموجب كتاب عند قاضي الإسلام ورضاء الفريقين أي أهل العروس والعريس ، والنقد للعروس على حسب ما أمر الحق سبحانه وتعالى عن يد سيدنا عيسى : ثلاثة وثلاثون غرساً لا غير . قال : وكيف تستحلون شرب المنكر ولحم الخنزير . قلت : خيراً ، هذا شيء محرم عندنا جداً ومنهى عنه في كتابنا . وأما العصاة الذين يستحلونه فلا قياس عليهم ، لأنهم من المغضوب عليهم ^(٥) يفعلونه سراً وإن عرفناهم لرتبنا قصاصهم . قال : والتوتون الذي هو مكروه جداً وحرام ، أي فائدة تجدون من استعماله ؟ قلت : ياسيدي أنا عمري ما ارتكبت هذه المعصية حتى أجاب عن الفائدة من ارتكابها . فضحك الدهي وانشرح لعلمه الأكيد أن عقلي قد طار من عدم شرب توتون ، وعلى الخصوص أننا كنا قد شربنا نحو

(٢) نسي الصائغ الوصية الثالثة : إكرم يوم الرب .

(٣) كذا ، والآية تقول : ﴿ ولكن شبه لهم ﴾ . أما قول الصائغ : « روح الله يظلل ويصلب » فمن الصعب تفسيره وفهمه ، اللهم إلا إذا كان وقع خطأ في الكتابة ، كما عهدناه مراراً ، وكان الصواب : « يظلل ولا يصلب » ، فيستقيم المعنى .

(٤) ابتداء الكراس رقم ١٤ .

(٥) « مغاضيب » .

عشر مرات قهوة وماتت في فمي من غير توتون . النتيجة سؤالات كثيرة ، وكانت أجوبتي له دائماً مما يناسبه ويقرب إلى طريقته . فأنشرح من ذلك جداً وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كنت أظن أن النصارى كفار ومشركون بالله مثل غير ملل وأكثر ، وأما الآن فقد تأكد لي أنهم جماعة على الحقيقة وقرييون جداً من طريقتنا . فقلت في بالي يا مسكين ، لو تعرف أحوالنا ، وقديسينا ، وأعيادنا ، وصيامنا ، وشركنا بالله ، واعتراقاتنا ، وقراييننا ، وأمور الديانة عندنا ، لكنت ما تركت دمي يلحق الأرض ولكن دبر الله الأمور . وهو لا شك فهم أني كذبت عليه في بعض المواد ، ولكن الذي جعله يتغاضى عن ذلك هو أمله بالاتحاد معنا وارتباطه بعصبتنا ، لأن رأى أن سياستنا تناسبه جداً . وثانياً أن من طبع العرب أن يصدقوا مهما قلت لهم ، وقّل أن يراجعوا أحداً بالكلام .

[أحوال ابن سعود والدعوة الوهابية]

وأما بخصوص ابن سعود فهو فصيح جداً متكلم، ديوان حكي، وعنده علماء ١١٢/١ عارفون بأمور ديانتهم، وربما بلغك أيها القارئ أن الوهابي كان أرسل قديماً عالماً مجادلاً للشام/ وغلب علماء الشام جميعهم، وهذا شيء مشهور عند كافة الناس. وحين كان يتكلم معي ويسألني كان عنده بعض العلماء، فما فتح أحد منهم فمه ليقول كلمة واحدة، وبما أنه هو الذي كان يتكلم فلم يجزؤ أحد من الحاضرين أن يتكلم بشيء ما من غير إذنه. فبعد ذلك انفرط الديوان وذهب كل واحد إلى محله.

وثاني يوم قطبنا نهارنا بالفحص عن أحواله، وترتيب حكمه ونظامه، فقد فهمنا جيداً أن أولاً له ولدين قد زوجها وبنثاً لم تزل عزباء. وله امرأة واحدة أم البنت وصبي واحد، وله جارية سرية، له منها ولد كبير. وأما بخصوص ترتيب حكمه فإنه يستند في كل أموره إلى الدين. حتى أنه حين ينصب حاكماً من طرفه في بعض الأماكن الخاضعة لحكمه، يأكل معه، ثم يتوضأ ويصليان سوياً، وبعد ذلك يقلده سيفاً، ويقول له هكذا: «قد اقمتمك بأمر الله على عباد الله، فاعدل في الرعية وأفصل في القضية واقسم بالسوية، واقبض الجزية واضرب أعناق السنية^(١) ولا تدع مشركاً يستقر في حكمك (٢)». ثم يعطيه ورقة مختومة

(١) كذا، وهو يريد أهل السنة.

(٢) كلمة غير مرقوة لأنها مخطئة في جلد الكتاب.

ومضية باسمه مذكوراً بها : « قد ولى واليكم عبد الله ، القائم بأمر الله ، فلاناً حاكماً عليكم فأطيعوه ، ولا تكونوا من الفاجرين فتعاملكم بسيف الدين ، والسلام على من اتبع هدانا ، وأجاب دعانا ، وأحب ما نحب ، ورفض ما نرفض ، فهو من أهل التقوى والدين ، ومن خالف فكان عندنا من القوم المشركين والسلام » . وهكذا هي صورة فراميه لا غير ، في ورقة صغيرة طولها شبر وعرضها ثلاث أصابع فقط . وعنده أيضاً ثلاثة أو أربعة كتاب من أجل الأوراق والمكاتيب لا غير . وليس عنده دفاتر حسابات للداخل والخارج ، فهو يرسل المركزي إلى القبائل والعشائر والمدن والقرى يجمع الأموال والأرزاق ، ثم يعود إلى عنده ، فيأخذ الأموال ويضعها في خزينته بيده . وأما الأرزاق مثل الجمال والخيول والعبيد والغنم ، فما أعجبه منه يدعه ، وما بقي يبيعه إلى أهالي مكا^(٣) وغيرها من حكمه ويضع ثمنها بالخزينة أيضاً . عنده ١١٢/٢ من العبيد ألف / دائماً سرمدياً تحت السلاح بالسرايا . وحين ينام بالليل مئة عبد يحرسونه على باب حجرته التي ينام فيها .

أما بخصوص صلاته فهو يتوضأ ويصلي مثل المسلمين : الكلام والفرض والسند والركوع والوضوء شيء واحد لا يخالف المسلمين ، غير أنه لا يستقبل جهة مكة كممثل المسلمين ، بل على أي جهة كان تجوز عنده الصلاة . والإمام الذي يصلي به يدعو ، في آخر الصلاة^(٤) ، الحق سبحانه وتعالى أن ينصر القوم الموحدون على القوم المشركين . فالموحدون هم المستقرون في وحدانية الحق والمشركون المسلمون . وأما بخصوص محمد فهو لا يفضيه ولا يحبه ويقول عنه أنه إنسان صالح عمل الخير^(٥) وفرب الناس إلى الله بوساطة فصاحته وسعده وتقواه ، وما عمله فهو شيء مقبول ، وكل من عمل خيراً يشكر على فعله الخير ويكرم نوعاً ما عن غيره ، ولكن لا يعبد ولا يزار قبره ويصلى عليه ويصير له هذا العدد من الاحتفالات الإلهية ، لأن كل من أراد يستطيع أن يكون إنساناً صالحاً ويشكر بين الناس ويسمى مهدياً^(٦) ، إذ أن كل من أصلح فهو مهدي وكل من أفسد فهو دجال .

(٣) أي مخا .

(٤) « يعمل دعا في آخر الصلاة » .

(٥) « مليح » .

(٦) إن هذه الأقوال عن الوهابية كانت شائعة في أوائل القرن التاسع عشر ، مع أن لأصحها لها . بل إن روسو ، وكان قنصل فرسا في بغداد ، رسم « أن الوهابيين يقولون عن محمد صفة النبوة . وهم ينظرون إليه بظهورهم إلى رجل عادل وصالح ، استحق ، بسبب تقواه ، أن يكون محبوباً من الله والمنعذ لأحكامه . بوع أنهم وإن كانوا

ثم ثاني يوم حضر المركزي الذي كان أرسله إلى بعض قبائل عرب، نواحي ديرة الحضر موت^(٧)، وأحضر معه الزكاة يعني الجزية فأدخل الجميع للسرايا، فذهبنا لنراه، وكان

— يقتدون بالمسلمين فيما يتعلق بالشهادة، فهم يحدون منها الكلمات الأخيرة فتصبح فقط «لا إله إلا الله». فمن الممكن أن نعتبرهم موحدين [=إلهيين] بتام معنى الكلمة (وصف ولاية بغداد، باريس، ١٨٠٨).

وكان من حراء هذه الدعاية الكاذبة، أن الأتراك كانوا يقولون عن أتباع محمد بن عبد الوهاب أنهم أعداء الدين. وبعد أن اطلع العلامة الشيخ حمد الجاسر، صاحب مجلة العرب الغراء، على ما ذكره الصايغ، كتب مشكوراً إلى محقق هذه المخطوطة مانصه:

وهذا الكلام مملوء بالأخطاء الشنيعة:

١ — القول بأنه لا يستقبل جهة مكة، وهذا غير صحيح فأتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب حنابل المذهب ويرون استقبال القبلة (الكعبة) من أركان الصلاة إذا لم يستقبل المصلي القبلة بطلت صلاته وهذا أمر لا تنك فيه ويعرفه حتى المتدئ من طلبة العلم.

٢ — الدعاء في آخر الصلاة وفي كل وقت مشروع بأن يعز الله الموحدين ويذل المشركين، والمشركون ليسوا المسلمين ولكنهم الذين يصرفون شيئاً من أنواع العبادة لغير الله، وأنواع العبادة كثيرة وهي كل الأمور المحمودة شرعاً التي أمر الله بها مثل الصلاة والدعاء والاستغاثه، فهم لا يميزون دعاء أحد من الأموات سواء كان نبياً أو عبداً صالحاً بل يحبون الأنبياء كلهم ويتبعون ما شرعه الله ولكن لا يصرفون لهم شيئاً من أنواع العبادة.

٣ — وأما قوله عن محمد ﷺ لا يفضيه ولا يحبه، فهذا كلام باطل، فمن أصول عقيدة أتباع الشيخ محمد كغيرهم من المسلمين بحبة الرسول محمد ﷺ وطاعته وتقديم أمره على أمر أي إنسان مهما كان، ولكن طاعته ومحبة لا تجيز أن يصرف له شيء من العبادة بأن يدعى أو يستغاث به، فالدعاء والاستغاثه لله القادر على ذلك، ومن لم يحب الرسول محمداً فإسلامه غير صحيح، ويعتبر كافراً يجب قتله عندهم. وأما زيارة قبره فهي من الأمور المحبوبة ولكن لا لدعائه هو بل ليُدعى له ويسلم عليه سلاماً شرعياً ويصلى عليه.

فأتباع الشيخ محمد يفرقون بين حق الله وحق رسوله محمد، فحق الله العادة وحق الرسول الطاعة وامتنثال الأمر وفق الشريعة الثابتة في القرآن وفيما صح عن الرسول ﷺ.

والموضوع يحتاج إلى تفصيل لا تتسع لها هذه الرسالة وكثير من الأمور المنسوبة إلى الوهابيين هي كما يعتقد الأستاذ لاصحة لها وهي من تأثير الدعاية في ذلك العصر.

(٧) (الأضراموط).

انصافاً لفتح الله الصايغ نضيف إلى تعليق الأستاذ حمد الجاسر ما جاء في كتاب حافظ وهبة [الجزيرة العربية في القرن العشرين] تحت عنوان «ما ينسب إلى النجديين وهم أبرياء منه».

«وقد نُسبَ إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والآخذين بدعوته كراهيته النبي ﷺ، والخط من شأنه وشأن الأنبياء والأولياء والصالحين...»

«ونسوا إليهم القول بأن العصا خير من النبي... ولقد سمعتُ في نجد أن حكّام نجد الشمالية أثناء

جاء بمئة وثلاثة عشر جملاً وتسعة رؤوس خيل عظيمة جداً وعبد وعبدة ومبلغ من المال . فحضر هو بنفسه إلى أرض السرايا ، واختار منها أربعة رؤوس خيل مفتخرة جداً ، وأدخلها وربطت مع خيله ، وانتقى أيضاً عشرين جملاً أحسن الموجود وسلمها إلى الراعي ، وأخذ العبد والعبدة وأدخلهما إلى البيت ، وأخذ جانباً من الغنم وسلمها أيضاً إلى راعيه لأجل الذبح لطبخه ، لأنه يذبح سرمدياً كل يوم نحو عشرين رأس غنم بالسرايا ، تعييناً يفرق منها وكيّل الخُرج لحماً نيئاً على بعض الأكابر الذين عيّن لهم ، هو ذلك كمثّل الخُرج^(٨) ، و١١٣/١ والباقي يطبخ بالسرايا للحاضرين/وللضيوف الواردين والشاردين . وما يبقى من جمال وخيل وغنم يسلمها إلى الأمن ، وهو واحد من خواصه يقال له الأمن ، حتى يبيعها ويأتي له بقيمتها كما جرت العادة دائماً . وأكثر البيع يكون إلى أصحاب الأرزاق ذاتهم الذين أخذت منهم ، لأن كثيراً منهم يلحقون بالتركي إلى الدرعية ، ويوم الأربعاء ، حين يصير السوق ، يأتون ليشتروا رزقهم مرة ثانية من الأمن ، لأنه يتهاود معهم بالثمن أكثر مما إذا اشتراه أحد غريب .

وأما بخصوص عيشته فهي معذبة من غير راحة فكر ، لأنه أولاً يأكل بالحرم عند النساء ولا يأكل من أكل السرايا ولا من يد أحد ، يأكل من يد امرأته فقط خوفاً من التسميم ، لعلمه أن أعداءه أكثر من محبيه حتى من بين عربه وخواصه ، والسبب في ذلك من أمرين

→ خصوصتهم مع آل سعود كانوا يكتبون إلى الأتراك أن آل سعود اتخذوا راية شعارها : لا إله إلا الله محمد (بحدف ميم محمد) أي لا أحد رسول الله ...

« ولقد حضر إلى مكة أثناء الحرب الحجازية النجدية ١٩٢٥ م بعض أفاضل السغاليين وتطوان وأخبرونا أنهم سمعوا في الأسكندرية ... أن الوهابيين ... في الأذان يقولون أشهد أن لا إله إلا الله فقط ولا يقولون وأشهد أن محمداً رسول الله » ...

« وما ينسب إلى أهل نجد تكفيرهم من عاداهم » ...

« وإننا نقبس ما كتبه العلامة الشيخ حمد بن عتيق من رسالته التي وضعها عن مكة : هل هي بلاد كفر أو بلاد إسلام ؟ ... إذا كان الشرك فاشياً مثل دعاء الكعبة والمقام ودعاء الأنبياء والصالحين ... وصارت الدعوة إلى غير القرآن والسنة . فلا شك أن هذا البلد يعتبر بلاد كفر ولا عبادة بالصلاة والحج والصوم والصدقة » .

« إن التوحيد قد تقرر في مكة بدعوة اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، واستمر أهل مكة عليه رداً من الزمن ، ثم فشا فيهم الشرك فصاروا مشركين وصارت بلادهم بلاد شرك » ... (الجزيرة العربية في القرن العشرين ص ٣٠٠ إلى ٣٠٣) .

(٨) المصروف والنفقة .

فقط^(٩) اللذين هما ضد طبع العرب واصطلاحهم : أولاً أنه يأخذ منهم الجزية رغماً عنهم كما ذكرنا سابقاً، وثانياً أنه يغصبهم على الصلاة خمس مرات كل يوم غصباً سيفياً^(١٠)، وأقام عليهم أناساً ترصدهم وترغمهم على الصلاة، والذي لا يصلي يقتله ويقطع خصيتيه ويضعهما فوق أنفه. وقد فعل ذلك مراراً عديدة مع شعبه. فهذان السببان قد زرعاً عداوة وحقدًا^(١١) في قلوب الشعب عليه وحصل لهم فتور وملل من محبته ومالت قلوبهم إلى بغضه، ولولا هذه الأسباب لما كان يوجد أقوى منه، لأن شعبه كثيرة لا تحصى وأماكنه بعيدة لا يتناول إليها أحد، ولا مصاريف عليه كما ذكرنا سابقاً، ولذا كان يستطيع أن يتقدم ويملك أماكن كثيرة، ويصبح سلطان الجزيرة العربية^(١٢) كافة براً ومدناً.

ثم دخلنا إلى القسم الداخلي من السرايا^(١٣)، لثمتع نظرونا برؤية خيلها. فبنا له من ١١٣/٢ منظر للخيل لمن يحب الخيل، وليس لي لأني/من بعد وقوعي الذي تكلمت عنه^(١٤)، ما عاد قلبي يتحمل رؤية جنس الخيل ولا يطاوعني على ركوبها. وبالنتيجة شيء يأخذ العقل، فموجود نحو مئتي فرس كأنها تصوير على ورق، لأنك مهما كنت عارفاً بأمور الخيل لا تستطيع أن تميز الواحد عن الأخرى بالجمال، فجميعها كأنها صنعت من عجين، على يد معلم واحد، [إذ أنها متساوية] بالقد والعلو والهيئة^(١٥) والضعف والحسن والمزاي. فبنا ثمانون واحدة بيضاء، وأثوابها مثل الثلج، لا يمكن تمييز الواحدة عن الثانية باللون^(١٦)، والباقي مشكلات على حسب ألوان الخيل: شيء مفتخر لا يمكن وجود نظيره عند غير ملوك.

ثم رجعنا إلى منزلنا، ودعينا تلك الليلة على العشاء عند الأمير عبد الله الهدال الذي كان متولياً جيش الوهابي. فعمل لنا غاية الإكرام والحنشمة وتذكرنا أيام حربنا معه أمام حماة وتلك الأمور التي جرت، وسامح الدريعي وعبد الله بعضهما من جميع ما جرى وصاراً بوفق ومحبة زائدة. وثاني يوم توجهنا عند ابن سعود وبعد شرب القهوة طلبنا منه خلوة لأجل تأكيد

(٩) «لأجل بوعين فقط».

(١٠) «بحم سيفي»، أي بالسيف.

(١١) «غبي».

(١٢) «عرايبا».

(١٣) «السرايا الحوانية».

(١٤) «وقعتي المعلومة».

(١٥) «الكسم».

(١٦) اسقطنا هنا سطرًا وضعه الصائغ في هامش الصفحة، فلم نتمكن من قراءته لأنه مخيط في جلد الكتاب.

حيلتنا^(١٧) عليه ، فأمر بذلك . وكان بالخلوة هو وعبد الله الهدال كاخيتيه والديرعي وأنا لا غير . فصار رباط عظيم ، بقول وثيق ، وأقسام عظيمة ، أننا نحن وهو بالخال واحد : العرض واحد ، والدم واحد ، والمال واحد ، والله الشاهد والريب على من يتعدى وينقض رباطنا هذا ، وإن حين يستدعي أحد من الفريقين الآخر إلى معونته يحضر سريعاً من غير تماهل كلياً . وما يضره يضرنا ، وما ينفعه ينفعنا ، والصاحب صاحب جميعنا ، والعنود عدو جميعنا ، وأن نبذل جهدنا للدفاع ونمانع جميع غوائل الأتراك الذين يقدمون من اسلامبول^(١٨) ، لأنه كان نجاساً حساباً كبيراً للسلطان ويخشى أن يرسل إليه جيشاً عن طريق الحج ، كما وجهه إلى مصر أيام الحملة الفرنسية ، فجعلناه يطمئن من هذه الناحية/وأرحنا باله من هذا القليل ، لأنه ما كان حاسباً حساباً لوالي مصر ابدأ بل كان حسابه الأكبر للسلطان ، مع أن أخبار استعدادات محمد علي وصلت إليه جيداً ، ولكنه كان لا يفكر بها ثقل حبة خردل .

فتَمَّ هذا الاتحاد فيما بيننا وتحالفنا على السيف والمصحف وتعهد لنا أن مهما لزم لنا لأجل إعانتنا على استملاك عربستان من إمداد بالرجال أم بالمال ، يكون جاهزاً ويرسل إلينا ، ويصير الديرعي سلطان الشمال وهو سلطان القبلة ويكونان روحين في جسد واحد ، وقرأنا الفاتحة على ذلك وخرجنا من الخلوة إلى حجرة ثانية ، فأمر بالغداء فأخرج الغداء من الحرم وكان شيئاً منظوماً من لحم أرز ودجاج ومحاشي وتحلويات لأن العسل كثير بالدرعية وغير أماكن . فجلسنا أيدينا وجلسنا للغداء . فمد يده هو قبل الجميع وقال : « بسم الله خالقك ومفرق أصابعك » . فأكل من كل صحن لقمة ثم قال : تفضلوا ، والمعنى أنه يرفع الشك عن مادة السم ، لأن هذا المستوى شديد عنده . فابتدأنا وهو يأكل معنا بيده من غير معلقة . فقال له الديرعي : الإفرنج يأكلون بالمعاليق الفضة والملاقيط الفضة والسكاكين ، من غير أن يمسوا بأيديهم شيئاً . فقال : وكيف يصنع ذلك ؟ فقلت له : الآن أريك . وقمت حالاً وأخذت قسبة فارسية وطينعت معلقة وشوكة^(١٩) من القصب ، ووضعت سكيناً وأخذت صحناً فارغاً ووضعت أهامي ، وأخرجت محرمتي وجعلتها سلوية^(٢٠) ، وابتدأت آكل بكل

(١٧) « نصبتنا » .

(١٨) استنبول .

(١٩) « فريكة » .

(٢٠) كذا ، وقد تكون الكلمة مشتقة من صالون : غرفة الاستقبال .

ظرافة على فرانكا^(٢١). فتعجب من ذلك وضحك حتى شبع ضحكاً وسر من هذه [الفرجة]^(٢٢) الفريدة وابتدأ يوحد الله ويقول: سبحان الذي أرضى الناس يعقوها، كل من يعجبه عقله ودينه وأزياءه أكثر من غيره. فبعد الأكل خرجنا إلى الخارج^(٢٣) وشرينا القهوة بالديوان وتوجهنا إلى محلنا. وتلك الليلة دعينا عند أبو نقطة^(٢٤)، عقيد خارجي مشهور كنا ١١٥/٢ ذكرناه في مادة حماة. وحين رجوعنا إلى منزلنا اعتمدنا أن^(٢٥) نطلب الأذن بالسفر نهار غد. ولما كان الغد توجهنا إلى الديوان. وبعد مواجهته وشرب القهوة قال له الدرعي: يا ابن سعود إن قدر الله نهار غد نسلم عليك ونستأذنك بالرحيل. فقال له: يا ابن شعلان كأنك ملكت منا سريعاً^(٢٦)؟ قال: استغفر الله لا يمل أحد من رؤيتكم، ولكن لا بد من رجوع الغريب إلى وطنه. فقال له: حاشا، أنت لم تبق غريباً، فنحن وأنت بالحال واحد. فإن كان مرادك ذلك فليكن كما تريد. فجلسنا حصّة من الزمن عنده، وقمنا إلى المنزل كي نعد أمورنا للسفر. وبعد وصولنا بوقت قليل وإذ أرسل لنا سبعة رؤوس خيل، أفراساً لا ثمن لها، لكل واحد منا فرس وعبد يقودها، وسبعة هجن للسبعة عبيد حتى يركبوها حين يتوجهون معنا. وكان قسمهم هو بنفسه وأفهم العبيد ذلك [وقال لهم]: أنت يا فلان وفرسك وهجينك تقدم حالك لفلان. وكذلك [أهدى] للدرعي سيفاً ثوبه جلد أسود إذ عندهم حرام اقتناء سلاح من الفضة والذهب، إنما حديده شيء مفتخر جوهر عظيم من أفخر سيوف العجم، وأيضاً مع كل عبد مثلح حساوي أسود، وسيف ضبان^(٢٧) عظيم، ومئة ريال فرنجي. فقبلنا جميع ذلك، وكل منا عرف عبده وهجينه وفرسه. ولكن يا لها من سبعة رؤوس خيل لا يمكن أن يوجد نظيرها ولا ثمن لها. ففرحنا بها جداً وأخذنا نعد أمورنا للسفر. وثاني يوم توجهنا إلى عنده حتى نستكثر بخيره ونودعه^(٢٨) ونسافر إذ حضر عنده هجان، من عرب الينبع، يخبره أن ١١٥/١ جيش محمد علي والي مصر/خرج من الينبع بكل نظام وقوة متوجهاً نحو المدينة

(٢١) أي على طريقة الإفرنج.

(٢٢) كلمة عبر مرقرة.

(٢٣) «برا».

(٢٤) هذا أيضاً من ترهات الصايغ، لأن أنا نقطة قُتِل سنة ١٨٠٩.

(٢٥) ص ١١٤/٢ يضاء. وأما صفحة ١١٥/١ فتأتي بعد صفحة ١١٥/٢ وفي نهايتها.

(٢٦) «قوام».

(٢٧) كداء ولم يظهر لنا المعنى. وقد سبق تفسير هذه الكلمة.

(٢٨) ورقة صغيرة أضافها المؤلف.

لامتلاكها^(٢٩). فضحك وقال إن شاء الله سيصير بهم أكثر مما صار سابقاً، جعلهم الله غنيمة للموحدين، هؤلاء الكفار والقوم المشركين. وإني بعون الله وحده لأحسب لهم حساباً ولو بثقل حبة خردل. فدعونا له بالنصر والظفر على أعدائه وخرجنا من عنده. وقلت للدريعي: الله يستر ابن سعود، لا أظنه يستطيع أن يجابه^(٣٠) محمد علي في خصامه معه. فقال: وكيف ذلك، فعلى ما شاهدنا أن عرشه كبير وجيشه كثير، فمن يستطيع عليه. قلت: صحيح ولكن الأمر الذي ينقصه هو حب الرعية له، لأن أكثر شعبه غير راضي عنه ومظلوم معه. ومن المعلوم أن المظلوم يبحث عن خلاصه وخراب ظالمه. وفي أقرب وقت سيخونه شعبه، لا سيما وأن العثماني يحرك عليه، ويعمل على ذلك، وعلى التفخيذ والخيانة، كما هي عادته.

(٢٩) كانت الحملة المصرية على المدينة سنة ١٨١٢، ومن الواضح أن الصائغ لا يراعي الأمانة التاريخية.

(٣٠) «بيطلع رأس».

[ريح السموم]

١١٦/١ ثم ودعناه وخرجنا/من البلد ومعنا العبيد، كل واحد راكب على هجين، يقود فرس معلمه معه، وكذلك طلع معنا جملة من الناس من الأكابر وذوي المناصب رافقونا نحو ساعة من الزمن وودعونا ثم رجعوا^(١). وأما نحن فأخذنا الطريق الحجازي وقصدنا التوجه بالسلامة إلى بلاد حوران، حسب الوعد مع عرباننا. فجدينا بالمسير، وكل ليلة نبئت عند عرب، لأن العريان في تلك الأماكن كثيرون جداً بسبب قربهم من الدرعية. ثم خامس يوم من سفرنا كنا نائمين عند قبيلة عرب يقال لها الهنادي^(٢)، فقمنا ثاني يوم لنسافر فوجدنا جميع الجمال طامرة رؤوسها بالرمل، فعرفنا أن ريح السموم قادمة ويسمونها أيضاً السنبلة^(٣). فهذه الريح تحصل في البادية الحارة جداً. وقبل أن يعرف بها أحد تشعر بها الجمال أكثر من الجميع. ويسبب حكمتها كي لا يصيبها ضرر منها وتموت فإنها تطمر رؤوسها بالرمل وتدير ألقبيتها لملاقاة الهواء. وهي تشم رائحة ذلك الهواء قبل وصوله بساعتين أو ثلاث ساعات. وسبب طمر رؤوسها بالرمل فكيف لا يدخل هذا الهواء الرديء الجهنمي في مناخيرها. فإذا قتلت

(١) جاء في ترجمة فرنيل: «لما وصلنا إلى باب المدينة وقف الدريعي والتفت إلى وقال: تفضل واخرج أولاً، فإني واف بعهدي»... وبلاحظ أن كل هذا المقطع لا وجود له في الأصل العربي، وهو من مبتدعات لأمريتي.

(٢) الهادية، من بني محمد من بني غمرو، من حرب (الجاسر، معجم القبائل، ٢، ص ٨٨٨).

(٣) ولعله يريد الضئيل أي الحبب المكر، ومن عادة الصايغ أن يبذل الصاد بالسين.

الجمل وقرمت لحمه لا يمكن أن يرفع رأسه حتى يخلص الهواء ولو دام يومين . فحالاً أعد العرب المواقع التي يمكن أن يحتمو بها من ذلك الهواء . وحالاً أغلقوا بيوتهم من أطرافها الأربعة ، وأدخلوا الماء إلى داخل البيوت وسدوا آذان الخيل كلها لأن الخيل يصيبها الضرر من هذا الريح في أذانها . وحالاً كل واحد غطى رأسه بمشله وقعد في ناحية . ثم وصل الهواء المسمم الشنيع الناري ، فكأن أبواب جهنم قد فتحت : نار لا توصف وترى البراري تلتهب من النار والغبرات الحمر والزوابع متصلة والأرياح العاصفة غير منفصلة ، وتسمع هدير الجمال وصهيل الخيل وعويل الكلاب ، شيء يفزع الأسد . والذي يريد أن يشرب يمشي على يديه ورجليه ويذهب ليشرب من قرية الماء وقد أصبحت بالحقيقة أسخن من ماء الحمام الغالية . النتيجة أن الدنيا قد اشتعلت ناراً . ودامت هذه الحالة عشر ساعات متواصلة حتى كادت تخرج أرواحنا/وبعد ذلك ابتداءً الهواء يخف رويداً رويداً إلى أن انقطع تماماً ، وجملة ما دام ست عشرة ١١٦/٢ ساعة . فخرجنا من البيوت وخرج الناس كافة ، ولكن كنت ترى وجوه العربان سوداء كأنهم خرجوا من حريق . ومن ذلك الهواء مات في نزلنا ثمانية أنفار ، منهم خمسة أولاد وامرأتان ورجل واحد . والموتة بهذا الهواء سريعة جداً مثل الرمي^(٤) بالرصاص ، لأن الإنسان حين يشم هذا الهواء المسمم يبتدئ الدم حالاً يخرج من مناخيره وفمه بكثرة ، وخلال ساعة من الزمن يصبح أسود مثل الفحم ويبس ويموت وموتة رديئة أنجس من الطاعون . فشكرنا الله تعالى الذي أنقذنا من هذا الخطر المحدق^(٥) العظيم . وسافرنا في اليوم الثاني وكنت دائماً أفكر بخوف شديد بهذا الهواء ، خشية من أن يحصل مرة ثانية ونكون سائرين وحدنا بالطريق من غير بيوت عرب نأوي إليها فنهلك حالاً بلا شك^(٦) .

(٤) « قويس » .

(٥) « القطوع » .

(٦) نصف الصفحة ١١٦/٢ بياض ، وكذلك الورقة ١١٧ و ١١٨ والصفحة الأولى من الورقة ١١٩ . وهذه الصفحات البيضاء تدل على أن الصايغ كان يريد أن يضيف بعض المعلومات ، ثم لم يتمكن من ذلك لأسباب نجهلها .

[تقاليد العرب وعاداتهم ومعتقداتهم]

١١٩/٢

نقول أن بعد ظهور الوهابي في بلاد الدرعية، تبعت طريقته السهلة المعلومة جميع القبائل والعشائر التي كانت قريبة منه، مثل بلاد نجد واليمن وجبال شمر والحجاز. فالبعض منها خوفاً من شره والبعض منها استحسنت مذهبه وصارت معه، والبعض منها أملاً بالكسب، لأنه قادم على حروب وفتح بلاد وضرب قبائل، فطمعاً بالذهب والسلب تبعوه. وأما عرباننا الذين نحن عندهم، وهم عربان الهند والبصرة وبغداد والعراق وسورية وحوارن وبلاد الجليل وغير وغير، فهؤلاء ظلوا على حالهم لعدة أسباب: أولاً لأنهم بعيدون عن الوهابي، ثانياً ليوافروا على أنفسهم الجزية، ثالثاً لأنهم يدخلون دائماً إلى بلاد الإسلام [كذا] ^(١) بسبب ما يحتاجون إليه من لوازمهم مثل فروات وكوفيات وخام ومشالغ وغير أشياء تلزمهم، رابعاً لأجل وارداتهم وجعائلهم ^(٢) من تغفير الحج إلى مكة، خامساً لأجل خواتمهم ^(٣) التي لهم على القرى. فلهذه الأسباب فرزوا أنفسهم من الوهابي، مع أن ^(٤) جميع العربان قرييون إلى طريقة الوهابي، وكذلك عرباننا. لا يوجد غير الله ومحمد، وهم يكرمون الإمام علي أكثر من غير أصحابه. وأكثر أيمانهم [على الحشيش]، فهم يقطعون الحشيش ويحلفون: «وحق من خلق

(١) راجع تعليقنا ص ٢٦٥ حاشية ٦.

(٢) «مداخيلهم ومعتقداتهم».

(٣) خوات ج. خوة.

(٤) «خوش».

هذه [الحشيشة]»، سواء كانت المادة هامة أو طفيفة^(٥). كذلك يحلفون برأس الإمام ١٢٠/١ علي، وإذا ضاع لهم شيء ينادون عليه هكذا^(٦): «يا سامعين الصوت صلوا على النبي، أولكم محمد وتاليكم علي، يا من شاف^(٧) لنا الحاجة الفلانية». فينتج من ذلك أن المكرمين أكثر من الكل الله ومحمد وعلي. وكذلك يحلفون، في الأمور الهامة، بعواميد بيوت الأمراء، مثل بيت فاضل، وبيت شعلان، وبيت عبده، وبيت تامر، وغيرهم. فيقولون: «وحق عامود هذا البيت وما أطعم من العيش». فهذا عندهم يمين قاطع كبير، ويعتقدون به كثيراً.

ثم أنهم يصدقون المنامات ويعتقدون بها جداً. ويعتقدون بالسحر وهم على يقين أن للسحر فعلاً عجبياً وأن القلم يعمل في الحبة والبغضاء والزواج والفراق والاجتماع. وعندهم كل من عرف الكتابة يستطيع أن يعمل كل أمر يريده، حتى أنني كنت عندهم بمنزلة سيمون الساحر^(٨)، لأني ما أكثر ما جَمَعْتُ وُفِرَقْتُ، وزوجْتُ وحبِيتُ وبغضْتُ، مع أن ليس عندي أثر العلم بذلك ولا يقين بمثل هذه الأمور. فكنت أضحك منهم واكتب لهم أحرفاً مقطعة وخربشات وأحرفاً فرنجية وأعطيهم إياها، ولكن أكون فهمت منهم المادة جيداً، وبعد ما أعطيهم الورقة أدبرهم على الطريقة والظروف التي توصلهم إلى المطلوب، فأكثر الأمور تأتي وفق مطلوبهم. ومن كثرة ثقتهم بالسحر يتوهمون أن الفعل من الكتابة والورقة التي أعطيتهم إياها/مع أن الفعل كان من التدبير كما هو معلوم. ١٢٠/٢

وكذلك هم جماعة سريعو الإجابة، يصدقون ما تقوله لهم ولا يراجعونك مثل غير شعوب، لأن قلوبهم سليمة، ولا يغشون أحداً ولا يظنون أن أحداً يغشهم. فهذه الطباع كانت تريحنا جداً معهم. وكثير من الأوقات كنا نحتاج إلى أمر لأجل مصلحتنا، مثل الرحيل من المحل الذي نحن فيه، أو الإقامة به، أو العداوة مع إحدى القبائل، أو الصلح أو الاقتراب من إحدى المدن أو الابتعاد عن المدن، النتيجة الأمر الذي نحن بحاجة إليه وقتئذ، فأزعم أنني رأيت مناماً أعده في عقلي بالليل، وأقوم ثاني يوم أجمع كبار العربان وأقص عليهم منامي. فمن المعلوم أنهم يسألوني ما هو تفسير هذا الحلم العجيب يا خطيب؟ فأفسره بما يناسبني وأختم التفسير بمطلوبي ويتم مقصودنا من ذلك المنام. وهذا الأمر حدث معنا مراراً.

(٥) «مادة كلية أم جزئية».

(٦) نلاحظ أن عدد الأسطر والكلمات في الصفحات قد نقص جداً إعتباراً من الورقة رقم ١١٩.

(٧) رأى.

(٨) أحد المتطرفين من اليهود أشهر بالسحر وكان معاصراً للمسيح.

أما بخصوص شريعتهم فهي مثل الشريعة المحمدية ولا فرق بينهما كلياً^(٩). ولكن أين من يصني أو يفهم منهم؟ فهم جماعة مثل وحوش البرية، ولهم مثل يرددونه دائماً: «دفتري البرية مشفق»، أي أن ليس عندهم شرع ولا كتاب. وإذا حدث واحتاجوا إلى أمر يقتضي له الشرع، فإنهم يذهبون عند أحد الأمراء أو مشايخ الحكم لأن ليس عندهم مشايخ دين. وهذا الشيخ أو هذا الأمير ينهي الدعوى بينهم على أساس الوفاق والصلح، لا على قياس الشرع. والسبب بذلك أنك إذا أنهيت الدعوى على حسب الشرع، لا بد من أن يكون أحد الخصمين مفشولاً، كما هي العادة. وإذا كان مفشولاً لا يقنع بل يذهب ويشير حمولته، يعني طائفته وأصحابه، ويغير على طرش عدوه، وتحدث فنن ونخصومات ويأخذ حقه بيده من غير قاض ولا مفتي. فلعلم الأمراء والمشايخ بذلك، فإنهم ينهون الأمور بالمصالحة، لكي لا تكثر الفتن والعداوة فيما بينهم. وحدث أن شابين من قبيلتين مختلفتين كان لأحدهما بنت عم جميلة الصورة، فوضع عينه عليها ليأخذها، وهي تحق له شرعاً كما هو معلوم، إلا أن الشاب الغريب وضع عينه عليها أيضاً ويريد أن يأخذها. فدخل حبها في قلب الاثنين، وابتدأت المشاجرات والجدالات والقتال بينهما. فكان ثلاثة أرباع العربان [مع ابن العم، وكذلك] كل الأمراء والمشايخ حتى أنا من الجملة، أولاً لأن ابن عمها شرعاً أحق من الغريب، ثانياً لأنه رجل لائق عاقل إنساني^(١٠) كريم، معروف بين العربان، طعام عيش، جميع صفاته محمود^(١١). أما الثاني فغريب، من طائفة وضيفة معلول النسب، غير أنه فارس عظيم مشهور بين العربان وله أقرباء وأخوة فرسان يباهم العرب/بسبب فروسيته. وكانت تحدث [كل يوم اجتماعات عند الأمراء، وجدالات^(١٢) وفتن وعداوات. وفي كل اجتماع يحكمون أن البنت لابن عمها، وهذا الحل أفضل وأحسن شرعاً بالنظر إلى شريعتهم. وكان آخر اجتماع عند أميرنا الدرعي، بحضور جملة مشايخ وأمراء وكبار العرب. فالجمهور جميعه حكم وجزم أن ابن عمها يأخذها ولا يكون غير ذلك. فحين رأى الشاب أنه قد خسر، وأن البنت قد راحت من يده، قام من المجلس بكل حق وغيظ، وركب على ظهر جواده، وأخذ رحمه بيده وهزه أمام بيت الدرعي وقال: هذا القاضي وهذا الشرع (يعني رحمه)، والتفت إلى

(٩) ما يقوله الصائغ عن القضاء البدوي يجب إعادة النظر فيه على ضوء الأبحاث الحديثة.

(١٠) «آدمي».

(١١) «من جميعه مليح».

(١٢) معالجات.

ابن عم البنت الذي هو غريمه وقال له : يا فلان خذ حذرك مني ، إن شاء الله لا أدعك تتهنى بها ولا ليلة واحدة ، وساق فرسه وتوجه إلى بيته . فاصفر وجه الشاب ابن عم البنت من هذا الكلام وأيقن بالموت من يد خصمه ، وجميع الناس تكلدروا وصاروا في حيرة لأنهم تأكدوا أنه سيقتله ، لأنه قادر على قتله وقتل خمسين رجل مثله . ثم انفض المجلس وبقي الشاب وأبوه تلك الليلة عندنا ، أولاً من الخوف وثانياً لكي ندرهم/بطريقة حسنة . فاجتمعنا بعد العشاء ١٢٢/١ بخلوة ، مع الدريعي والخواجه لاسكاريس والشاب وأبيه وأنا . فقال الدريعي : يا جماعة هذا الشاب سيقتل لأن خصمه رديء جداً ، وبسبب قتل هذا الشاب ستتحرك العربان ، وتحدث فتنة كبيرة وسفك دماء وغارات ، وتنقسم العرب شطرين ويحصل لنا تعب . والعربان يريدون مثل هذه الأمور ، ليجعلوها وسيلة للكسب والنهب من بعضهم ، لأن هذه صنعتهم^(١٣) ومقصودهم ، قبح الله هذه المادة والله ينهبها على خير . فبعد أن انتهى الدريعي من كلامه قال الشاب : أنا عدلت عن البنت ، فاعملوا الذي يريدني ويرحكم ويرجى العرب ويطفي نار هذا الشر . فقال الدريعي : يا جماعة إذا أحضرنا الشاب وأعطيناه البنت ، نكون منكوسين ونظهر بمظهر الفاشل ونبدو وكأننا خفنا منه ، ويبقى العار علينا ، وعليّ بادئ بدء ، لأنني أول من حكم وجزم أن البنت لابن عمها ، ولكن نريد طريقة حسنة كي لا نطلع بالخجل . فقال أبو الشاب : دبرنا يا معلم إبراهيم (يعني الخواجه لاسكاريس) . فقال المذكور : هذا شيء سهل ، وهو أن تتكلموا مع الفتاة وتفهموها الواقع ، وهي تقول : لا أريد ابن عمي بل أريد فلاناً ، فيبقى القول لها والذنب/عليها . وأما أنتم فلا يقع عليكم لوم ولا خجل . فاستحسن الجميع هذا الرأي وثاني يوم تكلموا مع الفتاة ورضيت غصباً عنها ، وأرسلوا خبراً إلى الشيايب فحضر ليأخذها ، وتم له النصيب وأخذها قهراً ورغماً عن الشرع وعن جميع الناس .

فبما أن هذه حالهم فأية شريعة عندهم ؟ فهم جماعة يعيشون في البرية بحرية عظيمة ، لا ينقادون لشرع ولا يعرفون ما هو الشرع^(١٤) .

وأما بخصوص زواجهم فإن العريس يعطي العروس نقداً على قدر إمكانه ، أما جملأ أو ناقة أو نعجات أو فرساً ، على حسب الرضى وعلى قدر إمكانه . وإن وجد في القبيلة أحد

(١٣) «كارهم» .

(١٤) يعيش البدو على الأعراف وينقادون لها ، كما بيناه في كتابنا : «الحقوق في المجتمع البدوي» .

يعرف الكتابة، يذهبون عنده ليكتب لهم كتاباً، على قدر معرفته ويشهد الحاضرون. وإن لم يكن هناك من يكتب فإنهم يذبحون ذبيحة^(١٥) ويتعشون، ويشهد من كان حاضراً، ويدخل العريس على عروسته. وقد زوجت أنا كثيراً منهم وكنت أكتب لهم ورقة: قد أذنت لفلان وأجريت نكاحه على فلانة بنت فلان بنقد هو كذا كذا. وأضع أسماء الشهود الحاضرين. فيقوم العريس ويقبل يدي ويذهب ليأخذ عروسته. وعلى هذه الصفة زوجت كثيراً من العرب.

ثم بخصوص الوراثة فهم على موجب الشريعة المحمدية كل ابنتين بذكر. إلا أنهم ١٢٣/١ لا يُورثون البنات الخيل بل يعطونهن حصتهن من غير صنف وتبقى الخيل للذكور. وأما ذلك^(١٦) فنادر الوقوع، لأنهم لا يقتسمون إلا بالصدق، ولأنهم ليسوا مثل الحضرة، سكان المدن، أصحاب أرزاق وبساتين وكروم وتجارة ودور ملك. فليس لهم شيء من هذا فقط جمال لأجل تحميل البيت والحوائج حين الرحيل، وبعض الناقات لأجل أن يشربوا^(١٧) حليبها، ورأس أو رأسا خيل على حسَب البيت. فهؤلاء هم المتوسطو الحال. وأما الأكابر والأمراء فإنهم لا يقسمون قط، بل يبقى البيت دائماً من الأجداد إلى أولاد الأولاد، وذلك لكي لا يكثر اسم هذا البيت، لأن، كما ذكرنا سابقاً، أعظم يمين عندهم في بيوت الأكابر. وإذا قَسَمُوا كثر اسم هذا البيت فلا يبقى موقراً وعزيراً، إذ كما هو معلوم كل شيء إذا كثر لا يسمى عزيراً ولا يكون محترماً.

وعندهم أيضاً الطلاق، ولكنهم لا يطلقون نساءهم أبداً، لأن عندهم الطلاق عيب ورذالة كبيرة. ودائماً يُعَيَّرُونَ أهل المدن بمسألة الطلاق، ويقولون أن أصحاب المدن ليس لهم ناموس، فكيف يرضى الإنسان أن حرّمته، التي نامت معه عدداً كبيراً من الأيام تكون الآن ١٢٣/٢ مع غيره ينام معها. وأعجابه كيف لا يخجل الرجل حين يرى زوج امرأته الجديد بالسوق. / وخلال كل إقامتنا عند العرب لم نر أحداً طلق امرأته. ولكننا سمعنا أن واحداً كان طلق امرأته لأجل مادة جسيمة. فمن كثرة ضحك العريان منه واستهزائهم به بقولهم: امرأتك يا فلان يفتعل بها اليوم فلان. فاضطر أن يترك بيته وأهله ورزقه ونزل إلى حماة وخدم عند آغا غريب كيته (٩) ومات في حماة غريباً.

(١٥) الذبيحة لا تقوم مقام الكتاب إلا أنهم يكتفون عندئذ بها.

(١٦) كذا ولا نعلم ما هو المقصود بهذه الكلمة.

(١٧) «ياكلوا».

فالمكروه عند العرب : الطلاق، والضرط، وكلام السفه^(١٨)، والخاين، والذي ليس له قول، والبخيل، والجبان بالحرب. فأصحاب هذه الخصال يكونون سخرية العربان، ويشهرونهم ويجعلونهم مهزاة لهم ولا يسمحون لهم بالعودة في مجالس الكبار. وأما السارق، فمقبول عندهم لأن أكثر معيشتهم من السرقة. لأنهم لا يسمون سرقة الشيء الذي يأخذونه بالقوة ويزعمون أن كل شيء أخذوه بعد قتال لا يسمى سرقة، لأن القافلة أو القرية أو القبيلة المعادية لا تسلم نفسها من غير حرب، وكل شيء يحدث بسببه حرب يسمى كسب قوة لا سرقة. وعندهم هذا شيء حلال، ولم من مرة اعتراضنا عليهم وقتلناهم أن تشليح القوافل والغارات على أرزاق الناس حرام. فكان جوابهم أن مال آيينا آدم لم يقسم بل بقي مشاعاً، ١٢٤/١ ونحن أولاد آدم وحواء./

ليكون معلوماً عندك أيها القارئ، إن الأحوال والأمور التي شاهدناها عند العرب، خلال سبع سنوات من السياحة، لم يرها أحد من السواح غيظنا. فهم جماعة سريعو الغضب وسريعو الرضى، أقل حركة تغضبهم وأقل كلمة ترضيهم. قوم يحبون الفتن والحروب والمعارك والغارات سواء على بعضهم أو على الطوائف الغريبة، أولاً لأجل تمرهم^(١٩) بالحرب، ثانياً لأجل المكسب لأن هذه تسليتهم وأسباب معيشتهم^(٢٠)، ولهم موارد أخرى، فالأمراء والشيوخ الذين عندهم طروش جمال وخيل، يطلع كل سنة أناس ليشتروا منهم الخيل الذكور والجمال، لأنهم لا يبيعون الخيل الإناث ولا النوق بل تبقى عندهم لأجل التولّد^(٢١)، والنوق أيضاً لأجل التولّد أولاً ولأجل حليبها ثانياً، لأن حليب النوق أكبر قوت لهم. وكذلك التمر والثمن^(٢٢) الذي يطلع في بلاد العراق والبصرة وبغداد مثل الأرز. وأما اللحم فإنهم يأكلونه قليلاً. فهم أناس قنوعون بالمأكّل جداً، أقل شيء يشبعهم، ولهم صبر^(٢٣) على الجوع والعطش والحر والبرد والتعب شيء لا يوصف. فبعضهم يستطيع أن يركض مثل الحصان طول النهار بالحر، كذلك يستطيع بعضهم أن يصبر على الجوع والعطش ثلاثة أو أربعة أيام.

(١٨) يريد: الكلام السافل.

(١٩) كذا، فهل يريد تمرهم أو مهارتهم؟

(٢٠) «تسليتهم وسببهم».

(٢١) «الخلفة».

(٢٢) الثمن: الأرز على لغة أهل العراق.

(٢٣) «صبيان».

١٢٤/٢ ولكل واحد زنار من قد^(٢٤) مضاف ربيع ملفوف على بطنه/نحو عشرين دوراً. وحين يجوع يشد هذا الزنار ويشرب قليلاً من الماء ويقول الحمد لله شبعْتُ ، وليس عندهم شراة بالأكل . وكذلك كسوتهم وضية سواء كان واحد منهم أميراً أو صعلوكاً^(٢٥) : قميص من الخام ، وزنار من الجلد ، وعباءة أو فروة من جلد الغنم^(٢٦) ، وفي رأسه كوفية وعقال صوف مجدول تشتغله النساء وتهديه للرجال ، وهم حفاة من غير شيء بأرجلهم كلياً ، إلا الأمراء والمشايخ والأكابر منهم فلهم جزمات يلبسونها حين يركبون أو حين يزورهم أحد من كبار الناس أو حين يذهبون لعمل الزيارات^(٢٧) إلى بعضهم . وأما في باقي الأوقات فهم حفاة . وصدف أن واحداً من العرب نزل لدمشق ليشتري له جزمة ، فدخل إلى أحد الدكاكين وطلب من البائع جزمة تدوم دهر^(٢٨) ولا تتمزق . فأعطاه جزمة وشرط عليه أن لا يلبسها إلا حين يركب ومتى نزل يخلعها ويخبئها ، فحفظ البدوي تلك الوصية ودامت الجزمة عنده نحو عشرين سنة ، وكان يمدح الذي باعها ويدعو له لأنه نصحه وأشار عليه شوراً حسناً . النتيجة مصروفهم قليل جداً إذ ليس هناك سبب للمصروف ، وكما ذكرنا مأكولهم وضيع وملبوسهم وضيع أيضاً ، وغناهم وفقيرهم من بعضهم ، لأن الغارات/مستمرة ، ومهما عملت من صلح بينهم فإن هناك دائماً قبائل تشن غارات على بعضها بسبب كثرتها . وفي اجتماعاتهم مع بعضهم لا يتكلمون إلا عن الحروب ، والمعارك ، وملحمة القبيلة الفلانية ، والكسب الذي حصل اليوم الفلاني ، وعن أمور سياستهم ، وما شابه ذلك ، لأنهم لا يعرفون إلا الأمور التي ذكرناها . وليس عندهم تجارة ولا مهنة^(٢٩) ولا فلاحية ، [ولا يعرفون] غير أمور الحروب ، ومدح^(٣٠) الرجال الشجعان ، وذم الرجال الجبناء ، ومواقعهم مع العثماني ومثل هذه الأمور .

ثم بيعهم وشراهم من بعضهم البعض قليل جداً ، وجميعه بالمقايضة^(٣١) ، دون إعطاء دراهم ، مثلاً يعطي فروة ويأخذ مشلحك ويعطي فرسه ويأخذ فرسك وجملأ ، يعطيك ناقة

(٢٤) جلد .

(٢٥) « أمير ام صغير » .

(٢٦) « غنامية » .

(٢٧) « فيذيتات » .

(٢٨) « ضيان » .

(٢٩) « كارات » .

(٣٠) « الانشاد » .

(٣١) « بالدواكيش » ، أي بالتبادل .

ويأخذ نعجات ، الخلاصة أن الحاجة التي تكون أثنى يأخذ صاحبها من الثاني زيادة ، ليس من الدراهم بل من الأمتعة ، لأن الدراهم قليلة جداً لا تكون إلا عند الكبار ، لأن لهم خوات وعندهم طروش يبيعون منها ، وللبعض صرة معلومة من الحج . أما الرعايا فبوسعي أن يؤكد أن من العرب من لا يعرف حتى شكل الدراهم .

أما بخصوص نسائهم ، فإنهن يتعبن أكثر من الرجال ، لأن كل التعب على الحريم ، مثل جلب الماء والحطب ، والطبخ ، وحلب النوق ، وتحميل البيوت عند الرحيل ، ونصبها وقت النزول . وأما في المسير فإن جميع النساء تركب ، فلا ترى حرمة ماشية ، لأن ذلك عندهم عيب كبير ، ولكن ترى كثيراً من الرجال مشاة إذ بينهم كثير من الفقراء ليس عندهم مركوب . وبالحقيقة إن كل التعب على الحريم إلا أنهم موترات وكلامهن مسموع مثل نساء بلاد الإفريج . وكثير من الأمور ، من كلية وجزئية ، تجد النساء لها حلاً ، لأن الكثير منهن هن قوانين^(٣٢) وعادات^(٣٣) مثل الإفريج ، بضد طرائق الإسلام الحضر . أولاً ليس عندهم خباء ، لا من بعضهم ولا من الغريب . ثانياً أن جميع تدبير البيت بيد الحريم ، ثالثاً لا يبيت أحد بامر إلا بعد أن يستشير حرمة ، فإن استحسن تدبيره عمله وإن لم تستحسنه لا يعمل به ، رابعاً دماؤهم حامية . من أدنى سبب يثورون وتقع الفتن سواء مع بعضهم أو مع الغريب ، كذلك لا يتعشون في القبط الشديد^(٣٤) ، فيتناولون طعام العشاء أحياناً قرب منتصف الليل ، خامساً لا يتزوج أحد بامرأة إلا بعد عشرة معها . سادساً لا يبول أحد وهو قاعد مثل الإسلام بل وهو واقف ، واعترضنا عليهم مراراً بذلك فكان الجواب من الأنسب أن نلوث^(٣٥) أرجلنا من أن نلوث وجوهنا^(٣٦) ، فرأينا ذلك عين الصواب ، سابعاً منذ أن يخلق الولد إلى أن يموت لا يخلق رأسه بل إن شعورهم دائماً مرسله مثل الإفريج^(٣٧) . ثم عندهم ١٢٦/١ أن الذي يموت على فراشه رذيل^(٣٨) ، ويقولون عنه فطس ولا يقولون مات ، وأما الذي يموت بالحرب فإنهم يقولون عنه مات بعزه شهيداً ، ويترحمون عليه ويقومون الصدقات على روحه ،

(٣٢) يهد عادات .

(٣٣) «وذيات» (٩) .

(٣٤) عبارة الصائغ مبهمة جداً فهو يقول : «كذلك لا ينعشوا إلا لقيد كثير» .

(٣٥) «نطرطش» .

(٣٦) لم أر قط بدوياً يبول واقفاً .

(٣٧) البدو يقصون شعورهم ويحلقون رؤوسهم ولكن أقل بكثير من الحضر .

(٣٨) قال خالد بن الوليد عند وفاته : «ها أنا أموت على فراشي مثل التيم» .

لا سيما إذا قتل بمعركة مع الروم (يعني العثماني) ، فذاك مرحوم ومغفورة ذنوبه ، لأن العثماني ، إذا استطاع ، يدخل ويقتل ويسبي الحرير . فلهذا السبب ، مَنْ قُتِلَ في حرب مع العثماني يكون عندهم مقبولاً لأنه حامى عن عرضه وماله ، وقتل بشرفه أمام عياله ، ولا يحزنون عليه . وعندهم البكاء على الميت حرام والحزن حرام . والبكاء على الميت لا يكون قط أمام الرجال ، ولكن إذا كان الميت عزيزاً على أهله فإن النساء يعملن نياحاً عليه وحدهن ، فيخرجن خارج البيوت حتى لا يراهن الرجال ، إلى مكان بعيد عن البيوت ويعملن نياحة ويقلن القصائد ويكبن . وأما الصراخ مثل أهل المدن فغير موجود عندهم . وهذا الشيء يحصل نادراً لبعض الأمراء ومشايخ مناصب فقط .

[نهاية الرحلة]

ثم من الآن وبعده سنتكلم على ختم السيرة لكي يكون مربوطاً بالكراس الرابع عشر، حتى يعلم القارئ كيف كان منتهى سياحتنا.



فمن بعد وصولنا إلى جبال شمرّ والجوف، أصابتنا تلك ريح السموم كما مرّ في الكراس ١٢٦/٢ الرابع عشر، ثم لم نزل نتنقل مع العربان إلى بلاد حوران ونزلنا إلى دمشق. /وسرنا إلى حلب، ومن هناك أردنا الذهاب براً إلى اسلامبول إذ كان بلغنا حضور بونا بارتة بالجيش العظيم إلى بلاد المسكوب^(١). ثم لم نزل نتنقل من بلد إلى بلد وحدنا، من غير مرافقة قفل، إذ لم يتمسر لنا قافلة وقتئذ، فقط الخواجه لاسكاريس وأنا وخادم أرمني، وكان فصل الشتاء، وقد انقطعت الطرق من الثلج والبرد الشديد وأثناء مسيرنا في إحدى القرى ماتت فرسي النجدية العظيمة التي كان أهدانيها الوهاجي، وكنت مزماً على إعطائها إلى اللاجي^(٢) واستنفع

(١) يخط الصائغ بالتاريخ خبط عشواء، لأن نابليون احتل موسكو في ١٥ أيلول سنة ١٨١٢. ومن سياق الحديث يستدل على أن الذهاب إلى اسلامبول كان سنة ١٨١٤ أو شتاء سنة ١٨١٣.

(٢) كذا ولعله يريد الأتجي أي السفير.

بشمئها ، لأنها كانت تساوي مبلغاً وافراً من المال ، فمن جملة النحوس أنها ماتت . فصبرت تارة أمشي وتارة أركب قليلاً مع الخادم إلى أن دخلنا اسلامبول ، وأقمنا بالطريق ثلاثة أشهر ونحن بعذاب شديد . فحين وصولنا بلغتنا الأحوال التي جرت على الجيوش الفرنسية في مدينة موسكو ونواحيها فغمنا ذلك جداً ، وزاد الغم علينا إذ حدث وقتئذ طاعون في اسلامبول ، فاضطر حضرة الجنرال اندريوسي^(٣) ، الذي كان السفير^(٤) يومئذ ، أن يرسلنا إلى محل خارج البلد يقال له كاغة خانة ، فأقمنا هناك ثلاثة أشهر إلى أن انتهى الطاعون . وكانت تواردت الأخبار بانكسار الجيش الفرنسي وتراجعهم وتلك الأحوال/ التي حصلت المعروفة ، فصعب علينا ذلك جداً وأصابنا غم شديد ، وأصبحنا لا نعرف ماذا نفعل ، وكنا مثل الجائنين . وبعد أن أقمنا خمسة أشهر في اسلامبول قال الخواجه لاسكاريس : أنا الرأي عندي أن تنتقل بحراً من جزيرة إلى جزيرة إلى أن نعود إلى بر الشام ، وفي مسيرنا نستتشق أولاً أخبار فرنسا ، ثم أريك جزر ارشيبلاكو^(٥) ونرى كيف الله تعالى يدبرنا . فاعتمدنا على هذا الرأي ، وسافرنا من اسلامبول مع قايق أروام ، ودرنا بعدة جزر ، وكانت الأخبار تأتيها بعكس ماتئمناه .

ثم سافرنا من جزيرة الساموس ، مع مركب آت من اسلامبول يشحن قمحاً إلى جزيرة الساقظ ، فسافرنا معه تلك الليلة ، وبعد منتصف الليل ابتدأت عاصفة عظيمة وإعصار شديد جداً ، فذهب بعدد من البحارة وأخذ بعض الركاب من على ظهر المركب ، فرمينا الحنطة بالبحر ، ولم يبق برميل ولا صار ولا شراع [إلا ذهب به الرياح] ، فدخلنا جزيرة الساقظ ونحن على آخر رمق ، فوجدنا بالجزيرة الطاعون فظللنا شهرين في دار صغيرة في حصار من الطاعون تحت اشراف الخواجه بورفيلو^(٦) الذي كان عندئذ قنصلاً . وخلال هذه المدة توسخت ثيابنا وأصبح من اللازم غسلها غير أننا كنا لا نستطيع أن نعطي حوائجنا خارج البيت خوفاً من الطاعون ، فوجدت من المستحسن أن أقوم أنا بغسلها ، وكنت رأيت/ النساء تغلي الحوائج فتتنظف عاجلاً من غير تعب الأيدي . فأخذت من عند بيت القنصل دستاً كبيراً جداً من النحاس ، وصبرت إلى الليل لكي أضع فيه الحوائج التي علينا وأغسل الجميع غسلة واحدة ، وحين كان وقت النوم وضعت جميع حوائجنا في ذلك الماعون ،

(٣) Andréossy كان سفيراً من ١٨١٢/٥/٢٦ إلى ١٨١٤/٨/١٣ .

(٤) (النجي) .

(٥) Archipelago .

(٦) Bourville .

وأشعلت النار وذهبنا للنوم . فقممت قرب الصباح فوجدت دخاناً ورائحة حريق ، فركضت نحو الدست فإذا بالخواجج مثل الفحم محترقة عديمة النفع لأن الماء قد نشف من طول الليل واحترقت الخواجج ، فصرنا تارة نضحك وتارة نتحسّر ، واضطررنا أن نبقي نحو ثلاثين يوماً بطاق القمصان التي ثمنّا فيها ليلة الغسيل وما كان عندنا غيرها إلى أن انتهى الطاعون فطلعنا واشترينا حوائج وكسينا حالنا ، وهذا من جملة المصائب .

ثم بعد ذلك نوينا على التوجه إلى بر الشام ، وإذ وصل كتاب إلى الخواجه لاسكاريس من قنصل أزمير يطلب منه أن يحضر عنده بشغل ، فاقضى أن يرسلني مع قايق ذاهب إلى اسكندرية ، لكي أتوجه إلى بر الشام وانتظره في حماة ، وأعطاني مكتوب توصيه إلى حبيبه وهمشريّة^(٧) الخواجه دروفيتي^(٨) ، وذهب الخواجه لاسكاريس إلى أزمير . فوصلت أنا إلى ١٢٨/١ اسكندرية فوجدت الطاعون أيضاً/بالاسكندرية ، فواجهت الخواجه دروفيتي من غير ملازمة ، وبعد أربعة أيام سافرت إلى بيروت ومن هناك توجهت إلى حماة أنتظر الخواجه لاسكاريس ، فأقمت أربعة أشهر أنتظره في حماة ، وبعد ذلك حضر عندي وأخبرني أن الذين طلبوه إلى أزمير ، بوساطة القنصل ، هما الجنرالان الشهيران لالمان وسافاري^(٩) . ثم بعد اجتماعه مع الجنرالين المذكورين رأوا أنه من المستحسن ، لأجل عدم كشف المادة ، أن يأخذ حماية الإنكليز ، فاضطر أن يعود إلى اسلامبول ويدخل عند إلجي^(١٠) الإنكليز ويطلب حمايته . فقبل الإلجي طلبه ، وحالاً أخرج له فرماناً سلطانياً فيه توصية مشددة إلى كامل [الأراضي الخاضعة] للحكم العثماني بإعطاء كل حماية وصيانة له ولترجمانه وأتباعه ومن يلوذ به . فأخذ فرمان والبوظاهرة^(١١) وحضر إلى عندي لحماة ، وأخبرني بالذي جرى ، وأعطاني فرمان . فقلت له : يا سيدي قد غلطت ، فهذه الحماية ستضرنا ، ولكن قد تم الأمر وما عاد ينفع الندم .

ثم في أثناء تلك الغضون حضرت والدي من اللاذقية إلى عندي ، لأنها كانت أخذت

(٧) همشري : الرجل الكريم العصامي .

(٨) Drovetti ، وكان قنصل فرنسا في الاسكندرية على عهد نابليون الأولى ، ثم عزل وقت سقوط الامبراطورية وعاد إلى منصبه بعد ذلك .

(٩) Lallemand, Savary ، والواقع أن لاسكاريس قابل هذين الجنرالين في ازمير خلال ربيع سنة ١٨١٦ .

(١٠) سفير .

(١١) جواز السفر .

خبراً بمجبيء إلى حماة . فبعد فراق سبع سنوات من غير خبر ولا مكتوب كانت قطعت أملها
 ١٢٨/٢ مني . فحين رأته طار عقلها من الفرح ، وأخذت تعانقني وتبكي ، /ولا تصدق أنها تراني
 باليقظة بل تقول هذا منام . ثم بعد قليل من الأيام تم الاعتماد على التوجه إلى مصر القاهرة عند
 الخواجه درويشي^(١٢) لأنه يحب كثيراً الخواجه لاسكاريس وهمشري ، وهناك ندبر حالنا ، لأننا
 رأينا أن الرجوع عند العرب أصبح غير ضروري ودون فائدة . فالتزمنا أن نسافر من حماة
 والدتي معنا . فبعد وصولنا إلى طرابلس اتفق أن مركباً كان مقلعاً إلى دمياط فأراد الخواجه
 لاسكاريس أن يسافر به . فترجته والدتي ، لأنها ما كانت امتلأت من رؤيتي ، أن يسمح لي
 بالتوجه معها^(١٣) لللاذقية مدة قليلة ، وبعدها أروح عنده إلى مصر . فبعد رجاء كبير سمح لي
 أن أتوجه معها^(١٤) وأقيم عندها مدة ثلاثة أشهر ، أرى أهلي وأحبائي ، ثم أعود إلى مصر .

(١٢) «درويشي» .

(١٣) «معنا» (٩) .

(١٤)

[وفاة لاسكاريس والحجز على أوراقه]

فودعنا بعضنا وهو ذهب إلى دمياط، ونحن رحنا إلى اللاذقية. وفي اليوم الثاني من وصولنا، أول عمل قمت به أني حلقت لحيتي التي كان عمرها سبع سنوات، ووضعتها بورقة وكنت أهدي منها كل محب أو محبة بعض شعرات، حتى فرقْتُ لحيتي على كل أحبابي، وجلست بكل راحة أتمتع بمشاهدة الإخوان، إلى أن مضت الأشهر الثلاثة الموعودة، ونويت على السفر، وكنت أترقب فرصة الذهاب إلى مصر/وإذ حضر مركب بيليك^(١) فرنساوي من الاسكندرية، وأخبرنا بوفاة المرحوم لاسكاريس في مدينة مصر بمرض الظلظارية^(٢) فحين بلغني هذا الخبر المشؤوم، لا يتصور أحد حالتي مما أصابني من الغم والحزن والكدر، لأنني أولاً كنت أحبه جداً وأصبح عندي مثل والدي، ثانياً تأكدت أن سياحتنا خلال سبع سنوات^(٣) وتعبنا ذهبت سدى من غير ثمرة، ثالثاً تيقنتُ أن أجرتي مدة سبع سنوات، عن كل سنة ألف غرش، بموجبت الشرط الذي بيننا، ماعدت أستفيد منها بمصرية واحد. فجلستُ باللاذقية حزيناً مكسور القلب والخاطر. ثم بعد مدة أرسل الخواجه دروفيتي بمكتوب يطلب حضوري عنده، لندبر مادة المرحوم لاسكاريس. ففرحت نوعاً ما وبالحال،

(١) brick، سفينة.

(٢) كذا ويريد الظنظارية أو الزحار. والواقع أن لاسكاريس توفي سنة ١٨١٧ وقد يكون مات مسموماً.

(٣) مدة الرحلة مبالغ بها لأن ابتداءها كان في ١٨ شباط ١٨١٠ ونهايتها بعد رجوع الصائغ من الدرعية أو بعد سفره مع لاسكاريس إلى استنبول أي شتاء سنة ١٨١٣.

عند أول فرصة، توجهت إلى القاهرة^(٤)، فما وجدته بها، ولكن أخبرني الخواجه دوساب، الطبيب^(٥) الفرنسي، أنه في بلاد الصعيد، ذهب لبحث عن العاديات^(٦)، فاضطررت أن أذهب إلى الصعيد، فوجدته في بلد يقال له أسبوط. وهناك أخبرني أن قنصل الإنكليز، مستر سالط^(٧)، أخذ جميع ما كان مع لاسكاريس وحجز عليه، من آلة هندسة عظيمة، ١٢٩/٢ وكتب، وأوراق، وقطع/عاديات، وكل ما وجد معه، وسبب ذلك لأنه مات تحت حماية الإنكليز. فالآن الرأي عندي، حين تصل إلى مصر، أن تذهب عند قنصل الإنكليز، وتطلب كتب معلمك لاسكاريس وأوراقه وترجاه لكي يعمل لك طريقة لتحصل على نتائج علوفتك^(٨)، وأكثر الأمل أنك تستطيع الحصول على كتاب سيرة سياحتكم، المأخوذ من اليومية بخطه باللغة الفرنسية، فأنا اشتريه منك بالمبلغ الذي تريده. فكن رجلاً شجاعاً ولا تخف.

ثم حين كنا بالقاهرة، ذهبت عند القنصل وطلبت جميع ما ذكرنا. فعبس وجهه وقال: أنا أعرف من علمك وأرسلك عندي تطلب ذلك، فجميع ما تطلبه لا تستفيد منه بشيء، لأن [الرجل] مات تحت حماية إنكلترا، فهو من رعايانا وليس له وارث. فموجب أمر الدولة حجزت على موجوداته، وأرسلت بها إلى لوندرة.

فرجعت وأخبرت الخواجه دروفيتي فقال: كذب، لم يرسل بشيء، وحفظ بالجميع عنده. فعدت ثاني يوم عنده بكل جراءة وطلبت منه جميع حوائج لاسكاريس. فعبس بوجهي واغتاظ جداً وشرّدني من بيته بكل حماقة وأرسل إلى كتبخداي بك محمد علي باشا وترجاه أن ينفييني^(٩) من البلد، ليخلص مني بالكلية. ولولا جاه دروفيتي ومحبتة مع الباشا، ١٢٩/١ لكان حصل لي أذية وكسر خاطر.

ثم بعد ذلك سافر الخواجه دروفيتي، وبقيت أنا بعد ذلك مدة في القاهرة^(١٠)، ثم

(٤) «توجهت لمصر».

(٥) «الحكيم».

(٦) «بحوش انتيكات».

(٧) Salt استلم مهام وظيفته سنة ١٨١٦.

(٨) علوفة، مرتب شهري أو سنوي، والصايغ يريد ما يستحق له من أجرة.

(٩) «يسركلني».

(١٠) «مصر».

توجهت إلى دمياط، ومن هناك رجعت إلى اللاذقية من غير فائدة كلياً، وخسرت جميع مصاريف سفرة مصر من مالي، وراح التعب والشقاء باطلاً، ودخلت اللاذقية وصرت أبحث لي عن عمل أعيش منه.

وهكذا كان منتهى سياحتنا سيئاً جداً: مات المعلم وذهب سدى تعب التلميذ وأجرته، ورجع إلى حضن أمه كما كان خرج من عندها والسلام.

ملحق

رحلة الصايغ إلى الدرعية (مترجمة من الفرنسية) وتعليق الشيخ الحنبلي عليها ، وملاحظاتنا

نقلًا عن مخطوط تحت رقم ٢٢٩٩ ، محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس .

« أقول ، وأنا الفقير إلى الله تعالى ، فلج أنس فرسنل^(١) الفرنسي ، هذه نكتة أخذتها من رحلة مسيو الفونص دلامارتين الشاعر الفرنسي ، وكان أصلها كتاباً عربياً لفتح الله الصائغ الحلبي ، ولم يمكنني تحصيل هذا الأصل ، فرجعتُ القصة من الفرنسية إلى العربية ، لكي أطلع عليها أرباب الخبرة من العرب ، وأعلم من شهادتهم هل صدق فتح الله أم لا ، فالرجو ممن نظر في هذه الترجمة ، وشاهد هذه الحادثة أو وصله علمها أن يخبر بصحته الموافق وكذلك بالخالف . حرر بجدة في شعبان سنة ١٢٥٣^(٢) . »

ولما اطلع عليها العلامة العمدة الشيخ الحنبلي^(٣) ، كتب عليها مانصه :

« نظر فيها الفقير إلى مولاه العلي ، أحمد بن رُشيد الحنبلي ، فوجد صاحبها لم يصدق

(١) Fulgence Fresnel .

(٢) ١٨٣٦ .

(٣) بعد أن استولى إبراهيم باشا على الدرعية سنة ١٢٣٣/١٨١٨ ، ألقى القبض على الشيخ أحمد بن حسن بن رُشيد وأمر بقلع أسنانه . ثم ذهب به إلى القاهرة حيث أحسن والي مصر معاملته وأسند إليه التدريس في القلعة وفي الأزهر إلى وفاته سنة ١٢٥٧/١٨٤١ .

في شيء مما أخبر عنه، لا في وصف سعود ولا كلامه ولا أفعاله، ولا صدق من جهة وصف الدرعية ولا عادات جماعات سعود وعزائهم، ولا أسماء الوزراء، ولا أبو مسلم ولا الحضرموتي ولا هيدل^(٤)، ولا في عدد أقارب سعود^(٥) ولا أولاده، ولا في طعامه ولا في مال الحجرة — أربعين جمل تحمل الجواهر خاصة — ولا في قوله أن أهل المدينة وأهل مكة^(٦) واليمن يأتون إلى الدرعية في كل أربعاء للسوق وخروج النسوة، ولا أرى هذا الرجل إلا كذاب مزور أشير بغيره.

ولنا صاحب من أكبر أهل الدرعية، ابن للشيخ الوهابي، موجود الآن تحت سفيرة أفندينا الخديوي، اسمه إبراهيم ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، من المشايخ الركع العبّاد العلماء، لما عرضت عليه كلام هذا النصراني، رأى مثل ما رأيْتُ، وكذبه مثل ما كذبه، وأخبر أن الدرعي ما قدم الدرعية، لا في أيام سعود، ولا في أيام أبيه عبد العزيز ولا في أيام ابنه، وقد أشرتُ في الكتابة بتكذيبه باختصار، وهذه إشارة بالإجمال، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم. هذا كلامه بحروفه^(٧).

قال الفقير إلى ربه تعالى فتح الله الصايغ النصراني الشامي في كتاب رحلته ما معناه : « ثم وصلنا إلى كرسي مملكة الوهابية، بعد أربعة عشر يوماً من سفرنا من الشام^(٨)، ونحن راكبون على الهجن، فالمسافة كلها قدر أربعين يوماً من سفر القوافل ومشى الجمال، والمسافرون — غير الفقير — أحد عشر وهم: الدرعي بن شعلان، شيخ الرولة، وكان يحكم على القبائل الشمالية والشرقية جميعها من حدود الهند إلى البصرة وحد نجد، ومن العراق والجزيرة والحماة إلى الشامين وحووران والجليل^(٩) ».

(٤) الصايغ يكتب: أبو السلام وعبد الله الهدال.

(٥) وصف الصايغ عبد الله بن سعود، أما الشيخ الحنبلي فيتكلم عن سعود.

(٦) الصايغ تكلم عن أهل غزا.

(٧) من الجدير بالتنبيه إليه أن الشيخ الحنبلي، عندما كتب هذا التعليق، كان عمره زاد على تسعين سنة، وكان مضى على مغادرته الدرعية نحو خمس عشرة سنة.

(٨) كان السفر من الصحراء المعروفة بالحَمَاد، قُرْبَ هيت، على الفرات.

(٩) هذا الوصف لسطوة الدرعي غير موجود في الرحلة.

كتب الشيخ الحنبلي مانصه :

« الدريعي شيخ عرب من عرب الشام ، ولا يحكم على جميع عربان الشام ، كيف يحكم على ما ذكره هذا الكذاب ، وفي قبائل الشمالية والشرقية والشامية نحو من سبعين حاكماً مثل الدريعي » .

وكان قد جرى الحرب بينه وبين ابن سعود الوهابي ، فغلب الدريعي في بعض الوقائع ، ثم دعاه ابن سعود للاصطلاح والمحادثة في شروط الصلح ، فذهب إلى نجد ومعه ابنه سعدون وابن أخيه ، واثنان من رؤساء جنوده وخمسة عبيد من السودان ، وجميعنا راكبون على هجن .

كتب الشيخ الحنبلي :

« لانعرف أن سعود غزا الدريعي فغلبه ، إن كان بعض العرب من أتباع الوهابي غزا على الدريعي فغلبه الدريعي ربما . وأما سعود فغزا ستاً وخمسين غزوة ، صغيرة وكبيرة ، لا يُعرف أنه غلبَ وهُزِمَ في واحدة » .

فوصلنا الدرعية بالسلامة ، وتلك المدينة يحيط بها نخل كثير ، وهي متقاربة ببعض ، لا يكاد يفوت الفرس بين جذوعها ، فتستتر البلدة وراء ذلك السور الأخضر ، وسموه نخل الدرعية . ولما عبرنا النخل المذكور وجدنا تلالاً كأنها سور ثان من نوى التمر ، وهي تشبه سدود حصي ، وراءها سور المدينة الحقيقي ، فسرنا بجانبه حتى وصلنا إلى باب ، ومن ذلك الباب إلى قصر سعود .

كتب الشيخ الحنبلي :

« النخيل لا يحيط بالدرعية ، وهذه صورة الدرعية مع النخيل :

نخيل

نصف الدرعية

نصفها الثاني

نخيل

وبين النخيل واد مفتوح، يُدْخَل منه إلى الدرعية من غير سور ولا أبواب، قدر ربعها، يقال له باب سمحان، ولا يدخل من ذلك أحد من المسافرين^(١٠).

وقصره واسع ذو دورين، وهو مبني من حجر أبيض منحوت جيداً. فلما بلغ ابن سعود خبر وصولنا أمر بإدخالنا إلى محل من محال قصره، منظوم ظريف الأثاث فجلسنا فيه، ثم جيء بطعام وافر فأكلنا، وتفاءلنا بالخير وشكرنا الله تعالى، حيث لم نُطِغْ مَنْ خَوْفنا من السفر. ولما جاء المساء نظمنا ملابسنا وتزيننا ثم حضرنا لمقابلة الملك، فرأينا رجلاً كان عمره خمساً وأربعين سنة، في عينيه عبوس واتساع، وجلده أسمر، ولحيته في غاية السواد، عليه قباء مشدود في وسطه بحزام أبيض، وعلى رأسه عمامة مخططة خطوطاً حمراء وبيضاء، وعلى كتفه اليسرى مشلح أسود، وفي يده اليمنى قضيب ملك، كأنه علامة ملكه^(١١).

كتب الشيخ الحنبلي:

« [لحيته] في غاية البياض^(١٢). [وهم] يلبسون القبا ولا تحزم الأحزام السلاح. [وفي يده] ليس بقضيب بل مشعاب، وليس علامة على الملك، بل ينقله العام والخاص. »

وكان جالساً في صدر قاعة مفروشة بالحصر والبسط الفاخرة، وأكابر مملكته

(١٠) إن عبارة الشيخ الحنبلي من الإبهام بمكان، فكيف يُدْخَل إلى الدرعية من واد مفتوح، وكيف لا يدخل من ذلك أحد من المسافرين؟ ويستنتج من كلامه أن الدرعية ما كان لها سور ولا أبواب، وكرر مرتين قوله: ليس للدرعية باب (انظر ص ٢٩٨ و ٣٠٥)، مما يحملنا على الظن أنها كانت مدينة مفتوحة، مع أنها كانت محاطة بوسائل دفاعية هامة، لأن عاصمة الوهابيين كانت مهددة بالحروب والغزوات. ويعلمنا المؤرخ الفرنسي مانجان أن الدرعية كانت مكونة من خمس بلديات: هي شبه أحياء، وكان لكل واحدة منها سور وأبراج، وهي غصيبة وطرفية وسهل وقسيرين وطريف. وكانت غصيبة وطرفية مبنيتين قرب جبل وكانت تحميها قلعة حصينة (مانجان، تاريخ مصر، ج ٢، ص ١١٨). وعندما هاجم إبراهيم باشا الدرعية، صمدت له القوات الوهابية، وسدّت بعض العناصر (بوابة سمحان في الطرف الشمالي من القلعة حيث تمركز عبد الله نفسه داخل الأسوار. وفي الخامس من تشرين الثاني، شن إبراهيم باشا هجوماً شديداً مركزاً على حصون المدينة من جميع الجهات) (عبد الله فيليب، تاريخ نجد، ص ١٥٣ و ١٥٩).

فمن الواضح الجلي بعد هذه الشواهد أن قول الشيخ الحنبلي أن الدرعية ما كان لها سور ولا أبواب لا معنى له، لأنها كانت مقسمة إلى خمسة أحياء، وكل حي منها كان محاطاً بالأسوار والأبراج ويدخل إليه من باب حصين. ولم يغادر إبراهيم باشا الدرعية إلا بعد أن دمرها ودمر حصونها وأبراجها.

(١١) لم يقل الصائغ أن القضيب علامة ملك ابن سعود.

(١٢) الحنبلي يتكلم عن سعود والصائغ عن ابنه عبد الله.

واقفون^(١٣) بين يديه ، وكان الديوان والمخدات وملابس الرجال جميعها من القطن والصفوف
اليماني ، حيث أن الحرير محرم في بلاد حكمه ، وكذلك جميع الأشياء التي لها رائحة من زهو
الترك وعوائلدهم كانت محرمة عنده وفي مملكته^(١٤) .

كتب الشيخ الحنبلي :

« لا يرون الوقوف بين أيديهم وعلى رؤوسهم ، بل خادموهم وخدمتهم سواء في الجلوس .
وسعود لا يحرم عادة الترك ولا غيرهم ، بل يحرم ما حرمه الله ورسوله ، على قدر معرفته ، وهو
وأهل مملكته يلبسون الكشمير وجيب الجوخ والباج وكثير مما يلبسه الترك » .

ولما سلم الدريعي على ابن سعود ردّ عليه السلام بعبوس وانقباض ، فجلسنا ساكتين
منتظرين كلامه . فبعد نصف ساعة ، لما رأى ابن شعلان غضبه وأنه لم يأمر بتقديم القهوة ،
بدأ بالكلام وقال له : أراك يا ابن سعود لا تقبلنا مع ما نستحقه من الإكرام والفضل ، وكنا
نتوقع منك غير ذلك . فإنك دعوتنا إلى بلادك ومنزلك فجئنا ، فإن نويت على الشر فاظهره
ولا تخفّه .

فقال ابن سعود والشرار متطايير من عينيه : أي والله ، أي والله ، الشر بيننا وبينك ، ولنا
عليك كثير من الجنايات ، وذنوبك أكثر من أن تغفر . فإنك قمت عليّ وخالفني وأبيت
طاعتي ، وأغرّرت عليّ بني صخر بالشام ، وخرّبت بيوتهم مع معرفتك أنهم تحت حمايتي
وحكمي ، وأفسدت عليّ أهل الوهر ورشوتهم على مخالفتي ، وصيرتهم قائمين على حكمي
وكسرت جنودي ونهبت مالها وساعدت أعدائي الزرق ، وهم الترك المشركون الفاسقون
الفاجرون المنجسون .

وبالغ في الغيظ والشتم إلى النهاية ، حتى أمرنا بالذهاب عن حضوره والاستنظار إلى
صفح خطاطره .

(١٣) يقول الصايغ : « فقط العبيد قائمين على أرجلهم » .

(١٤) يقول حافظ وهبه : « وأمر [سعود] ... بترك لبس الحرير والذهب » (الجزيرة العربية في القرن العشرين ،
ص ٢١٦) . ويظهر أن هذا التحريم كان يجرى فقط على الرعية ، إذ قال مؤلف « ملح الشهاب في سيرة
محمد بن عبد الوهاب » : « وكان [سعود] يحمل السيف دائماً ، وسيفه عليه من الفضة والذهب والجواهر ،
مرصع غلافه بها على صفحات الذهب من جانب أعلاه وأسفله ... وأما لباس نسائه ... فغالبه من الحرير
الهندي المصنوع بالذهب ... وقد جملهن من الخلي شيء عظيم من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة »
(ص ١٧٦) .

قال النصراني : وكنت أنظر إلى الدريعي بن شعلان فأرى عينيه تشتعلان ، ومناخيره تنتفخ ، وأخاف كل لحظة من تلك اللحظات المنحوسة أنه لا يستطيع كظم غيظه فيرد كلام الملك بكلام أشد من كلامه فيهيج غضب الملك أكثر ، ولكنه مع اضطراب فؤاده رأى نفسه بلا نصرة ولا حماية من طرف الملك الذي يلومه ، فامتنع من التكلم وكظم غيظه ، ثم قام بغاية الوقار والهيبة وانصرف بالتؤدة ليشاور نفسه في أمره .

وكانت نجد ترتعد من هيجان ابن سعود لا أحد يتجاسر على مخالفة مراده . فجلسنا في محلنا مدة يومين بلياليها مانسمع شيئاً من أخبار الدولة ، إذ لا يرغب أحد في معاشرتنا . والذين كانوا يكرمونا غاية الإكرام عند وصولنا اجتنبونا الآن ، واستهزأوا باعتمادنا على ذمة رجل قد اشتهر بالخيانة وسفك الدماء ، فكنا في كل وقت نترقب مجيء أعوان الظالم لقتلنا ، وننفكر بغير منفعة في كيفية خلاصنا من مخالفه ، ثم في اليوم الثالث قال الدريعي : إن الموت أحسن من التحير والارتياب ، فبعث خلف أحد من وزراء الوهابي كان يسمى أبا السلم^(١٥) فقال له : ابلغ سيدك كلامي هذا : كلما تريد أن تفعله فافعله حالاً ، لا أذمك بل أذم نفسي التي ركنت إليك وصدقتك .

فانصرف أبو السلم ولم يرجع ، وما جاءنا من الملك إلا خمسة وعشرون عبداً أسود ، وقفوا ببابنا ، ففهمنا أننا أسراء لا محالة .

كتب الشيخ الحنبلي :

« لا نعرف أبا السلم ولا سمعنا بوزير له يسمى بهذا الاسم ، فمدة مملكة سعود اثنتا عشرة سنة ، ومملكة عبد الله أربع وكسور ، ومدة مملكة أبيه عبد العزيز أربعون سنة ، ومدة مملكة جده نحو ثلاثين سنة ، وما سمعنا لأحد منهم وزيراً يقال له أبو سلم^(١٥) .

قال النصراني : فعندما شاهدت ذلك صرت ألعن الرغبة المنحوسة التي أوقعني في الخطر ، وهي الرغبة في الإغتراب من خواص النصارى الطبيعية ، وأما الدريعي فلم يكن يخاف من الموت ، ولكنه كان لا يصبر على الحبس والغصب ، وكان يتمشى في سجنه طويلاً وعرضاً ، كما يتمشى الأسد الأسير أمام حدائد قفصه ، ثم قال : والله لقد طالت هذه الحال ،

(١٥) عبارة الصايغ : « أبو السلام ، من أحد مدبري الوهابي » .

أريد أن أخلص ، أريد أن أخاطب ابن سعود وألومه بخيائته وغدره ، فإني أرى الصبر لا منفعة فيه ، وعلى كل حال إن مُتُّ مُتُّ موتَ الشريف الأنيف .

فبعث خلف أبي السلم ولما دخل إليه قال له : ارجع إلى سيدك وقل له : أبي أقسم عليك بذمة العرب أن تسمع كلامي ، ثم بعد ذلك افعل ما شئت .

فأذن له في المقابلة ، فأدخلنا أبو السلم عليه ، فعند ذلك لم يأمرنا بالجلوس ، بل استمررنا على الوقوف^(١٦) . ولما سلم الدرعي عليه لم يرد السلام ، بل قال له بغلظة : ماتبغي ؟

فاستقام الدرعي استقامة الأنيف وقال : جئتكم يا ابن سعود معتمداً على وفاء عهدك وصدق مواعيدك ولم آخذ معي إلا عشرة رجال ، وأنا أحكم على ألوف من الناس . وقد صرت الآن بلا حماية في يديك وأنت داخل مملكته ، فإن شئت سحقته ودققته تحت الرحا ، لكن اعلم أنه ما من لباس كوفية من حدود الهند إلى حدود نجد ، ومن بلاد العجم والبصرة والعراق والجزيرة إلى الحماد والشاميين وحوران والجليل إلا يطلب منك دمي ويأخذ منك ثأري ، وإن كنت ملك العرب كما تدعي ، فكيف هانت نفسك وملت إلى الخيانة والغدر وهما من صفات الترك لا من صفات العرب . فإن القوي الشجاع تكبر نفسه وتستنكف عن الغدر ، وإنما يستعمله الضعيف الجبان ، ثم أنك تفتخر بجنودك وجيوشك وتزعم أن مملكته من عند الله ، فإن كان حسبا تقول . وتحب محافظة مجدك ، فدعني أذهب إلى بلادتي ثم قاتلني ، وإن كان الله مع جيشك فلا بد أن يقهر جيشي ، ولكنك إن غدرت بي فنصيبك العار ، ونتيجة العار استخفاف الناس ونتيجة استخفاف الناس انقراض الملك . هذا ما لزم ذكره لك ، والآن افعل ما شئت ، ثم تندم حيث لا ينفع الندم ، فلست أنا إلا واحداً من ألف ، لا ينقص فقدي قبيلتي ولا يغيب من الدنيا آل شعلان ، فيخلفني ابني سهن^(١٧) ، وهو الذي سيحيي ليأخذ حق دمي ، وحق دمي دم ، فقد اندرتك فافتح عينيك .

وبينا يخاطبه بهذا الكلام كان يكرم لحيته ويهدي غضبه ، ثم قال للدرعي بعد سكون : اذهب بسلام لا يعتريك إلا خير ، فانصرفنا .

(١٦) عبارة الصايغ : « فحضر ثاني أبو السلام وتوجهنا معه جميعاً فدخلنا وسلمنا حسب العوائد وجلسنا بآخر الناس » .

(١٧) الصايغ يكتب « سحن » .

ولم يزل الحراس يحرسوننا . وكان أهل الدولة لما سمعوا كلام الدريعي ورأوا جسارته ، ارتعدوا من خوفهم عليه ، وتعجبوا بعد ذلك من صبر الوهابي وحلمه ، فجعلوا يطلبون معاشرتنا ، ودعانا أبو السلم إلى وليمة بيته .

كتب الشيخ الحنبلي :

« لا يتكلم الدريعي بهذا الكلام لأنه كذب ، ويكذبه كل واحد ، فلو تكلم عند سعود بأنه يطلب دمه من ذكر كذبه ، وإن تكلم ... أكثر ما يحمل عليه أنه حشاش . وهو لا يملك إلا على طائفة من العرب تبلغ خيلهم ثلاثة آلاف خيال ، ورجلهم عشرة آلاف ، نهاية ما بين هجان وقراب وخيال خمسة عشرة ألف ، وعند البصرة طائفة من العرب يقال لهم المنتفق يبلغون ثلاثين ألفاً ، وطائفة يقال لهم الخزاعل يبلغون خمسين ألفاً ، لا هم في ملك سعود حتى يكونوا في ملك الدريعي ، والدريعي من عنزة ، وبقية طوائف عنزة في حكم غير الدريعي ، ولو وقعوا في الدريعي قتلوه أعظم من سعود وهم يزيدون على ستين ألف ، قدر جماعة الدريعي أربع مرات ، فهذا النصراني تكلم بما لا ينقل وبما لا يعقل . ومن عادة الوهابي سعود وابنه عبد الله وأبيه لا يرضون للرعايا بعزائم الدريعي وأمثاله من أكابر العرب^(١٨) ، بل دار الضيافة عنده ولا يعرفها أحد لا أبو السلم ولا حضرموتي ، مع أن المذكورين لا وجود لهم » .

وأما الفقير فما كنت مطمئناً بالكلية من جهة نفسي واعلم أن ابن سعود لا يجسر أن يقتل ابن شعلان أو يحبس ويحمله أسيراً ، ولكنني أخاف أن ينسب إلي ذنب الحروب التي جرت بينهما ، إذ كان الدريعي منذ سنين لا يعمل شيئاً إلا بمشاورتي ومشاورة الشيخ إبراهيم ، وهو مسيو لاسكاريس الإفرنجي . فقلت للدريعي : تسلم أنت لأن الوهابي يخاف من جنودك ، وأما أنا فأقاخص لأجلكم وأكون الذبيحة التي تتصالحون عليها وتحالفون .

فلما سمع الدريعي كلامي حلف لي أنك لا يوصل إليك إلا بالدوس علي ، وأنتك لتكون أول من يخرج من باب الدرعية .

(١٨) جاء في كتاب « لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب » : كان سعود ، في أول حكمه ، يجيب من دعاه إلى غداء ولو كان فقيراً . وكان من عادة الشيخ ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي تولى القضاء بعد موت أبيه أن لا يضيف أحداً قط إلا أهل رأس الخيمة ، فإنهم إذا وفدوا على سعود لم يأكلوا إلا عنده وهو يرضى بهم ويكرمهم . (ص ١٧٦ ، ١٧٧) .

كتب الشيخ الحنبلي :

« ليس للدرعية باب ، كما ذكرنا » .

ثم في اليوم التالي دعانا الوهابي إلى حضوره ، وقبلنا ألطف قبول وأمر بالقهوة ، وبعد مدة قليلة سأل الدريعي عن أتباعه ومن معه ، فقلت في نفسي ها هو جاء دوري أنا ، وخفق قلبي بعض الخفقان ، ولكنني أفقت من ذلك التحير بعد مدة يسيرة ، ولما سماني له ابن شعلان باسمي ، التفت إليّ وقال : هل أنت فتح الله النصراني الشهير ؟

كتب الشيخ الحنبلي :

« مادح نفسه يقريك السلام » .

قلت : نعم .

قال : أرى أفعالك أعظم منك .

فقلت : رصاصة البندقية صغيرة ، وتقتل رجالاً عظاماً .

فتبسم وقال : ما أكاد أصدق الذي اسمعه من أخبارك . فأريد أن ترد على سؤالي جواباً مطلقاً خالصاً : ماهي غاية التحالف بين القبائل الذي أنت ساع به منذ سنين ؟ . فقلت : هي واضحة ، إنا أردنا أن نجتمع عرب الشام تحت حكم الدريعي لكي نمتنع عن الترك ونخالفهم ، فكنا بينك وبين أعدائك حاجزاً لا يوصل منه إليك . فقال الوهابي : فإن كان الأمر كما تقول ، فلماذا قصدتم كسر جيوشي بقرب حماة ؟ .

كتب الشيخ الحنبلي :

« هذا كلام غير معقول ، ما كسرت جيوش الوهابي عند حماة . إن كان العرب بعضها مع بعض ، اللهم : والدريعي من جملة أتباع الوهابي أيام هذه الحكاية . ولكن الرجل لا يدري ما يقول » .

فقلت : لأنك حينئذ كنت مانعاً لأمرنا ، فإننا لم نكن نجتهد في سبيلك ، بل في سبيل الدريعي . فكما أنك تحب أن تجمع العرب تحت طاعتك ، ثم تحارب الترك وتطردهم من بلاد العرب ، كذلك نحن جامعون لهم تحت طاعة الدريعي ، فإذا ثبت حكمه في الشام والجزيرة والعراق وبلاد العجم انقلبنا إليك وعاهدناك ، وكنا منيعين حصينين لا يقدر علينا إلا الله ، وبما

يليق بنا وبك أن نجتهد في سبيل واحد ، ولم نجعلك إلا بنية المعاهدة الوثيقة ، فقابلتنا أولاً بكلام ناقص في عرضنا ، فعاتبك الدريعي بكلام ناقص بعرضك . وأما نيتنا فهي خالصة ، وبما يدل على ذلك أننا جئناك بغير سلاح وسلمنا أنفسنا لذمتك وهمتك .

يقول الحنبلي :

« وإذا جاء أحد عشر رجلاً بسلاح ماذا يصير في الوهابي ؟ » .

فكنت أرى في أثناء مخاطبتي له لإخلال أثر الغم من وجهه شيئاً فشيئاً . فلما انتهى خطابي قال : مليح ، ثم التفت إلى عبيده وأمر بثلاث قهوات . فشكرت الله في قلبي على إلهامه إياي . وما كان باقي جلوسنا عند الملك إلا معروفاً وإكراماً ، فانصرفنا بانشرح وانبساط . ثم في العشاء دعينا إلى وليمة عظيمة عند أحد الوزراء يقال له الحضرموتي^(١٩) . فلما خلونا به حدثنا سرّاً بقساوة مولاه وظلمه العظيم وكراهية جميع الناس له . وذكر أيضاً غناه الوافر ، فإن المال الذي ظفر به عند نهب مكة والمدينة شيء لا يحصى ، لأنه قد كان أمراء المسلمين وملوكهم وخلفائهم وسلاطينهم في أوائل الإسلام إلى أيام الوهابي يهدون في كل سنة إلى بيت الله وحرم الرسول هدايا ثمينة من الجواهر والقناديل التي من ذهب وغير ذلك . وزيادة على ما تهديه العامة من عبيد الله . وكان في المدينة كرسي أهده ملك من ملوك العجم . فهذا الكرسي وحده لا تثنى قيمته ، فإنه كان من ذهب صب ، وفيه لآليء وألماس . وكان كل أمير يرسل تاجاً من ذهب مفضضاً بالجواهر ، يعلق في سقف الحجرة بمقام الرسول . وعندما سلبها الوهابي كان عدد التيجان أكثر من أن يحصى . وكان على قبر النبي جوهرة حمراء لا تعلم قيمتها^(٢٠) . وإذا افتركت فيما حازت الأعصر من المال على هاتين البقعتين لا تتعجب من أن الملك الظالم ساق برجوعه أربعين جمللاً محملة بمجرد الجواهر ، زيادة على خالص النقيدين . وإذا

(١٩) في المخطوطة : « من رجال ديوان الوهابي » .

(٢٠) يعلمنا السائح بوركهارت الذي كان اعتنق الإسلام وزار مكة والمدينة سنة ١٨١٤ أن سعوداً عندما فتح المدينة المنورة نهب مال الحجرة . ومن جملة الجواهر النادرة التي أخذها « نجمة رائعة مرصعة بالماس ، كانت معلقة على قبر النبي ، وكثيراً ما يتحدث العرب عن هذه الجوهرة وهم يسمونها الكوكب الدري » . (رحلة إلى الجزيرة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٢ من الترجمة الفرنسية) . ويذكر مانجان أن عبد الله بن سعود ، عند مقابلته مع محمد علي ، كان يحمل صندوقاً صغيراً من العاج ، فيه ثلاث مخطوطات فاخرة للقرآن الكريم جلدتها مرصع بالياقوت ، وثلاث مئة لؤلؤة كبيرة الحجم وزمردة معلقة بسلسلة من الذهب ، وكل ذلك مما أخذه سعود من الحجرة (مانجان ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

حسبت هذا كله ثم الزكاة التي يأخذها الوهابي من حلفائهم وهي عشرُ أموالهم فلا بد أن تجعله أغنى ملوك الأرض، وخصوصاً إن اعتبرت قلة مصروفه وأنه يحرم الزهو وفخر الملابس وتنعمات الدنيا غاية التحريم، وأنه عند حروبه تتجهز كل قبيلة بمالها، وعليها المصروف والخسارة، ولا تعويض لها.

كتب الشيخ الحنبلي:

«لم ينهب مكة، وأما المدينة فأخذ مال الحجرة اسماً له وحقيقته لغيره. لم يوجد في الحجرة ولا تاج إلا تاج السلطان سليم رحمه الله وحزامه، وبيع الحزام بأربعة آلاف بندي. قبر النبي لم يعلق عليه شيء ولا يتوصل إليه أحد^(٢٠). ما أخذ سعود من الحجرة لم يذهب منه إلى الدرعية إلا بستة سحاحير ما بين مذهب مرصع بجواهر وذهب خالص. وأما جوهر مجرد من الذهب فكيس فيه زمرد أخضر ألف واحدة قدر بيض الحمام، وأربعة آلاف دون ذلك. وأرسل الكيس للشریف غالب وقال له: بعه على خواجهات مكة وجدة وخذ بثمنه رزاً وقمحاً وسمناً لعسكره الذي في المدينة، فأخذ الشریف غالب بثمن بخس وأرسل ببعض الثمن ماذكر للعسكر الذي في المدينة».

ثم أنه في اليوم التالي، حملني السرور الحاصل من إطلاقي على أن ذهبت أنتزعه طول نهاري وأتفرج على كل شيء مما يوجد في الدرعية وصحرائها. وتلك البلدة مبنية بالحجارة البيض^(٢١)، وتحتوي على سبعة آلاف نفس^(٢٢)، وأغلبهم أقارب سعود أو وزراؤه أو رؤساء جنوده. لا صناعية فيهم إلا القندقية والبياطرة وهم قليلون. ولا شيء للبيع حتى مما يؤكل، وكل واحد من سكان البلد يعيش من ملكه كخييط أو روضة تنبت قمحاً وبقلاً وفواكه. وفيها دجاج كثير، ولهم غنم وأبل كثيرة ترعى في الصحراء.

وفي كل يوم أربعاء تجيء أهل مكة^(٢٣) واليمن ويقايضونهم على المتاجر بالهلم وغنمهم وليس لهم متجر سوى هذا السوق.

(٢١) يقول روسو، قنصل فرنسا في بغداد، إن دور درعية كانت مبنية بالحجارة، بينما البيوت في الأحساء وبصورة عامة في جميع بلاد الجزيرة العربية كانت من الطين والقصب (روسو، وصف ولاية بغداد، ص ١٣٥، باريس ١٨٠٨).

(٢٢) يذكر حسين خزعل أن الدرعية كانت تضم قوات عسكرية نحو أربعة آلاف مقاتل (حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٢٤٩، دار الكتب، بيروت، ١٩٦٨).

(٢٣) في المخطوطة: «مكا، كرسي اليمن، المحل الذي تخرج منه كميات القهوة، لا مكة...».

وتخرج النساء في الأزقة بغير براقع، إلا أنهن يغطين رؤوسهن بالمشلح الأسود^(٢٤)، وهذا غير ملبح، وأغلبهن قبيح في غاية السمرة.

وأما البساتين التي هي في واد نَزْر شرح بقرب البلد، تجاه الجانب المقابل لجانب دخولنا^(٢٥)، فهي تنبت الفواكه أحسن من غيرها وذلك بالموز والتارنج والرمان والتين والتفاح والقاوون... وبين الأشجار الشعير والدخن، ويجهدون في سقيها.

ثم في اليوم التالي دعانا الملك إلى حضرته وقابلنا بلطف، ثم سألنا سؤالات كثيرة عن سلاطين الفرنج المتفرقة ولا سيما في شأن نابوليون بنابارته، فكان الوهابي يعظمه جداً وينسب من أخبار فتوحه، وكان من بختي أنني سمعت كثيراً من تلك الأخبار عند محادثتي مسيو لاسكاريس، فيمكنني أن أحكيها على وجهها. وكان ابن سعود كلما سمع حكاية مني في شأن بنابارته قال: إن هذا الرجل بعثه الله، ولا بد أنه ملهم من الله حيث نصره وفضله على غيره من السلاطين.

ثم زاد ابن سعود في الملاطفة وقال: أريد أن تخبرني خبراً صحيحاً في أمر من الأمور، ما هو أساس النصرانية وما هي قاعدتها؟

قال النصراني: فلما سمعت هذه المسألة ارتعدت ارتعاداً شديداً، فإني كنت أعرف غيرة الوهابي في أمور الدين، فطلبت من الله أن يلهمني جواباً موافقاً للحق ولا يغضبه، ثم قلت: إن قاعدة كل دين، يا ابن سعود، الإيمان بالله، فيعتقد النصارى أنه لا إله إلا الله، وأنه يعاقب الظالمين ويعفو عن التائبين ويجزى بالخير الصالحين، وأنه عظيم رحيم قادر على كل شيء، كما أنك تعتقد ذلك. فقال الملك: ملبح، فكيف تصلون؟ فقرأت له الباتر^(٢٦)، فأمر كاتبه بكتابه مني، فلما فرغ من الكتابة قرأه الملك ثم وضعه في جيبه واستمر في سؤالاته فقال: إلى أي ناحية من نواحي السماء تنلفتون إذا صليتم؟ فقلت: إلى أي ناحية كانت، حيث الله في كل مكان. فقال الوهابي: أمدحكم على ذلك. وهل فرض عليكم غير الصلاة؟

(٢٤) في المخطوطة: «يخرجون في الطريق وهم مغطيات بمشاح سود إلى فوق رؤوسهن».

(٢٥) في المخطوطة: «عندهم بساتين خارج البلد في الوادي».

(٢٦) Pater: يا أبانا الذي في السموات...

فقرأتُ له الوصايا العشر التي وصى بها موسى ، فظهر منه أنه كان يعرفها . واستمر في
سؤالاته فقال : وكيف تعتبرون المسيح ، ابن مريم ؟ .

فقلت : هو كلمة الله المتجسدة .

فقال : ولكنه صلب .

قلت : نعم ، وبحيث أنه كلمة لم يمُت ، وبحيث أنه بشر قاسى عذاباً من الظالمين^(٢٧) .
قال : عظيم . وأما الكتاب الذي أُوحى به إليه ، فهل هو معظم عندكم وتعملون به ؟
قلت : منا صلحاء ومنا فاسقون ، فالصلحاء يعظمونه ويعملون به ، والفاسقون

يُخالفون وصاياه .

فقال : جعل الترك نبيهم إلهاً يصلون على مقامه ، لعن الله من يشركه ، فليضرينهم
السيف . ثم بالغ في شتم الترك على عادته ، واستحرم شرب الدخان والنبيد وأكل اللحوم غير
الطاهرة .

وأما أنا فشكرتُ الله حيث خلصني من مسائل صعبة خطيرة في اعتقادي . وفي هذا
الوقت ما كنت أخالف الملك في أمور مثل شرب الدخان ، بل وافقته في الجميع ولُمتُ معه
ذلك الحشيش الملعون على تسميته إِيَّاه . فتبسم الدريعي الذي كان يعلم أنه لا يمكنني
الإمتناع عن شرب الدخان . ولقد كنت كلما أخلو به أخرج عودي العزيز علي من كيسه
فأشرب ، وكانت تشتد بي شهوة الدخان حيث كان الحديث ، وشربنا قهوة ثقيلة ، فتبين أن
الملك انبسط من حديثنا فقال لي : أرى أن الإنسان يتعلم طول عمره ، فأني كنت من قبل
أظن أن النصارى يتوهمون في مسائل الدين أقصى التوهم ، والآن أراهم أقرب إلى الحق من
جنس الترك بكثير .

وبالجملة فيكون ابن سعود عالماً فصيحاً بالنسبة لغيره من العرب ، ولكنه شديد الغيرة
على الدين ، حتى أنه يطلب دم من يخرج من اعتقاده ويخالف إيمانه .

وله زوجة وأمة وابنان متزوجان وابنة لم تبلغ بعد . ولا يأكل إلا ما طبخت له نسوته
خوفاً من السم .

(٢٧) في المخطوطة : « استغفر الله العظيم ولا نكون من الكافرين ، إن روح الله يظلل و[لا] يصلب ، ولكن شبه
به » .

كتب الشيخ الحنبلي :

« الرجل النصراني كذاب ، فلعنة الله على الكاذبين ، سعود^(٢٨) له أكثر من زوجة وأكثر من عشرين أمة ، وله أحد عشر ابناً وثمان بنات ، وثمانية من ابنائه متزوجون ، ولهم أولاد وبنات ، أكثر من خمسين بين ولد و بنت . والطبخ لا يطبخه نسوته بل طبخه وطبخ أهل بيته سواء » .

وحراس قصره ألف عبد أسود ، لهم أسلحة جيدة ، ويقدر الوهابي على أن يجمع في مملكته ألف ألف وخمسمائة رجل يصلحون للحرب^(٢٩) .

كتب الشيخ الحنبلي :

« أكثر ما جمع الوهابي لما غزا الشام سبعين ألف رجل ، وهذا الرجل كذاب في كل هذه الأوراق » .

وإذا أراد أن يولي محافظاً ، أي حاكماً ، في إقليم من الأقاليم يدعو الذي يجب أن يوليه إلى مائدته فيأكل معه ، ثم يتوضآن ويصليان جميعاً ، ثم يقلده السيف ويقول له : وليتك بأمر الله حاكماً على عبيده ، فكن حليماً ، وأجب الزكاة بغاية الضبط ، واضرب عنق الترك والكفار والذين يقولون أن الله له شريك ، ولا تُخلّ أحداً منهم يستوطن بلادك والله ينصر من يوحده .

ثم بعد ذلك الخطاب يعطيه مكتوباً صغيراً يأمر فيه كل رعيته من سكان إيالاته أن يطيعوا الحاكم ولا فيقاصصون قصاصاً شديداً .

هذا ، ثم أنه في اليوم التالي تفرجنا على اصطبل الملك ، ولا أظن أنه يوجد في الدنيا فرجة أغرب منها وأحب إلى مَنْ يعرف الأفراس الأصايل ومزية الخيل الكحائل ، فرأيت ثمانين فرساً أبيض ، على صف واحد ، لا نظير لها في الحسن ، متشابهة حتى لا تُميّز من بعضها ،

(٢٨) الصايغ يتكلم عن عبد الله بن سعود ، وذكر صاحب «لمع الشهاب» أن لعبد الله أربعة نسوة لا غير (ص ١٧٨) .

(٢٩) ما جاء في الترجمة عن عدد المقاتلين الذين تحت حكم الوهابي لا أثر له في مخطوطة الصايغ .

وشعرها لامع كالفضة يخطف البصر، ثم دخلنا في اصطبل آخر فوجدنا فيه مئة وعشرين فرساً جميلة كالأول، إلا أنه مختلفة الألوان، فتعجبت كثيراً من جمالها مع عددها.

ثم في المساء، تعشينا عند رئيس الجنود المسمى هيدل^(٣٠) وكان الدرعي كسر جيشه في بعض المواقع واصطلحنا، وبمن كان يحضر ذلك العشاء أبو نقطة^(٣١) الشهير، فخطب الدرعي خطاب الحب ولم يظهر حقداً من كسر جيشه.

ثم بعد ذلك اجتمعنا مراراً مع الوهابي، نخلو به لتحدث في أمورنا وشروط التحالف بين القبائل جميعها، ويطول تفصيلها، فلنقتصر على أن نقول أن الوهابي والدرعي اتفقا على معاهدة ترضيهما، حتى قال الملك للدرعي: الآن جسمان تحركهما روح واحدة وإرادة واحدة.

ولما اتفقا على كل شيء، دعانا الملك للأكل معه، ولم يكن فعل هذا من قبل. ولما جلسنا للأكل ذاق هو كل واحد من الطعام قبل أن يقدمه إلينا. ثم أنه كأن الوهابي لم يرَ أحداً ينقل الطعام من صحن إلى فمه إلا بأصابه فصنعت لي شوكة ومعلقة من خشب وفرشت منديلي بمنزلة السفرة وجعلت آكل بين يديه على كيفية الفرنج، فشرح هذا خاطره فقال: كل أمة من الأمم، والحمد لله، تحسب عوائدها أحسن من غيرها، فكل يرضى بحاله.

كتب الشيخ الحنبلي:

«ما كان سعود يأكل ألواناً إلا صحيفة فيها الفتة والرز واللحم سواء، أو فاكهة كل فاكهة في إناء»^(٣٢).

ثم أنه قد حان وقت رجوعنا فعزمنا على السفر من الدرعية في اليوم التالي، فبعث إلينا

(٣٠) في المخطوطة: «عبد الله الهدال».

(٣١) قيل أبو نقطة قبل عدة سنوات من الرحلة إلى الدرعية، ومن العجيب أن الشيخ الحنبلي لم يشر إلى هذا الخطأ التاريخي الفادح.

(٣٢) يناقض هذا الكلام ما جاء في «لمع الشهاب»، «وكان سعود يترف في المأكول كما يترف في الملبوس... واتخذ له أناساً من أهل الأحساء أو القطيف يصنعون له الأطعمة الحسنة من اللحوم المقلية والطيور المحشية والحلويات الخبيصة بالسكر والبلوج. هذا في بيته، وأما في المجلس العام... فأكله مع ذلك اللحم والبرد (ص ١٧٦)». وأما عبد الله فمشى على خطوات أبيه في اللبس والأكل: «إلا أنه كان يظهر الأطعمة الفاخرة في مجلسه للخاص والعام». (ص ١٧٨).

الملك بهدية وهي سبع من أفضل أفراسه ، بجانبها سبعة عبيد يركبون الهجن ، ولما اختار كل واحد منا الفرس التي يحبها أعطونا سيوفاً نصلها عزيمة ، غير أن أعمادها لا زينة فيها ، وأمر الملك أيضاً كل واحد من أتباعنا يأخذ سيفاً ، إلا أنه لا تبلغ قيمته قيمة سيوفنا ، وأعطاهم أيضاً مئة ريال ومشالح ، ثم ودعنا على موجب التشريف وشيعنا أرباب الدولة كلهم إلى خارج السور ، فلما وصلنا إلى باب المدينة وقف الدريعي والتفت إلي وقال : تفضل وأخرج أولاً ، فإني واف بعهدي ، وكان يبتسم .

كتب الشيخ الحنبلي :

« ليس للدرعية باب كما ذكرنا » (٣٣) .

واعترف بأنني تجاوزت العتبة بغاية الإنسباط ، بسبب كل المعروف الذي عاملنا به الملك ، ولكن كان الضيق الذي قاسيناه أولاً قد أثر في تأثيراً شديداً نفسيته ، حتى لم يكن خروجه من الدرعية إلا بسرور (٣٤) .

(٣٣) هذا آخر الهوامش المنقولة من نخط العلامة الشيخ الحنبلي ، على يد الفقير محمد عياد الطنطاوي .
(٣٤) كل هذا الحديث عن كيفية مغادرة الوفد لعاصمة الوهابيين ، وخروج الصايغ من الباب قبل الجميع ، لا أثر له في الأصل العربي . ونحن لم نشر هنا إلا إلى أخطاء الترجمة التي بنى عليها الشيخ الحنبلي أحكامه الصارمة . وهناك أخطاء كثيرة غيرها لم نعلق عليها ، إذ يكفي الرجوع إلى النص الأول ليظهر الصحيح من الخطأ .
ويبدو لنا ، بعد هذا العرض وبعد مراجعة المصادر التاريخية أن فتح الله الصايغ ، على الرغم من مبالغاته وأخطائه أحياناً ، كان صادقاً ، وأن الشيخ الحنبلي ، وإن كان على صواب بسبب سوء الترجمة ، فإنه أخطأ بدوره إذ تكلم عن أحوال سعود بينما الصايغ يتحدث عن ابنه عبد الله ، وأخطأ أيضاً في كلامه عن أسوار الدرعية وأبوابها وعن الأموال التي أخذها سعود من الحجرة وعن طعامه .



القافلة وقت الاسراحة: تلالا عن رسم منفوش سنة ١٨٧٧





بازار دمشق، سنة ١٨٨٢



باب خان أسعد باشا في دمشق، سنة ١٨٨٢



مدينة الإسكندرية ١٨٧٢



مودج إحدى الأبراج العربية، من لوحة رسمت سنة ١٨٣٩



الإمام الوهابي عبد الله بن سعود الذي قطع الأتراك رأسه في استنبول سنة ١٨١٩ ، نقلًا عن طبعة حجرية



صمد علي باشا الكبير ، نعلًا من طبخة حجرية سنة ١٨١٨



سيدة سورية في ألبستها التقليدية وفي رجلها الصقبات، سنة ١٨٩٣

۳۱۶

ورقة ١١٠/١

في بلد مودنر قلبه لوفوي لهر استطاع للثقل والنسب بل بجسود
الراحم وقلت حمل بجسود الحيات والحديد الكبير ولو كان من
افان بالحيك بكمو وينقطعوا الزمان ناهر ماهر قوي حسناء
الكد سرقات وافيض كمثل السمع في بلدنا اعندهم بساكن
ما خارج البلد بالوازي بها فواكي من مود ودين ورمان وبن
وليون وبردقان وقصب مصع وبطن اصفر وجور وجور
الطريق يخرجوا للطريق مغطاين بمناجى سودا فوق راسهم
مرتبة في سطح واحد حيانين بلد ديلات في نعت ناع
القول فقط زايدن بالفضا عليهم مله نهر كراوس ناهر
من غير تيفلوا بحر حن ان حرم عندهم بشكوا في عاثيرهم
وه طرف سماء في اكلهم نهر الطير وحلب النين ولم الافان
قليل وندر عا خط سني واكد ما عندهم الدرايفه وند
يستعملوا الخبز والطبخ اربا جاج عندهم كبر اكلهم قليل
باقل شي ينجعوا واما مودنر قوي في حن جهم ندر عا
كبير دراو حنط ولهم موطي وخن بلوسه دني له بخلو
الا دراهم كبر واكلهم دني كركك له تيفضي ابا صارف سكر
وكل شي ببلو في ماو شي للبيح من مله بس وماكل بجوج
صرف مريات فالشي الذي ينعصر من جميع ما يكون بجله
لهر اها في البيح بجا ابا كالاو ملك الذي بها خير محمد بل الي
مكا بلد عظم من خم صفر الفين بالقرب الايدن الجوف الذي
وبن باب المندب سنة ايا له في بيع الين وكده مالاها الو

318

خرج من النبع بكل نظام وقوه متوجه
 المدينة لومئذ كلها ففتح وقام ان
 يصير فيها اكراماً حاراً سابقاً جعلهم
 غنمة الموحدية هو لادي الكفار قوم الملو
 كوا ورا حسب لهم حاب بمون الله وح
 ثل جنة خردن فدعينا له بالنهر والظا
 عليه اعدايد وخرجاناً عنده فقلت للدر
 الله يسترا بن سمور ما اظن انه يبطل
 راسي في حشنة تحرقه قار كيف دا
 علي ما شاهدنا ان غنمة كبر وجيشه
 كبر من يقدر عليه قلت صحيح ولكن ال
 له ما هو موجود عنده وهي حجة الرعا
 له جبراً اكراماً شبيهه في راضي مظل
 بعد ومن المعلوم ان المظالم ينشع
 خلوص وخراب ظالم وقوي قريباً ان اك
 شعب يخون لربما عليه لوسماً العفاني بحراً

[illegible]

ورقة ١١٦/١

من البلد ومعنا كعبيد كل واحد راكب على هجينة وقايد فرس معلوم
وكذلك كخطا طلع منا جماعة اناس من الدكاية وذوي المناصب
مخو من زمان واوردونا ثم رجعوا ونحن سكتا طريق الجهادي فوجد
التعب بالمدى الى بلد حوران حسب الوعد مع عربنا فجد بنا بالبلد
وكل يوم نبات عند غرب لون كمران تلك الخلود معصون كيرج
بالقرب للفرجة ثم خامس يوم من سفرنا اذ كنا نأبد عند فدية
يقام لها الجهادي فقمنا فاذ يوم حتى سافر وجدنا جحش الجهادي
رأسه بالمدى فمرقنا ان جابه ربح السموم الذي يسوء ارض البلد
في الرشح جحش بالجلول المشوب جدا وفعل ان احد يعرف نفسه
بجسد اكره اللان واي اهل حكمتها كحي لا تنفر من الموت نظير رؤس
بالمدى لا يدخل هذا الهوا الذي للجنان في مناخيرهم فاذا اقتد
البلد وقرية كحي له يمكن برفع راسه الوجه تجاوزه الهوا ولو اسند
يحيى في حاله وبروا كمران موافق الذي يقدموا بجنون ذلك
الهوا وحاله سكر وبيع من الدرب من اطراف وادخلوا الماء
الداخل كبت وسدوا ندين الخيل جميعهم لان خيل تنفر من هذا
من دابنها وحالة كل من غطا راسه في سلكه وقعد في جنب فخرج
الهوا المسمم النازي فكان باب جهنم قد فتح ناز لو تنوم
نار البراري تلهب من النار وغدايات الحر والذوابع منهم وارب
العاضه في منصفه ونسج هدبر الجماد ومحين الخيل وموحد الكوا
شي يغذم الرسد والذي بدء بررب بمشي عليه اباديه ورجله
ويروح بررب من قرية الماء الذي هي حابرا باحقيقه استحي
من ماء الحمام الغاليه النيج دنيه وسافه بنار فاستقام ذلك
في محار عرق ساعات متوايات حتى كاد يخرج ارواحنا منا

ورقة ١١٦/٢

بعد ذلك ابتدا بنحو رويدا رويدا بان خلصه كلياً فالجهد انتقام
 من عور عمار فخرجنا من كيتوت وخرجنا الناس كافتهم ولكن تسوق^{١١٦}
 هو كعربان سود كانه طاكعين من حريق ومن ذلك الهوا قد
 ات في نذلنا ثمانية انفار منهم خمسة اولود وثنيته نعان ورجل
 واحد واما مونت هذا الهوا لريو جدا كمثل قويسه الرصاص
 بن حين الانسان يشتم هذا الهوا المس بيدي حالة يخرج الدم
 منا خيره وخرم بكثرا وفي مدة عشار مان يصير لحد نذل الفم
 يسكن ونحوت مود رويدا انجس من الرطاهون فكربنا الله الذي
 ايماننا هذه القطوع العظيم ونان يوم سافرنا وكنت دايما في فلك
 خوف عظيم من هذا الهوا قيلو يحصل نايه مرأ ونكون سارين باطريق
 عدنانه في حبس يسموت عرب يتاوي عندهم نخلت بله شك

ورقة ١٣٠/١

ثم بعد ذلك سافر نحو بلاد الروماني وانا بنيت معه بعد
في مصر وبعد ذلك توجهت الى ديار مصر ومن هناك
رجعت الى اللدوق من غير افاده كليا وخسرة جميع
مصارف سنة من غير كسبي وراح النوب وكثفا
باطلا ودخلة لللدوق افقتني في عيه بغير حجة
اميت منها حسنا وهكذا كان منها بيا حسنا
بها قدر بيا في ربه الدائمات والتليد راح
بقية وابرته ورجع الى حوضه انه كذا في حوضه
من عندها ومثل



Manuscrit arabe du Voyage de
Sayyid. Progen de
M. Lascaris.

1839.

a Mr. Lascaris

R. B. 2 1637.
n° 2119.

قائمة بالقبائل التي وقَّعت على الرباط

Choms Des Tribus	Choms Des Tribus	Nombre des Contes Composés chaque Tribu.	Nombre approuvés des Contes chaque Tribu.
El Ammorar	Soultan El Brak . . .	500.	5000
El Hafenne	Mohammed El Boudiaf	1500	15000
Woull Ali	Daoud El Ben Hammur	5000	50000
El Acharen	Adghum El Ben Ali	1200	12000
El Sam Elie	Belghem El Ben Sarraj	1800	18000
Beni Sakhar	El Lame El Ben Sakhar	2700	27000
El Bouadla	Drachy El Ben Chaklan	5000	50000
El Kharba	El Ben Kharba	4000	40000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1500	15000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1400	14000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1200	12000
El Bouadla	El Ben Bouadla	800	8000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1600	16000
El Bouadla	El Ben Bouadla	5000	50000
El Bouadla	El Ben Bouadla	2300	23000
El Bouadla	El Ben Bouadla	2000	20000
El Bouadla	El Ben Bouadla	3000	30000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1200	12000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1500	15000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1400	14000
El Bouadla	El Ben Bouadla	2000	20000
El Bouadla	El Ben Bouadla	2000	20000
El Bouadla	El Ben Bouadla	3000	30000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1500	15000
El Bouadla	El Ben Bouadla	800	8000
El Bouadla	El Ben Bouadla	500	5000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1000	10000
El Bouadla	El Ben Bouadla	600	6000
El Bouadla	El Ben Bouadla	800	8000
El Bouadla	El Ben Bouadla	5000	50000
El Bouadla	El Ben Bouadla	3000	30000
El Bouadla	El Ben Bouadla	3500	35000
El Bouadla	El Ben Bouadla	4000	40000
El Bouadla	El Ben Bouadla	5000	50000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1500	15000
El Bouadla	El Ben Bouadla	2500	25000
El Bouadla	El Ben Bouadla	2300	23000
El Bouadla	El Ben Bouadla	800	8000
El Bouadla	El Ben Bouadla	3000	30000
El Bouadla	El Ben Bouadla	4000	40000
El Bouadla	El Ben Bouadla	3500	35000
El Bouadla	El Ben Bouadla	6000	60000
El Bouadla	El Ben Bouadla	1300	13000
El Bouadla	El Ben Bouadla	300	3000
El Bouadla	El Ben Bouadla	500	5000
El Bouadla	El Ben Bouadla	102000	1020000

الفهارس^(١)

صفحة	فهرس الصور
٣٠٧.....	١ — القافلة وقت الاستراحة
٣٠٨.....	٢ — منظر داخلي لإحدى دور حماة سنة ١٨٦٣
٣٠٩.....	٣ — بازار دمشق سنة ١٨٨٢
٣١٠.....	٤ — باب خان اسعد باشا في دمشق
٣١١.....	٥ — مدينة الحلة سنة ١٨٧٢
٣١٢.....	٦ — هودج إحدى الأميرات العربية
٣١٣.....	٧ — الإمام الوهابي عبد الله بن سعود
٣١٤.....	٨ — محمد علي باشا الكبير
٣١٥.....	٩ — سيدة سورية في البستها التقليدية سنة ١٨٦٣
٣١٦.....	١٠ — الصفحة الأولى من المخطوطة
٣١٧.....	١١ — ورقة ١٠٠/١
٣١٨.....	١٢ — ورقة ١١٠/٢
٣١٩.....	١٣ — ورقة ١١٥/١

(١) ذكرنا فقط أهم المقاطع التي وردت فيها الكلمات المُفهرسة.

- ١٤ — ورقة ١١٥/٢ ٣٢٠
- ١٥ — ورقة ١١٦/١ ٣٢١
- ١٦ — ورقة ١١٦/٢ ٣٢٢
- ١٧ — ورقة ١٣٠/١ آخر صفحة من المخطوطة وقد جاء فيها اسم الشاعر
لامرتين وتاريخ حصوله على مذكرات الصايغ ٣٢٣
- ١٨ — قائمة بالقبائل والمشايخ الذين وقّعوا على الرباط ولعلها بخط المترجم
الذي كان يرافق لامرتين خلال رحلته إلى الشرق ٣٢٤

فهرس الأعلام

ب	آ
باني بن إلهيب ١٠٧ .	ابن بشر ١٩ .
برجس بن أهديب ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،	ابن بطوطة ٢٥ .
١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩١ .	ابن جزي ٢٥ .
بنت هدا ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ .	ابن سعود (انظر أيضاً الوهابي) ١١ ، ٢١ ، ٧٥ ،
بوتان ١٦ .	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٦٥ ، ٢٤٤ ،
بوركهارت ٧ ، ١٠ ، ١٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٩٩ .	٢٥٢ ، ٢٥٣ وما بعدها ، ٢٩٣ .
بونابارت ١٤ ، ١٦ ، ٢٦١ ، ٣٠٠ (انظر	ابن معن ٦٠ .
أيضاً: نابوليون) .	ابن ناظر الجيش ٢٣ .
	أبو السلام ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
	أبو نقطة ١٠ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ١٢٣ ، ٢١٦ ،
	٢٢١ ، ٢٧٠ ، ٣٠٤ .
	أدغيم بن علي ٩٠ ، ١٠٧ .
	أسعد أغا بن مسقل ٤٦ .
	أسعد باشا ٨٧ .
	أشتيوي بن طيار ٢٢٩ .
	اطعيسان بن سراج ١٣٢ .
	إكليل الأناسي ٢٧ .
	امعضي بن عيده ٢٢٩ .
	اندريوسي (السفير) ٢٨٤ .
	أورليانوس ٤٠ ، ٦٢ .
	أوغست دي نرسيا ٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ .
ج	
جاسم بن حركيس ١٧٢ ، ١٧٣ .	
جراح بن معجل ١٩٠ .	
جندل المهيدي ١٣٤ .	
جوسان ٧ .	
ح	
حافظ وهبة ٢٦٦ .	
حاييم اليهودي ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،	
١٨٢ ، ١٨٤ .	

زكريا (أحمد وصفي) ٢٦، ٧.
زنوبيا ٦٢.

س

سَالَطُ (السفير) ١٢، ٢٨٨.
ساف (الكولونيل) ١٧.
سافاري (الجنرال) ١٢، ١٦، ٢٨٥.
سبستياي ١٦.
سحن بن الدبري ٩٣، ١٠٣، ١٨٦، ١٩٠.
سطام بن معجل ١٣٣.
سطام الدغمي ٧٩.
سعد البخاري ٧، ١١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٢.
سعدون بن ولي ١٠٧، ٢٤٥.
سعود (الإمام) ١٩، ٢٩٢.
سلامة بن براق ١٠٧.
سلامة بن نجر ٩١، ١٠٧.
سلامة النعسان ١٠٧.
سلطان البراق ١٠٧.
سلطان سليم ٣٠٠.
سليمان باشا سلحدار ٢٠٦.
سليمان باشا العكاوي ٧١، ١١٧، ١١٩، ١٢٣، ١٨٢، ٢٠٦.
سليم الدعاس ٥٢، ٥٩.
سليم العظيم ٨، ٣٨، ١٢٥.

ش

شاهاصون (الطبيب) ٨٤، ١٨٥.
الشريف علي حمود ١٧.
شطبي بن عرب ٢٢٩.
شطبي بن فارس ٢٣٢.
الشيخ إبراهيم ٩، ١٠٧، ١٣١ (انظر أيضاً لاسكارس).

خَدَّ الجاسر ٧، ٢٧، ٢٦٦.
حمود آل إبراهيم ٢١٥.
حمود التامر ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.
الحميدي بن تامر ٢٣٢.

خ

خالد بن الوليد ٤٠.
خنكار العليمي ٢٣٢.

د

دروفتي ١٢، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨.
الدبري بن شعلان ٨، ٩، ١١، ٧٤، ٧٥-٧٧، ٨٥، ٩٣، ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١١٤، ١١٨، ١٢٨، ١٥٩، ١٧١، ١٨٠، ١٨٥، ١٩٧، ٢٣٢.
دعاس بن علي ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩.
دوشي بن آسمير ٧٩، ٨٥، ٨٧، ١٠٧، ١٠٨، ١٢٣، ١٨٥.

ذ

ذراك بن فخر ١٩٠.
ذراك بن معجل ٧٣، ١٠٧.

ر

رجب المروق ٦١، ٦٣، ٦٨.
الرديني بن خنكار ١١، ١٨، ٢٤٠-٢٤٣.
روضان بن سلطان ٢١٠.
روكس العزيزي ٧، ٢٧، ٤٦.

ز

الزركلي ١٣.

علي بن نجد ١٠٧ .	الشيخ حسن ٢٠٦ .
عليان بن نجد ٢٤٥ .	الشيخ الحنبلي ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩٠ وما بعدها .
عمران بن نجرس ١٥٨ ، ١٥٩ .	الشيخ خليل ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
العصري ١٥ ، ٢٣ .	
عوض بن جندل ١٣٢ .	ص
غ	صقر بن حامد ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ .
غالب بن رمضون ١٩٠ .	ض
ف	ضويحي بن آقتهن ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ .
فارس بن نجد ١٩٠ .	ظ
فارس الجربا ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٩١ ، ٢٢٥ .	ظهران بن عواد ٢١٠ .
فدحم بن سراج ٩٠ .	ع
فحل الحليل ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٢٤ .	عابد بن أصبّيح ١٤٤ .
فرنل (المستشرق) ١٢ ، ١٤ ، ٢٩٠ وما بعدها .	عبد الله بن سعود (انظر ابن سعود) .
فولته ١٥ .	عبد الله الخطيب ٩ ، ٥١ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٦٠ .
ق	عبد الله الحكّال ١١٦ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٧٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٤ .
قاسم الوكبان ١٠٧ .	عيسى القبيسي ١١٦ ، ١١٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ .
القلقشندي ٢٣ .	المجلالي منير ١٩ .
ك	المزاوي ٧ .
كحّالة عمر ٧ ، ١٣ ، ٢٦ .	المزني روكس ٢٧ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ٢١٤ .
ل	عساف (الشيخ) ٤٦ ، ١٨٢ ، ١٨٨ .
لاسكاريس ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٨٦ ، ٢٤٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ .	المظم (بيت) ٣٨ ، ٨٧ .
لائان (الجنرال) ١٢ ، ١٦ ، ٢٨٥ .	علي بن أبي طالب ١٨٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٧٤ .
لامرين ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٩٠ .	علي بن أعواد ١٤٢ .
	علي بن حرميس ٢٢٨ .

ناصر بن مهنا ٩، ٦٤، ٦٧، ١٠٦.
 ناقوز الياس (الأب) ٢٧.
 نايف بن عابد ٢١٠.
 نجم الضرعام ٢٤٩، ٢٥٠.
 نعيم بن فهد ٢٢٩.
 نوفل السنكري ٤١، ٤٢.

هـ

هَبَش بن معدن ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩.

و

الوَهَّاني ٧٥، ٩١، ٩٢، ٩٩، ١٢٥، ١٢٨،
 ١٢٩، ١٣٠، ١٤٩، ١٦٧، ١٨٥، ١٩٤،
 ٢١٢—٢٢٣، ٢٣٢، ٢٤٤ وما بعدها.

ي

اليازجي (سليم) ٣٩

م

ماركو بولو ٢٥.
 مانحان ٢٩٣.
 محمد علي باشا ١٢، ١٧، ٢٤٥، ٢٦٩، ٢٧٠،
 ٢٨٨، ٢٧١.
 مراد بك ١١٩.
 المسيح ٢٦٢، ٣٠٢.
 مطلق بن فيحان ٢١٠.
 الملا اسماعيل ٨٠.
 المُلْجِم (انظر أيضاً مهنا الفاضل) ٩، ٦٨، ٧٨،
 ٨٠، ٨١، ١٧٠، ١٧١.
 مهنا الفاضل ٩، ٥٩، ٦٤، ٦٨، ٦٩، ١٠٥،
 ١٦٢، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٠.
 موسىل ٧.
 ميلادي استانوب ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.

ن

نابوليون ٩، ١٢، ١٦، ٢٠، ٢٣٦، ٢٤٤.

فهرس القبائل والأمم

بني سعيد ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١٣٨، ٢٢٤.	آ
ج	الأثراك ٧١ (انظر أيضاً: الروم، العثمانيون). الاحسنة ٦٦، ١٠٥، ١٢٢ (انظر أيضاً احسنة). الأروام: انظر الروم. الأسبعة ١٥٦، ١٥٨ (انظر أيضاً السبعة). الأشاجعة ١٥٦، ١٥٩. الإفرنج ٣٢، ٩١، ١١٩، ٢٣٢، ٢٦٩، ٢٨١. الإنكليز: انظر إنكلترا. إنكلترا ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٤، ١٨٥.
ح	ب
الحديدية ٢١٥. الحسنة ٩، ٥٩. الحمايدة ٢٣١، ٢٣٢.	البقارة ٢٤٥. البلاعيس ١٩٠. بنو صخر ٨٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٢٢، ١٢٥، ٢٥٢. بنو صلوب: انظر الصلبة. بنو طي ٢٣١، ٢٣٢. بنو فزارة ٩٠. بنو وهب ٢٢٥، ٢٢٩. بو حريا ٢٤٥. بني خالده ١٠٧، ١١١.
خ	
الخُرصة ١٤٢، ٢١٠. الخزاعل ٢٣١، ٢٣٢، ٢٩٧.	
ز	
الرفاشة ٧٣، ١٠٧، ١٣٤. الرولة ٨، ٩، ٩٣، ١٠٣. الروم ١٠، ١٠٦، ١٠٩، ١٨٦، ٢٨١.	

ف

القدعان ٢٠، ١٥٦، ١٥٨، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٠.

فرنسا، الفرنسيون ١٥، ١٦، ٨٠.

الفواعر ١٠٧.

م

المُخلَق ٢١٠.

المَرِيحَات ٢١٠.

المساعد ٢٢٥، ٢٢٩.

المصاليخ ١٩٠.

المُعْصِيَان ن ١٥٦، ١٥٨، ٢٣٦.

المعايدة ١٥٦، ١٥٨.

المفنفج ١٣٨.

الموايجه ١٥٥، ١٥٨، ١٧٨.

ن

النصارى ١٢٤، ١٦٧، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٦١-٢٦٣، ٢٩٥.

النصرانية ٣٠٠، ٣٠١.

هـ

الحوارج ٢٣٩.

الهنادي ٢٧٢.

و

الوَلْدَة ١٣٤.

وَلِد علي ٧٩، ٨٥، ١٠٧، ١٢٣.

الوَقَائِيُون ٧، ٨، ١٢١-١٢٣، ١٨١، ١٨٦، ٢٤٩.

ز

الزُكُود ٢١٠.

س

السبعة (انظر الاسبعة).

السرطان ٨٥، ٩٠، ١٠٧.

السردية ٨٥، ٩٠.

السُرِيَان ٩، ٤٦، ٤٩، ٥٢.

السلقا ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ٢٢٥، ٢٢٨.

السوالة ١٣٢، ١٥٨.

ش

الشرارات ١٤٤، ١٤٥.

شَمَر ١١٢، ١٨٢، ٢٤٩.

الشمسي ١٠٧، ١٠٨.

ص

الصَلْبَة ٢٢٤، ٢٤٨.

ض

الضُمير ٦٧، ٧٠، ٢٣١، ٢٣٢.

ع

العبد الله ٧٨، ١٣٣، ١٥٨.

العثانيون ١٠٦، ١٣٠، ١٣٦، ١٤٣، ١٦٦، ٢١٥، ٢٥٢، ٢٥٤ (انظر أيضاً الأتراك والروم).

العجاجة ٢٣١، ٢٣٢.

العلماء ١٣٢.

العمور ٥٧، ١٠٧، ٢٠٩.

عنزة ٢٠، ٧٤، ٩٧.

فهرس البلدان والمنازل والمياه

تفليس ٣٣.
تل السلطان ١٩١.

ج

جبال شمّر ٢٢٦.
جب الغنم ١٧٢.
الجبول ١٢٥.
جبل سنجار ١٠، ١٣٨.
الجديدة ٧٨.
الجزيرة ٧٤، ٢٤٤.
الجليل ٨٩.
جيستان ٢٣٧.

ح

حذلمما ١٢٣.
حسا (قلعة) ٤٦.
الحضرموت ٢٦٠.
الحلاجة ١٠٤.
حلب ٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٠، ٤٣، ٨٢،
٨٧، ٩٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٧٧، ٢٣٢.
الحلة ٢٢٨، ٢٢٩.
حماة ٨، ١٩، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٩،

آ

أدلب ١٢٦.
أرك ٦٨، ١٨١.
أزمير ١٢، ٢٨٥.
اسدين ٧٩.
الاسكندرية ١٦، ٢٨٥.
اسلامبول (استنبول) ١٢، ٧٣، ٢٦٩، ٢٨٤.
الأمونية ٨٥.

ب

باب المندب ١٨٥، ٢٥٩.
باريس ١٨، ٩٥، ٩٨، ١٤٦.
البصرة ١٠، ٤٣، ١٢٨، ١٥٥، ١٧٠.
بغداد ٤٣، ٤٤، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ١٢٨، ١٥٥،
٢٣٢، ٢٤٤.

ت

تدمر ٨، ٩، ١٧، ٢٢، ٥٢، ٥٦، ٦٠، ٦١.
٦٣، ١٧٦، ١٨١، ٢١٢.
تريسنه ٣١.

الرها ١٤١.	٤٠، ٤٣، ٤٤، ١٢٦، ١٧٧، ١٨٦، ١٩٩.
ريخ ٢٣٤.	٢١١—٢٢٣.
ز	الحَمَاد ٧، ٢٢٥، ٢٤٦.
الزرقا ١٨٢.	حصص ٨، ٣٢، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٧٨، ٩٤، ١٢٦، ١٨٦.
الزور: انظر دير الزور.	حوالين ٥١، ١١١.
زين العابدين ١١١، ٢٠٤.	حوران ٧٩، ٨٥، ٨٩، ١٢٣، ١٨٥، ١٨٦.
زيتا ٩٣، ٩٦، ١٠٠.	٢٧٢.
س	خ
السُّخنة ٨٢.	خان شيخون ٨، ٣٧.
سُرمين ٨، ٣٦، ١٢٦.	الخُرنة ٢٣٤.
ش	خشيم الحواره ١٣٨.
شط العرب ٤٣.	د
شعب اللوز ١١٤.	الدجلة ٤٣، ١٤٤، ١٥٦، ٢٤٤.
الشومرية ١٠٧.	الدرعية ٧، ٨، ١١، ١٢، ١٨، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٨، ٢٦٧، ٢٩٠، ٢٩٨.
ص	الدرغوان ١٥٦.
الصارعة ١٧١.	دمشق ١٧، ٤٣، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٧.
الصالحه ٩٠.	الدوة ٥٨.
صَكْد ٨، ٩، ٢٢، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥١، ٧٧، ٩٤، ١٨٢.	ديار بكر ١٤١.
ض	دير الزور ٩، ٩٤، ١٠٠، ١٠٤، ١٢٦، ٢٢١.
ضبع ٦٨.	دير الشَّعَار ٧٥.
ط	دير عطية ٨٢، ٨٣، ٢٠٥.
الطافح ١٠٥.	ر
الطامة ١٠٨.	الرامة ١٣٢.
	رام بني هلال ٢٤٩.
	رام صالح ٢٣٤.
	الرَّيَّابية ٩١.
	الرَّسْتَن ٨، ٤٠.

ع	ك
العاصي (نهر) ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٧٨.	الكافرية ١٤٦.
العاطرية ١٥١.	الكرج ٣٣.
العباسية ٢٢٥.	كريمان ١٠، ٢٣٥، ٢٤٠.
العجم ٢٣٣.	كلز ١٢٦.
عريستان ٧٩، ٩٢، ١٨٦.	
عكاً ١١٩، ١٨٦.	
عنتاب ١٢٦.	
عين أوزيس ٦٢.	
عين الوساد ١٣٤.	
غ	ل
غيبب الدر ١٧٠.	اللاذقية ٢٨٥، ٢٨٩.
ف	م
الفرات ١٠، ٤٣، ١٠٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٤، ٢٣٥، ٢٤٦.	ماء أبو الفوارس ٦٠، ١٧٦.
	ماردين ٤٣.
	مالطة ١٤، ٣١، ٣٢.
	المنتج ١٩١.
	المحولة ١٠٠.
	مخا ٢١، ٢٥٩، ٢٦٥.
	المخاضة ٩٩.
	المُحَرَّم ٧٢.
	المدينة ١٨، ٢١، ١٤٣، ٢٤٥، ٢٥٦، ٢٧١.
	المرجحات ٩٠.
	المزوان ١٥٥.
	المزيريب ٨٧.
	المشهد ١٥٦.
	المعدنية ٢٣٤.
	معرة النعمان ٨، ٣٦، ٣٧.
	المعضمية ١١٧.
	مفارقة (قرب تدمر) ٦٣.
	مقتل العبد ١٦٩، ٢٤٥.
	مكا: انظر مخا.
	مكة ٢١، ١٤٣، ٢٥٦.
	ملطية ١٤١.
	مهن ٥١، ١١١.
ق	
قبرص ٨، ٣١، ٣٢.	
القَيْسَة ١١٦، ١٧٦، ٢٢٥، ٢٣٠.	
القبصة ١١٦.	
القرنا ١٥٨.	
قصر ابن وردان ٥٨.	
قصر الخير الغربي ٨، ٥٨.	
القمقوم ١١٠، ١٧٨.	
القرنين ٨، ٩، ٢٢، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٧٧.	
٩٤، ١٨١، ٢١٢.	

الهندوان ١١ ، ٢٣٦ .
الموطا ١٥٨ .
هيت ٢٤٦ .

منزلة صالح ٢٣٤ .
الموصل ٤٣ ، ٢٣٠ .
الموتنا ٢٣٧ .

و
وادي النهر ٥٩ . وادي الهيل ٢٠٢ .
ي
الين ٢٥٩ . ينبع ٢٧٠ .

ن
النك ١١١ ، ٢٠٦ . نجد ١١٢ ، ١٤٢ ، ٢٥٠ . نهر الخابور ١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ . نهر عرسان ٢٣٥ . نهر الرحية ٩٩ . نهر الساجور: انظر الخابور .

هـ
الهند ٧ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ، ٢٣٣ .

فهرس الكلمات الفنية والأجنبية

(حيث جاء شرحها)

آ

- الآخ ١٨٢ .
- الآجي ٢٨٣ .
- أرضي ٧٥ .
- ارناؤوط ٢١٢ .
- أطوز ١٣٣ .
- إيالة ١١٨ .

ب

- بارودي ٢١٥ .
- بقكسمات ٥٢ .
- بورادية ٥٠ .
- بوغاط ٦٠ .
- بواق ٢٥٤ .
- بولردي ٧٣ .
- البيت ٦٩ ٧٤ .
- بيليك ٢٨٧ .

ت

- تسويد الناقة ٢١١ .

تفلك ١٠٨ .

التفكجي باشي ١١٧ .

تفكجية ٣٨ .

التمن ٢٧٩ .

التوتون ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ .

توخ ٢١٢ .

ج

جونددار ٧٣ ، ١١٨ .

جود ٤٦ .

الجول ٧٧ .

الشول انظر الجول .

ح

حصار ٧٢ .

الحضار ٣٩ ، ٤٧ .

حليب النوق ١١٤ .

خ

الخافور ١٧١ .

خطيب ٥١ ، ١٤٨ .

السنكري ٤١ .	الحنة ٧٧ ، ١٨٢ ، ٢٠٨ — ٢٠٩ .
ش	د
الشرع البدوي ٢٧٦ .	داكيش ١٢٦ ، ٢٨٠ .
ص	دالاتي ٨٠ ، ١١٠ ، ٢١٢ .
الصاج ١٥٧ .	دفن الحصى ٢٣ ، ١٨٩ .
الصر ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٩٢ .	دثبكية ١٢٤ .
صرماية ٣٣ .	ذ
ض	ذهب مَشَخَص ٢٦٠ .
طبَّان ٢١٣ .	ذمة (العرب) ٢٥٤ .
الضراط ٢٧٩ .	ر
ضبشمان ٧٩ .	رافضي ٢٤٢ .
الضيافة ٢٩٧ .	رد النقا ٧٩ ، ١٣٩ .
الضيف ١٠٣ .	روايا ١٤٦ .
ط	الروثة ٢٣٥ .
الطب البدوي ١٤٥ .	ريح السموم ٢٧٢ — ٢٧٣ .
طبراق ٧٧ ، ٢١٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ .	ز
الطرش ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٢ .	زيتون ١٩٢ .
الطلاق ٢٧٨ .	الزعرية ١١٥ .
ظ	الزواج ٢٧٧ .
ظعون ٧١ .	س
ظُهْرَة ١٢٩ ، ١٣٥ .	السيخة ٦٢ .
ع	السحر ٢٧٥ .
العرضة ١٠٩ .	السحرة ٢٥٧ .
العطفة ١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ .	سُرْسَاب ٢٠٠ .
	السرقه ٢٧٩ .
	سَمْسَرَة ٤٧ .

<p>م</p>	<p>علوفة ٧٨ ، ٢٨٨ .</p>
<p>المخضر ٤٧ . المرأة البدوية ٢٨١ . مراديف ١٠٨ ، ١٢٢ ، ١٩٧ . المسد ٧٧ . مصرية ١٢٧ . مضاعف ١٩٧ . مقايضة : انظر داكيش . المنام (تفسير) ٢٧٥ . منسف ١٤١ .</p>	<p>ف</p> <p>الفداوية ٧٨ . فروات غنيميات ٤٢ .</p>
<p>ن</p> <p>النخوة ١٠ ، ٢١٣ . النوق ٢٧٩ .</p>	<p>ق</p> <p>قالبوق ٧٤ . قافعة ٦٠ . قاوق ٨٠ . قايق ٢٨٥ . القدح ١٥٧ . قصبة ٣٦ . القصور ٩١ . قلايق ١١٠ . القُلُو ٦٢ . قناق ١٩٦ ، ٢٥١ . قَنْدَقُلْجِيَّة ٢٥٨ ، ٣١٠ . قومانية ٧٧ .</p>
<p>هـ</p> <p>هجين محساوي ١٤٤ . هودج ٧٢ . هواسرة ١٨٥ . هواره ٢١٢ .</p>	<p>ك</p>
<p>و .</p> <p>الوراثة ٢٧٨ . الوسم ٢٢٩ . الوقيع ١٥٧ . ولاية : انظر إيالة . الوهابية ٢٦٤ — ٢٦٨ .</p>	<p>ك</p> <p>كخيلان ١٠٤ . كساجور ٣٣ . الكلنك ٢٣٨ . كُنْدَكِي ٣٣ . كناة ٥٤ ، ١٤٥ . الكوفية ٤٣ ، ٤٤ . كبخيا ٧٤ ، ١٤٢ .</p>
<p>ي</p> <p>الجن ٢٧٤ ، ٢٧٥ .</p>	<p>ل</p> <p>لحم الجمل ٦٩ ، ١١٣ .</p>

فهرس الكتاب^(١)

الصفحة

٧	مقدمة المحقق
٢٨	الخرائط
٣١	صفقة تجارية خاسرة
٣٦	الابتداء بالرحيل
٤٩	أول لقاء مع البدو
٦٠	تدمير وضواحيها
٦٦	مع قبيلة الحسنة
٨٤	من دمشق إلى حوران
٩٣	من دمشق إلى الجزيرة
١٠٢	الصايغ عند الدريعي
١٠٥	الحرب بين الرولة والحسنة
١١٣	لاسكاريس في مخيم الدريعي
١٢١	ابتداء الحرب مع الوهابيين
١٢٨	الخطوة الأولى نحو الاتحاد
١٣٨	الدخول في الحلف

(١) تبويب الكتاب والعناوين من المحقق.

١٥١.....	من قصص البادية
١٥٥.....	مع عرب البصرة
١٦٠.....	عبد الله الخطيب في الأسر
١٦٥.....	ماوراء الخلف من أغراض سياسية
١٧٠.....	العودة إلى بر الشام
١٧٥.....	إنكلترا تبدي نواجزها
١٧٨.....	عبد الله يهتف باسم امرأة وينجو من الموت
١٨١.....	غارة وهابية على تدمر
١٨٤.....	ميلادي استانوب
١٨٨.....	الصلح بين الدرعي ومهنا الفاضل
١٩١.....	حفلة زواج في البادية
١٩٧.....	الدرعي يرد غزواً وهابياً
١٩٩.....	الاستراحة في حماة
٢٠٢.....	عبد الله بين الحياة والموت
٢٠٨.....	من حديث البادية : الخوة
٢١٠.....	الاستعداد للحرب
٢١٥.....	المعركة الكبرى
٢١٨.....	المبارزة
٢٢٠.....	انكسار الجيش العثماني
٢٢٢.....	انتصار الدرعي على الوهابيين
٢٢٤.....	الحلف الأكبر
٢٣٠.....	من حوادث البادية
٢٣٣.....	مع عرب العجم والهند
٢٤٠.....	كبير أمراء عرب العجم
٢٤٤.....	العودة إلى بر الشام
٢٤٦.....	رسالة من عبد الله بن سعود
٢٤٨.....	السفر إلى الدرعية

٢٥١.....	بين يدي ابن سعود
٢٥٨.....	وصف الدرعية
٢٦١.....	حديث مع ابن سعود
٢٦٤.....	أحوال ابن سعود والدعوة الوهابية
٢٧٢.....	ريح السموم
٢٧٤.....	تقاليد العرب وعاداتهم ومعتقداتهم
٢٨٣.....	نهاية الرحلة
٢٨٧.....	وفاة لاسكاريس والحجز على أوراقه

ملحق : رحلة الصايغ إلى الدرعية مترجمة من الفرنسية وتعليق الشيخ الحنبلي عليها	
٢٩٠.....	وملاحظاتنا

المراجع : اتينا على ذكر أهم المراجع في الهوامش فلم نرَ من حاجة إلى تكرارها .

الفهارس :

٣٢٥.....	فهرس الصور
٣٢٧.....	فهرس الأعلام
٣٣١.....	فهرس القبائل والأمم
٣٣٣.....	فهرس البلدان والمنازل والمياه
٣٣٧.....	فهرس الكلمات الفنية والأجنبية
٣٤١.....	فهرس الكتاب

يوسف شلحد في سطور

بقلم الأستاذ حمد الجاسر
صاحب (مجلة العرب) - الرياض

ذكرت وأنا أطلع في إحدى صحفنا وهي جريدة «البلاد» ع ٧٨١٦ تاريخ ١٢/٣/١٤٠٥ هـ (١٢/٤/١٩٨٤ م) خبراً نصه: أصدرت دار نشر (ميزونوف ولاروز) في باريس التي يديرها (جوزيف شيلهود) المتخصص في علم الاجتماع وعرقيات الشرق الأوسط والأستاذ بجامعة باريس ورئيس قسم الأبحاث في المركز القومي للبحث العلمي، مؤلفاً شاملاً مكوناً من عدة أجزاء حول اليمن، أو كما تطلق عليه الكتب الكلاسيكية اليمن السعيد باسم «عرب الجنوب تاريخ وحضارة».

تمنيث أنني أحسن اللغة الفرنسية لأعرف شيئاً عن هذا الكتاب، وما أدركت أنه قد أهدى إلي منه مجلدان بتاريخ ٢٧/٦/١٩٨٤ م - أي قبل نشر الخبر بما يقرب من ستة شهور.

وأن اسم مؤلفه الفاضل الذي ورد في الصحيفة (جوزيف شيلهود) هو من أصل قاتلي منذ سنين، وأن وقوع الخطأ في كتابة اسمه حال بيني وبين معرفته، وهذا ما يشكر منه الأستاذ نفسه حيث ذكر لي في أحد كتبه أن بعض المنشورات العربية تشوه اسمه تشويهاً قبيحاً ظناً منها أنه من المستشرقين.

وهو عربي منشأً وهوى وثقافة، فهو من أسرة سورية تدعى (شلحت) والكلمة سريانية معناها (رسول)، وقد ولد في مدينة حلب الشهباء في ١٢/٦/١٩١٩ م وتلقى دراسته في المدارس الخاصة التي أجاد فيها اللغة الفرنسية، ولكن أسرته كان لها تأثيراً في توجيهه لدراسة اللغة العربية دراسة عميقة، فقرأ كتاب سيبويه، قبل أن يكمل العقد الثاني من عمره ونال الجائزة الأولى في مسابقة شعرية أجرتها مجلة «الأمل» بين جميع طلاب سورية ولبنان وحاز شهادة (البكالوريا) في العلوم سنة ١٩٣٨ م ولكنه بسبب قيام الحرب العالمية الثانية لم يتمكن من متابعة دراسته العليا، فاشتغل في التعليم، ونشر عدداً من المقالات في مجلتي «الحديث» و«الضاد» وفي جريدة «برق الشمال» وكلها تصدر في مدينة حلب.

وفي سنة ١٩٤٦ م صدر له أول كتاب باللغة العربية بعنوان: «علم الاجتماع الديني».

وسافر بعد ذلك إلى فرنسا للدراسة، فنال شهادة (الليسانس) في العلوم الاجتماعية من جامعة السربون، ثم (دكتوراه الدولة) بدرجة شرف الممتازة من الجامعة نفسها سنة ١٩٥٢ م.

ثم عاد إلى سورية للعمل في الجامعة فلم يتيسر له ذلك، فعاد إلى فرنسا حيث عُيِّنَ باحثاً في (المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي) ثم مدير أبحاث في قسم العلوم الانتولوجية.

وقد قام بعدد من الرحلات إلى البلاد العربية للدراسة أوضاعها الاجتماعية موفداً من قبل المركز الفرنسي الذي أسند إليه شؤون البحث العلمي التعاوني عن اليمن وعن الجزيرة العربية مدة عشر سنوات .

وقام بتدريس العلوم الاجتماعية في معهد العلوم العليا، وفي جامعة السريون، وفي جامعة السريون الجديدة .

وقد اعتزل التعليم ليتفرغ للبحث والدراسة والكتابة .

وله أبحاث علمية عديدة نشرت في المجلات الفرنسية والألمانية والأمريكية وفي الموسوعة الإسلامية الدولية .

وقد قام بتحقيق كتاب « بغية المستفيد وذيله الفضل المزيّد » لابن الديبع ونشره المعهد اليمني للدراسات التاريخية، ونشرت له مجلة « العرب » أبحاثاً تاريخية .

بعض مؤلفات يوسف شُلُحْد

باللغة العربية :

علم الاجتماع الديني — حلب، ١٩٤٦ .

حقق كتاب « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد » وذيله « الفضل المزيّد » لابن الديبع، منشورات المركز اليمني للدراسات والبحوث، صنعاء، ١٩٨٣ .

باللغة الفرنسية :

حدود الموضوعية في علم الاجتماع .

المدخل لسوسيولوجيا الإسلام .

الذبايح عند العرب .

أسس الحرام عند العرب .

الحقوق في المجتمع البدوي .

اليمن تاريخاً وحضارة .

رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية / تحقيق
يوسف شلحد. — دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠. — ٣٤٨ ص؛ ٢٤ سم.

١ — ٩١٥ ص اي ر ٢ — العنوان ٣ — الصايغ ٤ — شلحد
مكتبة الأسد

رقم الإيداع — ١٩٩٠/١٠/٨٥٩

رقم الإصدار — ٥١٣

هذا الكتاب

شاب عربي سوري يدعى فتح الله الصايغ، ولد بحلب في حدود سنة ١٧٩٠م، قام برحلة نحو عام ١٨١٠ واستغرقت سبع سنوات، تجول خلالها في بادية الشام وصحاري العراق والعجم وتجاوزها إلى حدود إيران الشرقية، حيث قابل الأمير سعد البخاري، رئيس قبائل عرب الهند، ثم قطع الحماة وزار الدرعية عاصمة الوهابيين يومئذ. هذا الكتاب هو مذكرات هذا الشاب أثناء سياحته، فيتحدث عن بداية معرفته وعلاقته بتيودور لاسكارس، ثم يصف لنا وبدقة العادات والأعراف البدوية، وعن القبائل التي اتصل بها، وذكر أسماء شيوخها وعدد مقاتليها، وتكلم عن الوهابيين وحروبهم وغزواتهم. كما وصف لنا وبراعة عدداً من البلدان والقرى السورية مثل معرة النعمان، حماة، حمص، القريتين، صدد، الرستن، تدمر، وقصر الحير الغربي. وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن هذه المذكرات ترجمت إلى الفرنسية على يد الشاعر الرومانتيكي لأميرين والتي اشتراها عام ١٨٣٢ وصدرت عام ١٨٣٥.

